

المناشئ التاريخية

دراسة في التاريخ الأوروبي المعاصر

(١٩٣٩ - ١٩٤٥)

دكتور محمد فؤاد شكرتي

B. A. (Hons); M. A; Ph. D. (Liverpool)

أستاذ التاريخ الحديث المساعد
بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

الفهرس

صفحة	
١	تصدير :
٦	الفصل الأول : الرشح الثالث ...
١٥	الفصل الثاني : النظام الجديد ...
٣٤	الفصل الثالث : أوروبا « الحرة » ...
٦٠	الفصل الرابع : الدعاية الخفية ...
٨٨	الفصل الخامس : الصحف الممرية ...
١١٦	الفصل السادس : حكومة هتلر ...
١٤٦	الفصل السابع : ألمانيا النازية ...
١٩٦	الفصل الثامن : ألمانيا للأخرى « غير النازية » ...
٢٢٢	الفصل التاسع : السلام الدائم ...
٢٣٣	مصادر البحث :

فهرس الكتب :

- ١ — أوروبا عند بداية الحرب العالمية الثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٩
- ٢ — مغام ألمانيا في عهد النازية بين عامي ١٩٣٣ ، ١٩٣٩
- ٣ — أوروبا حوالى عام ١٠٠٠ ميلادية (كما رسمها النازيون)
- ٤ — تقسيم بولندا (١٩٣٩) .
- ٥ — اسكندنافيا وفنلندا ودول البلطيق (١٩٣٩ — ١٩٤٠)
- ٦ — هولندا وباجيكا
- ٧ — تقسيم تشيكوسلوفاكيا (١٩٣٨ — ١٩٣٩)
- ٨ — خريطة فرنسا في يونيو سنة ١٩٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قصص المير

هذه قصة سنوات لا أخال القارىء الكريم قد نسي شيئاً مما حدثه في ملياتها من مفاجآت وحوادث سببت للإنسانية الآما مبرحة وأدخلت على حياة الأمم تغييرات ظاهرة ما يزال الجنس البشرى يئن من آثارها ، وكان لنا نحن المصريين نصيب من هذه التجربة المؤلمة ، فمن منا لا يذكر ليالى الفارات الجوية الطويلة وحسكة ظلامها ، ومن منا لا يذكر الرعب الذى استولى على النفوس عند ما كاد العدو يطرق أبواب الاسكندرية أيام معركة العلمين الحاسمة ، ومن منا لم يسكن إلى نفسه عذبة يسألها المصور لو أنه قدر للنازيين وأحلافهم أن يغزوا وادى النيل بحماقهم ولو إلى زمن قصير ، ومن منا لم يتشوق لمعرفة شئ صحيح عن ذلك ، النظام الجديد الذى كانت تشيد بذكره أبواق الدعاية النازية من محطات إذاعتها وقتذاك فتحدثت عنه كأنما كان غاية ما ابتكره إنسان لسعادة إنسان ، وكأنما كان الغرض منه بناء عالم مثالى وثيق الأركان تكثر فيه الخيرات وتعيش فيه الشعوب بحرية غنية وتحيا حياة معاشنة رخية . لقد فاجأنا جميعا الحرب الهتلرية الحاسطة فى الأيام الأولى من شهر سبتمبر عام ١٩٣٩ فأذهلت هذه المفاجأة الكثيرين وإن كان هناك قلائل ممن كانوا يتوقعون قيام الحرب قبل نشوبها فعلا يوضع سنوات منذ وصل أدولف هتلر إلى منصب مستشارية الرايخ الألمانى فى شتاء عام ١٩٣٣ وزادت مخاوفهم عندما أحرق النازيون الرايخستاج فى آخر فبراير من العام نفسه . وشاءت المصادفات أن اكون بانجلترا فى صيف ذلك العام ، فألقيت نفسى وسط خضم من اللشرات والكتيب والمطبوعات والأحاديث والإذاعات ينقسم أصحابها فريقين أحدهما يحذر العالم مما سوف يتعرض له من أخطار وشروخ جسيمة من جراء وصول الهتلريين إلى الحكم والآخر يحاول أن يجد فى الاستجابة لرغبة الشعب الألمانى وسيلة مؤاتية تحول دون انتشار المذاهب الهدامة وتقيم من ألمانيا حاجزا منيعا يقف فى وجه البلشفية الروسية يمنعها من التخلغل فى أوروبا الوسطى والوصول إلى أوروبا الغربية كذلك ، على أنه كان مما استألفت نظرى فى لندن فى صيف ذلك العام أن الانسان اينما سار فى شوارعها أو جلس فى مطاعمها كان يقابل طائفة من الألمان

الهابسين من وجه النازية في بلادهم . وبدأ الحديث من ذلك الحين عن مشكلة اللاجئين ولما يمتنع على الهاربين في الحكم أربعة شهور .

وفي صيف عام ١٩٣٤ أصبحت لي الفرصة لمشاهدة بعض العواصم الأوروبية فوجدت عجبا : باريس لا تزال تتأرجح بين اليسار واليمين وتكاد تفتقر سها الفوضى على أثر ما اتضح من أن بعض الوزراء في حكومة الميسور (شولطان) Chautemps كانوا ضالعين مع المحتال الفرنسي (ساشا ستافينسكي) Sacha Stavisky في عملية إصدار سندات مالية مزيفة ، فانتحر ستافينسكي في فبراير ١٩٣٤ عند افتضاح أمره وكثرت الإشاعات بأن المسؤولين هم الذين رأوا التخلص منه بقتله فاستقال رئيس الحكومة ووقعت اتصالات دموية بين الشرطة والمتظاهرين الذين ثاروا ضد حكومة (دلاديه) Daladier الجديدة . وعندما زرت باريس في صيف ذلك العام كان الفاشيون الفرنسيون بزعامه (دي لاروك) de la Rocque يحملون بشدة على الجمهورية ، ويشيرون الاضطراب في كل مكان ، وكان دي لاروك يدعو لتأييد مبدأ « الزعامة المستولة » في فرنسا أي نفس المبدأ الذي كان يرتكز عليه النظام النازي في ألمانيا .

وفي روما كان موسوليني Mussolini قد بلغ ذروة مجده وحتم الفاشيست على كل زائر عاصمتهم من الأجانب وقتذاك أن يزوروا المعرض الفاشيستي الكبير حيث كانوا يعرضون « تاريخ الحركة الفاشية في صور وأشكال متنوعة يضعون في إبهاء المعرض عدة آثار تفسر ما حدث وقت ظهور الحركة الفاشية وزحف الفاشيين على رومه ، على أن أهم ما استلفت نظري في ذلك الوقت أمران : أولهما أن وزارة الخارجية الإيطالية ما كانت تأذن في تلك الأيام لأحد من الباحثين الذين يدرسون التاريخ بالاطلاع على الوثائق الخاصة بالدبلوماسية الإيطالية في القرن التاسع عشر ، تخالفت بهذا العمل ما درجت عليه الحكومات الأوروبية الأخرى ، وقد اتضح فيما بعد أن إيطاليا كانت تعتمد العدة للاعتداء على الحبشة واعتبرت لذلك الوثائق التاريخية القديمة من أسرار الدولة التي يجب أن يمنع الباحثون من معرفة شيء عنها ، وأما الأمر الثاني فهو أنه على الرغم من صلابه بفيان الدولة الفاشيستي الظاهري وما كانت تديعه الدعاية الإيطالية من أن الديوتشي والشعب الإيطالي كانوا يدا واحدة وكتلة متماسكة فقد قابلت أفرادا عديدين ينتمون على حكومة موسوليني ويضمرون لها العداء ولا يحملون الشارة الفاشية إلا مرغمين لأنه بدون هذه الشارة التي تدل على أنهم قيديوا أمتهم في نقابات العمل المتعددة كانوا معرضين للاحتجاز بدوائر الشرطة أو السجن إذا قوى الاشتباه في أمرهم .

وفي فرنسا كان الحرس الأهلي (Heimwehr) الذي امتدت إليه حكومة (دلفوس) Dollfuss قد قام بحركة واسعة لإبادة الاشتراكيين والديمقراطيين في النمسا فاستمرت الحركة

في قسنا أربعة أيام (١٢ - ١٦ فبراير ١٩٣٤) وكانت انتصارات الحكومة (والهايمشهر) كبيرة ، وظن دلفوس أن الأمر قد استتب له ونال مؤازرة إيطاليا النازية ؛ ولكن دلفوس كان قد أخرج على ما يبدو من حسابه قوة أخرى جديدة بدأت تنمو ويقوى شأنها في النمسا منذ وطد ألهر هتلر دعائم الحكم النازي في ألمانيا . وسمع السكاتب عديدين من النمساويين يتحدثون عن تأييدهم للنازية وتماليمها ويتوقفون للانضمام إلى ألمانيا الكبرى وتحقيق (الانشاوس) Anschluss ويضمرون لليهود عداوة عظيمة . ومع أن هؤلاء كانوا ينظرون إلى إخماد حركة الاشتراكيين الديمقراطيين كعمل مجيد فإنهم ما كانوا يرضون عن دلفوس واعتماده على موسوليني وإيطاليا ويريدون إبعاده من الحكم . وعندما لقي السكاتبين روم Roehm وغيره من رؤساء كتائب المتحوم (S. A) حتفهم في ألمانيا في آخر يونيو ١٩٣٤ في حركة التطهير الواسعة للتخلص من العناصر التي اتهمت بالاعتدال زادت حماسة أنصار النازية في النمسا ، واكتسفت حكومة دلفوس الصعوبات من كل جانب وفي ٢٥ يولييه اغتال النازيون وصنائعهم دلفوس وهو بدار المستشارة . فعبا موسوليني جيشه على الحدود حتى يمنع تدخل ألمانيا الهتلرية في شئون النمسا؛ أما ما حدث بعد ذلك من ازدياد بطش النازيين وسطوتهم في أوروبا فإن القارئ الكريم سوف يجد ذلك مبسوطا في فصول الكتاب ؛ ويكفي أن أذكر الآن ما كان لهذه الحوادث الجسام من أثر حملي على التفكير في أمر النازية ومعرفة شيء عن أصولها . وقد أتيحت لي في صيف عام ١٩٣٧ الفرصة مرة أخرى لزيارة إنجلترا وفرنسا : فوجدت باريس مشغولة بمعرضها الدولي العظيم ؛ أما لندن فكان الحديث فيها يدور حول ما عرف وقتذاك باسم سياسة « التهدئة والتسكين » ؛ ومعناها من الوجهة العملية التسليم بكل ما كان يريده النازيون من توسع على حساب الدول المجاورة وعدم إزعاجهم في شيء حتى لا تتأزم الأمور فتساق الدول الغربية مرغمة إلى الدخول في حرب كان لا يرغب فيها أحد من أبناء فرنسا أو إنجلترا؛ ووجد أنصار التهدئة والتسكين مسوغا لسياستهم من تلك الوعود التي كان لا يخل بها ألهر هتلر عقب كل حادث من حوادث اعتداءاته المتكررة على الحقوق والالتزامات التي أقرتها وأوجدتها الاتفاقات الدولية . فكان من نتائج هذه السياسة عقد اتفاق ميونيخ Munich المشهور في ٢٩ سبتمبر ١٩٣٨ لاقطاع السوديت من تشيكوسلوفاكيا وضمها إلى ألمانيا النازية ؛ واعتقد رئيس الوزارة الانجليزية وقتذاك المستر نيفيل تشمبرلين Neville Chamberlain أنه نجح في المحافظة على السلم في العالم لأنه عاد إلى بلاده يحمل في حقيقته تصريحنا مشتركا وقعه ألهر هتلر وألقى بمقتضاه الحرب كوسيلة لنقض ما قد يحدث من خلاف أو نزاع بين إنجلترا وألمانيا في المستقبل . ولكن هتلر جريا على عادته مالبث حتى نبذ وعوده ظهريا واغتصب البقية الباقية

من تشكولوفاكيا في مارس ١٩٣٩ . وكان إقدامه على هذه الخطوة مثيراً لبداية تحول الدول الغربية من سياسة التهدئة والتسكين إلى خطة مقاومة القوة بثبات ، ومن ذلك الحين لم ينسحب عن متبعي تطور الحوادث في أوروبا أن الحرب لابد واقعة . وظلت حنفية يسيرة من أنصار الهدنة يبدلون كل جهد لتثنيب العالم وبلات الحرب المدمرة وحاول رجال المسال في لندن وغيرهما استمالة النازيين إلى السلم بأن صاروا يعرضون على ألمانيا قرضاً مالية عظيمة ريعون بفتح الأوراق لتجارها ولكن جهودهم باءت بالفشل ، وفي سبتمبر ١٩٣٩ أعلنت إنجلترا الحرب على ألمانيا وتبعها سائر حلفائها وذلك عقب إغارة الألمان على بولندا ، ثم أحرز النازيون انتصارات باهرة وافتتحو معظم بلدان أوروبا الوسطى والغربية وأتاح لهم محور برلين — رومانيا السيطرة على إيطاليا وإسبانيا وخشيت كل من السويد وتركيا بأنهم وبقيت إنجلترا وروسيا وحدهما تحملان في أوروبا عبء النضال ضد ألمانيا ، وبعد أن بسط النازيون سلطانهم على أوروبا بدأت دعايتهم تتحدث عن النظام الجديد ، وعن إنشاء عالم مثالي لا في أوروبا وحدها بل وفي سائر القارات التي كان يطمح النازيون في امتلاكها تحقيقاً لأهدافهم في بسط السيطرة الجرمانية على العالم أجمع .

وفي أثناء ذلك كله عظم الاهتمام بمسألة شيء مما كان يجري من حوادث خلف تلك الجدران العالية التي شيدوها النازيون حول قلوبهم الأوروبية والتي ظنوا أن أحداً لن ينجح بها ثمة ينفذ منها لشيء ينافي ما كان يفعله النازيون عند تطبيق هذا النظام الجديد الذي بشرت به دعايتهم وكانت قد أتاحت لي الفرصة قبل ذلك فدرست شيئاً عن النازية وأسايبها في السنوات القليلة التي سبقت نشوب الحرب المتتالية ووجدت في نفسي ميلاً إلى مواصلة هذه الدراسة لا سيما عند ما بدأ (روميل) زحفه في الصحراء صوب الإسكندرية . وحدث في غضون ذلك أن تدبني وزارة المعارف في أغسطس ١٩٤١ مفتتحاً بالتعليم الثانوي فوجدت لدى في أثناء السفر الطويل من بلد إلى آخر متسعاً من الوقت قرأت فيه ما وقعت عليه يداي من مؤلفات ومطبوعات تتناول تاريخ الأمة الألمانية والحركة النازية والسياسة الأوروبية في السنوات التي سبقت قيام الحرب المتتالية . ووصلت من دراسقي هذه إلى نتيجةتين أولاهما أن هذا النظام الجديد الذي روج له النازيون إنما هو شر نظام انتجته قريحة إنسان ، وثانيتهما أن تطبيق هذا النظام في أوروبا سوف يكون الأداة التي يدم بها النازيون أنفسهم تلك القلعة التي خيل إليهم أنهم قد أحكوا تأسيس بلانها ، ثم وجدت من واجبي أن أبسط شيئاً مما وصلت إليه من نتائج فشجعتني على إلقاء بحث في هذا الموضوع جميع إخواني من أساتذة مدرسة الرقازيق الثانوية الكرام وعلى رأسهم حضرة المربي النابه الاستاذ الكبير السيد هاشم عوض ناظرها

وبقائك . وفي مساء ١٠ مايو ١٩٤٣ أُلقيت بالقاعة اليونانية بالقازيق محاضرة موضوعها (النازي والنظام الجديد في أوروبا) ، وقد شجعني ما لقيته من اهتمام حضرات الأفاضل الذين تذكرموا بالاستماع إلى هذه المحاضرة على المضي في دراستي منذ ذلك الحين إلى وقت زوال الهتلرية . والآن أقدم إلى القارئ الكريم قصة انهيار ألمانيا السريع وهي قصة مريعة حقاً ، راجعاً أن أكون قد وفقت في إبراز صورة واضحة لذلك النظام الذي أرادت ألمانيا الهتلرية أن تفرضه على أوروبا فأثارت مقارمة الشعوب ضدها وكان تطبيقه السبب الذي أدى إلى انهيارها في النهاية .

على أن هذا البحث ما كان يمكن أن يتم في صورته الحاضرة عن غير تلك المعاونة الصادقة التي تفضل على بها حضرات الأخوان السكرام الاساتذة المحترمين عبد المقصود العناني المدرس الأول للمواد الاجتماعية بمدرسة العلمية الثانوية وسيد محمد خليل المدرس بالقبة الثانوية والاستاذ فؤاد بطرس زكي ليسانسيه في التاريخ من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وعبدالرحمن محمود عبد التواب مفتش الآثار العربية فلهذا أخصهم جميعاً بخالص شكرى وتقديرى .

وكفور

محمد فؤاد شكرى

القاهرة : ديسمبر سنة ١٩٤٧

الفصل الأول

الريخ الثالث

في شهر نوفمبر من عام ١٩١٨ سرت روح التمرد والعصيان في صفوف الجيش والبحرية الألمانية واندلع طيب الثورة في (كييل) و (هامبورج) و عدة مدن أخرى ففي برلين خرجت الجماهير الصاخبة إلى الشوارع تطالب بالصلح والحرية والخبز الخ . وفي ٨ نوفمبر أعلن قادة هذه الثورة من الاشتراكيين الديمقراطيون أن آل هوهنزولرن قد نزلوا عن عرش أجدادهم ، ثم نادوا بقيام الجمهورية ، وأرغم القيصر ولهم الثاني على ترك العرش ، وأعلن الاشتراكيون الديمقراطيون الجمهورية . ومع ذلك ظلت المظاهرات على شدتها ووقعت الاتهامات العنيفة في طول البلاد وعرضها ، وخصوصا بين الاشتراكيين والشيوعيين . ووسط هذه الثورات والاضطرابات تغير وجه التاريخ في ألمانيا . فقد انعقدت الجمعية الوطنية لوضع دستور (ويمار) ، ووقع الوفد الألماني في (فرساي) على شروط الصلح — في ٢٨ يونيو ١٩١٩ — وفي أغسطس من السنة نفسها بدأت قانونا حياة (الريخ الثاني) أو (جمهورية فرساي) — على حد قول الهرتزل — وهي جمهورية ويمار المعروفة .

ومع أن تاريخ هذه الجمهورية يشتمل على العوامل التي مهدت بشق الطرق لقيام السيطرة النازية في ألمانيا ، فيكفي أن نشير الآن إلى كثرة ظهور الأحزاب السياسية التي تألفت في حياة هذه الجمهورية . وكانت هذه الأحزاب جميعها ترغب في إعادة الطمأنينة إلى البلاد ، وتنشد الاستقرار الداخلي وتريد غسل العار الذي لحق بألمانيا المهضومة في معاهدات فرساي ، وتعمل على رد اعتبارها بين مجموعة الدول الأوروبية الكبيرة . وكان من بين هذه الجماعات السياسية حزب العمال الألمان لمؤسسة (أنتون دركسلر) Anton Drexler وهو من العمال المتعطلين . وكان عدد أعضاء هذا الحزب عند إنشائه في عام ١٩١٩ ستة مائة وأثنى عشر . صاروا سبعة عندما انضم إليهم في العام نفسه (أدولف هتلر) . ومن ذلك الحين بدأت هذه الجماعة صاعدة جديدة من حياتها . فأخذ الحزب ينمو ، واتسعت دائرة نشاطه ، وأطلق عليه هتلر اسم « حزب العمال الألمان الوطني الاشتراكي » .

وبحسب أنه لا ينبغي في هذا الفصل مجرد تاريخ هذا الحزب ، فمن الواجب أن نشير إلى حقيقة واحدة : هي أنه ظل ينمو ويقوى ساعده في الوقت الذي ساءت فيه أحوال ألمانيا

الاقتصادية ، سواء أكان ذلك من أثر التضخم المالي الذي قضى على الطبقة المتوسطة ، أم من أثر الأزمة العالمية الاقتصادية المعروفة في الثلاثينات الماضية ، وهي الأزمة التي علوحت بملايين العمال إلى خارج المصانع ، ونشرت البطالة في كل بلد ودولة ، فقد أعطت هذه الظروف جماعة هتلر النازيين الفرصة لرد أسباب ذلك الاضطراب الكبير إلى قسوة مساهمات الصلح في قرساي ، وإلى جشع اليهود ، وإلى خيانة الشيوعيين وأعداء الوطن الداخليين الذين تمعدوا إشعال الثورة فطمعوا بجيش القيصرية في ظهره ، ومكثوا خلفاء الحرب العالمية الماضية من الانتصار على المانيا وإذلالها . كما جعلت هذه الظروف من السهل على الحزب النازي أن يسرف في بذل الوعود يوزعها ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يستميل إلى صفوفه جماعة العسكريين الناقين بسبب الهزيمة وكبار رجال المال الخائنين لضماع أرباح صناعة الحرب ، والسياسيين المحترفين من رجال العهد البائد التواقين إلى استئناف نشاطهم السياسي ، وأفراد الطبقة المتوسطة (البورجوازي) الذين هدر الإملاق كرامتهم : والعمال المتعطلين الذين تذوقوا مر العيش وشظفه ، وغير هؤلاء من الطوائف والجماعات التي حنت إلى يد الزعيم القوي تسيطر من جديد على تنظيم حياتها ونشاطها ، وتتكفل بمسئولية تصريف شئونها حتى تصل بها إلى بر السلامة دون أن تحملها مشقة التفكير في تدبير شيء من ذلك : شأن الألمان في كل زمان ومكان .

وفي هذه الظروف الشاذة ، كبر حزب النازي وترعرع . فقد نشرت الصحيفة الألمانية (فواكشير بونجر) في عدد خاص صدر في ٢٣ مارس ١٩٣٢ إحصائية بعدد أعضاء هذا الحزب منذ تأسيسه إلى قبيل وصول أدولف هتلر إلى مستشارية الرايخ الألماني بتبين منها أن الأعضاء الذين كانوا سبعة في عام ١٩١٩ ومنهم هتلر نفسه ، قد بلغوا ٣,٠٠٠ في ١٩٢٠ و ٢٧,٠٠٠ في ١٩٢٥ و ٤٩,٠٠٠ في ١٩٢٦ و ٧٢,٠٠٠ في ١٩٢٧ و ١٠٨,٠٠٠ في ١٩٢٨ و ١٧٨,٠٠٠ في ١٩٢٩ و ٢٨٩,٠٠٠ في ١٩٣٠ و ٨٦٢,٠٠٠ في ديسمبر ١٩٣٢ و ٩٣٠,٠٠٠ في يناير ١٩٣٢ :

وهذه الإحصائية إنما تهدف من وراء إثباتها إلى توضيح حقيقتين : الأولى ، إزدياد عدد أعضاء الحزب في سنوات الأزمة الاقتصادية ؛ والثانية ، أن عدد الأعضاء بالقياس إلى مجموع الأمة الألمانية كان في الواقع صغيراً ضئيلاً ، ولا يدل بأي حال من الأحوال على أن الحزب النازي كان مرآة الرأي العام الصحيح في المانيا . بل إن هذه الحقيقة الأخيرة لا تلبث أن ترداد وضوحاً إذا انتقلنا إلى الشهور التالية عندما اشترك النازيون في الانتخاب لمجلس الريخستاغ في ٦ نوفمبر ١٩٣٢ . فقد نالوا وقتذاك ١١,٧٠٥,٢٥٦ صوتاً من ٣٦,١٣٨,٨٩٢ أي

بنسبة ٢٢٪ تقريباً . ومع أن زعيمهم بلخ منصب المستشارية في ٣٠ يناير ١٩٣٣ بفضل مناورات سياسية وحزبية سوف يأتي ذكرها ، ومع أن النازيين سيطروا على أداة الانتخاب وأحكموا التدبير والتنظيم ، واستطاعوا إثارة الرعب في قلوب الشعب الألماني من خطر البلشفية عقب حريق الرايخستاغ الذي في ٢٧ فبراير من العام نفسه ، فقد نالوا في الانتخابات التالية في ٥ مارس ١٩٣٣ نحو ١٥,٨٧٤,٩٧٣ صوتاً أي بنسبة ٤٣,٩٪ . فلم يكن للنازيين حتى في أوج عظمتهم الأغلبية التي تمكنهم من الانفراد بالحكم في ألمانيا ، والإدعاء بأنهم يمثلون الشعب الألماني حقيقة .

ومع ذلك استطاع النازيون أن يفرضوا سيطرتهم التامة على بلادهم وبذلك استطاعوا أن يصلوا إلى فرض هذه السيطرة على الشطر الأكبر من القارة الأوروبية ، ثم باتوا يطمحون أخيراً في التمتع بالسيطرة على بقية أنحاء العالم . ولم يكف هتلر بتسلم زمام الحكم حتى أخذ يعمل جاهداً على تنفيذ برنامج الضخم بعد أن أصبح صاحب الحول والطول في ألمانيا .

فمن أقواله المأثورة : « إن الرايخ الأول هو دولة بسمارك ، والرايخ الثاني هو جمهورية فرساى ، والرايخ الثالث هو دولتى » . أى أن الرايخ الثالث يبدأ من اليوم الذى عُنِي فيه أدولف هتلر مستشاراً للرايخ الألماني في ٣٠ يناير ١٩٣٣ . وقد ظلت دولة أدولف هتلر قائمة إلى أن زالت من الوجود بسبب تحالف الديمقراطيات ضدها وتحطم ذلك النظام الجديد ، الذى شامت أن يفرضه فرضاً على شعوب أوروبا .

ومنذ قيام الرايخ الثالث مرت سياسة ألمانيا الخارجية في مرحلتين : تميزت الأولى منهما ، بمحاولة تمزيق معاهدات فرساى بشتى الوسائل تحت ستار العمل على امتداد مكانة ألمانيا كدولة عظيمة بين الدول الأوروبية ، أما المرحلة الثانية فقد تميزت بانتصار ألمانيا في هذه المفاوضات التهديدية وإقدام الرايخ على تلك المغامرة الجريئة التى قصد منها بسط السيطرة الجرمانية على أوروبا إما بالوسائل السامية وإما بخوض غمار الحروب .

لذلك لم تكف تنقضى شهور معدودات على وصول هتلر إلى منصب المستشارية حتى أقدمت ألمانيا في أكتوبر ١٩٣٣ على الانسحاب من مؤتمر تخفيض السلاح . والخروج من عصبة الأمم ، ثم أخذت من ذلك الحين تسليح علانية وفي غير توان . بينما وقفت الدول الغربية مكتوفة الأيدي حتى لقد رفضت فرنسا ما تقدمت به بولندا من عروض للقضاء على النازية وهى ما تزال فى مهدها . وعلى ذلك فقد نشدت بولندا السلامة فى توقيع ميثاق عدم اعتداء مع ألمانيا في ٢٦ يناير ١٩٣٤ ، كان من أثره أن استطاع الرايخ تأييد جماعة النازيين فى دانتزج

الحررة أرضا ومدينة وفي ٣٠ يونيو من العام نفسه قضى الهتلريون في ألمانيا ذاتها على المعتدلين من أعضاء الحزب الوطنى الاشتراكى فى حركة التطهير الواسعة التى كان من نتيجاتها الكابتن (روم) وزملاؤه الذين أخذوا على النازية تطرفها . وفى الشهر التالى دبر النازيون قتل مستشار النمسا (دولفوس) على الرغم من الصداقة القائمة بين هذا المستشار وزعيم إيطاليا الفاشية وقتذاك بل إن قتله كان بسبب هذه الصداقة ذاتها ولم يسفر ضجيج موسوليني ورغأؤه عن شيء . ثم أحرزت ألمانيا الهتلرية نصرا جديدا عندما أوقف رئيس الوزارة الفرنسية (لافال) كل مساعدة للجماعات المعارضة النازية فى إقليم السار وذلك عندما اتخذت العدة للبت فى مصير هذا الإقليم بالتصويت العام ، فحصل النازيون فى ١٧ يناير ١٩٣٥ على أكتية ساحقة مكنتهم فى شهر مارس من إدماج السار فى ألمانيا . وفى هذا الشهر نفسه أعلن أدولف هتلر أن ألمانيا ترفض المواد العسكرية الخاصة بعدم تسليحها فى معاهدات صلح فيرساي ، فأدخل التجنيد الإجبارى فى البلاد ثم مزقت إنجلترا وألمانيا من مواد هذه المعاهدات ما يتعلق بالتسليح البحرى ، ووصلتا إلى اتفاق جديد أجاز لألمانيا إنشاء أسطول بحرية ٣٥ ٪ من قوة الأسطول البريطانى ثم بناء أسطول من الغواصات مساو لأسطول الغواصات البريطانى . وظننت إنجلترا — وعلى رأسها حكومة رمزى مكندونالد فى ذلك الحين — إنها إذا أقامت جهة متحدة من إيطاليا وفرنسا إلى جانبها لمراقبة ألمانيا النازية فأنها تستطيع ضمان السلم فانشأت جهة ستريز Stresal ولكن هذه الجهة كان مقصيا عليها بالفشل منذ تأليفها . لأن موسوليني عندما انضم إليها كان يرجو فى نظير ذلك أن تطلق يده فى أرض الحبشة . لذلك لم يطل عمر جهة (ستريزا) أكثر من أسبوعين وغزت إيطاليا بلاد الحبشة . ولما ترددت الدول فى توقيع « العقوبات » على إيطاليا على نحو جدى ووجد هتلر أن إيطاليا الفاشية بعد أن أصبحت من وقت اعتمادها على الحبشة وانفصام عرى الصداقة بينها وبين الدول الغربية وخصوصا بريطانيا قد صارت مرتبة فى أحضان ألمانيا ، أقدم الزعيم الألمانى على تخطيط اتفاقات لوكارنو Locarno وأرسل جنده فى مارس ١٩٣٦ لاحتلال منطقة الراين (وهى منطقة تقرر أن ينزع سلاحها منذ ١٩١٩) وأفاد هتلر من هذه المغامرة عندما فشلت الدول الغربية وبخاصة (فرنسا وإنجلترا) فى الاتفاق على عمل مشترك فيما بينهما للمحافظة على اتفاق لوكارنو وتعزيره . ثم لم تلبث أن رفعت « العقوبات » عن إيطاليا فى صيف العام نفسه . وكان معنى هذا انهيار عصبة الأمم فكان من أثر ذلك أن جرؤ (أرثر جريزر) Griesser رئيس مجلس شيوخ مدينة دانتزج الحررة ومن كبار النازيين على امتياز العصبة مرة بعد أخرى . وعلاوة على ذلك أفاد هتلر من حاجة إيطاليا إلى صداقته ، فتنهضت الدولتان (ألمانيا وإيطاليا) على النمسا للحصول من هذه الدولة الضعيفة على عدة امتيازات

في مصلحة ألمانيا في حبيب العام نفسه . وفي هذا الوقت أيضا شجع الحليفان الجديدان الثورة المدلعة في أسبانيا ضد حكومتها الجمهورية (١٩٣٦) ، فأخذنا من ذلك الحين يؤيدان علنا الجنرال (فرانكو) Franco وأنصاره الفاشيين ، برسالة اعتماد الحرب والرجال لمساعدة الثوار ، ولم تستطع بريطانيا بسبب تردد فرنسا أن تفعل شيئا سوى إرقام هذه الدولة الأخيرة على اتخاذ موقف « الحياد » ، والموافقة على اتباع سياسة « عدم التدخل » في شؤون أسبانيا ، أما روسيا السوفيتية فقد ظلت وحدها تمد الجمهورية الأسبانية بالمعونة . وسيمال هذا الضعيف الظاهر من جانب الدول الغربية ، رأيت بلجيكا في أغسطس ١٩٣٦ أن السلامة في اتباع خطة « الحياد » ، فانفصلت عن الدول الغربية وأدى انفصالها إلى تقصير خط الدفاع عن حدود فرنسا الشرقية ، ومنذ أكتوبر اتفقت كل من إيطاليا وألمانيا في (برختسجادن) على اتباع سياسة مشتركة عمومية . وعندما منعت بريطانيا الحكومة الأسبانية من إثارة مسألة التدخل الإيطالي الألماني في أسبانيا أمام عصبة الأمم سخرت الهزلة على تمزيق البقية الباقية من مواد معاهدات فرساي ؛ حتى إذا ما حذر (بلوم) رئيس الوزارة الفرنسية الألمان من المساس بمراكز الأسبانية أعلن الألمان والإيطاليون في يناير ١٩٣٧ أن ألمانيا وإيطاليا سوف تتبعان من هذا الحين سياسة مشتركة على أساس ما تقتضيه مصالح « محور برلين - روما » الذي خرج إلى عالم الوجود في (برختسجادن) ؛ فكان معنى هذا قيام محالفة ألمانية إيطالية صريحة ضد الديمقراطية ثم الشيوعية في أوروبا وفي العالم أجمع . وبذلك تبدأ المرحلة الثانية من مراحل سياسة النازيين الخارجية .

ونمايز هذه المرحلة وقوع عدة حوادث جسام أدت في النهاية إلى اشتعال نيران الحرب العالمية الثانية . فقد ظل الألمان والإيطاليون في الشهور التالية بين يناير ويولية ١٩٣٧ ، وعلى الرغم من الوعود الشفوية المتكررة التي أصدروها لتقرير رغبتهم في التزام خطة « عدم التدخل » يعملون لتأييد الثوار الفاشيين في أسبانيا بكل وسيلة حتى ظهر في أوائل العام التالي أن النصر في النهاية سوف يكون من نصيب (فرانكو) وجماعته وأن الهزيمة السياسية ولا شك سوف تكون من نصيب تلك الدول الديمقراطية التي التزمت سياسة « عدم التدخل » . وعلاوة على ذلك أفاد النازيون من توتر الموقف السياسي في أوروبا كل فائدة . فأقدم هتلر على غزو النمسا . ثم ضمها إلى ألمانيا عنوة واقتدارا (في ١١ مارس ١٩٣٨) ؛ وحول النازيون أنظارهم بعد ذلك صوب جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، فأفسر اتفاق ميونخ (في ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨) بين بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا عن سلخ يلاذ السوديت وضمها إلى ألمانيا . ومع أن هتلر كان قد أكد للستر تشمبرلين أن السوديت آخر ما يطمح

فيه من الأراضي الأوروبية ، فإنه مالم يثق حتى نقض عهده في مارس من العام التالي وضم مقاطعتي بوميريا وموراڤيا التشيكية في حكومة واحدة تحت الحماية الألمانية واحتل ساوفاكيا ، وفي ٢٢ مارس طلبت ألمانيا أرض (ميميل) من (ليتوانيا) واستولت عليها ؛ وفي أول سبتمبر اعتدت ألمانيا على بولندا ، ثم قرر هتلر يوم الاعتداء عليها أن يضم مدينة داننبرج الحرة إلى الرايخ الثالث .

وكان الاعتداء على بولندا الشرارة التي أشعلت نار الحرب العالمية الثانية ؛ ومع ذلك كفلت وحشية الغزو الألماني إخضاع بولندا في وقت قصير لاسيما وقد اضطرت الجيوش الروسية إلى اختراق حدود بولندا الشرقية حتى إذا كان آخر سبتمبر اقتسمت ألمانيا والروسيا البلاد البولندية فيما بينهما ، ثم استطاعت ألمانيا التفرغ للجهة الغربية فاكتملت جحافلها في ربيع ١٩٤٠ خمس دول مستقلة فاحتلت الدانمرك في أبريل ، واخضعت النرويج بين ٩ أبريل و ١٠ يونيه ، وغزت في ١٠ مايو تلك الدول التي ظلت محايدة وهي بلجيكا وهولندا ولكسمبرج ؛ وبعد تسليم الملك ليوبولد البلجيكي حطم النازيون مقاومة الحلفاء فسقطت باريس في أيديهم في ١٤ يونيه ثم احتلوا شطراً كبيراً من فرنسا بما في ذلك شواطئها الشمالية والغربية بمقتضى هدنة عقدت مع فرنسا في ٢٢ يونيه ، وفي أغسطس ١٩٤٠ بدأت معركة بريطانيا . وفي سبتمبر تدفق الألمان على رومانيا بموافقة حكومتها . وفي ١٩ نوفمبر اجتمع الملك البلغاري بوريس بالهر هتلر في برختسجادن ، فكان النظام الجديد ، موضع الأحاديث التي دارت بينهما ؛ وأسفر هذا الاجتماع عن تدفق جيوش النازيين على بلغاريا في فبراير ١٩٤١ ، حتى إذا كان يوم ٢ مارس من العام نفسه ، أعلن (فيلوف) Filoff رئيس الوزارة البلغارية أن الحكومة الألمانية طلبت إرسال جنودها إلى بلغاريا متعمدة في الوقت نفسه بأن مهمة هؤلاء الجنود وقائية ، وأن الغرض من إرسالهم المحافظة على السلم في البلقان . بتأييد أنه لم يلبث أن اتضح في الشهر التالي أن « السلم » المقصود إنما كان اتخاذ بلغاريا قاعدة للهجوم منها على يوغسلافيا واليونان ؛ وقد احتل النازيون هذه البلاد مع شركائهم الإيطاليين في أوائل أبريل ؛ وفي مايو احتل الألمان جزيرة كريت ؛ وفي يونيه ١٩٤١ بدأ الغزو الألماني لروسيا .

تلك إذن كانت الحرب الحاططة . وفيها انتصر الألمان على طول الخط كما شهدنا حتى نهاية عام ١٩٤١ . ولكن هذه الانتصارات كانت عملية القيمة في الواقع إذ كان الألمان قد خسروا معركة بريطانيا ، وكان في استطاعة الإنجليز أن يحشدوا أكبر قواتهم الإمبراطورية ، أو يضموا

إلى حشدهم الديمقراطية الأمريكية الكبرى ، الولايات المتحدة ، ثم غيرها من الشعوب الحرة في الشرق والغرب . المنازلة عدهم في معركة حاسمة .

ومن جهة أخرى صادف الألمان منذ البداية عدة صعوبات سببتها هذه الحرب الحاطقة أهمها ، أن كثيرا من مراكز الإنتاج الصناعي والزراعي مالمبث أن دمر أو تعطل بفعل الحرب ، كما أن أسرات عديدة سرعان ما صارت تشر أمام محافل النازيين الواضحة على بلادها ، يطلب أفرادها مكانا أميناً يلجأون إليه من شبح الموت الذي يطاردهم ؛ وكان من هؤلاء الحيارى الفارين كثير من الزراع والصناع الذين هم دعامة الإنتاج الاقتصادي في أوطانهم ؛ وهذا فقد فتسل عديدون من زعماء الصناعة في البلاد المهتدة بالنزور والاحتلال مغادرة منشآتهم الصناعية والمهجرة إلى الدول المحايدة أو المتحالفة ضد ألمانيا ؛ فنجح من ذلك كله أن حل الارتباك محل الجهد « المنظم » ، وتوقف الإنتاج أو كاد في البلدان المخربة المهزوبة . فإذا يصنع النازيون لتدارك هذه الحال ؟

كان لابد من إصلاح أداة الإنتاج الاقتصادي بأي ثمن لأمر واضححة بطلية ؛ فالجرب ما تزال مستعرة الأوار والتعبئة الكاملة تقتضي الانتفاع بكافة الموارد لمواصلة القتال . ناهيك بالرغبة في إحراز النصر ضد بريطانيا ، ولا يتسنى كل ذلك بغير استقرار تلك الشعوب المغلوبة على أمرها واستكانتها إلى العمل المنتج في الحقل والمصنع . ولكن كيف يطمئن المغلوبون إلى التعاون مع الغالبين إذا كان مجرد العيش في ذلة هو ما ينبغي عليهم أن يطمعوا فيه ؟ لابد إذن من تخدير أعصابهم ؛ ولابد إذن من التويه عليهم . وكان الحيارى الذين أصابتهم الهزيمة ونزلت بهم السكوارث أشد الناس إقبالا على تصديق كل قول موه وتعليل النفس بقرب انقشاع الغمة ؛ وعرف شيطان النازي هذا الضيف في الشعوب المقهورة فراححت الدعاية تدق الطبول وتنفيخ في الأبواق مبشرة بأن شمس (النظام الجديد) سوف تبهذ تلك الخلوكة المخيمة على الدول التي خضعت لسلطانهم .

وما كان النازيون يقصدون من تخدير أعصاب المغلوبين استئناف النشاط الاقتصادي وتوفير أسباب التعبئة الكاملة فحسب ؛ بل أن كسب الوقت كان من أهم أهدافهم ، حتى تتوطد دعائم ذلك النظام ، وحتى تمر فترة من الزمن تكفي لتغلغله في كيان أوروبا الاقتصادية والسياسية . لأن هذا التغلغل من شأنه أن يرغم الشعوب المغلوبة على تعود هذا النوع الجديد من الحياة ، فيكفل مرور الزمن ورسوخ العادة إخماد المقاومة وريدا وريدا ويضمن استسلام الشعوب إلى العيش في ظل السيطرة النازية في النهاية . فإذا ما انقضى زمن طويل على سريان هذا النظام صار من المعتذر على الديمقراطية حتى بعد انزمام الهتاريين وانقضاء دولتهم اجتمعات هذا النظام من أصوله ومحو أثره من الوجود .

وكانت الدعوة إلى النظام الجديد وسيلة مؤانية تتيح الفرصة باسم المساهمة مع ألمانيا المنتصرة في تشييد صرح الحضارة الجديدة لأولئك النفعيين من السكويستينجيين واللافاليين الذين لا تخلو منهم أمة مقهورة ، ولأولئك المغامرين المسكوتين من الكتاب وأشبهاء المفكرين الذين إذا غشاوا في حياة الفكر الحر الطليق وازدور المجتمع عنهم وأهمل أمرهم تلبسوا في فلسفة (النظام الجديد) ينبوعاً جديداً ينهلون منه — كأنما قد تفتقت أذهانهم هم وحدهم حتى فهموا ما استغلقت على غيرهم — ثم انقلبوا يكيدون لأبناء أوطانهم انتقاماً لما توهموه غمطاً لمواهبهم وازدراؤاً لثرات قرائحهم .

وعلى ضوء الاعتبارات السابقة نستطيع أن ندرك لماذا لم تعمل النازية على الدعاية للنظام الجديد في بداية العراك ولماذا لم يكن النظام الجديد نفسه من أهداف الحرب ، فلم يسمع به أحد إلا بعد انهيار فرنسا وإخفاق الألمان في معركة بريطانيا . وعلى ذلك فقد بدأت الدعوة لهذا النظام وثيدة رانية في شهرى يوليه وأغسطس من عام ١٩٤٠ ولم تبلغ ذروتها إلا في اغسطس وسبتمبر ، وكان الغرض منها اقناع الشعوب المهزومة بأن النازيين إنما يريدون إعادة تنظيم الحياة الأوروبية في عالم مثالي جديد ، وأن بريطانيا هي العقبة الكأداء التي يحول عنادها وإصرارها على المقاومة دون تحقيق هذا النظام ، وأنه لا سبيل إلى تشييد صرح هذه الحضارة المثالية إلا بالتعاون مع النازيين حتى يمكن أن توضع أسس ذلك البنيان السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى يريدونه للعالم ، وأن من شروط النجاح فى هذا العمل الباهر أن يتم التضامن الوثيق مع ألمانيا من أجل مكافحة الانجليز وإرغام بريطانيا العظمى على التعاون مع النازيين وأحلافهم فى إقامة هذا النظام والاعتراف بتراياه وإنها السكيرة .

الفصل الثاني

النظام الجديد

وهنا يصح للتأريء يسأل وما أمر هذا النظام الجديد ؟ .

ونحن إنما نستمد معوماتنا عن هذا النظام من كتب النازيين ونشرااتهم وصحفهم وما إلى ذلك وفي مقدمة هذه المصادر كتاب (كفاحي) للبر هتلر ويعتبره النازيون ضروريا لتقريب الاشتراكية الوطنية إلى أذهان الجماهير على الرغم من صعوبة أسلوبه وغموض معانيه، وكذلك مؤلفات (الفرد روزنبرج) Rosenberg رسول النازيين وفيلسوفهم الأكبر ومن بينها كتابه في عام ١٩٢٢ عن مبادئ الحزب الاشتراكي وأهدافه ، وكتابه المشهور في عام ١٩٣٠ عن « خرافة القرن العشرين » . وقد أعد هذا الكتاب لطبقة المفكرين من « ذوى المواهب العقلية » الذين توسم فيهم النازيون القدرة على إدراك ما يدق فهمه على الجماهير من خفايا هذه الوطنية الاشتراكية ، أما كتاب المطالعة أو القراءة الأولية فقد وضع لجماعة الشباب الهتلري . ومن بين تلك المصادر كذلك كتاب (ارنست برجمان) Bergmann عن « عقائد الدين الجرمانى الخمس والعشرين » وبحوث كل من (رويين) Dr Ruppen و (هينكل) Hinkel و (ازوالد شبنجلر) Spengler و (فردريك مييبورج) Sieburg ، والأستاذ (ارنست هوير Hauer وغيرهم . وكذلك لا ينبغي أن يفوتنا أن نذكر برنامج الحزب النازى نفسه وقد وضع فى عام ١٩٢٠ .

ويتضح مما يذكره جميع هؤلاء الكتاب أن (التعاليم النازية) تركز على حقيقة أساسية واحدة ، هى أن الحضارة الحالية يهودية فى صميمها تنسكرك البطولة وترفض النضال والصراع من أجل الحياة ، فتحرم الإنسان لذلك من صفات الشبل والشرف . ولذلك كانت هذه الحضارة التى يقوم عليها النظام اليهودى العالمى فى الوقت الحاضر ملوثة بجراثيم الانحلال وينخر فيها الفساد ولا مفر من تحطيمها فى النهاية حتى ينفصح الطريق لقيام نظام آخر معارض لهذا النظام اليهودى المادى . وعلى أساس هذه المغالطة استند النازيون فى رسم تلك القواعد التى شيّدوا عليها صرح النظام الجرمانى الجديد فى ألمانيا أولا ومن بعد ذلك فى أوروبا .

وبخلاصة هذه القواعد أنه كان للوطنية الاشتراكية فضل السبق فى إدراك حقيقة العالم فى وضعه الصحيح ، فهى لذلك صاحبة الحق وحدها فى قيادة الحرب الصليبية أى حرب

الصليب المحفور من أجل بحث الانسانية وإحيائها وتغيير النظام القائم ، على أن يتم ذلك
البعث والتغيير على أيدي جنس بشري كتبت له السيادة منذ الأزل على بقية شعوب العالم :
الأمر الذي لا يتسنى حدوده قط دون أن يطبق ما أسماه النازيون « مبدأ الزعامة » أو « الزعامة
المسئولة » Feuhrer Prinzip ومعناه أن تتقاد الحياة في الدولة لتنظيم عسكري دقيق من
شأنه تركيز السلطة في شخص زعيم مطلق التصرف بطيعة المجتمع طاعة عمياء . ويكون وحده
المسئول عن هذا المجتمع . ويفسر ذلك (فردريك سيبورج) في قوله « إن الجرماني يتميز
فقط بمقدار الخدمة التي يؤديها للدولة ؛ فلا ينبغي أن يوجد بألمانيا مجرد أفراد عاديين من
البشر ؛ وإنما المطلوب هو وجود جرمانيين يفنون أنفسهم في تأدية هذه الخدمة والدولة التي
من هذا النوع تعرف باسم دولة الزعامة Feuhrerstaat وشعارها « أمة واحدة ، ودولة
واحدة وزعيم واحد »

ولذلك لم يلبث ؛ زعيم هذه الوطنية الاشتراكية (أدولف هتلر) أن نال بفضل مبدأ
الزعامة المسئولة ، حقاً مقدساً يتحتم بمقتضاه على كل جرمانى أن يدين له بالطاعة العمياء وينفذ
إراداته دون مناقشة . وقد وضع ذلك (هانز فرانك) Hans Frank وكان من فطاحل
القانونيين النازيين ... عندما قال في خطبة له في أكتوبر ١٩٣٥ : « أن الاعتراف بقديسية
القوانين التي يوقع عليها أدولف هتلر باسمه هو أعظم واجباتنا إطلاقاً لأنها مستلهمة من روح
الأمة الجرمانية ذلك أن الله وحده أعطاه السلطة فهو لذلك الرسول الذي أرسله الآله لينذروا
عن حقوق الجرمان في العالم » بل لقد تطرف النازيون في هذا الخلط إذ أكد (فابريكوس)
Fabricus أن الزعيم هتلر إنما ينتمى إلى « أولئك الذين ينفذون إرادة الله ويحققون حياة
السيد المسيح في هذه الحياة الدنيا على نحو منقطع النظير »

ومن أسس التعاليم النازية كذلك أن الجرمان هم سادة الجنس البشرى وهم أولئك الذين
قدر لهم من الأزل أن يؤلفوا الطبقة الحاكمة في العالم ، ويعتمد النازيون في ذلك على أن
الشعب الجرمانى أرقى الأجناس البشرية وأنقاها قاطبة . ورغبة في تدعيم هذه السيطرة العالمية
ابتدع النازيون ما أسموه « نظرية الدم » وبمقتضاها وزعت أجناس البشر طبقات ومنازل .
فوضعوا في الطبقة العليا الجرمان أهل الريخ الألماني (Reichdeutsche) ، ويلهم في نفس
الطبقة العليا الجرمان الذين لا يعيشون في الريخ ويسرفون باسم « الأقرباء » (Volksgenosse)
أو (Volksdeutsche) . ويأتى بعد هؤلاء النوردريون الخالص ، (أمثال الدانماركيين
والنرويجيين والسويديين) ، ثم الزرلنديون والنورمانديون ، ثم الانجلو سكسون وغيرهم من
« الأقرباء » التوتون ؛ أما الطبقة السفلى فقد وضعوا فيها الزنوج ، ثم وزعوا فيما بين هاتين

الطبقتين العليا والسفلى بقيمة الأجناس الأخرى بالترتيب التالى : الطورانيون؛ ومنهم الأتراك والهنغار ، ثم المخول ومنهم الفن والبلغار ، ثم الأجناس الخليطة مثل الرومانيين ، ثم السلاف ثم اليهود ، ثم شبه الزوج .

وعما يجدر ملاحظته أن النازيين أخرجوا من هذا التقسيم الكلمات واللاتين ، على أن يجرى اختيار الطبقة التى يلىق فى نظر النازيين وضعهم فيها حسب الظروف ومتعضيات الأحوال مسترشدين فى اجراء هذا الاختيار بأمر ثلاثة : هى وثوق الصلة والقربة التى تربط بين هذين الجنسين والأجناس التى تتألف منها الطبقة العليا ثم درجة نقارة الدم وأخيرا مقدار استعداد هذين الجنسين لممارسة شئون الحكم .

وعند هذا أنكر النازيون أن آسيا والشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض كانت جميعها مهد الحضارة ، بل اسعوا أن أقدم ثقافات العالم إنما ظهرت فى البقاع النوردية، أى فى طرف بحر البلطيق الغربى . ولذلك سهل عليهم الإدعاء بأن عبقرية الجنس الجرمانى ونشاطه أو حيورته هما وحدتهما اللذان أخرجتا إلى الوجود كل ما كان ذا قيمة فى عالم الفن والعلم والصناعة . وفضلا عن ذلك سوغ النازيون فكرة السيطرة الجرمانية بأدعائهم أن الجرمان من الناحية البيولوجية الصرفة أصلح الأجناس قاطبة للفضال من أجل البقاء ، ومن شأن هذه الصلاحية ذاتها أن تمكنهم فى النهاية من السيطرة على العالم أجمع ، فالأقدار وحدها إذن هى التى اختارت الجنس الجرمانى لهذه السيطرة .

وقد ترتب على القول بوقوع الاختيار على الجرمان منذ الأزل لممارسة هذه السيطرة العالمية أن أصبح من الواجب على الجرمانين ألا يعترفوا بغير قانون واحد هو ذلك القانون الجرمانى الذى ينزل هذا الجنس المختار أن يفعل كل ما يحقق فى النهاية دعم السيطرة الجرمانية العالمية ، مهما كانت هذه الفعال مخالفة للقواعد الخلقية والأحكام القانونية المعروفة ، بل رفض الجرمان أن يعترفوا بهذه القواعد والأحكام بدعوى أنها من مخلفات الحضارتين الرومانية والمسيحية وكل منهما فى نظر النازيين حضارة منحلة تمسكت بها أجناس رخيصة ولا يمكن أن يسترشد بمبادئها الجنس الجرمانى الرفيع الشأن سواء أكان ذلك فى حياته الداخلية أو فى علاقاته الخارجية مع الدول وسائر الأمم . وإلى جانب هذا ، اعتبر النازيون أن الغرض من كل نشاط خارجى إنما هو تعزيز السكيا الجرمانى الداخلى ، حتى يستطيع الريخ أن يبذل بفضل القوة التى يكسبها نشاطا خارجيا جديدا لا تلبث ثمرة نجاحه أن تندمج فى السكيا الجرمانى الداخلى فيبذل الريخ بفضل ذلك نشاطا خارجيا أقوى ، وهكذا يستمر هذا النشاط قويا مجددا حتى يتم للجنس الجرمانى « المبعجل » احراز السيطرة على العالم . أى أن التنظيم الداخلى فى نظر النازيين

كان حجر الأساس في بنية « دولة الزعامة » والاداة التي لاغنى عنها لتحقيق السيطرة الجرمانية العالمية .

وقد استرشد النازيون في هذا التنظيم الداخلي بقواعد مرسومة أهمها ضرورة استخدام جميع القوى البشرية والمادية الموجودة في الدولة واستغلالها إلى أقصى حدود الاستغلال ، وذلك لتهيئة أداة الحرب والقتال التي تمكن الجerman من الاستيلاء على الأرض التي يدعى النازيون أن من حقهم أن يملكوها ، ثم توطيد مركزهم كأسياد مهيمنين على هذا العالم . وكان معنى ذلك أن يعي النازيون جميع الأيدي العاملة ثم أدوات الصناعة والزراعة وسائر وسائل الانتاج في الدولة وهو عمل شاق جسيم ما كان يستطيع النازيون أن يقدموا عليه دون اللجوء إلى الحيلة والدهاء تارة والقسوة العسكرة والفنر تارة أخرى حتى يزيلوا ما يوجد من عقبات داخلية قد تحول دون تنفيذه .

وعلى ذلك فقد اصطنع النازيون الاعتدال في أول الأمر مع مخالفينهم من المواطنين الذين لم ينضوا تحت لواء الوطنية الاشتراكية . وأفاد النازيون من هذا الاعتدال المصطنع لأنهم كما سبق القول لم يكونوا بالأغلبية التي تستطيع الأفراد بالحكم عند وصولها إليه كما استطاعوا عن طريقة تسخير جميع الأيدي العاملة والانتفاع بموارد الثروة التي كان يملكها رجال الصناعة والمال ولم يكن هؤلاء قد أدركوا بعد جسامه الخطر الذي يهددهم وكان غرض النازيين من تسخير هذه القوى إعداد آلة الحرب اللازمة لتنفيذ برنامجهم .

وفي سبيل تهيئة وسائل الحرب استرشد النازيون في إدارة شؤون الدولة بمبدأ الاكتفاء الذاتي أو الأوتاركية الاقتصادية *Economic Autarchy* حتى تستطيع الدولة في وقت الحرب مقاومة الحصر البحري إذا استلزمت ذلك خطة الدفاع وحتى تمتد من المواد الداخلية المستمدة من انتاج الأرض ما يكفيها إذا اتخذت خطة الهجوم . أضف إلى هذا أن الأوتاركية الاقتصادية من شأنها إيجاد الموازنة بين العوامل الداخلة في تكوين الدولة الاقتصادي ، فلا تصبح الدولة صناعية صرفة أو زراعية صرفة وقد عارض النازيون في أن تظل دولة الريخ صناعية صرفة لأن النازية نظرت دائماً إلى الزراعة كعمل حيوي لتربية العقل السليم في الجسم السليم وهي تربية ضرورية لإنشاء ذلك الجنس وتلك الطبقة من السادة الجerman الذين كان من حقهم ممارسة شؤون الحكم والسيطرة على العالم دائماً .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن العمل بمبدأ الاكتفاء الذاتي يحرم على النازيين إنشاء الصلات التجارية مع العالم الخارجي وبخاصة لأنهم كانوا يخشون أن تؤدي هذه الصلات إلى ضياع ذلك الخلق الجermanي الرفيع ، الذي يميزهم من غيرهم كرامة ومع ذلك أجاز النازيون التجارة

ومع العالم الخارجى فى حالات معينة أهمها أن تكون هذه التجارة وسيلة يتمكن النازيون بفضلها من تجهيز أداة الحرب وإعدادها بكل سرعة ثم تحقيق (الاكتفاء الذاتى) نفسه وذلك إما بافتتاح الأقاليم الغنية بالموارد الطبيعية التى كانت تنقصهم ، وإما بتهيئة الوسائل لإنتاج ما يمكن أن يستفيدوا به عن تلك الأشياء التى لم توجد فى داخل دولتهم ، وهذا فضلا عن جلب الكماليات التى قد يطمح الشعب ليجرد الترفيه عن نفسه كالبن مثلاً ، ثم أجاز النازيون الاتجار مع الأمم الأخرى إذا نجم من ذلك ربح لهم أو توقعوا إصابة هدف سياسى معين من وراء هذه التجارة .

وكان من قواعد التنظيم الداخلى كذلك أن توجد الدولة مجتمعها من أفراد متجانسين فى تركيبهم الجثمانى والعقلى وتعمل للحفاظ على كيانه وضمان رقيه وذلك حتى تحقق غرضاًسمى بفضل إشرافها على التربية والتعليم هو تنشئة إجماع جديدة من الشباب القادرين على حمل السلاح وبذلك النفس فى سبيل تأدية الرسالة الجرمانية على خير وجوها وحرص النازيون لذلك على أن ينشئوا شبابهم تنشئة صارمة حتى يصبحوا قساة غلاظ الأكباد لا يعرفون شفقة ولا رحمة وأصحاب عجرة وعمهجية وكبرياء لا تلين قلوبهم الصلدة لعاطفة حب أو صداقة . بل إن النازيين كان يشترطون الانتماء فى المعارك الدموية كأخر مرحلة من مراحل التعليم والتربية لتنشئة أولئك الرجال الأفذاذ (Supermen) الذين تتألف منهم طبقة الأسياد المعدة للحكم والسيطرة وكانت الأعمال اليدوية الوضيعة من نصيب تلك الشعوب المسخرة المغلوبة على أمرها .

ومع أنه كان من واجب الدولة على حد قول النازيين المحافظة على كيان المجتمع وضمان رقيه فقد كان من واجبهم أن على الدولة أن تضمن هذا الواجب المزدوج إذا دعت الحاجة الملحة إلى إنصرافها بدلاً من تحقيق هذه الغايات إلى امتلاك تلك الأراضى التى كان من حق الجنس الجرماني أن يملكها فى سبيل الوصول إلى السيطرة العالمية .

هذه إذن كانت أهم القواعد التى بنى عليها النازيون صرح النظام الجديد فى أوروبا ، ومن الواضح أنهم كانوا يعتبرون الجنس الجرماني أرقى أجناس البشر إطلاقاً وأنها دماً ، ومن حقه بفضل هذه الرفعة ونقاوة الدم أن يتمتع بالسيطرة على العالم ولا بد للوصول إلى هذه السيطرة من تسخير سواد الأمة الألمانية لخدمة طبقة السادة الممتازين أصحاب الحكم فى الدولة ثم تسخير سواد الشعوب الأوربية وشعوب العالم جميعها لخدمة الجنس الجرماني وكانت دعامة هذا النظام الجديد ومساك حياته ، الزعامة المسؤولة ، أى تلك الزعامة التى كانت مسؤولة فى

داخل الريخ عن الشعب الألماني ، وفي خارج الريخ عن بقية شعوب العالم في النهاية . وهي زعامة تقوم على أساس الطاعة العمياء لشخص الزعيم في جميع التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الريخ وفي أوروبا وفي العالم ؛ وأما رسالة الجنس الجرمانى فكانت لا تقتصر على تفويض أركان الحضارة الرومانية المسيحية في أوروبا بل تريد أن تفرض على الإنسانية نوعاً جديداً من الحضارة التي عرفوها باسم حضارة الصليب المعقوف أو حضارة الأرض والدم ، الأرض التي تخلق العقول السليمة في الأجسام السليمة والدم الذي يحول الجنس الجرمانى حتى السيطرة العالمية .

• • •

ركان النازيون يعتقدون أنه لا مخرج لهم عن إخضاع القارة الأوروبية لسيطرتهم الجرمانية حتى ينسحب لهم إحراز السيطرة العالمية واستعدوا في ضرورة إمتلاك القارة إلى أنه كما تحتم عليهم أن يقيموا في داخل ألمانيا كتلة صلبة متماسكة قوية تمكن الريخ من احتلال ذلك المركز المعدل في أوروبا ، فإنه تحتم عليهم كذلك أن يصدوا إلى هذا الريخ أرضاً شاسعة في القارة الأوروبية ذاتها حتى يؤلفوا من هذه الممتلكات كتلة أخرى صلبة متماسكة تمكن الجرمانية من فرض سيطرتها التامة على سائر أنحاء العالم . لأن النازيين كانوا يعتبرون أوروبا مركز العالم أو المحور الذي يشد إليه ويجذب حوله أقاليم الأرض وبلدانها بفضل الروابط التاريخية والثقافية والاقتصادية والصناعية والعسكرية التي ربطت بين أوروبا وكل أقطار العالم .

ولذلك فكر فلاسفة النازيين ووجهاءهم تفكيراً طويلاً عميقاً في الطرق والوسائل التي يجب أن يتبعوها من أجل « جرمنة » القارة الأوروبية وأسفر هذا التفكير الطويل العميق عن نظرية سرجاء مشوهة هي نظرية « الحكم بحق الدم » وهي تكمل في الحقيقة نظرية « الزعامة المسؤولة » ومنسبها أن تكون السيطرة الحكومية في جميع البلدان المفتوحة والتي خضعت لقواعد النظام الجديد من نصيب الجنس الجرمانى وحده فيماشر أبناؤه شؤون الحكم بها ويحرم أهلها في الوقت نفسه من ضمانات القانون الألماني والأنظمة الألمانية التي وضعت لضمان نقاوة الدم والشرف الألماني . وكان ذلك منشأ الصلة بين هذه النظرية ونظرية الدم السابقة بيد أنه مما تجدر الإشارة إليه أن السادة النازيين ما كانوا يقصدون في يوم من الأيام تطهير أو تنقية دماء تلك الاجنساس الوضيعة غير الجرمانية لأنهم امتنعوا عن إدمانها في الجنس الجرمانى « المبعجل » .

وعلى ذلك فقد سلك النازيون عند محاولة « جرمنة » أوروبا طريقين ، فقد ميزوا بين المناطق التي يقطن بها جرمانيون أنقياء الدم وما زالت واقعة خارج حدود دولة الريخ الثالث وقتذاك

والمناطق التي تقطنها شعوب غير جرمانية ، فسماوا الأولى (المناطق المفقودة) ، أى تلك التي نسرحها الجرمانيون في العصور السابقة وابتدأ من واجبتهم أن يعمدوها إلى أحضان الجرمانية ويدمجوها في الرينج الألماني بشرطة أن يجرى ذلك من غير إعداد أو تهئية سابقة فتسرى عليها القوانين الألمانية مباشرة وتخضع بمجرد هذا الاندماج لتطبيق الأنظمة النازية . وأما عند جرمنة المناطق الأخرى فقد وجدوا من الضروري إجراء إعداد وتهئية سابقة قبل إدماج هذه المناطق في الرينج الألماني نهائيا . واتبع النازيون في ذلك عملية ذات شبه كبير بما يعرف بنظام الدوائر ذات المركز الواحد ، وتفسير ذلك أن النازيين كانوا يبدءون باعتبار الرينج مركزا لدائرة أول يضم محيطها عدة أقاليم تقطن بها أجناس غير جرمانية فصاروا يعملون لإعداد وتهئية هذه الأقاليم الواقعة في داخل محيط الدائرة حتى إذا ما فرغوا من ذلك أدجوها في مركز الدائرة وهو الرينج الألماني واستطاعوا بفضل ذلك أن يؤلفوا من الرينج والأقاليم المندمجة فيه مركزا ثانيا لدائرة أخرى جديدة أجروا بداخلها نفس العملية وهكذا دواليك حتى يتمكنوا من جرمنة شطر من القارة الأوروبية قبل أن تنزل بساحتهم الهزيمة .

وكان الأسلوب الذي اتبعه النازيون في تهئية وإعداد الأقاليم التي أرادوا إدماجها في الرينج الألماني سهلا قوامه ضمان سيادة الجنس الجرمانى أولا ثم ربط هذه الأقاليم بالرينج الألماني ربطا وثيقا من الناحية الاقتصادية على أساس أن يكون الغنم كله في نصيب الألمان والغنم كله واقعا على الأهلين الذين صاروا يستغثرون في خدمة الرينج . وفضلا عن ذلك فإن النازيين ما كانوا يتورعون عن استخدام جميع الحيل والطرق الشيطانية لإبادة العناصر الأجنبية في الأقاليم التي أرادوا إعدادها قبل إدماجها في الرينج ، فكان من وسائلهم تلك الهجرة الاختيارية التي أسفرت عن « إرغام » اليهود على مفادرة ألمانيا ، ثم اقتلاع أسرات بأكملها من مواطنيها بقبضها وقبضتها للعيش والعمل في مناطق غربية بعيدة كما فعلوا مع التشيك واليهود في بقية أوروبا : ثم إقنار البلاد من أهلها وسكانها وذلك بمنع النسل أما بالفرقة بين الزوج وزوجته على غرار ما فعلوا مع البولنديين عندما نقلوهم للعمل الانتاجي في الرينج ، وأما بتعقيم الأفراد تعقيا إجباريا ، أو العمل بنصيحة فلاسفة النازيين أمثال (بانز) Banse و (جوثنر) Genthner وغيرهما من أشاروا باستخدام الطرق العلمية لتقليل العناصر الأجنبية أو إبادةها وكان غرضهم من ذلك التخلص من البولنديين وإفناءهم ، ومن هذه الطرق قتل المرضى وذوى العاهات بدعوى الانسحاق عليهم من أن تستبد بهم الآلام على نحو ما فعلت ألمانيا مع الأشرار والمعتوهين والمرضى الميؤوس من شفائهم وغير المرغوب في وجودهم عموما واستطاع النازيون أن يقتلوا حوالي مائة ألف شخص في داخل الرينج نفسه في مدة عامين (١٩٣٩ ، ١٩٤٠)

وتولى هذا العمل الرهيب رجال الجيستاو فاختاروا مراكز هذه المجررة في البلدان الثلاثة الآتية : (جرافنيك) Grafeneck بالقرب من (شتوتجارت) ، (هارثيم) Hartheim و (بيرنا) Pirna بالقرب من درسدن .

وكان من أثر هذه الأساليب الجهنمية أن انتشرت موجات الانتحار ، التي ذهب ضحيتها كثيرون في بلدان أوروبا المقهورة . من ذلك ما جاء في جريدة (لوفوفولطان) البارسية في عدد ١٠١ يناير ١٩٤١ أن حوالي نصف سكان بلدة (أبفيل) Abbeville القريبة من ساحل القنال الإنجليزي لقوا حتفهم في موجة انتحار غربية جمعت هؤلاء المنكوبين يلقون بأنفسهم في نهر (السوم) أو يختنقون من عالم الوجود دون أن يتركوا أثرا وراءهم وقد اتضح بالكشف الطبي على بعض الجثث التي أمكن العثور عليها في النهر أن الوفاة إنما حدثت من جراء ضربات شديدة على الرأس بألة ثقيلة . أي أن الوفاة لم تكن بسبب الغرق .

وقد كسب الألمان الجولة الأولى من معركة السيطرة على أوروبا وفي أثناء الأعوام الثلاثة الأولى من إلتصارهم ظهر كأنما قد توطدت أركان قلعهم الأوربية نهائيا فاضوا يطبقون النظام الجديد في البلدان التي اغتصروها واحتواها الریح الثالث ضمن حدوده . وظهر عند تطبيق النازيين هذا النظام الجديد أنه كان يشتمل على ناحيتين إحداهما سياسية والأخرى اقتصادية يتحان بعضهما بعضا وهما هدفهما المشترك فرض السيطرة الجرمانية على القارة الأوربية ، مستندين إلى ذلك التراث التاريخي القديم الذي انحدر إليهم من دولة الجرمان العتيقة ذات السيطرة على أوروبا في العصور الوسطى . وعلى ذلك فقد ارتكزت الفكرة الرئيسية التي قامت عليها « جرمنة » أوروبا على جوهر التنظيم الأوربي في تلك العصور . فقد أنكر النازيون أن العالم الأوربي استطاع خلال القرون العشرة الماضية أن يقطع شوطا بعيداً في تكوينه الاقتصادي والسياسي حتى ظهرت تلك الدول التي جمعها إطار الخريطة الأوربية في عام ١٩٣٩ ، وهي الدول التي بنت وجودها في الحقيقة على قيام (الدولة الوطنية) منذ أن أخذ في التصدع كيان العصور الوسطى السياسي والاقتصادي والاجتماعي في عصر النهضة الأوربية الحديثة . وعلى وجه الخصوص منذ بزغت شمس القرن السادس عشر . فن أقوال (الفريد روزنبرج) المشهورة ، كانت الدولة الوطنية المثل الأعلى الذي أرادت أن تحققه الثورة الفرنسية . أما الثورة الوطنية الاشتراكية العظيمة (أي الثورة النازية) فقد تخصصت عن مولود جديد ، هو الامبراطورية الجهنمية ولذلك ينبغي أن تزول الدولة الوطنية من الوجود أو تتحول إلى امبراطورية قوامها الجنس وحده .

ولما كان النازيون يهتمون على الحضارة الأوربية أنها يهودية مادية ويريدون إلانها ، فقد سهل على الدعاية النازية كخطوة تمهيدية ، وفي سبيل الدعوة إلى السيطرة الجرمانية أن تمجد تراث العصور الوسطى على اعتبار أن الحضارة في تلك العصور بلغت أوجها في الفترة التي ظا الجرمان فيها قوام الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فذكرت إحدى صحفهم (Deutsche Allgemeine Zeitung) في عدد ٢٧ يناير ١٩٤١ « لا نجد نحن إلا أن ما يخلجنا من العصور الوسطى ؛ بل على العكس من ذلك كانت تلك العصور فترة من الزمن تثير الإعجاب وتدعو حقا إلى الفخر بها لأنها أنتجت نوعا من الحضارة أو الثقافة الممتازة وهذا على الرغم من ذبوع بعض الآراء الطريفة التي نجمع الانجليز في الإيحاء بها إلى الأمريكيين عن هذه العصور . حتى انطبعت في أذهان هؤلاء كأنها حقائق ثابتة » . وقبل ذلك ببضعة أعوام ذكر (ملر فان در بروك) Moeller Van Der Bruck في كتابه الذي ظهر عن ألمانيا وإمبراطوريتها الثالثة . في عام ١٩٣٤ ، نحن لا ننكر في أوربا القائمة اليوم لأنها حقيرة وتافهة ؛ ولكننا ننكر في تلك التي تامت بالأمس ، والتي سوف تقوم في الغد بفضل ما يمكن انتشاله وانقاذه منها ؛ نحن ننكر في ألمانيا الخالدة على عمر الأيام والدهور ؛ في ألمانيا القديمة ؛ أي تلك التي مضى ألقان من الأعوام على ظهورها . وقبل ذلك أيضا ذكر الاستاذ (بانز) Banse في كتابه عن « المجال والأمة في عالم الحرب » . أن من واجب النهضة الجرمانية أولا أن تعمل على بعث الروح الجرمانية من الأعماق ثقافيا وسياسيا على أن يكون من غرضها جعل التفكير والحديث والنشاط (أو العمل) جرمانيا خائضا في الأرض الجرمانية ومن واجبها ثانياً أن تجعل الأرض التي تقطن بها شعوب جرمانية داخلية بأملا كما ضمن حدود دولة موحدة قوية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون الدولة الألمانية المعروفة بحدودها المرسومة في عام ١٩١٤ . »

وفي الواقع أراد النازيون إعادة الخريطة الأوربية إلى ما كانت عليه بين عامي ١٨١٨ . ميلادية أي من وقت قيام أسرة سكسونيا إلى سقوط آل هوهنشتاوفن . فنشروا في كتاب المطالعة الأولية للشعبية الهتلرية خريطة بعنوان « الجرمان يحققون وحدة أوربا » . وهي خريطة الإمبراطورية الرومانية المقدسة حوالي عام ١٠٠٠ ميلادية أي بحدودها الممتدة من جنوبي ملكة الدانمرك في الشمال إلى أعلى الخداه الإيطالي في الجنوب ؛ وتقع في داخل حدود هذه الإمبراطورية الجرمانية كل من دوقية بوهيميا ومارك (أو عواصم) مورافيا والنمسا ودوقية كارينثيا وفريزلند ودوقية اللورين . وكل هذه كانت تقطن بها شعوب جرمانية ؛ وفي شرق هذه الحدود رسم النازيون دوقية بولندة ثم مملكة هنغاريا ؛ وفي الغرب رسموا مملكة

برجنديا . وقد أظهر النازيون في هذه الخريطة مملكة الدانمرك ودوقية بولندية ومملكة هنغاريا ومملكة برجنديا كدويلات أو إمارات تدن بالتهجية والطاعة للامبراطورية الألمانية المقدسة . هذه إذن كانت الخريطة التي أراد النازيون أن يرسموها للمجتمع الأوربي الحديث لإحياء المجد القديم على حد قولهم أو لتحقيق سيطرة السادة الجرمان على أوروبا . وفي السنوات الثلاث الأولى استطاع النازيون إدراك ما أرادوا إلى حد كبير ، ذلك بأنهم أدجوا في الرايخ الثالث كل المناطق الألمانية مشمل النمسا (التي سميت بالعواصم الشرقية Ostmark) ، والسوديت ودانترج والممر البولندي ، وأقاموا من دانترج والممر البولندي ما أسموه الأقليم أو المقاطعة الشرقية Ostgebiet ، وأسموه كذلك أقليم الملاحظة أو المراقبة Warthegau وعينوا عليه حاكما هو (زعيم الأقليم) Gauleiter ؛ ثم أدمج النازيون أرض (أوبين ومالميدي) Oupen-et Malmédy ، وكانت هذه مقاطعة بلجيكية منذ عام ١٩١٩ ؛ ثم اللورين على أن تكون جزءا من مقاطعة ألمانية أسموها العواصم الغربية Westmark . وفضلا عن ذلك عمد النازيون إلى تبني كل من لكسمبرج والإلزاس وشارويج — هولشتين الدانمركية لإدماجها جميعا في الرايخ الألماني واتخذوا من التدابير ما يكفل ذلك فأبعدوا العناصر الأجنبية القاطنة بها كاليهود أو الفرنسيين أو البولنديين ؛ ثم جعلوا (الريخمارك) العملة المتداولة قانونا في هذه الأقاليم وأدخلوا لكسمبرج والإلزاس واللورين ضمن سياج ألمانيا الجرمنية وقد مر بنا كيف جزأ النازيون تشيكوسلفاكيا وأنشأوا من بوهيميا ومورافيا حكومة واحدة وضعوها تحت الحماية الألمانية . على أن هذه الحماية ، ما لبثت أن أدمجت في الرايخ الثالث ابتداء من أول أكتوبر ١٩٤٠

وكان من أثر المدينة التي وقعها الألمان مع الفرنسيين في غابة (كومبين) Compiègne في ٢٢ يونيو ١٩٤٠ أن رسمت خريطة فرنسا على نحو أسفر عن اقتطاع جميع الأرضين التي كانت تقطن بها شعوب جرمانية حوالى عام ٩٠٠ ميلادية ، ثم انضمام هذه الأرضين من الناحية العمالية إلى ألمانيا . فقد استرشد النازيون باعتبارات عسكرية واقتصادية معينة عندما احتلوا أقاليم السواحل الفرنسية المطلة على القنال الإنجليزي والمحيط الأطلنطي ولكن هذه الاعتبارات وحدها لا تفسر سبب استيلائهم على شملانيا وبرجنديا وأقليم جبال الجورا الصخرية . ومن السهل معرفة السبب الذي دعاهم إلى احتلال هذه الأقاليم إذا روجعت خريطة (شعوب أوروبا حوالى سنة ٩٠٠ م) . وهي خريطة رسمها (شپرد) W. R. Shepherd في أطلسه التاريخي المعروف ؛ إذ يتضح من هذه الخريطة أن النازيين إنما اقتطعوا من فرنسا جميع الأقاليم التي كانت تسكنها شعوب جرمانية حوالى القرن التاسع الميلادي .

ولم يقنع النازيون عند ذلك بل إنهم جزأوا يوغسلافيا ، فأنشأوا دولة كرواتيا الجديدة Croatia في مايو ١٩٤١ ودمجوا لها نفس الحدود التي كانت للمملكة كرواتيا القديمة حوالي عام ١٠٠٠ ميلادية ، ثم أدمجوا في الريح أجزاء يوغسلافيا الأخرى التي كانت تابعة للمملكة الجرمانية أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ذلك الحين وهي كرنيو لا Carniola وسلوفينيا أما بولنده ، التي كانت في القرن العاشر الميلادي تدفع الجزية للإمبراطورية الرومانية المقدسة أي للأمة الجرمانية فقد أراد النازيون أن يقيموا بها « حكومة » على غرار دوقية بولنده القديمة ولم يكن يقطن بها جرمانيون ولذلك فانه بمجرد إخضاعها واقتطاع تلك الأراضي التي اقتسمتها فيما بينها كل من ألمانيا والروسيا وسلوفاكيا ، أنشأ الريح مما تبقى من أرضها ، الحكومة العامة لبولنده Le Gouvernement Général ، وعين (هانز فرانك) **Hanz Frank** حاكما عليها ويعد من فطاحل رجال القانون النازيين ، وكان يشغل وقتذاك منصب وزير العدل في الريح الألماني . ولما كان معروف أن نظرية نقاوة الجنس الجرمانى تمنع النازيين من محاولة « جرمنة » العناصر الأجنبية فقد أصبح من المتوقع أن تظل هذه « الحكومة العامة » بمثابة دولة بولندية يقطن بها إلى جانب البولنديين أولئك اليهود الذين طردهم الألمان من البلاد التي استحوذوا عليها . وخصص النازيون لإقامة اليهود مساحة معينة عند لوبلين Lublin قرب الطرف الجنوبي الشرقي لهذه « الحكومة العامة » واهتم النازيون بتوثيق الروابط الاقتصادية بين هذه « الحكومة العامة » وألمانيا على أساس استغلال مرافق البلاد لفائدة الريح وتسخير أهلها في خدمته . غير أنه سرعان ما حدث في ١٥ أغسطس ١٩٤٠ أن أفصح (هانز فرانك) عن نوايا الريح الجديدة عندما قال « نحن نقيم الآن في هذه البلاد وكجرمانيين لن نغادرها أبداً ، ولذلك فإننا سوف نعامل هذه البلاد في المستقبل كجزء لا يتجزأ من ألمانيا الكبرى ، لاغنى عنه لحبال قوتها (Machttraum) ولن ينظر إليها على أنها أقاليم محتملة لحسب » . وكان مما دعا النازيين إلى تغيير خططهم الأولى أنهم وجدوا من السهل عليهم بعد انتصاراتهم الساحقة في مايو ١٩٤٠ ، أن يتبعوا أسلوب « الدوائر ذات المركز الواحد » من أجل جرمنة بعض أجزاء بولنده المتاخمة للريح ، فأرادوا إنشاء كتلة جرمانية من تلك (الحكومة العامة) التي أسسوها ، وذلك بإقصاء وإبادة العناصر البولندية وغيرها من العناصر التي كانت تقطن بهذا المركز الجديد الذي أرادوا إنشاؤه فتمسكوا عن التمهيد لإعداد دائرة الحكومة العامة قبل إدماجها في الريح الألماني وبناء على ذلك ألغى الألمان في ديسمبر ١٩٤٠ « الرتبة البولندية » قانوناً وأصبح البولنديون في وضعهم الجديد بمثابة « المحميين » أو **Schutzgebefohlene** ثم ما لبث حتى ظهر أثر تطبيق النظام الجديد من الناحية العملية في فرض ضريبة إضافية قدرها

١٥ ٪ يدفعها البولنديون المقيمون في الحكومة العسامة ، علاوة تلك الضرائب التي تدفعها الطبقتان الأخريان ، طبقة جرمان الريخ Reichdeutsche ، وطبقة الجرمان الأقرباء Volksdeutsche ، أى أن البولنديين صاروا هم واليهود في مستوى واحد ، وكانت هذه الضريبة الإضافية تدعى ضريبة «الموازنة الاجتماعية» (Sozialausgleichsabgabe) وكان الغرض من ذلك أن يدفع البولنديون الضريبة الإضافية على حد قول النازيين كنوع من التفكير أو التعويض عن ذلك المركز الوضعي الذي كانوا يشغلونه بالقياس إلى مركز طبقة الجرمان الرفيعة الشأن ، ولم ينتظر المختاريون حتى تتم عملية إعداد «الحكومة العامة» لإدماجها في الريخ الألماني نهائيا بل عمدوا إلى تجزئة أرضها إلى إقطاعيات أعطيت للنازيين الذي صاروا يؤلفون طبقة «البارونات» على غرار ما حدث إبان العصور الوسطية. وبما عزز هذا التنظيم الإقطاعي، أن العلاقة بين الجرمان (النازيين) والشعب البولندي كانت تشبه في جوهرها علاقة السيد برقيق الأرض في إقطاع العصور الوسطى ؛ وفضلا عن ذلك فقد اختار النازيون الموظفين الذين أوفدوهم إلى بولندا لتطبيق (النظام الجديد) بها من حثالة القوم ثم تفتق ذهنهم عن اصطلاح جديد أضافوه إلى معجم اللغة الألمانية ، ترجمته الحرفية « صالح أو لائق للخدمة في بولندا » . Polendiensttauglich وكانوا يطلقونه على كل شخص سيء السمعة يميل إلى الإجرام وإتيان المخازي ؛ فإذا ارتكب أحد الألمان جرما يستحق عقوبة الحبس طبع النازيون على تذكرة تحقيق الشخصية أو بطاقة العمل المعلقة له كلمة « لائق للخدمة في بولندا » أما إذا تكرّر إجرامه ألحق على الفور بالخدمة في بولندا .

وفي الواقع كان هناك عددا ما ذكرنا أدلة كثيرة ، تشير إلى رغبة النازيين في الرجوع بأوربا إلى التنظيم الذي كان سائدا خلال العصور الوسطى على أن المهم في ذلك كله أن هؤلاء النازيين كانوا متأثرين بالاعتبارات التاريخية والسياسية والاقتصادية والعسكرية التي سلف بيانها فأرادوا فتح القارة الآرية بأسرها : من (نارفيك) شمالا ، إلى بحر إيجه جنوبا حتى يمكنهم إتساع رقعة ممتلكاتهم من امتلاك ذلك المجال الذي عدوه ضروريا لاستمرار حياتهم (Lebens-raum) وقوتهم (Macht-raum) . وقد أدرك هذه الأخطار الظاهرة حلفاء النازيين وأولئك الذين تعاونوا معهم ، فاعترف (موسوليني) في خطاب له في ٢٣ فبراير ١٩٤١ بدخول كل من فرنسا المحتلة وبلجيكا وهولندا ولكسمبورج . واسكندنافيا والدانمرك في نطاق النفوذ الألماني . وكان هناك ميدان واحد خُصص يستطيع أن يجد فيه مجالا للتوسع

حلفاء النازيين والمتعاونون معهم من أمثال إيطاليا وأسبانيا ولم يكن هذا الميدان سوى القارة الأفريقية .

أما وقد أفلح النازيون إلى حد كبير في تحقيق حلم المصور الوسطى ورسموا للقارة الأوروبية تلك الخريطة التي يمكنهم انتصارهم من تخطيطها فإن معرفة النتائج التي أسفر عنها تطبيق النظام الجديد في البلدان المفتوحة من شأنه أن يبين مقدار ما حقق بالشعوب المقهورة من أذى جسمي في عهد السيطرة النازية إذ أن تطبيق النظام الجديد من الناحية الاقتصادية خاصة كان معناه سلب الشعوب المغلوبة ونهب كنوزها وتجزئتها من وسائل العيش وحرمانها حق الحياة في أمن واستقرار وقد اتبع النازيون عدة أساليب شيطانية حتى يكسبوا سرقاتهم الصعبة القانونية كابتكار ما أسماه سياسة الريخمارك وإصدار أوراق نقد معينة وسك قدر من العملة الصغيرة كي يستخدمها الجنود الألمان في البلدان التي اقتحموها ثم المطالبة بنفقات الاحتلال الألماني في أوروبا المحتلة ، هذا عدا أعمال السلب والنهب سافرة كانت أو مقنعة بما يدخل في قائمة الأسلاب والمغانم .

وكان المقصود من سياسة الريخمارك أن يصبح المارك الماني Reichmark العملة المتداولة قانوناً في جميع البلدان التي خضعت لسيطرة النازيين . وذلك حتى يسلب النازيون الشعوب المغلوبة على أمرها وينهبوها . فقد عهد النازيون إلى وضع سعر (المارك) حسب مشيئتهم وأهوائهم يرفعون قيمته أو يخفضونها تبعاً لما كان عليه سعر العملة المحلية في البلدان المفتوحة فتجدهم مثلاً في هولندا والكمبرج وأوبن وما لميدى وغيرها يرفعون سعر المارك بدرجة عظيمة حتى تصبح العملة المحلية رخيصة بالقياس إلى الريخمارك مع أنها كانت في تلك البلدان ذات قيمة أعلى من قيمة المارك الألماني قبل الغزو النازي . وفي البلدان التي أدبحها النازيون مباشرة في الريخ الثالث مثل داننبرج والفسا وغيرها خفض هؤلاء سعر المارك الألماني حتى تصبح قيمته مساوية مع قيمة العملة المحلية وكان سعر هذه العملة أقل من سعر الريخمارك قبل الفتح الألماني . وبما هو جدير بالذكر أن رفع الريخمارك وخفضه كان من حيث الشكل عملاً قانونياً لا غير عليه .

وكان المقصود من خفض سعر الريخمارك صون العلاقات التجارية والاقتصادية واستقرار هذه العلاقات بين البلدان التي أراد النازي إدماجها في الريخ وبين الريخ نفسه ؛ أما في غير ذلك من البلدان التي كانوا لا يريدون إدماجها في الريخ فانهم كانوا يقصدون من رفع سعر الريخمارك إعطاء الفرصة للألمان حتى يتمكنوا من شراء منتجاتها بأبخس الأثمان فضلاً عن

استطاعتهم أن يبيعوها المنتجات الألمانية بأثمان باهظة ، أضف إلى هذا أن بعض هذه البلدان التي قصد النازيون أن ينهبوها كان يقطن بها عناصر أجنبية كالبرانيين في (وارنجو) Warthegau والبولنديين والفرنسيين في لوكسمبورج والبلجيكيين في (أوبين وديلبي) وكان هؤلاء يمتلكون الشطر الأكبر من ثروة هذه البلاد المسادية والتقنية وعلى ذلك أعطى رفع الريخمارك الفرصة للنازيين حتى يفتصبوا لأنفسهم تلك الثروة بأقل ثمن ممكن ، وعلاوة على ذلك فإنه لم يكن يعتمد من وضع سعر للريخمارك على هذا النهج الاستيلاء على السلع والمنتجات والفلات الزراعية فحسب بل تمسكين الألمان على وجه الخصوص من شراء أسهم الشركات والمؤسسات الصناعية والمالية بأثمان بخسة أي الاستيلاء على شطر كبير من رؤوس الأموال منقولة كانت أو ثابتة كخطوة لا غنى عن اتخاذها في تلك البلدان المفتوحة تمهيداً لفرض سيطرة الجرماني الاقتصادية على أوروبا بأكملها في النهاية .

وقد ظهر أثر وضع سعر للريخمارك في التبادل التجاري كذلك بين الريخ الألماني وتلك البلاد التي خضعت لسلطان النازيين . فمن المعروف أن التجارة الدولية تؤثر دائماً في سعر العملة بمعنى أنه إذا زادت صادرات دولة عما تستورده نتج عن ذلك (فائض) في ميزانها التجاري واعتبر ذلك في صالحها كما أنه ينهض دليلاً على أن السعر يرتفع في الدولة المستوردة عما هو عليه في الدولة المصدرة ، وفي ظروف التجارة الدولية العادية ، تسعى الدول التي زادت وارداتها على صادراتها من أجل إعادة الموازنة وإزالة هذا (الفائض) باتخاذ وسائل شتى معروفة من أهمها محاولة زيادة الصادرات وعقد القروض الخارجية والدفع من أرصدة الذهب وغير ذلك . ولكن التبادل التجاري بين الريخ الثالث والبلدان المفتوحة كان يخضع لقواعد أخرى .

فقد عمد النازيون من أيام الفتح الأولى إلى استنزاف جميع منتجات الدول المغلوبة على أمرها لحاجتهم إلى هذه المنتجات صناعية كانت أم زراعية فعظمت صادرات الدول المفتوحة إلى الريخ دون أن تستطيع استيراد شيء يذكر من ألمانيا . ونجم عن ذلك أن صار لهذه الدول كافة (فائض) لمصلحة ميزانها التجاري أي أن الريخ الألماني أصبح — بمعنى آخر — مدينة لهذه الدول بمبالغ طائلة . حتى اقتد بلغ دين الدانمرك على الريخ الثالث حتى يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٤١ ٨٤٩ مليون كرونة وهذا فضلاً عن قروض من نوع آخر نشأت من قيام الدانمرك بنفقات الاحتلال الألماني لبلادها وقد بلغت هذه النفقات حتى ٣١ ديسمبر ١٩٤١ حوالي ٠.٧٧ مليونا أي أن الاحتلال الألماني كلف هذه البلاد مدة عام ونصف ما يزيد على ١٧٠٠ مليون كرونة . وفي أول يناير ١٩٤٢ بلغ دين الدانمرك على ألمانيا ٣٠٠٠ مليون كرونة .

ومع هذا فقد منع الألمان تلك الدول « المصدرة » التي ظلت دائنة للريخ بأموال طائلة من أن تستورد من دولة أدولف هتلر شيئاً من تلك السلع والمتساجر اللازمة لها والتي كان لا غنى عن استيرادها حتى تتعادل كفتا الميزان التجاري بين الريخ وهذه الدول المغلوبة على أمرها من جهة ، وحتى تستخلص هذه الدول ما كان لها من ديون جسيمة على ألمانيا من جهة أخرى . وقد ابتكر شيطان النازي وسيلة أخرى للإيجان في نهب الأمم المقهورة إذ صار الريخ يتمتع عن دفع أثمان السلع المصدرة إليه بدعوى عدم إخراج العملة الألمانية من الريخ واعتراض عن ذلك بأن صار يطلب إلى البنوك المركزية في البلدان المفتوحة أن تقوم بسداد المطلوب من الريخ لحساب تلك البلاد على شريطة أن يكون الدفع بالعملة المحلية الوطنية نفسها فلا يكون السداد بالريخ بآثار الألمانى . ولما كانت قيمة الريخ بآثار تزيد كثيراً على قيمة العملة المحلية حسب السعر الحكومى في البلدان المنهوبة فقد ترتب على ذلك أن أضحت الأثمان التى يدفعها النازيون للسلع والمتاجر المصدرة إليهم بخسة ضئيلة وعلاوة على ذلك كان معنى تكليف البنوك المركزية بالدفع من الناحية العملية خصم هذه الأثمان من حساب نفقات الاحتلال الألمانى التى فرضوها على البلدان المختلفة وبفضل هذه الأساليب الملتوية صار الألمان يستولون على منتجات البلاد المقهورة ، دون أن يدفعوا شيئاً من أثمانها ، ولا جدال فى أن هذا العمل كان ضرباً من السرقة يستره قناع قانونى زائف .

وكان من خطط النازيين عند فرض السيطرة الجرمانية الاقتصادية على أوروبا اتخاذ برلين مركزاً للتجارة الأجنبية فى هذه القارة حتى تحتل برلين ذلك المركز الممتاز الذى استتمت به لندن فى عالم الاقتصاد والمال قبيل الحرب الأخيرة فأصروا على أن تجرى المعاملات التجارية والمالية بين أية دولة وأخرى عن طريق برلين دائماً ، مثال ذلك أنه إذا كان أحد الهولنديين سدينا بمبلغ من المال لشركة بلجيكية فإنه يستحيل عليه أن يسدد حسابه بالدفع رأساً إلى الشركة البلجيكية ، بل صار حتماً عليه أن يدفع هذا الدين بالريخ بآثار إلى مؤسسة معينة أنشأها الألمان فى برلين لمباشرة جميع العمليات التجارية والمالية الخاصة ببلجيكا فتتولى هذه المؤسسة الدفع بالريخ بآثار إلى الشركة البلجيكية ، أما ما كان يحدث فعلاً فهو أن تسكف هذه المؤسسة (البنك المركزى) فى بلجيكا بأن يقوم هذا البنك بعملية الدفع من حساب نفقات الاحتلال بالطريقة التى سبق بيانها . أضف إلى ذلك أن الألمان كانوا يحتدون على الدول المحتلة التى تقابل التجارة فيما بينها أن تودع برلين مبلغاً من الريخ بآثار يرصد لحسابها ويستخدم فى أعمال التصفية التجارية ، ويتكون هذا الرصيد بسبب إرغام هذه الدول على تصدير منتجاتها إلى الريخ ومطالبة بتأدية خدمات مالية معينة وأجبارها على إعطاء ضمانات من الذهب والسندات

وما إلى ذلك من وسائل أخرى بيد أن هذه الدول ما كانت تحصل على شيء من الريخ في مقابل إنشاء هذا الرصيد ذلك بأن الريخ درج دائماً على الدفع عن طريق البنوك المركزية بالأساليب التي سبق ذكرها ؛ على أن الريخ إلى بجانب ذلك كله كان يحصل على عمولة كبيرة في نظير قيامه بهذه العمليات المالية والتجارية بين الدول . فكان من نتائج ذلك كله أنه أصبح من الممتذر على أية دولة من الدول التي خضعت لسلطان النازيين أن تنظم شئون حياتها الاقتصادية على النحو الذي كانت تقتضيه مصالحها أو بما يمكنها على الأقل من مواجهة مطالب الألمان الاقتصادية والمالية المرهقة .

وثمة ترتيب آخر ابتكره النازيون لصرف مرتبات جنودهم في البلدان المحتلة . فقد اخترعوا ما أسموه « سندات إذنية عسكرية » Wehrmachtspverpflichtung ، وكانت هذه من فئات كبيرة (٥٠,٠٠٠ ريخمارك فما فوق) وتحمل تعهداً بدفع قيمتها . وقصر التعامل بهذه السندات الإذنية العسكرية على البلدان التي تصدر فيها ومنع التعامل بها في داخل الريخ نفسه كما أنه تعذر تحويلها إلى الماركات الألمانية بالرغم من أن القيمة المدونة بها كانت بالريخمارك . ثم طبع النازيون أوراق بنسكنوت أسموها أوراق مكاتب أو بنوك الأقراض الألمانية Reichskreditkassenschiene وعممة هذه المكاتب أو البنوك إصدار أوراق البنسكنوت من الفئات الصغيرة (٥٠, ٢٠, ٥٠, ٢٠, ١٠, ٥٠, ٢٠, ١٠ ريخمارك) علاوة عن سك عملة نقدية صغيرة الرعامات اليومية وكان من الممتذر كذلك التعامل بهذه الأوراق والنقود خارج المنطقة المحتلة التي كانت تصدرها ومن باب أول الريخ نفسه . على أنه مما تجدر ملاحظته أن تلك السندات الإذنية وأوراق البنسكنوت ما كانت في الحقيقة إلا وسيلة لإقراض مبالغ معينة للجنود الألمان تمسكهم من شراء منتجات البلدان المحتلة ، وذريعة يتخذها الريخ للامتناع عن صرف مرتبات الجنود بالعملة الألمانية حتى لا تنتقل العملة الألمانية إلى البلدان المفتوحة أو تنفق بها ، وفضلا عن ذلك أرغمت (البنوك المركزية) في البلدان المحتلة على قبول هذه السندات الإذنية والبنسكنوت والنقود وتحويلها إلى عملة محلية على أن ترصد في مقابل ذلك السندات الإذنية العسكرية وغيرها لحساب الريخ الختام فتتختم قيمتها من نفقات الاحتلال ووعده النازيون بتسوية حساباتهم في آخر الأمر مع البلدان المحتلة عند انتهاء الحرب . وبلغت قيمة ما أصدرته البنوك المتنقلة في بولنده في المابين الأوليين من الاحتلال ١٠٠٠ مليون ريخمارك وفي الترويج والدانمرك ٥٥٠ مليون ، وعندما امتدت الحرب إلى الأراضي المنخفضة صدر قرار في ١٥ مايو ١٩٤٠ أجاز لتلك البنوك إصدار أوه لإقراض ما قيمته ٣٠٠٠ مليون ريخمارك لقوات الاحتلال النازية وهيئاتها في الدانمرك والترويج وبولنده وبالجيك والسكسبورج وفرنسا ،

فبانت قيمة ما صدر حتى أواخر عام ١٩٤١ في جميع البلدان المحتلة — ماعدا تشيكوسلوفاكيا — ٤٠٠ مليون ريخمارك أو حوالى ٣٤٠ مليون جنيه انجليزي . ولم يكن إصدار هذه السندات الإذنية وما إليها يستند إلى غطاء كاف من الذهب أو غير ذلك من الضمانات الثابتة ، ثم ما لبثت كمية الأوراق والعملة المتداولة أن زادت ، ولسكن اختفت من الأسواق السلع والمنتجات ، لأن الألمان كانوا يستولون عليها أولا بأول مما أدى إلى تضخم في النقد كبير ، ارتفعت بسببه أسعار الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً جعل الشعوب المقهورة وقتذاك تعيش في ضنك ورؤس شديدين .

وكانت (نفقات الاحتلال الألماني) من وسائل السلب والنهب التي تفتقت عنها أذهان النازيين ، فقد استغلت الدعاية النازية في البلدان المحتلة مسألة تعويضات الحرب التي فرضها الحلفاء على ألمانيا المهزومة في أعقاب الحرب العالمية الأولى وطلق دعايتهم يتحدثون عن تلك الأضرار البليغة التي أصابت بلادهم بسبب هذه التعويضات ثم أخذوا يطعمون ، الدول المقهورة بأنهم بالرغم من انتصارهم لا يريدون أن يفرضوا أية تعويضات من ذلك النوع عليها بل يكتفون عوضاً عن ذلك بتحصيل النفقات التي يسببها احتلال الجنود الألمان لبلادهم حتى إذا وضعت الحرب أوزارها لم يعد للريخ وجه للمطالبة — كما فعل الحلفاء في الحرب السابقة — بأية تعويضات عند عقد الصلح النهائي . ولم يكن ذلك كله إلا وعوداً كاذبة لأن الغرض من نفقات الاحتلال كما فرضها الألمان على البلدان المحتلة إنما كان مجرد السلب والنهب . ذلك بأن النازيين لم يتدبروا قيمة نفقات الاحتلال على أساس ما كانت تستطيع أن تدفعه البلدان المفتوحة دون إرهاق لمواردها أو تعطيل لمراقبها وإنتاجها ؛ بل أنهم لم يحاولوا اتخاذ ما يتكلفه بهذه الاحتلال الألماني من نفقات مشكلة كانت أم فادحة أساساً لتقديرهم وإنما قدر النازيون نفقات الاحتلال على أساس ما كانت الدول قبيمل انبهارها قد خصصته من أموال في ميزانياتها للدفاع عن ملامتها في أثناء الحرب مع العلم بأن النفقات المخصصة للدفاع في أوقات الحروب إنما هي نفقات غير عادية ويستلزم تقديرها تقليل المصروفات في أبواب الميزانية الأخرى . وعلى ذلك كانت نفقات الاحتلال التي طلبها النازيون جسيمة مرهقة بلغت نسبتها في فرنسا مثلاً ١٤ ٪ من مجموع ميزانية الحرب في عام ١٩٣٩ ، وفي بولشيا ومورافيا حوالى ١١ ٪ من مجموع ميزانية الحرب في تشيكوسلوفاكيا للعام نفسه وهكذا كان الحال في سائر البلدان المحتلة ؛ ويتبين جسامته ما سببه الألمان بسبب نفقات الاحتلال هذه إذا وقفنا على حقيقة التعويضات التي أرغمت ألمانيا على دفعها بعد صلح فرساي ، فقد بلغ مادفعته إلى الحلفاء المنتصرين في الحرب العالمية الأولى ١٠ بليون مارك تقريباً في مدة سبع سنوات بين عام ١٩٢٤ ، ١٩٣١ ، وذلك

عندما كان الاتفاق الخاص بالتعويضات ما يزال سارياً ؛ ولكن الألمان استطاعوا أن يجمعوا من فرنسا وبلجيكا وهولنده والدانمرك والنرويج وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا في سنة واحدة من سنوات سيطرتهم على أوروبا حوالي ٧ أو ٨ بليون مارك . أي أنهم جمعوا في عام واحد حوالي ٨٠ ٪ مما دفعه الألمان من « تعويضات » كانت موزعة على سبع سنوات بل من التعويضات التي دفعها ألمانيا إلى فرنسا في خلال هذه السنوات السبع كانت أقل من ٤ بليون مارك . أما النازيون فقد استمروا حتى نهاية الحرب يحصون مثل هذا المبلغ من فرنسا كل ستة شهور كنفقات احتلال . وما يجدر ذكره أن ألمانيا في سنوات التعويضات السابقة (١٩٢٤ - ١٩٣١) استطاعت أن تعقد قروضاً خارجية بلغت ٢٥ بليون مارك ، أي ما يزيد على ما دفعته هي من تعويضات مرتين ونصف مرة . من المعروف أن ألمانيا لم تسدد منظم هذا الدين بل رفضت أن تدفع التعويضات بعد عام ١٩٣١ وزيادة على ذلك منع النازيون في ظل نظامهم الجديد الدول المحتلة من أن تعقد أية قروض ؛ وظلت ألمانيا متمسكة بنفقات الاحتلال حتى وقت انهيارها .

غير أن كل هذه الوسائل لم تكن كافية لشد جشع النازيين ونهمهم . فلجأوا إلى حيل أخرى لا يترافق الأموال واغتصاب ثروة البلدان المحتلة وكان من أساليب النهب والسلب التي درجوا عليها مصادرة أملاك العسود ، وقد بلغت قيمة هذه الأملاك في بولنده مثلاً ١٠٠ مليون جنيهه الإنجليزي — والاستيلاء على رؤوس أموال الأعداء المستثمرة في البلدان التي احتلها النازيون ؛ وقد بلغت قيمة رؤوس الأموال البريطانية وحدها حوالي ٢٥٠ مليوناً من الجنيهات الإنجليزية ؛ والاستيلاء كذلك على أملاك اليهود ومصادرة ثرواتهم وكانت قيمتها في الربيع الثالث وحده تتراوح بين ٢٥٠ ، ٥٠٠ مليون جنيهه الإنجليزي وفي تشيكوسلوفاكيا حوالي ١٢٥ مليون جنيهه الإنجليزي ؛ هذا إلى مصادرة أموال الجمعيات أو الهيئات التي اعتبرها الريع معادية له على غرار ما فعلوا في هولنده بمقتضى قرار أصدره في ٢٦ يولييه ١٩٤٠ — وبجانب هذا كله فرض النازيون الغرامات على الجماعات البلدية والساكنات المحلية في المدن ، مثال ذلك إنهم فرضوا على بلدة (ترندهم) Trondheim في النرويج غرامة قدرها ٦٠,٠٠٠ كراون أو ما قيمته ١٣,٠٠٠ دولار ، نظير ما بدا منها من العداء نحو الجنود الألمان ، كما فرضوا على (غاي) في هولنده مبلغ ٦٠,٠٠٠ جلد أو ٣٠,٠٠٠ دولار مقابل إلتلاف ثلاث سيارات عسكرية ألمانية كانت متروكة على قارعة الطريق ؛ وعلى مدينة باريس ٢٠ مليوناً من الفرنكات أو ٤٠٠,٠٠٠ دولار . لأن أحد الأفراد رفع العلم البريطاني فوق أحد الفنادق بدلا من علم الصليب المعقوف ؛ وعلى (أورليان) بفرنسا مليوناً من الفرنكات لتعطيل

أسلاك التليفون ثم تكررت الغرامة ثلاث مرات والسبب نفسه أجبرت المدن النرويجية (ستافنجر) Stavanger و (روبالاند) و (هوبينسند) على دفع غرامات بلغ مجموعها ٥٠٠,٠٠٠ (كراون) .

ولم يكن هذا كل ما نهبه النازيون من البلدان المحتلة . فقد استولى الألمان بمقتضى اتفاقات الهدنة التي عقدها مع البلدان المغلوبة على أسلاب كثيرة كما أنهم ما لبثوا حتى صادروا الذهب المودع بالبنوك ، فبلغ مقدار ما جمعه حتى أواخر عام ١٩٤١ حوالى ٩٠ بليون مارك أو ٣٦ بليون دولار أو ٩٠٠٠ مليون جنيه إنجليزى . وهذا المبلغ بالذات على حد قول الهر هتلر فى سبتمبر ١٩٣٩ ، يساوى كل ما أنفق على التسليح فى ألمانيا منذ أن وصل النازيون إلى الحكم فى بداية عام ١٩٣٣ إلى وقت سيطرتهم على أوروبا .

ولم تقف أعمال السلب والنهب التى انطوى عليها النظام الجديد عند هذا الحد فقد عمدوا إلى نقل الآلات وأدوات الصناعة بله المعامل برمتها من البلدان المفتوحة إلى الريخ الألمانى ؛ وإرغام (العيار) على الهجرة إلى ألمانيا والعمل فى مناجمها ومصانعها وحقولها ؛ ذلك بأن الألمان كانوا قد أنشأوا منذ ١٩٣٥ ما أسموه (الوحدات المتحركة الاقتصادية) ووضعوها تحت إشراف الجنرال (توما) أحد قوادهم ، وكانت مهمة هذه الوحدات فى وقت السلم أن تقسم ألمانيا إلى «أقاليم دفاعية» (Wehrkreise) بلغت ثمانية عشر أقليماً وذلك لتعبئة النشاط الاقتصادى فى البلاد استعداداً للحرب ؛ حتى إذا نشبت فعلاً أصبحت مهمة هذه الوحدات المتحركة أن تنقل أدوات الصناعة وآلاتها من المناطق المعرضة للخطر فى داخل الريخ نفسه إلى أماكن أكثر أمناً وكذلك نقل أدوات الصناعة من البلدان المفتوحة إلى الريخ الألمانى ، وقد نجح عن عدم المصانع ونقل آلاتها إلى ألمانيا أن انتشرت البطالة فى البلدان المحتلة وحرم ملايين العمال وسائل العيش فى بلادهم . وابتدع النازيون لحل مشكلة البطالة الطارئة «علاجاً» زاد من بؤس الشعوب المحتلة ، ذلك بأن النازيين كانوا فى حاجة مستمرة إلى الأيدي العاملة لإدارة ومواصلة الإنتاج الحربى فعمدوا إلى إرغام العمال المتعطلين فى بلادهم على «الهجرة» إلى ألمانيا للعمل بمصانعها ، وابتكروا وسيلة شيطانية لإحصاء هؤلاء العمال المتعطلين وإجبارهم على الذهاب إلى ألمانيا وذلك بأن سلطات الاحتلال النازية ما لبثت حتى ألزمت العمال المحليين أن يتسجلوا أحوالهم بسجلات مكاتب العمل نظراً لإعطائهم (بطاقة بطالة) ينالون بمقتضاها مكافأة معينة يعتاضون بها عما كان يدفع لهم من أجور فى أثناء العمل ؛ وكان العمال لا يستطيعون الحصول على المقادير المخصصة لهم ولا مزاياهم من المؤن والأغذية إلا إذا أبرزوا هذه البطاقات

إلى جانب بطاقات التموين العادية المعطاة لهم ، غير أن السلطات النازية كانت تشترط في الوقت نفسه أن يجد العمال المتعطلون عملاً ما في زمن قصير ، وكان ذلك مما يستحيل تنفيذه للأسباب التي بسطناها . وعلى ذلك كان يعطاب إلى هؤلاء العمال إما أن يرضوا بالذهاب إلى ألمانيا ، وإما أن تسحب منهم بطاقات البطالة فإذا رفضوا السفر إلى ألمانيا كان من السهل بند ذلك على مخازن البيع الحكومية أن تتدفع بشئ الوسائل حتى لا تصرف مقادير التموين المخصصة للعامل وأسرتة . ولم يكن للعامل أزاء ذلك إلا أن يقبل الذهاب إلى ألمانيا حتى يطرد شبح الجوع عن نفسه وذويه . وقد ذكرت الإحصاءات الرسمية الألمانية أن عدد العمال الأجانب في ألمانيا حتى ١٢ أكتوبر ١٩٤٠ بلغ ١,٦٠٠,٠٠٠ منهم حوالي ٥٠٠,٠٠٠ من أسرى الحرب . وفي يناير ١٩٤١ بلغ عددهم ٣,٠٠٠,٠٠٠ . وكان لا يدخل في عددهم التشيك لأن العمال من التشيك صاروا لا يعدون من الأجانب بعد إدماج (حماية بوهيميا ومورافيا) في الرايخ الألماني منذ أول أكتوبر ١٩٤٠ ثم زاد عدد العمال الأجانب في الرايخ بعد أن وافقت إيطاليا في فبراير ١٩٤١ على إرسال ٣٢٠,٠٠٠ عامل إلى ألمانيا ، وكان من أثر حملة الألمان في بلاد البلقان أن أسر الألمان حوالي ٥٠٠,٠٠٠ من يوغوسلافيا أرسلوا منهم للعمل في الرايخ ٢٥٠,٠٠٠ ؛ وكذلك جميع النازيون من مملكة كرواتيا الجديدة ٥٠,٠٠٠ عامل وبلغ عدد الأسرى من البريطانيين واليونانيين الذين أرسلوا للعمل في ألمانيا ٢٣٠,٠٠٠ . فكان عدد الأجانب المشتغلين في ألمانيا حتى صيف ١٩٤١ بين ٢,٧٠٠,٠٠٠ و ٣,٠٠٠,٠٠٠ رجل يضاف إليهم عدد من التشيك وأسرى الحرب الذين كانوا يشتغلون بعض الوقت فقط .

وكان هؤلاء جميعاً يعملون في ظروف قاسية مرهقة إذ أن متوسط ساعات العمل في الأسبوع الواحد بلغت حوالي ستين ساعة على أقل تقدير وكان العمال يقيمون في شكنات ثم طلب إليهم أن يدفعوا من أجورهم الفوتية نفقات السكن والطعام عدا بعض الضرائب المحلية والتأمين عند المرض والحوادث وما إلى ذلك . وأما إذا استطاع العامل بعد هذا كله أن يرسل شيئاً من المال لمساعدة أسرته فإن حكومة الرايخ كانت تستولى على ما يرسله ثم تسلك به الدولة المحتالة بدفع ما تساويه هذه المبالغ من العملة المحلية .

ولعل انسى ما في هذه المسألة أن الألمان كانوا يرسلون هؤلاء العمال الأجانب إلى المناطق المعرضة للغارات الجوية البريطانية . وقد ذاق العمال الدانمركيون النازيين بسبب اشتغالهم في مصانع وأحواض (لوبيك) و (هامبورج) وغيرها ، بل أن الألمان ما كانوا يسمحون بوقت العمل حتى في أثناء الغارات وبذلك بسبب ذلك عدد عظيم من العمال الهولنديين بيميناء (هامبورج) في إحدى الغارات الشديدة في نوفمبر ١٩٤١ . أما النازيون فقد فسروا هذه الكارثة بقولهم : إن هؤلاء العمال كانوا متعبين إلى حد لم يدع لأحد منهم فرصة لمساعدة المسكن والالتجاء إلى الخاف . . .

الفصل الثالث

أوروبا « الحرة »

طبق (النظام الجديد) أول ما طبق في البلدان المحتلة وكان ينطوى على ضرور من السلب والنهب حرض النازيون على أن يصيغوها بصفة قانونية ولذلك فقد بات من المتوقع ألا تخضع الشعوب المقهورة لسيطرة النازيين ، وأن تعمل على تقويض أركان النظام الجديد الذى فرضه الألمان عليهم بشئى الطرق ؛ وقد سبق القول أنه كان من أهداف الدعاية النازية استمالة بعض العناصر في البلدان المحتلة إلى التعاون مع النازيين في سياسة النظام الجديد بدعوى المساهمة في تشييد صرح ذلك العالم المثالى الذى يكفل تحت زعامة الريخ الثالث كل طعاماً نينة وعيش سعيد للشعوب الأوروبية كافة . ومع أن النازيين قصدوا من هذه الدعاية دعم السيطرة الجرمانية على أوروبا ، ثم على العالم أجمع ؛ ومع أن تطبيق النظام الجديد أسفر قبل كل شئ عن نهب هذه الشعوب المقهورة وتسخيرها في خدمة والسادة الجرمان ، فقد أفلح النازيون في تصيد طائفة من المغامرين الذين قبلوا التعاون معهم في كل بلد فتحوه . فقد وجدوا في فرنسا أنصارا يؤيدونهم بزعامة (لافال) و (دارلان) ومارسيل ديا Déat ؛ ثم في النرويج الميجر فيدكون كويسلنج Vidkun Quisling ؛ وفي تشيكوسلواكيا الكولونيل مورافيش Moravec والدكتور فوسيك Fousek وغيرهما ؛ في يوغسلافيا الجنرال نديش Nedie (عن سربيا) والدكتور بافليش Pavelic (عن كرواتيا) ؛ وفي هولندا الدكتور مسرت Mussert ؛ ثم في الدانمرك كلا من فريتز كلوسن Frits Clausen ، والدكتور مكشبنوس Scavenius (وزير الخارجية) وبيترسن Petersen (وزير العدل) ؛ ثم في اليونان تسولا كبتلو Tsolakoglu .

غير أنه إذا استثنينا فرنسا حيث كان يحاول المارشال (بيتان) و (لافال) و (ديا) استمالة شطر كبير من الشعب الفرنسى للتعاون مع الريخ الثالث ، لأصبح عدد الكويسلنجيين في كل بلد من البلدان المفتوحة والمحتلة لا يزيد في الحقيقة على ٥ ٪ من مجموع سكانها بل إن هذه النسبة تقل كثيراً في هولندا وتشيكوسلواكيا وسربيا واليونان والنرويج ودول البلطيق ولا يزيد في هذه الدول عدد المتعاونين مع النازي على ١ ٪ من السكان . وفي هولندا على وجه الخصوص لم يستطع النازيون استمالة أحد إليهم . فلم يجدوا بها غير الجرمان الأقارب

Volksdeutsche على استعداد لمؤازرتهم . والاولكيانيون وسخدمهم هم الذين كانوا يعملون إلى التعاون مع المحر هتلر .

ولذلك لم يكن سواد الشعب في هذه الدول المغلوبة على أمرها يرمأ من الأيام قانعاً بالعيش الدليل في ظل الاستغلال النازي المريع ، والأدلة على ذلك متوفرة ، فهناك الصحف النازية نفسها في الريخ وفي البلدان المحتلة والمفتوحة كانت تشكو من الشكوى من امتناع الشعوب المقهورة عن التعاون مع الريخ في دعم أركان النظام الجديد ؛ كما كانت هذه الصحف تنشر بعض أخبار المقاومة المنظمة لتعطيل الإنتاج الإقتصادي على وجه الخصوص ؛ ثم هناك الأخبار والنشرات التي كانت تنسرب إلى العالم الخارجي ؛ هذا إلى جانب ما يقمعه عدد من السعاده الحفظ الذين أفلتوا من معسكرات الاعتقال أو من قبضة الجستابو المظلمة بالدماء .

ومن هذه المعلومات كافة يتبين أن مقاومة هذه الشعوب المقهورة كانت على نوعين : إيجابية وسلبية .

فقد اهتم الغزاة الألمان دائماً من بداية الفتح ، في البلدان التي سقطت في قبضتهم بتجريد الجيوش الوطنية والمدنيين من الأسلحة لأن النازيين الذين يعرفون حق المعرفة مقدار كراهية هذه الشعوب المغلوبة لهم لم يطمئنوا إلى العيش بين وطنيين مسلحين . ولذلك تشدد النازيون في جمع الأسلحة وكثف الجستابو ورجال الشرطة بهذه المهمة ؛ ووقع النازيون عقوبة الإعدام فوراً في البلدان المفتوحة على كل ممتنع عن تسليم ما لديه من أسلحة وذخيرة . ومع ذلك أخفق النازيون فيما أرادوا إخفاقاً ملموساً . إذ استطاع أهل الدول المهزومة إخفاء عدد لا يستهان به من الأسلحة سرعان ما ظهر أثرها في حوادث الاغتيال المتكررة التي ذهب ضحيتها كثيرون من الألمان ومن صنائعهم الذين قبلوا بالتعاون معهم ومع أن الألمان عمدوا إلى اتباع طريقة أخذ الرهائن ثم إعدام المئات منهم عند وقوع حوادث الاغتيال ، فإن هذه الفسوة لم تفد شيئاً في ردع الوطنيين أو تخفيف وطأة هذا النوع من المقاومة الإيجابية . بل إن هذه البلدان المفتوحة والمحتلة سرعان ما أصبحت مراكز شديدة الخطر للمقاومة الإيجابية ضد السيطرة النازية .

وكان تنظيم أول مراكز المقاومة الإيجابية في تشيكوسلاكيا ، وسبب ذلك أن حكومة هذه البلاد أدركت من أيام (ميونخ) المعرفة أن الحرب لا غالة واقعة ، وأن الوطن سوف يسقط عاجلاً أو آجلاً تحت نعال الألمانين . وأن الاحتلال الأجنبي لبلادهم سوف يطول أمده فعمدت الحكومة منذ سبتمبر ١٩٣٨ بوضع الإرشادات والتعاليم المفصلة لتوضيح ما ينبغي أن يقوم به أهل البلاد من ضروب المقاومة ضد العدو في المستقبل ، وبعد انهيار

الجيش التشيكوسلوفاكي . وكان أهم ما عني به التنظيم الحكومي السري الشاكد من وجود
أكبر مجموعة ممكنة من الأسلحة الحديثة لدى الأهالي ، كالبنادق والمدافع الرشاشة وغير ذلك
مخفية في حوز مكين يعجز الجستابو أو الجيش الألماني عن العثور عليه . وكذلك نظمت
الحكومة جيش المقاومة الإيجابية تظليماً دقيقاً ، فأنشأت الرتب العسكرية ووزعتها على
المسكرين والمدنيين على السواء فكان هناك القواد والضباط والجنود وهكذا . .

فما هو إلا أن احتل الألمان من غير قتال بلاد السويد في أكتوبر ١٩٣٨ ، ثم
برهيميا وموراڤيا في مارس من العام التالي حتى خرجت إلى عالم الوجود هذه المقاومة الإيجابية
المنظمة تبخى إلحاق الأضرار البايغة بعتاد الحرب النازي واحتلال الألمان وصنائعهم . وقد
برع التشيكوسلوفاكيون في هذا النوع من المقاومة حتى أن « حامي » برهيميا وموراڤيا
(هيدريش) Heydrich والمعروف باسم « جزار موراڤيا » الذي اغتيل في ٢٧ مايو ١٩٤٢
على أيدي جمعية سرية تابعة للجيش الوطني ، رأى أن يوقع عقوبة الإعدام على ٤٠٠ من
القواد وأركان الحرب والموظفين والصناع والفلاحين التشيك ؛ كاقبض على عدد من الوطنيين
بلغ (١٠٠٠) ، ووجه الجستابو إلى هؤلاء جميعاً طائفة من التهم المتنوعة : منها أنهم نجحوا
في إخفاء بعض الأسلحة التي أنتجتها المصانع التشكية للحرب لأسباب وطنية وإنهم نظموا
حركة المقاومة المعروفة باسم « الإبطاء المنعم » في الإنتاج وإنهم قاموا بأعمال تخريب
واسعة ؛ أو كانوا على اتصال مستمر بطريق اللاسلكي مع لندن ؛ أو ألقوا آلات وأدوات
الصناعة العسكرية الألمانية وهكذا . وكان من بين الذين أعدموا (الدكتور فرانكسبرجر) ،
وهو من كبار رجال وزارة الزراعة ، اتهمه الجستابو بالعمل على تعطيل تسليم الحبوب
والغلات الزراعية الأخرى (التشيكية) إلى سلطات الاحتلال الألماني . ومع ذلك ، وعلى
الرغم من طش الجستابو وقسوة الاحتلال النازي ، فقد ظلت تشيكوسلوفاكيا من مراكز
المقاومة الإيجابية القوية ضد النازي في أوروبا .

وأما ثاني المراكز الهامة لهذه المقاومة الإيجابية فكانت يوغوسلافيا إذ جعل نشاط
الجماعات السرية المنظمة حياة الجند الألمان والنيطالين والهنغاريين والبلغاريين الذين يحتلون
بلادهم حدة شتاء وإرهاق مستمر ؛ فهناك شطر من الجيش اليوغسلافي السابق تحت
قيادة الجنرال دراڤا ميخائيلوفتش كان يعمل جدياً كوحدات مدربة على القتال العنيف في
غابات البوسنة ، ثم في سائر أنحاء البلاد بعد ذلك ؛ وهناك جماعة التشيتك Cetnik
كانت مهمتها العمل في الجبل الأسود وكرواتيا ودلماسيا ؛ ثم هناك جماعة الشيوعيين ويعرفون
باسم (البارتيزان) Partisans كانت مهمتهم الهجوم على مدن يوغوسلافيا الشمالية ؛ ثم

أخيرا هناك « حزب الفلاحين الكروات » القديم وكانت يوغوسلافيا الجنوبية ميدان نشاطه . وكان جيش الجنرال ميخائيلوفتش يتراوح بين العشرين والمائة ألف جندي نظامي ، وبغضنم إليه عدداً من النساء . وقد درب هذا الجيش بحيث كان من السهل على جنسده خلع الأردية العسكرية وإخفاء السلاح في الليل ، حتى إذا بدأ النهار عادوا إلى أعمالهم المادية كفلاحين أو رعاة خنازير أو صناع أو عمال وهكذا . فلا يمضي وقت قصير حتى يلتصم هؤلاء ثانية في معركة دامية مع جيش الاحتلال ؛ وعاشا كان يحاول الجستابو والجند الألمان عقب المعركة البحث عن الأسلحة أو الذخائر أو الأردية العسكرية . وفي خريف ١٩٤١ خاض هذا الجيش غمار معركة حامية في (سابو) Saboc استخدم فيها اليوغسلافيون المدافع الثقيلة تحت أنوف الجستابو وسلطات الاحتلال . ومن ضروب المقاومة التي برع فيها هذا الجيش الهجوم على السكك الحديدية ومناجم الفحم ومحطات توليد الكهرباء والجسور والقناطر ومخازن الذخيرة وثكنات الجند الألمان والمطارات وهكذا .

وفي كثير من الأحيان كان يتعاون (النشستنيك) و (البارتيان) و (حزب الفلاحين الكروات) مع جيش ميخائيلوفتش . إلا أن مهمة (النشستنيك) الأساسية كانت مفاجأة جيش الاحتلال في جماعات شبه عسكرية سريعة الحركة مسلحة بأسلحة من الطراز الأول ، فينزلون بالعدو أضرارا بليغة ويفرون بسلام . وأما مهمة (البارتيان) و (الفلاحين الكروات) فكانت إرهاب المدن التي يحتلها الألمان والإيطاليون واغتيال الخونة والألمان المتخالفين في أساليب التعذيب والإجرام ، ثم تخليص الرهائن والنفائس أو تعطيل نقلها .

وعندما كانت هذه الجماعات تعمل متضامنة كانت تؤلف قوة كبيرة وجد الألمان والايطاليون من جراء نشاطها أن يحتفظوا في هذه البلاد في أثناء الشهور الستة الأولى من عام ١٩٤٢ بعدد من الفرق العسكرية لا يقل عن ست أو سبع فرق على الرغم من الحاجة الملحة إلى استخدام هذه القوة العسكرية في ميادين القتال . وهناك أدلة متعددة على مقدار ما أنزلته هذه القوات بالألمان وحلفائهم وصنائعهم من خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد الحربي . فقد حدث في يولية ١٩٤٣ أن قتل الوطنيون اليوغوسلافيون ما لا يقل عن ١٠٠ إيطالي عندما هجموا فجأة على الثكنات الإيطالية في جزر دلماسيا التي تقع في البحر الادرياتيكي تجاه إيطاليا . وقد ترتب على هذا الهجوم أن إيطاليا لم تلبث أن أعلنت التعبئة العامة في ألبانيا ، وكذلك ألغيت إجازات جميع أفراد قوات المحور في البلقان وأرسلت سريعا النجيدات الكبيرة إلى اليونان . بيد أنه لم تمض أيام قلائل على هذا الحادث المروع حتى اشتبك اليوغوسلافيون الوطنيون مع الألمان في معركة كبيرة في منطقة وادي كمارينكا التي تبعد نحو ٥٠ إلى ٦٠ ميلا

بجنوب سراييفو المشرق عاصمة البوسنة ؛ ثم حدث في شهر سبتمبر من العام نفسه أن التحم اليوغوسلافيون الشيوعيون مع الألمان ومع مقاومة الأوستاشي الكرواتية الموالية لهم في منطقة (سنج) ، كما استمرت نيران الحرب بينهم وبين الألمان في الجبل الأسود وفي الهرسك ، وغنم اليوغوسلافيون كليات كبيرة من الذخائر واستولوا على عدة مدن . وفي أكتوبر كانت قوات الجيش اليوغوسلافي الوطني لا تزال تواصل عملياتها الهجومية بنجاح في الجبل الأسود والهرسك والبوسنة ، ودارت معارك عنيفة في ساحل دلماسيا وفي سلوفينيا وعلى حدود ألبانيا . وفي كرواتيا ، خصوصا مقاطعة سلافونيا على طول حدود هنغاريا ؛ ثم استطاعت الحسابات الوطنية أن تقف على بعد ميل واحد من زغرب وأن تقطع خطوط تموين المدينة ، هذا عندما فلتت من أعمال التخريب المتعددة كاتراخ خطوط السكك الحديدية ونسف الجسور في جميع هذه المناطق . واضطر الألمان من جراء ذلك إلى اتخاذ عدة تدابير منها ما أذاعه راديو بودابست منذ يولييه عن استعداد القيادة العسكرية الألمانية في سربيا لمنع مكافأة مالية كبيرة لمن يأسر الجنرال ميخائيلوفتش حيا أو ميتا ، أو يستطيع استبعاد شره بأية وسيلة كانت ؛ وفي أكتوبر أعلنت الحكومة المجرية الأحكام العرفية في مناطق المجر الجنوبية وفي المناطق المحتلة وفي المنطقة المتاخمة لدولة كرواتيا الضالعة مع الألمان . وفي ١٤ أكتوبر أذاع الراديو الألماني أن الفيلد مارشال روميل تولى القيادة العليا للأعمال الحربية الموجهة ضد الثوار اليوغوسلافيين ؛ وعيها حاول الألمان استعمال زعيم حزب الفلاحين الكروات عندما عرضوا عليه منصب رئيس الدولة إذا أيد الألمان وحك العصابات الكرواتية على التخلي عن نشاطهم ، فوضعه الألمان تحت رقابة شديدة ؛ وكان من جراء تسليم إيطاليا أر صارت الوحدات الإيطالية الباقية في يوغوسلافيا تتعاون مع الجيش اليوغوسلافي الوطني في الجبل الأسود وفي سلوفينيا وفي دلماسيا ، وفي أكتوبر كانت جميعها تقاتل إلى جانب اليوغوسلافيين . وفي ٢٦ من الشهر نفسه أحرز اليوغوسلافيون الأحرار انتصارا عظيما عندما استولوا بعد قتال عنيف على بلدة (فارسر — ميدان) وهي آخر مركز للصناعات الثقيلة في البوسنة كان لا يزال في أيدي الألمان . وفي أواخر عام ١٩٤٣ تفوق في الميدان المارشال (تيتو) Tito يقود القوات (الوطنية) وسمى جيشه بجيش التحرير ، واستطاع أن يقنع مضاجع الألمان ، حتى تمكن جيشه — إلى جانب القوات الوطنية الأخرى — أن يشعل ما لا يقل عن أربع عشرة فرقة ألمانية ؛ واضطر الألمان إلى جلب إمدادات من اليونان وألبانيا لا تقل عن خمس فرق . وفي بداية عام ١٩٤٤ كان القتال لا يزال مستمرا في جميع ساحات الجبهة في شرق البوسنة وفي كرواتيا وبالقرب من زغرب وفي دلماسيا وغيرها .

وقد نجح عن نجاح هذه الجيوش الوطنية بتعطيل السكك الحديدية الرئيسية والخطوط الاستيعابية الممتدة صوب الجنوب الشرقي إلى البلقان واليونان ، كما دخلت الملاحة في نهر الدانوب باغراق السفن في مجرى هذا النهر ، فاحتل النقل من جراء ذلك بين ألمانيا وبلاد البلقان اختلالا كبيرا . وهكذا لم يلبث أن وجد الألمان الذين بنوا آمالا عريضة على إمكان الاستفادة من استغلال ثروة يوغوسلافيا المعدنية والاستيلاء على غلاتها الزراعية أن فشل بحيف بتعطيلهم جميعا .

وقد سبقت الإشارة إلى الأساليب التي اتبعتها النازيون في إبادة البولنديين واليهود منهم خاصة . ولذلك فقد ظلت بولندا منذ سقوطها في أيدي النازيين مركزا رئيسيا من مراكز المقاومة الإيجابية والسلبية في أوروبا النازية . ومع أن الألمان ارتكبوا مع أهل هذه البلاد فظائع تقشعر من هولها الأبدان إلا أن ذاك لم يخفف شيئا من حدة هذه المقاومة ؛ بل على العكس من ذلك ، قويت هذه المقاومة وزادت عنفا من جراء هذه الفظائع . وكان من المنتظر بعد الغزو ، منذ أن تم للنازيين ما أرادوا من تنظيمات تضمن لهم السيطرة وبخاصة في أثناء عامي ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ، أن ينفع قليلا ذلك الكابوس الجاثم على صدور البولنديين . ولكن هروب السككبيين منهم إلى الخارج للقتال مع جيوش الأمم المتحدة ، ثم إصرارهم على المقاومة في داخل بلادهم ، وزيادة مشاغل الألمان من جانب آخر منذ اشتعلت الحرب الروسية الألمانية كل ذلك جعل النازيين يعمنون في أساليبهم الوحشية لإبادة البولنديين . فأوقعوا يهود وارسو مذابح كانت أقساها مذبحه شهر مايو ١٩٤٣ المروعة . كما أكثروا من اعتقال المئات من المثقفين ، وفي يونية أتهم حوالى السبعمائة شخص من هؤلاء بأنهم اشتركوا في هجمات سرية تعمل ضد الألمان . واشتد بطش النازيين فنفسوا بالديناميت أو أحرقوا ٢٠٠٠ (ورشة) ٣٠٠٠ متجرا ، ١٠٠ ألف بيت في المنطقة المخصصة لليهود في مدينة وارسو وحدها . ومن بين المآسي التي وقعت في عام ١٩٤٣ أن النازيين لم يلبثوا أن نقلا الأطفال البولنديين الذين تزيد أعمارهم على اثنتي عشرة سنة مع غيرهم من المراهقين إلى معسكرات العمل الإجباري في ألمانيا وحدث عندما وصلت في شهر مارس قوافل كثيرة من صغار الأطفال إلى بوميرانيا وكانت أعمار أغلبهم تختلف بين أربع سنوات وعشر أن هرع النساء البولنديات في هذه الجماعات لتولى هؤلاء الصغار بعنايتهم . فقامت سوق لبيع الأطفال وكان الحراس الألمان يبيعون الطفل الواحد بأربعين ماركاً فحسب . ولم يكن غريبا بعد هذا كله أن تصبح بولندا من مراكز المقاومة الخطيرة في أوروبا المحتلة .

وقد حاول النازيون بشق الوسائل أن يخذلوا هذه المقاومة بتوعيمها (سلبية وإيجابية)

وهي لا تزال في مهبها ولسكنهم أخفقتوا . فلم تلبث الصحف النازية أن نشرت أخبار المقاومة وكان أهم ما شكت منه ظهور العصابات المسلحة من « اللصوص وقطاع الطرق » البولنديين الذين دأبوا على مفاجأة صراكن الشرطة الألمانية المنزلة والحراس الألمان ، ومقر قيادة الجستابو نفسه . بيد أنه لم يكن من أغراض هذه العصابات المسلحة الاستيلاء على المال أو الطعام ، بالرغم من انتشار المجاعة في بولندا ؛ بل إن أهم ما كان يعنى هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق العثور على أولئك « الجلادين » و « الجزارين » الألمان الذين أهلكوا ألوف البولنديين ليقتلهم ويستولوا على سلاسلهم وذخيرتهم . ومنذ خريف ١٩٤١ نظمت هذه العصابات المسلحة ، ونجم عن هجومها المتكرر على مخازن الذخيرة والسلاح أن صارت بولندا تحتفظ بقدر وافر من الأسلحة والذخائر مخبأة في جهات متعددة انتظارا لليوم الذي يستطيع البولنديون فيه رفع راية الخلاص والاقصاص من « جلادهم » وقت الهجوم على قلعة هتلر الأوربية .

وكانت اليونان كذلك مركزا رئيسيا للمقاومة الإيجائية في أوروبا . فقد أنزل الألمانيون والابطاليون الذين اشتركوا في احتلال هذه البلاد كما أنزل الألمانيون في كريت ، والبلغاريون في مقدونيا صنوف العذاب بالأهليين . ولعل أقصى ما نزل بهم حرمانهم من الأطعمة واستيلاء سلطات الاحتلال على العقاقير الطبية والضمادات وما إلى ذلك ، حتى انتشرت المجاعة المخيفة في اليونان وكريت ، ومات الأطنال من الجوع والبرد والمرض ، وسقط الرجال في شوارع المدن مهركى التوى ؛ وظلت جثث الموتى مبعثرة في الطرق . وقد بلغ عدد ضحايا الجوع والتمب والبرد والمرض خمسمائة في كل يوم من أيام سنة ١٩٤٢ ، واشتدت وطأة المجاعة في العام التالي . حتى ذكرت المصادر العلمية في أنقرة أن حوالى خمسمائة يونانى من طبقة العمال في أثينا وبيريه ماتوا جوعا في النصف الأول من شهر أكتوبر (١٩٤٣) ؛ وفي نوفمبر كانت اليونان تواجه كارثة وطنية لا مثيل لها بسبب ما تعانيه من نقص في الأطعمة . أضف إلى ذلك أن « السادة » الألمان والاطالين ثم البلغاريين بعد ذلك ظلوا يتفنون في إبتكار الأساليب للاحاق الأذى بالأهليين كأنما الغرض من الاحتلال هو إبادة الشعب اليونانى عن بكرة أبيه ولذلك كله لم يكن هناك بد من أن تكون اليونان من مراكن المقاومة الشديدة في البلقان . فإن فلول الجيش اليونانى الباسل ظلت تحارب في جبال (أيبروس) ومقدونيا وتساليا وطراقية وكريت . حتى اضطر الأبطاليون بسبب هذه المقاومة العنيدة إلى الاحتفاظ (١٩٤٢) بعدد من الفرق لا يقل عن ست عشرة فرقة في اليونان وكريت ، وأرغم الألمان على الاحتفاظ بثمان فرق . وفضلا عن ذلك فقد عمد الألمان إلى إعتقال عدد كبير من أهل القرى وبخاصة في كريت بمثابة رهائن ، وأعدموا معظمهم ؛ ثم صاروا يحرقون القرى كلها نشبت بينهم وبين

العصابات اليونانية أو السكريدية معركة من المعارك ؛ أو اعتدى اليونانيون على ضباط الاحتلال الألمان أو الإيطاليين ، أو أتلقت عصابتهم القنطارات أو عطلت النقل العسكري . ومع ذلك أعد رجال العصابات بحزيرة كريت في شهر سبتمبر ١٩٤٣ جيشاً من ١٥,٠٠٠ محارب ، بينهم جنود من البريطانيين والنيوزيلنديين للهجوم على حاميات المحور عندما ينفرو الحلفاء هذه الجزيرة وتتصدع أركان القلعة الهتلرية ، واستطاعت العصابات السكريدية إنشاء مستودع للأسلحة بفضل الهجوم على حاميات المحور وقواغله ، وألفوا لهم قيادة عامة تحت أوامر الجنرال (مانداكاس) . وقد استمرت أعمال المقاومة في اليونان على شدتها ثم لم تلبث أن امتدت إلى المناطق التي كان يشملها الاحتلال البلغاري في شمال اليونان ؛ ثم احتج اليونان على الاحتلال البلغاري لمقدونيا ونزع كثيرون من سكان هذه المناطق المحتلة إلى الجبال حيث ألفوا العصابات تحت قيادة ضباط الجيش اليوناني . ومع أن النازيين عندما غزوا بلاد اليونان واجتاحوها صادروا جميع السفن الشراعية ، فقد استولى رجال العصابات على عدد من هذه السفن وسلحوها بالمدافع السريعة وصاروا يستخدمونها لنقل الإمدادات إلى الأسر الجائعة . وفي نوفمبر شرع الألمان يهدون العدة للقيام بأعمال حربية هجومية ضد خمسين ألف جندي من رجال العصابات اليونانية المرابطين في المنطقة الجبلية بين تساليا وأبيروس .

• • •

وكان من أساليب المقاومة الإيجابية ، ما يعرف باسم « حركة الإبطاء المتعمد » في العمل والانتاج (Go Slow Movement) ؛ وكذلك أعمال التخريب (Sabotage) وهذان النوعان في الحقيقة من أشد ضروب المقاومة الإيجابية خطراً على النازيين ، في وقت اشتدت فيه حاجتهم إلى كل ما يمكن إنتاجه من أغذية وأردية صوفية وقطنية وأسلحة وذخائر ومصنوعات وغيرها ، لأعداد التعبئة العامة ومساعدة النازيين على إحراز السيطرة الجرمانية في القارة الأوروبية . ثم دعم هذه السيطرة في النهاية .

فمن المعروف أنه كان يوجد لدى الألمان في الحرب العالمية الثانية من الأغذية الاحتياطية — بفضل ما سلبوه من الدول الخاضعة لسيطرتهم — كمية تزيد على ما كان لديهم من الأغذية في الحرب الأولى . بيد أن « التخريب » الذي كان يحدث في أدوات الانتاج كان أعظم خطراً عليها بلا مراء من تخريب أعوام الحرب الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . وكذلك أدت حاجة الألمان الملحة إلى المنسوجات الصوفية والقطنية إلى تدبير حملة الشتاء المعروفة في عام ١٩٤١ — ١٩٤٢ من أجل جمع الملابس الصوفية والقطنية . ودل اعتماد الألمان بهذه الحملة على أن مخازنهم ومصانعهم في الرايخ وفي البلدان الخاضعة لهم . قد أصبحت خالية من الصوف

والنظن ، حتى كان الجنود الألمان المرسلون للقتال في الميدان الروسي يرتدون ملابس النساء الداخلية من صوفية وقطنية ملابها للتدفئة .

وعدا ذلك دلت الحملة الروسية على أن القيادة العسكرية الألمانية أخطأت التقدير إلى مدى بعيد . فقد ظل القتال على شدته منذ نشوب الحرب مع روسيا في صيف ١٩٤١ . ولذلك لم يستطع الأمر هتلر الاستغناء عن مقاتلته في شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ لارسالهم من ميدان القتال إلى المصانع والناجم وغيرهما لإنتاج الأسلحة والذخائر الضرورية لهجوم الربيع . بل على العكس من ذلك أرسل النازيون منذ يناير ١٩٤٢ سيلا من القوات الجديدة إلى الجبهة الشرقية ، حتى أقفرت المصانع تماما عن العمال الألمان واضطر النازيون إلى الاعتماد كل الاعتماد على الصناع والعمال الأجانب الذين جلبوهم بكثرة عظيمة من البلدان المحتلة للعمل في المصنع والمنجم والحقل . مع العلم بأن الألمان كانوا حتى صيف ١٩٤١ يستخدمون من هؤلاء العمال ومن بينهم أسرى الحرب ، حوالي ٣,٠٠٠,٠٠٠ رجل كما سبق ذكره .

يبد أن الاعتماد في الإنتاج على العمال « الأجانب » سواء في داخل الريح أو في الدول المحتلة ، لم يلبث أن مهد الفرصة لظهور حركة الإبطاء المتعمد كأسلوب من أساليب المقاومة الإيجابية الشديدة . ومعنى الإبطاء المتعمد : الأعمال المقصود في العمل ، وإتلاف الآلات بدعوى جهل طرق استعمالها ، وتضييع الوقت سدى في مناقشات لا طائل تحتها ، وتظاهر العمال بالغباوة والبلادة والجهل والخوف في المصنع ، وعدم فهم الأوامر والإرشادات والتعليمات على الرغم من إلقائها عليهم المرة بعد المرة ، وترك المواد والآلات تسقط وتحطم أو تتلف « سهوا » أو « قضاء وقدر » وهكذا مما يجر إلى تبديد الوقت والجهد ويؤدي في النهاية إلى نقص الإنتاج إلى حد ملحوظ .

ولم تكن حركة الإبطاء المتعمد هذه مقصورة على المصنع وحده . بل كانت منتشرة في الحقل وفي مصالح النقل بالسكك الحديدية والأنهار وغيرها : وفي المنازل حيث يقوم بخدمة « السادة » الألمان النساء البولنديات خاصة ، فيتعمد العاملون في هذه النواحي بسبب إبطائهم الشديد تضييع الوقت سدى ، ثم تخريب أو إتلاف الآلات والأدوات وما إليها ؛ وكل ذلك بدعوى الجهل والفسيان أو التظاهر بالغباوة ومن أمثلة ذلك وضع الزجاج أو المسامير خفيا أو سهوا في علق المواشي ، أو إحراق الملابس الصوفية أو تعمد الإبطاء في أوقات الحصاد حتى تتلف المزروعات بمرضها للعواصف والعوامل الجوية ، أو إخفاء الحبوب ، أو ذبح الماشية ، أو تعريضها للوبت فجأة ، ولعل أكبر نجاح صادفته هذه الحركة كان في مناجم الفحم حيث يتعذر على الملاحظين الألمان مراقبة كل عامل على حدة . ومع أن

النازيين كانوا يوقعون عقوبات شديدة ، تبلغ حد الاعدام على كل من ثبتت عليه تهمة الإبطاء المقصود أو إتلاف الآلات وغيرها أو التخريب ، عموما فقد ظلت حركة الإبطاء المتعمد ، على شدتها بل كثيرا ما وجد العمال الأجانب وسيلة للانتقام شر انتقام من رؤساء العمل الألمان الذين يشتدون في ملاحظة العمال المشتغلين في المصانع وغيرها ويوقعون عليهم العقوبات الصارمة لابطائهم .

وقد نجحت حركة الإبطاء المتعمد وانتشر التخريب في أوروبا النازية انتشارا كبيرا ، فصارت الشعوب المتهورة يبارى بعضها بعضا في إتقان هذا النوع من المقاومة الانحياضية . فامتاز البولنديون — إلى جانب قيامهم بأعمال التخريب الكبيرة — بالبراعة في إرهاب أعصاب الأسرات الألمانية التي اعتمدت في إدارة مزارعها على « الخدم » البولنديين . كما اعتمدت في أعمال زراعتها على سواعدهم فأزول البولنديون بهذه الأسرات خسائر فادحة في المنزل وفي الحقول على السواء . أما النرويجيون الذين كانوا يشتغلون في المصانع وأحواض السفن الألمانية فقد اتخذوا لهم شعاراً : « العمل مدى ساعتين في اليوم فحسب لحساب هتار وست ساعات لحساب الملك هاكون ١ » . ولم يقل عنهم حماسة في ذلك البلجيكيون والهنولنديون والتشيكي . ومن الحوادث التي تدل على إيمان التشيك في هذا النوع من المقاومة ، ما وقع في فيينا في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤١ عندما ألقي القبض على ثلاثة منهم وأعدموا رميا بالرصاص ولادعائهم — كما جاء في التقرير الرسمي — أنهم من رجال الجستابو حتى يستطيعوا المضى في أعمالهم غير القانونية . . . والحقيقة هي أن هؤلاء الرجال كانوا يدعوى تنفيذ أوامر الجستابو ، يكلفون المصانع لإنتاج أشياء وممنوعات لاداعي لها ، اقتضى صنعها استهلاك كمية كبيرة من الخامات سدى ، إلى جانب تضيق جهود العمال وأوقاتهم في هذه المصانع .

وكان من آثار هذه الحركة ، أن نقص الإنتاج كثيرا في المصانع التي كانت تشتغل في أوروبا النازية لحساب الألمان . مثال ذلك أن الإنتاج في تشيكوسلفاكيا في خريف ١٩٤١ كان يقل ، ٤ ٪ عما كانت هذه الدولة تنتجه في الظروف العادية . هذا على الرغم من توفر الخامات والأيدي العاملة بها . وفي مصانع (سكودا) المشهورة قل الإنتاج بنسبة ٣٣ ٪ وفي مصانع مدافع (برين) Bren المعروفة قل الإنتاج بنسبة ٤٠ ٪ . وفي مناجم الفحم البلجيكية قل الإنتاج منذ خريف ١٩٤١ بنسبة ٣٦ ٪ . ومع أن الألمان أحضروا إلى هذه المناجم عمالا كثيرين ، وزادوا من ساعات العمل بها ، فقد ظل الإنتاج في ديسمبر ١٩٤١ ويناير ١٩٤٢ ينقص ٣٠ ٪ عن إنتاج العام السابق .

أما الفرنسيون فقد كانوا في طليعة الشعوب التي أقيمت هذا النوع من أنواع المقاومة الإيجابية . حقيقة ظل الفرنسيون في بادئ الأمر في شبه ذهول كبير من صدمة ذلك الانهيار الذي حطم في نفوسهم كل أمل وكل رغبة في المستقبل ، حتى نجحت الدعاية النازية في استئالة الأنصار والمتعاونين مع رسل النظام الجديد في فرنسا ، ولقيت هذه الدعاية كل تأييد من جانب حكومة فيشي . ولكن الأساليب النازية لم تلبث أن أزلت الغشاوة الثقيلة التي أسدلت على عيون الفرنسيين وأبصارهم عندما وجدوا « السادة » الألمان لا ينفون من تطبيق النظام الجديد سوى نهب فرنسا وسلبها ؛ كما أنهم ظلوا محتفظين بالأمري الفرنسيين كرهائن حتى يضمنوا سكون هذا الشعب المهزول إلى الميث الدليل وإرغامه على الرضا وقبول السيطرة الألمانية على أمل الإفراج عن هؤلاء (المليونين) من الرجال الذين ينتظر عودتهم الأهل والأقرباء في كل بيت من بيوت فرنسا تقريباً ؛ وهذا أيضاً عدا حوالي ١٠٠,٠٠٠ عامل فرنسي ، حتى أغسطس ١٩٤٢ أرغموا على العمل في ألمانيا بالوسائل التي تقدم ذكرها . وكان من عوامل إحياء الأمل والرجاء في قلوب الفرنسيين إخفاق الألمان في معركة بريطانيا ، وإخفاقهم الأول في الحملة الليبية المعروفة ، وكذلك عنف القتال في الجبهة الروسية . فأفاق الفرنسيون من سباتهم رويدا رويدا ، ثم أدركوا أن الجحافل النازية لم تعد تلك الجيوش المظفرة والتي يستحيل قهرها .

لذلك بدأ الفرنسيون منذ أواسط عام ١٩٤١ يتقنون أساليب المقاومة الإيجابية ولما كان النازيون يعتمدون على العمال الفرنسيين في المصانع الفرنسية لإنتاج آلات الحرب ، فقد وجد الفرنسيون مجالا واسعا للتخريب « و » والإبطاء « في المصانع . ومن ذلك الحين كشف الألمان أن الطائرات التي تخرجها المصانع الفرنسية لاتصلح للملاحة الجوية ، وأن كثيرين من طيارهم يفقدون الحياة عند محاولة اختبارها قبل إرسالها إلى ميدان القتال ؛ كما كشفوا أن « خرطوش » البنادق والمدافع المرسل من المصانع الفرنسية يصل في الغالب غالبا من المواد المنفرقة . وفي مرسيليا وجد الألمان أن جزءا كبيرا من الأغذية المعدة لتكوين الجيش الأفريقي يتلف ويعطب قبل إنزاله إلى سفن النقل . ومن طريف ما يذكر عن أساليب حركة الإبطاء المتصود أن ضابطا نازيا عهد إليه في إنشاء مطار في فرنسا في أرض ممهدة نوعا . فاستخدم في هذا العمل عددا كبيرا من الفرنسيين ولكن انقضت أربعة شهور دون أن يتم إعداد هذا المطار . وعند البحث اتضح أن سبب ذلك هو أن العمال الفرنسيين كانوا يتظاهرون دائما بعدم فهم الأوامر والإرشادات والتعليمات الألمانية . فإذا طلب إليهم مثلا إقامة بناء في ناحية ما حفرُوا الأرض بدلا من ذلك ، وإذا طلب إليهم العكس أقاموا عليها بناء أو شقوا بها

تروعة أو سفروا فيها خندقاً وهكذا . حتى لم تعد الأرض بعد هذه الشهور الأربعة تصلح لإنشاء المطار على الإطلاق وكان الفرنسيون يعمدون إلى المناقشة والجدل مع رؤساء العمل الألمان دائماً عند إعطاء التعليمات الخاصة بأى عمل فى المصنع أو فى القتل ؛ فيستخذون من الجدل الطويل وسيلة لتضييع الوقت وتحقيق فكرة حركة الإبطاء المتعمد . ولم تفلح عقوبات الألمان الصارمة ومنها الإعدام فى إخماد هذه المقاومة .

وكان من أسباب ازدياد المقاومة ما طلبه الحزب هتلر من تقديم فوج جديد من العمال الفرنسيين عددهم (٤٧٠,٠٠٠) يرسل منهم إلى ألمانيا قبل نهاية شهر يونيه من عام ١٩٤٣ (٢٢٠,٠٠٠) ، أو أن يوضعوا على الأقل تحت تصرف جماعة (تودت) فى فرنسا ذاتها بينما يقدم الباقون وعددهم (٢٥٠,٠٠٠) فى أثناء الأشهر الثلاثة التالية ، فتقابل الشبان الفرنسيون هذا الطلب بكل أنواع المقاومة العنيفة ، واعتصم أهل مقاطعة سافوى بالجبال فراراً من التعبئة ، وبلغ عدد الذين لجأوا إلى الجبال والغابات حوالى الثلاثة آلاف ؛ ثم حدث مثل هذا تماماً فى البرينيه العليا وبريتانى والفنديه ، وبلغت نسبة الهاربين فى هاتين المقاطعتين الأخيرتين ٧٥ ٪ من الأهلين ؛ وقذف الشعب فى إحدى موانئ بريتانى الصغيرة ببعض رجال النازى إلى البحر ، واتسعت حركة العصيان بين الفلاحين فى مدن أخرى وتفاقت تفاقماً كبيراً . وفى مقاطعتى سانت كلو وجورا عظمت المظاهرات احتجاجاً على نقل العمال الفرنسيين عنوة إلى ألمانيا ، ووقع اعتداء على رجال الشرطة ؛ وعندما أرغم العمال الفرنسيون على الذهاب إلى القطارات خلفهم إلى ألمانيا عطل المتظاهرون سير هذه القطارات ، وأتاحوا الفرصة لفرار كثير من هؤلاء المجندين . وفى سافوى أخذ الإيسالبون يهاجمون الشبان الفرنسيين الذين التجأوا إلى بلدة (أنسى) الصغيرة ؛ ولم يقدم هؤلاء بدورهم وسيلة للانتقام من مطارديهم فانقضوا فجأة ذات يوم من أيام شهر أغسطس على أحد المراكز الإيطالية على حدود سويسرة وقتلوا قائد هذا المركز . فيما احتدمت المصارف فى الشهر نفسه فى سافوى العليا بين رجال العصابات والقوات المسلحة ، واعتذر الألمان (إلى إرسال التعديلات لاحتلال منطقة الحدود بأكلها ، فوصل فى سبتمبر إلى دوفنى رايفيان وغيره حوالى ١٠٠٠ جندي ألماني لمحاولة القضاء على (الماكي) وهم ، عصابات الوطنيين الفرنسيين الذين اعتصموا بالجبال فى سافوى العليا فراراً من العمل تحت إمرة الألمان . وفى سبتمبر كان عدد عصابات (الماكي) حوالى ١٢,٠٠٠ من الشبان المزودين بالأسلحة والأدوات الخاصة وأجهزة الراديو . وكل ما يفيد فى تخريب السمك الحديدية بنوع خاص .

وقد روى مراسل جريدة « جازيت دى لوزان » قصة ما تجرى فى المنطقة الجبلية من

الحوادث ، فقال : — « ترى شابا من عمال المزارع يبدو مسالما لا خوف منه يدخل بدراجته مزرعة معينة خصصت له . ثم يستقر في حجرة من حجرات بيت صاحب المزرعة بعد تبادل كلمات مع زوجته . ولا يكاد يستقر به المقام في تلك الحجرة حتى يخرج من حقيبته جهاز الاتصال ويأخذ في استخدامه . ويوجد هذا الشاب بعض الصعوبة في الاتصال بالذين يريد الاتصال بهم . ومع أنه يعلم أن في استطاعة سيارات « البوليس » السرى الألمانى معرفة مكانه بعد عشرين دقيقة من استخدامه جهازه الاتصالى فإنه يظل يرسل رسالته إلى نهايتها . على أن إرسال هذه الرسالة يستغرق عادة مدة طويلة حتى إن الشاب لا يكاد ينهى من عمله حتى يرى إحدى سيارات الجستابو تدخل المزرعة ، ويخرج منها الجنود الألمان مسرعين إلى الحجرة التى كمن فيها الشاب وهم يطلقون النار دون إنذار إلى أن يقع الشاب صريعا مضربا بدمائه . ويمكن أن يقال ، قياسا على ما يحدث هناك أن قانون هذه العصابات لا يعرف رحمة ولا شفقة إذ أن أبناء هذا الحادث لا تكاد تنتشر في البلاد وتبلغ مسامع رؤساء هذه الجماعة حتى يعمدوا إلى وسيلة للانتقام . ذلك بأن سيارة « البوليس » السرى الألمانى بعد أن تاتقط رسالة مستعجلة تقصد إلى « جراج » معين ويخرج منها جنود الجستابو ويتقدمون نحو أبواب « الجراج » ، وبينما هم يحاولون فتح هذه الأبواب إذا بوابل من رصاص المسدسات يفاجئهم الألمان ويقتلهم جميعا عدا السائق . فإنه يضرب ضربا ألما ويطلق سراحه . وفى الواقع يحيا هؤلاء الشبان حياة مخوفة بأشد الخطر ويضحون بكل شيء حتى بأرواحهم فى سبيل إداء واجباتهم . ومنذ استسلام إيطاليا (٨ أغسطس وسبتمبر ١٩٤٣) ترك الجنود الإيطاليون كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر فى أيدي الثوار فى مقاطعتى سافوى وسافوى العليا ، كما أن عددا من الضباط والجنود الإيطاليين الذين لم يستطيعوا الانسحاب إلى سويسرة لم يلبثوا أن انضموا إلى هؤلاء « الثوار » كي لا يتمكن الألمان من نزع سلاحهم . وفى نوفمبر نشب القتال بين الألمان والوطنيين الفرنسيين فى عدة مدن منها تولوز ومرسيليا ثم لم يعد نشاط الوطنيين مقصورا على الجبال ، بل أخذ يمتد بسرعة فى جنوب فرنسا وفى بريتاني . وفى تولوز اعتدى الوطنيون على الجنود الألمان وقتلوا كثيرا منهم ، وفى مرسيليا وقعت مصادمات خطيرة فى الشوارع قتل فيها عدد من الألمان ، وفى (كان) وغيرها صار لا ينقطع صوت إطلاق الرصاص كلما أرخى الليل سدوله . وقد يكفى أن نذكر آخر الإحصائيات التى عملت وقتذاك عن خسائر الفرنسيين الوطنيين لمعرفة مبالغ ما وصلت إليه المقاومة الإنجليزية فى فرنسا من عنف وشدة . فقد قدر عدد ضحايا الوطنيين الفرنسيين فى حوادث المقاومة بنحو (٤٠.٠٠٠) ، هذا بينما بلغ عدد المستجوين لاشتراكهم فى حركة المقاومة السرية نحو نصف مليون .

وينتزع دبلغ خطر هذه المقاومة الإيجابية من مراجعة طائفة من حوادث التخريب التي وقعت في أوروبا النازية بين أغسطس ١٩٤١ . ونوفمبر ١٩٤٣ .

ففي شهر أغسطس ١٩٤١ كان عدد حوادث السكك الحديدية في بولندا ، — حسب الإحصاءات الرسمية الألمانية — ١٢٨ حادثاً أي بما يزيد على أربعة حوادث يوميا .

وفي ليلة من ليالي سبتمبر ١٩٤١ استولى حوالي ٤٠٠ من التشيك و ١٥٠٠ من المدنيين على مناجم الفحم في ليجسلافي Ljeslani في البوسنة (في يوغسلافيا) ؛ وكان يقوم على حراسة هذه المناجم ٧٥ رجلاً قتلوا جميعهم في ماحمة دامية نسفت بعدها هذه المناجم بالديناميت . تم ضرب التشيك محطة توليد الكهرباء المجاورة قبل إنسحابهم . وقدرت الحكومة الكرواتية هذه الخسارة بمبلغ ١٢ مليون كونا (العملة الكرواتية الجديدة) .

وفي ١٦ سبتمبر ١٩٤١ نسفت بالديناميت في بولندا قنطرة السكة الحديدية الرئيسية بين (برسلو) و (وارسو) ؛ وهذا الخط من أعظم خطوط التزوين أهمية بين ألمانيا والجهة الشرقية (الروسية) .

وفي ١٠ أكتوبر أذاع الحاكم الألماني في أقليم (ألبسوند) (Allesund) في النرويج أن الأهالي ألحقوا أضراراً جسيمة بالتحصينات الألمانية .

وفي ١٥ ديسمبر نسفت بالديناميت في بلجيكا الشرقية الأسلاك الرئيسية في محطة (ريسو شارات) Bresoux Charatte لتوليد الكهرباء وهي تمد ألمانيا الشمالية الغربية .

وفي ٤ نوفمبر نسفت بالديناميت أجزاء في منجم فحم (موتيجني) في إقليم (جراند-لييج) وفي يناير ١٩٤٢ أصدر رئيس الشرطة في باريس أمراً بالقبض على عضابة من المحاربين يتزعمها عامل يبلغ من العمر ٢٢ سنة . مهمتها إشعال الحرائق في المصانع وتخريب الآلات .

وفي الشهر نفسه أعلنت الحكومة الألمانية رسمياً أن صعوبة تزوين يوغوسلافيا واليونان بالطعام ناشئة من أن عدداً كبيراً من موظفي السكك الحديد اليوغوسلافية قد انضموا إلى جيش الجنرال ميخائيلوفتش وإلى جماعات (التشتيك) .

وفي ٢ فبراير عين الماجور كويسلنج رئيساً لحكومة النرويج ، فتبع ذلك سلسلة من أعمال التخريب ، إذ أشعلت الحرائق في محطة السكة الحديد في (أوسلو) ؛ ثم انفجرت عدة قنابل في بناء البرلمان النرويجي (Storting) وفي الجامعة والمسرح الحكوميين ؛ ثم أشعلت النيران في أكبر مصنع نرويجي للطايط في (أسكيم) Askim ، وفي مصنع آخر في (درامن) Drammen وقد خرب المصنعان تماماً ؛ وكذلك اشتعلت النيران في (برجن) وفي (إكسفاغ) Laxevaag في مصنع للآلات وفي أحواض السفن .

وفي ٢١ مايو ١٩٤٣ أذيعت أنباء عن وقوع إضرابات خطيرة في عاصمة بلجيكا وأن الوطنيين البلجيكين دمروا أخيراً ٣٣ قاطرة منها ٥ قاطرات كانت تبحر ١٨ مركبة محملة بالذخيرة وعطالوا أو حطموها مؤسسات هامة أخرى .

وفي ٣١ مايو ١٩٤٣ أشعل رجال انصابات التخريب النار في أعظم مصنع نسيج في رومانيا للمرة الثانية وأتلفوا ألوف السكيلو جرارات من المواد الخام وقدرت الخسائر بمئضعة ملايين لي

وفي اليوم نفسه أذاعت وكالة الأنباء البلجيكية أن المخرين نسفوا ثلاث محطات مترو في منطقة ليميج وقد نسف منزل عمدة بلدة شوشين .

وفي ٣ يونيو دمر الوطنيون الفرنسيون منجمها يستخرج منه البركسيت وهو أهم مصدر للألمنيوم وكذلك دمروا في المدة القصيرة السابقة نحو ٣٠٠ قاطرة ، ١٢٠٠ عربة مشحونة بمعدات الحرب والمواد الغذائية والجنود ، ثم نسفوا ثلاثة جسور .

وفي ١٨ يونيو قتل أكثر من أربعائة جندي ألماني كانوا في طريقهم إلى اليونان عندما هاجمت جماعة من المخرين القطار الذي كان يقلمهم في متروفيكا في كرواتيا وأخرجوه عن الخط وقد ثار الألمان لأنفسهم باحراق المدينة ولم تعد انقطارات تمر بهذه المنطقة لسكثرة حوادث التخريب في السكك الحديدية حتى بلغ المعدل خمسة قطارات في اليوم الواحد على الرغم من الوحشية التي يستخدمها الألمان في القتل والانتقام .

وفي ٢٨ يونيو أذاعت وكالة الأنباء البلجيكية أن ثلاثة من البلجيكين وفرنسيين أعدوا على أثر وقوع انفجار شل حركة النشاط في منجم فحم في (لامبوسارت) بمقاطعة هانيوات في بلجيكا . وكذلك نشرت الصحف السرية البلجيكية في هذا الوقت خبراً مفاده أن ٣٨ قاطرة و ١٥١ عربة وست (درش) تابعة لسكك الحديدية دمرت في خلال شهر واحد ؛ وقالت إحدى الصحف السويدية أن الوطنيين البلجيكين نسفوا بالديناميت القنبلتان الحديدية بين (كوترى) و (سوكرون) ، وبين (تيلون) و (لوفان) في عدة أماكن . وقد خرج قطار محمل بالجنود النازيين المعاندين إلى ألمانيا عن القنبلتان ؛ واعتمدى الوطنيون كذلك على عدة قطارات ألمانية محملة بالجنود واعتداء الحرق في (غنت) و (هودارفيل) و (ترموند) و (ليميج) .

وفي ٢٢ يونيو جاء من اليونان أن انصابات دمرت جسرين على نهر لوروس ؛ ثم هاجمت القوات المعادية التي كانت تريد إصلاح الجسرين وقطعت المواصلات التليفونية بين بعض المدن . وفي ٢٢ أغسطس اذيع من ستوكهولم نبأ خاص جاء فيه أن أكبر مصنع الألمنيوم في الدانمرك ، وهو مصنع دانسك اليومسيوم غابريك ، في كوبنهاجن دمر تدميراً تاماً بفعل الأيدي الخربة

وفي ٢٧ أغسطس وردت الأنباء بأن الجنود الألمان أطلقوا التيران على المتظاهرين في ساحة — الراد هوسيلادن — الواقعة في قلب كوبنهاجن . وقد اشتدت مقاومة الدانمركيين للنازيين حتى أذيع عن طريق الراديو الدانمركي أن الضرر الذي أحدثه المخربون بمصنع المعدات الكهربائية في كوبنهاجن يقدر بمائة ألف جنيه استرليني على قاعدة أسعار ما قبل الحرب . وقد ظهر من التحقيق أنهم دخلوا المصنع وهم يحملون المسدسات وتغلبوا على الحراس ووضعوا ثلاث قنابل أحدثت ضرراً مروعاً .

وفي ٢٩ أكتوبر وضعت المصائب الفرنسية أربعين طناً من المواد المتفجرة في مصنع بارود بمدينة (لانجو) فحدث انفجار مروع سمع في أنحاء ولاية المارن المليء أحدث الانفجار ضرراً بليغاً .

وفي ١٧ نوفمبر حدث انفجار في (جرينوبل) . نسفت من جرائه محطة توليد الغاز . وكذلك مصنع الأسلحة والبارود الألماني .

وفي ١٩ نوفمبر جاء في الأنباء التي أذيعت من زوريخ أن أعمال التخريب في إزدباد مطرد في مواني كوستنزا وفيينا ووتر وباساد الواقعة على نهر الدانوب وكانت تخرج من هذه المواني صنادل مشحونة طعاماً من النمسا ورومانيا عادة إلى ألمانيا .

وقد يلى بعض الأمثلة التي توضح مبالغ الضرر الذي ألحقته هذه المقاومة الإيجابية بأداة الحرب الألمانية .

من ذلك أن حوالي مليون ونصف خراطشة صنعتها الشركة (الوطنية الباجيكية) لصنع الأسلحة في (هرستال) Herstal ، لم يلبث أن وجدها الألمان عند وصولها إلى ألمانيا خالية من المواد المتفرقة ؛ كما أن شركة (ستروين) الفرنسية أنتجت كمية كبيرة من أجزاء الدبابات وجدها الألمان غير صالحة للاستخدام ، فانتقموا من عمال هذه الشركة ، بأن اختاروا منهم عدداً أعدموهم رمياً بالرصاص أمام زملائهم ؛ ومن هذه الأمثلة كذلك أن النازيين عندما احتلوا فرنسا الشمالية وأحصوا ما يمكن أن تنتجه مصانعها من دبابات وطائرات قدروا ما يمكن أن تنتجه هذه المصانع في الشر الواحد بماقي دبابة وخمسة طائرة . وعلى أساس هذا التقدير وزعوا الخيامات على المصانع ؛ ومع ذلك وجد الألمان بعد مدة أن متوسط ما يمكن أن تنتجه هذه المصانع في الشر الواحد لا يزيد على خمسين طائرة ، وأربعين دبابة .

عل أنه كان من أهم عوامل المقاومة بنوعها (الإيجابي والسلبي) تأليف ذلك الجيش

الكبير الذي يضم تحت لوائه جميع الشعوب المغاوبة على أمرها في أوروبا النازية ، والتي تنوق إلى الخلاص من تير النازي وطغيانهم ، هذا الجيش هو جيش النصر (V. Army) . وعلامته حرف (V) المشهور ، ومقر قيادة هذا الجيش في لندن ، ويتولى تنظيمه الكولونيل (برينتون) Brinton . وكان لجيش النصر عدة فروع منظمة في الدول المحتلة ، بل لقد امتد نشاطه إلى كل بلد وقريبة من بلدان أوروبا النازية وقراها وكان يربط عنده بعض مسدده على ملايين كثيرة من الرجال والنساء ، ومع أن أكثر هؤلاء كانوا عزلا عن السلاح ، إلا أنهم لم يهدموا وسيلة تمكينهم دائما من النضال ضد الحزبة والكويستلنجن وغيرهم من أنصار العدو الذين باعوا أرواحهم وخيصة للنازيين في أوروبا .

وكانت مهمة جيش النصر الكبرى مراقبة هؤلاء الحزبة والكويستلنجن لمنعهم من إلحاق الأذى بأوطانهم عن طريق التعاون مع النازيين ، وحماية فض جماعاتهم وأحزابهم . وكان لدى جيش النصر قوائم كاملة بأسماء هؤلاء ، فكان جنود هذا الجيش يكشفون أمن الحزبة للناس ويخطون أسماءهم على الجدران في الشوارع ويرهقونهم بتكرار الوعيد والتهديد في خطابات يربطونها إليهم من غير إعضاءات ، وكثيرا ما كان يخفي نفر من هؤلاء الكويستلنجن دون أن يتركوا أثرا وراءهم ، أو إذا أمكن العثور على جثة واحد منهم ، ويحذف حرف (V) مرسوماً عليها . ولم يفلح النازي والجيستابو في حراسة أنصارهم أو في تعطيل جهود جيش النصر . بل إن جنود هذا الجيش كثيرا ما وجدوا في الظلام الدامس من جراء الإغارات الجوية المتكررة في فرنسا وبلجيكا وهولندا فرصة مواتية للمضي في نشاطهم ، فكانوا يفتحون المخاري ، ويرمون بوابات رخويات الثقوات (خصوصا في هولندا) ، وينفرون وضع المصايح الحرام لتفليل الدوريات الألمانية ، وكثيرا ما كان رجال الجيستابو يجدون في الصباح عددا من الجنود الألمان ملقى في المخاري أو في الثقوات أو مصابا بجراح .

وكان جيش النصر يفتي في نشاطه وفق برنامج منظم فيديع قائده (الكولونيل برينتون) على الأثير أسماء الحزبة ذوي الخطر الذين ينبغي التخلص منهم ، أو أسماء أولئك الذين يعملون كجواسيس لحساب الجيستابو ، فلا ينفذ في وقت قصير حتى يكون أكثر هؤلاء قد اختفوا من الوجود ، بينما يبعد الجيستابو أنفسهم إلى قتل الجواسيس الذين تداع أسمائهم حرصا على سلامة نظام البوليس ، السري الألماني نفسه .

وفي الحق أن جيش النصر كان بطبع أوامر قائده وإرشاداته بكل دقة ومن أمثلة ذلك أن (الكولونيل برينتون) نشر في بداية عام ١٩٤٢ اسم الدكتور وليم منجلبرج Mengelberg من كبار الموسيقيين الهولنديين ، بين أسماء الحزبة الذين يتعاونون مع النازي ، فحدث في

أول احتفال موسيقي أقامه (منجلبرج) في أمستردام بعد هذه الإذاعة أن قابله الجمهور في
فاغية كادت تكون بحالية ، بكل أنواع الاستنكار حتى شعر (منجلبرج) بتعبير الإقامة في وطنه
باضطرار إلى مغادرة هولندا والطواف في سويسرا واليورثغال يقيم بها الاحتفالات الموسيقية ،
غير أن أكبر الخدمات التي كان يؤديها جيش النصر ، إنما هي نشر المقاومة السليبية
وتنظيمها في أنحاء أوروبا النازية .

وكان يقصد بالمقاومة السياسية إشتاع الشعوب المتهورة عن التعاون مع النازيين الذين
يحتلون بلادهم ، وعدم الدخول معهم في غير الصلوات التي تفرض الظروف الواقعية وجودها
وفي حدود الاتفاقات أو التنظيمات الرسمية أو شروط الهدنة ، وما إلى ذلك ؛ وإعطاء كل
مؤنة ممكنة لقوات الأمم المتحدة في الحرب ضد النازي ، ويدخل في ذلك : تغذية الرأي
العام عن طريق الصحافة السرية الحرة ، وسيأتي الكلام عنها . وذلك لتأيف كتلة وطنية
متماسكة ، ترفض التعاون مع الألمان ، وتعد العدة لاستقبال يوم الخلاص من نيرهم ؛ ثم إيواء
الطيارين البريطانيين وغيرهم من طياري الأمم المتحدة الذين ينجون من الموت عند سقوط
طائراتهم في أرض (العدو) ؛ وتبديد فرار هؤلاء الطيارين ومعاونتهم على اجتياز الحدود
أو عبور المائش بسلام إلى شواطئ إنجلترا ، كما حدث في البروج والدانرك وهولندا وبلجيكا
وفرنسا ، ثم تسجيل مرور ، اللاجئين ، والفارين من معسكرات الاعتقال الألمانية ، كالبولنديين
واليهود وأسرى الحرب ، وترك الأنوار مضيئة من أعلى النوافذ (سموا) وقت الغارات على
أمل إرشاد الطائرات المغيبة إلى أهدافها .

ومكثدا كثرت أساليب هذه المقاومة السياسية وتوسعت ، وكانت أعظم ظهوراً في البلدان
التي لا تساعد جغرافيتها أو ظروفها السياسية أو وقوعها تحت رقابة جيش الاحتلال ورجال
الجنسايو الضاربة على إيمان أهلها أساليب المقاومة الانجائية ؛ ومن ثم امتازت كل من
الدانرك وهولندا وبلجيكا وبولندا وفرنسا أخيراً بإتقان أساليب المقاومة السليبية ، ولو
أنه مما ينبغي ذكره أن هذه البلاد جميعاً قد أخذت تتحول من مجرد أتباع أساليب المقاومة
الصليبية الأنفة إلى القيام بأعمال التخريب على نطاق واسع والاشتباك مع العدو في معارك دامية
وكان الدانركيون أصحاب الفضل الأول في ظهور نوع المقاومة المعروف باسم إعطاء
الكثف البارد ، الضيوف النازيين (Den kold Skudde) : أي إهمال أمرهم ، وعدم
الاهتمام بهم ، والتسك بحرفية الاتفاقات الرسمية في المعاملات التي لا مناص من وجودها بين
الألمان والدانركيين ، مما أحاط العلاقات المحدودة القائمة بين النازيين وأهل البلاد بحج من

و البرود ، الشديد . وكان الملك الدانمركي (كريستيان) نفسه زعيم هذه الحركة التي كانت تجمل النازيين يشعرون بمق الهوة التي تنصل بينهم وبين الشعب الدانمركي كما كانت تجمل من المستحيل على هؤلاء النازيين أن ينتظروا من الدانمركيين غير العداوة الشديدة نحوهم . ومن مظاهر هذه الحركة امتناع الشابات الدانمركيات عن مخالطة الألمان أو الاجتماع بهم في المراقص والحاق الإهانة والأذى بأنصار المماونة مع النازي من جماعة (فريز كلوسن) Clausen ؛ والتظاهر بجمل اللغة الألمانية ، أو الإجابة على ما يلقيه الألمان على الجمهور من أسئلة باللغة الإنجليزية ، وكذلك وضع الورود والأزهار على قبور الطيارين الانجليز الذين يجدون مثوانهم الأخير في الدانمرك ورسم حرف النصر — V — والحروف الأولى من اسم سلاح الطيران الملكي البريطاني (R. A. F.) على جوارب قبورهم . إلى غير ذلك من الأمور التي دفعت أحد الواصلين من الدانمرك يصف هذا المقاومة بقوله : « من المشكوك فيه أن يلقي أى غاز من ضروب المقاومة نوعا أشد إزعاجا وإيلاما مما يلقاه الألمان في الدانمرك » .

يبدو أن الدانمركيين لم يقتصروا بهذه الأساليب ، بل أخذت تظهر إلى عالم الوجود حركة سرية واسعة النطاق غرضها التدمير والتخريب في المصانع التي تشغل لحساب ألمانيا ، حتى اضطرت حكومة براين في أواسط عام (١٩٤٣) إلى إرسال « بلاغ نهائي » بشأن القضاء على هذه الحركة الخطيرة ، والمطالبة بمحاكمة الذين يقترفون أعمال التخريب أمام محاكم ألمانية بدلا من المحاكم الدانمركية التي لا تعترف بمقاربة الأعداء . وفي أغسطس أعلنت حالة الطوارئ . في عدة مدن هامة مع أن الملك (كريستيان) لم يلبث أن أصدر نداء إلى شعبه ناشده فيه التمسك بأهداب الهدوء والنظام ، وسواء أحدث ذلك نتيجة ضغط السلطات الألمانية عليه أو لأنه كان لا يزال يفضل خطة « إعطاء الكتف البارد » للضيوف الألمان ، — فإنه لم تمض ساعات من صدور هذا النداء حتى عادت حوادث التخريب سيرتها الأولى ، بل واشتدت وطأتها ، ودمر المخربون مصنع (دانسك اليومنيوم فابريك) في كوبنهاجن ، — كما سبق ذكره — وعلى ذلك احتل الألمان في ٢٤ أغسطس ١٩٤٣ مدينة كوبنهاجن احتلالا تاما ، وأذاع راديو (كالاندبرج) وكان تحت سيطرتهم ، نداء يحض العمال في كوبنهاجن على عدم الانقياد إلى دعاة الاستفزاز والثورة ، الذين يوزعون منشورات غفلا من التوقيع يدفعونهم بها إلى أعمال التخريب والتدمير .

ومع هذا فقد ذهب نصاب الألمان سدى ، وترتب على الاحتلال الجديد وقوع حوادث خطيرة ؛ منها التحام الجنود الألمان مع الدانمركيين في مناقشات دامية ، ونسف مستودعات الذخيرة في منطقة الأحواض في كوبنهاجن ، وفرار جزء من الأسطول الدانمركي إلى مواف .

للسويد ، وإقدام البحارة الدانمركيين على إغراق جميع البواخر البحرية التي كانت في ميناء كوبنهاجن والتي لم تستطع الخروج من الميناء ، ثم تمكن عدد كبير من ركوب الزوارق البحرية وفروا عليها إلى السويد أيضاً .

وعندما قدمت السلطات الألمانية بسبب هذه الحوادث ، إنذاراً إلى حكومة الدانمرك طلبت فيه السيطرة العامة على البلاد ، رفضت الحكومة هذا الإنذار ، وهدد الملك بالاستقالة إذا قبل إنذار الألمان ، فأعلن (فون هانيكين) القائد العام الألمانى الأحكام العرفية في منشور جاء فيه : « إن الحوادث الأخيرة برهنت على أن الحكومة الدانمركية عاجزة عن المحافظة على النظام في الدانمرك . ولما كانت الاضطرابات التي يسببها سماسرة العدو موجهة ضد الجيش الألمانى ، فأنى بناء على ذلك أعلن الأحكام العرفية في البلاد كلها ، . وكانت الخطوة التالية ، أن اعتقل الألمان الملك والوزراء وولى العهد وأسرته ، وحدثت عن جراء ذلك التحامات عنيفة بين جنود الحرس والألمان عند قلعة (سود جنفرى) التي اعتقل بها الملك ، على بعد عشرة أميال شمالى كوبنهاجن ، وكذلك وقعت التحامات أخرى في نيكبات (ريجسبورجس) وفي مدينة (سفند بورج) و (مستفيد) بجوار كوبنهاجن . وزيادة على ذلك اعتقل الألمان جميع الضباط النظاميين في الدانمرك وقبضوا على رئيس حزب المحافظين ، وزعيم هذا الحزب في البرلمان ووزير الشؤون الكنسية السابق وزعيم الشباب المعروف (إكسل مولر) ، وأحد الشيوخ ، وزعماء نقابات العمال ، ثم شرعوا يقضطهدون اليهود ، فقبضوا على رئيس الجالية اليهودية في كوبنهاجن وكان شيخاً يناهز الثانية والسبعين ، ومعه خمسون من زعماء اليهود ، كما عمدوا إلى أخذ « الرهائن » لقوية الحكم الإرهابى ، وهددوا باعتقال زعماء العمال « كرهائن » حتى يخدموا موجة الإضراب التي اكتسحت (هلسنجر) وتوسع مناطق أخرى ثم زادت الأزمات تعقداً عندما استقال في آخر الأمر (سكافينوس) رئيس الوزارة ورجال حكومته ، ورفض رجال « البوليس » الدانمركى أداء يمين الإخلاص للقائد الألمانى العام (فون هانيكين) . ونجم عن هذا الأمر الأخير أن احتل رجال الجستابو وجنود الهجوم جميع مراكز الشرطة بالعاصمة في آخر أغسطس ١٩٤٣ .

ومع هذا ، فإن الإجراءات الألمانية القسارمة لم تأت بالنتيجة المرجوة ، فقد استمرت الاضطرابات في كوبنهاجن وفي غيرها من المدن ، واتسعت حركة التخريب في الفترة التالية واضطر الألمان بسببها إلى إصدار منشور جديد يعمم حالة الطوارئ في الدانمرك كلها ويصر على التشدد في تنفيذها (٧ سبتمبر) ، ولكن أحداً لم يرتدع . فقد جاء في نياً من استكمولم في ٢٩ أكتوبر أن المواصلات والحركة العامة قد عطلت في أنحاء الدانمرك بسبب ظهور حركة

تخريب جديدة واسعة النطاق ، وأن العصابات دخلت محطة ومصنعا لآلات اللاسلكي التي
تكشف اقتراب الطائرات المغيبة ، فقتلت حارساً وتسلبت على بقية الحراس وسقطت جزءاً
من المصنع بالقنابل ، وأن عصابات أخرى أشعلت النار في مخازن الألومنيوم في (أودنسي)
و (امبرج) .

وفي أواخر عام (١٩٤٢) كانت هذه المقاومة لا تزال على أشدها ، فالمصانع تقطع عن
العمل ، ويضرب عمالها لأتفه الأسباب ، وتكثر حوادث النسف والتدمير بدون توقف في
جميع أنحاء البلاد ، من ذلك نصف قطار حربي ألماني كان ينقل قوات ألمانية إلى الدانمرك
لتعزيز الحامية النازية فيها . وإزاء هذه المقاومة الخطيرة ، اضطر الألمان على ما يبدو ، إلى
تعديل خططهم بعض الشيء . فبثت المهرتزل في أواخر نوفمبر رسالة إلى الملك كريستيان الذي
كان لا يزال حتى هذا الحين في شبه اعتقال رسمي ، يقول فيها إنه يقدر موقف الملك ويدرك
الصعوبات التي تكثفه من كل جانب ، وأنه لهذا يتوق إلى مقابلة الملك في مقابلة خاصة مع
نكفيل علاج هذه المشاكل من الجانبين ، « لاسيما أن الدانمرك أصبحت في مفرق الطرق » .
ويجب أن تساهم بتسليم كامل في جهود المحور الحربية . وهذا العرض الأخير كان يستحيل
على الملك قبول تحقيقه . لذلك رفض (كريستيان) هذه المقابلة واعتذر عن ذلك بأنه لا يزال
مقيد الحرية ولا يستطيع فعل شيء مادام محروماً من الحرية الكاملة في العمل ، رغم يرد
وزاروه المعزولون إلى مصاصيهم ، هذا إلى أن حاله الصحيحة لا يمكنه من تحشم مشاق الأسفار
ولما كان يعرف أن هناك ما يشغل القوهرد في الوقت الحاضر ، فقد أمل أن تتاح له ما فرصة
أخرى للاجتماع في وقت قريب ! وهكذا جاء رد الملك كريستيان مثلاً في الحقيقة من أمثلة حركات
إعطاء الكتف البارد للضيوف النازيين ، التي يتفهمها الملك الدانمركي الآنقان كله .

وكذلك اتفق الهولنديون أساليب المقاومة السلبية ، وبذل النازيون من مدة جهوداً
جبارة لاقتناع سواد الشعب الهولندي بأن الألمان يلقون إقبالا على معاشرتهم والتعاون معهم
من جانب شطر كبير من أهل البلاد ، وحتى يقيموا الدليل على صحة دعواهم أكثروا من نشر
الصور التسمية المزيفة . ففما أظهر جماعة من الضباط الألمان يجلسون في أحد الأندية
إلى جانب شابات هولنديات ، أو بعض الجنود الألمان يتحدثون مع الأطفال ويلاعبونهم
وهكذا ، كما نشروا صوراً جميلة (مزيفة أيضاً) لطفل الطفل ، ترسمه كلاك طاهر ، وذلك
حتى يجتذبوا قلوب الهولنديين إلى محبة زعيمهم . ولكن الأخفاق التام كان نصيب هذه
المحاولات المزيفة جميعاً .

بل على العكس من ذلك ، لم يلبث الهولنديون بدورهم أن عمدوا إلى أعمال التخريب والتدمير

والتخاذ لجميع الوسائل التي تؤدي إلى تعطيل الانتاج وإثارة القلاقل والإضطراب في أنحاء البلاد
وتتضح خطورة الحالة في هولندا وما بلغت إليه من التوتر أن رئيس البعثات في هذه البلاد
اضطر إلى إصدار عدة أوامر (في أواخر يولية ١٩٤٣) ، جاء في أحدها : « أن على قوات
البوليس العسكرية والمدن إطلاق النار في الحال وبلا إنذار على كل شخص يشاهد في الميادين
العامة أو الشوارع يشترك فيه أكثر من خمسة أشخاص » ؛ أضيف إلى هذا إعلان الأحكام
العرقية في جميع البلاد الهولندية على أيدي « سايس إينكاروت » حامي مولدة النازي .
وقد جاء في مجموع هذه الأحكام ما نصه : « يحاكم أمام المجلس العسكري ويحكم عليه بالإعدام
كل شخص يشترك في الاجتماعات العامة مهما يكن نوعها ؛ وكل من يرتضى أن يقوم بالعمل
المكلف به ولو كان رفضه سلبياً ؛ وكل من يشترك في الاعتصام أو يضرب عن العمل ؛ وكل من
يعمل سلباً أو يكون السلاح في حوزته ؛ وكل من يمتد أو يتورط ضد السلطات العامة ؛ وكل
من يكتب أو ينشر أو يوزع منشورات من شأنها إثارة الخواطر أو تكدير صفو النظام العام
ولهذه الفقرة الأخيرة أهمية خاصة لأنها تشير إلى وجود وذبوع ما يعرف في أوروبا
النازية باسم « الصحف السرية » ؛ وهذا إلى أنها تضمن اعترافاً واضحاً بخبر الدور الخفي
الذي كانت تلعبه هذه الصحافة الحرة في تقويض أركان النظام الجديد لا في مولدة وحدها
بل وفي أوروبا المتطرفة جميعها .

• • •

وقد انتشرت المقاومة السلبية في البلدان المحتلة في أوروبا النازية حتى أن الأطفال وحسن
النس لم تكن حماسهم تقل عن حماسة البالغين وكبار السن في إظهار كراهيتهم للألمان .
المصراةم على عدم التعاون معهم . من ذلك أن جريدة (لوياني ريل) Le Pays Réel
البلجيكية ، وهي صحيفة (ليون ديبريل) Degrelles من كبار أنصار النازي في بلجيكا ، شكت
ذات يوم من أن المدارس تحرض الأطفال على الثورة ، ثم ذكر المحرر لإثبات ذلك « أنه
صادف تلميذتين صغيرتين نشدان في الترام أنشودة وطنية تنتهي بما معناه أن بريطانيا العظمى
سوف تكسب الحرب لا محالة ؛ فلما سألهما أين تعلمتا هذه الأنشودة أجاباه : « في المدرسة » .
يلم يلبث البلجيكيون أن أخذوا يحلون مكاناً ظاهراً بين الشعوب المقهورة التي آمنت أساليب
المقاومة السلبية ضد النازي ؛ وبما لاشك فيه أن هذه المقاومة كانت تستمد قوتها من « الصحف
السرية » المتعددة التي ما فتئت تعمل على نقل أخبار العالم الخارجية إلى البلجيكيين في صورتها
الصحيحة ، وتحض أهل البلاد على عدم التعاون مع الألمان وتحث في نفوسهم الأمل في قرب
ساعة الخلاص ، وتشجعهم على التأذي سبيل إلحاق الأذى بآلة الحرب الألمانية .

ومع أنه كانت هناك فئة من البلجيكيين الضالعين مع الألمان إلا أنها كانت أقلية لا تذكر وقد أصبحت موضع الكراهية والازدراء في البلاد كما أن للمهندسين البلجيكيين الذين سخرهم الغزاة لإنتاج ما يحتاجون إليه لم يكونوا يزدون على عشر السكان ؛ ومع هذا فقد اتخذت كلتهم على تمويل الإنتاج بكل ما في طاقتهم من حيلة أو جهد ، أضف إلى ذلك أن ملك البلجيكيين (ليوبولد) قد لزم العزلة منذ مدة طويلة في قصره في (لا كن) على بعد عشرة كيلو مترات من بروكسل ؛ لا يقابل أحداً من الغزاة ، ويأبى التعاون معهم ، ولذلك تركه الألمان في قصره مقيد الحرية ، غير عابئين به ، كما قالوا « مادام لا يستطيع شيئاً في سجنه الحالي » .

وكان من أهم أنواع المقاومة السلبية تدمير المظاهرات في البلدان المحتلة احتجاجاً على أساليب النازي الحكومية وإقامة البرهان على أن هذه الشعوب المغلوبة ترفض التعاون مع النازيين إطلاقاً . وفي أغلب الأحيان وكان الطلبة يتزعمون هذه المظاهرات ، كما حدث في المظاهرات الجامعات الهولندية ، في عام ١٩٤٠ ، في جامعتي (دلفت) Delft وليدن Lyden عندما احتج الطلبة على إخراج الأساتذة اليهود من هاتين الجامعتين . بل إن إصرار (سايس) [نكايت] Snyss inquant حاكم هولندا النازي على تشريد اليهود الهولنديين وإبادتهم سرعان ما أسفر عن وقوع التهامات دموية بين الهولنديين الوطنيين من جانب والنازيين والهولنديين المتعاونين معهم من أنصار (مسيرت) Musseri - كروبسليج هولندية - من جانب آخر ، ووقعت هذه الممارك خصوصاً في أمستردام ولهاي في شهر يناير وفبراير ١٩٤١ .

وفي العامين الآخرين امتدت عدوى المظاهرات إلى البلدان الأخرى التي وطد النازيون فيها أقدامهم ، فجاء من (أثينا) في مايو من عام ١٩٤٣ أن الطلبة فيها أحدثوا شغباً على أمر حادت قتل فيه الجنود الإيطاليون أحد الطلبة اليونانيين ، وقد اعتصم الطلبة في أحد أبنية الجامعة ، وأخذوا يرمون الجنود الإيطاليين بالحجارة وهم يشدون القميد الشيوعي الدولي وكذلك جاء من سلوفاكيا في الشهر نفسه ما يفيد قيام مظاهرات كبيرة في المدة الأخيرة في شرق هذه البلاد احتجاجاً على قلة المواد الغذائية بها ، ووقوع حوادث مخزنة أمام المتاجر الخالية . وفي شهر نوفمبر من العام نفسه (١٩٤٤) جاء من استوكهولم أن سياسياً أجنبياً زار فيينا بعد مؤتمر موسكو (أغسطس ١٩٤٤) أفضى إلى مراسل جريدة (داجنس) في زورنخ بتصرخ جله فيه قوله : — « تحتاج النمسا كلها موجة من التفاؤل حتى أقعد زاد فيها نشاط الجمعيات السرية وأعمال التخريب زبادة ملحوظة . وقد أعيد تأليف اللجنة الوطنية التي أنشئت في خريف

سنة ١٩٤١ ، وعمد اليها بإدارة الأعمال السرية في البلاد ، واختيرت لجنة فرعية للجنة المعروفة باسم لجنة المقاومة لغرض واحد هو عرقلة أعمال النازي . وقد أصدرت هذه اللجنة منشوراً دعت فيه جميع العاملين ضد النازي إلى توحيد صفوفهم والتعاون في أعمالهم ، وناشدت المساويين جميعاً الاهتمام بالاشتراك مع جميع الشعوب المقهورة وخاصة بجيرانهم منها في الجهود التي تبذلها لتطهير بحريتها ؛ وكان هذا المنشور يتضمن آراء عملية بشأن طريقة تنظيم المقاومة وبطلب إلى الجنود أن يفردوا إلى إقليم الحدود ويتنصروا إلى الوطنيين المحاربين ، وكثيراً ما كان يحدث الاعتماد على الموظفين وجنود الهجوم الألمان مما أدى إلى القبض على الناس بجملة وصدور أحكام كثيرة بالإعدام . ويقول مصدر آخر إن عقد مؤتمر موسكو شدد عزائم المقيمين في التيرول ، وستيرمارك ، فأخذوا يشعلون تيرانا هائلة في أعلى الجبال ؛ وقد سارت مظاهرات في أحباء العمال في فيينا ورفعت الرايات النمساوية على كثير من المباني ، فتدخل جنود الهجوم الألمان حينئذ ، وقبضوا على مئات من الناس ، وقد أبدى السكان مقاومة عنيفة فأطلق الجنود النار عليهم وجرحوا كثيرين . وقد شوهدت أعلام كثيرة مرفوعة كتبت عليها العبارة التالية : « لتحي الجمهورية النمساوية » .

وفي باريس دبر الطلبة المظاهرات ضد النازي . ومن أمثلة ذلك المظاهرات التي دبرها الطلبة في الحي اللاتيني في أغسطس . ١٩٤٠ ، في أثناء معركة بريطانيا ، وعقب فشل الألمان في هذه المعركة ، وقد أطلق الألمان الرصاص على مؤلا المظاهرات في كل مرة . ثم مظاهرة ١٤ نوفمبر . وهذه دبرها الطلبة واشترك فيها أهل باريس لإحياء ذكرى الهدنة وزيارة قبر الجندي المجهول تحت (قوس النصر) . ولم ينتهي المتظاهرون في ذلك اليوم إلا بعد إطلاق رصاص الدافع الرشاشة عليهم في ميدان (الاترال) Place de l'Etoile ، وقبض الجيشاوي على مائة وخمسين طالباً تراوح أعمارهم بين ثلاث عشرة وثمان عشرة سنة ، لم يعرف أهلهم عن مصيرهم شيئاً منذ ذلك الحين . وهناك عدا ذلك ، المظاهرات والالتحامات العديدة التي سبقته الإشارة إليها عند الكلام عن مقاومة الفرنسيين ضد تعبئة العمال لتسخيرهم في العمل الإنتاجي في ألمانيا . وكان من جراء أقدام الرمي على تعبئة العمال الفرنسيين أن توجه طلاب الجامعة والمدارس العليا في باريس إلى المارشال (بيتان) في يولية ١٩٤٣ بالحطاب التالي : « اصنعنا منذ أكثر من عامين عن كل مظاهرة من شسأنا أن تعكر صفو الأمن العام وتدمر أعمال الحكومة ، ولكن سكوننا لا يعني أننا قبلنا الحوادث التي وقعتنا عنها موقف المتفرجين المنكوبين . فقد وقع حادث ترحيل آلاف العمال الفرنسيين إلى ألمانيا موقع الاشترازان والسخط في نفوسنا وكل إعجابنا كله متوجهاً إلى الكثيرين من زملائنا الذين تركوا

البلاء لمواجه الكهفاج ضد العدو الذي يحتل أرضنا ويستغلنا . وقد كنا في الوقت نفسه نقتل النفس بأمان النهضة الوطنية التي كانت تملأنا في نظرنا والتي وعدتنا بها في رسالتك . ولكن الحوادث مع الأسف كذبت وعودك وأدت إلى انهيار صرح آمالنا . وقد رأينا فرنسا تزدهر خصوصاً للألمان وذهبت إلى حد التسليم تحت أعلام قاهر ما تلك الأعلام التي بدأ الفرنسيون يحولونها . أما الآن فقد أنفت الساعة التي يجب علينا فيها أن نستأنف تقاليد الجامعة التي كانت فيما مضى تهرب للهوك بكل حرية عن شكاوى الأمة وتعتبر بكل قوة عن مطالب الفرنسيين إننا مثلك نرفض تلك الأكاذيب التي أضرت بنا ضرراً كبيراً . ويجب أن نصيف إلى هذه الأكاذيب الكذوبة الهدنة والتعاون التي دفعت بنا إلى قبول ما قبله بلجيكا وهولندا والفريش ريو لنده وروغوسلافيا مكرهة . ولندكر بوجه خاص أ كذوبة الخلة في سبيل الحضارة . تحت لواء زعيم ينكر جوهر هذه الحضارة ويحتس حقوق الإنسان ، وتلك الأكاذوبة الأخرى التي تنحصر في استبدال خمسين ألف مريض من الأسرى بمئة ألف عامل ونحن الآن نرفض أن نكون الأوربة لئلا نهدم الأكاذيب ؛ ونصرح بأن الواجب يقتضي على جميع الفرنسيين بأن يرفضوا رفضاً تاماً كل أمر يرمي إلى العمل لتأمين انتصار ألمانيا . ولأنه لمن العار علينا أن نعمل في سبيل قضية نعلم حق العلم أنها غير عادلة ولا تنفي مع استقلال فرنسا والحفاظ على حضارة البشر . فجميع زملائنا سيبريون متى وجدوا الفرصة المؤاتية بدلاً من أن يساهموا في تعزيز أداة الحرب الألمانية . إن فرنسا ملأى بالقنابات والجبال حيث يمكننا انتظار الساعة التي نستطيع فيها الانضمام إلى جيش تحرير الوطن . أما من يستطيع منا الفرار فلن يتردد في الانضمام إلى الزعماء الذين يمثلون روح المقاومة ويستحقون ثقتنا وإعجابنا وسيسافر الذين يكرهون منا على السفر إلى ألمانيا وهم يترجمون مساعدة إخوانهم العمال على تحطيم الروح المنوية فيها ، وتخريب مهمات عدونا والدود . إننا لسنا نملك المملوكين ولا من الجائنين ، ولدينا طلبة وطنيون وسنكافح ونألم مع زملائنا البواسل في جامعات وارسو وبلغراد ولوبليانا وأكسفورد وكمبريدج وهارفرد . ومونتريال ، ولوفان ، ولينين ، في سبيل انتصار مثلنا المشتركة . . .

• • •

هذه صورة موجزة لما كان يجري من ضروب المقاومة في أنحاء أوروبا النازية وقد لحقت أضراراً لا يستهان بها بعطاء الحرب الألماني من جهة ، كما عطلت أداة الإنتاج الاقتصادي إلى درجة كبيرة . وقد ظهر كيف أرغمت هذه المقاومة الألمان على الاحتفاظ بقوة مسلحة كبيرة في جميع البلدان المقهورة لسياسة قلعهم الأوربية من أن تنهار جدرانها ، هذا عدا جيش

الجستابو الجرار الذي انبث أعضاءه في كل قرية ومدينة لتأييد الاحتلال الألماني ، ولمراقبة أعداء النظام الجديد ، في أوروبا الشرقية . فأبقى الألمان عدة فرق في البلقان ، وقد تحولت هذه البلاد ، بفضل الجيوش والمصائب اليوغوسلافية واليونانية منصرفاً إلى ميادين قتال جديدة ، أصبح من واجب النازيين أن يفوضوا فيها غمار معارك دموية عنيفة حتى يعيدوا فتحها من جديد ، وبدأوا يدفعون أثمناً غالية لا انتصاراتهم ، ثم عبأ الألمان قوى « البوليس » النظامي ، ورجال الجستابو في بقية أوروبا النازية لضمان الأمن ، والقضاء على عناصر الفوضي والاضطراب ، والمحافظة على حياة رجال الاحتلال الألمان ، وحياة معاونيهم الكومستينجين من أهل البلاد الذين قبلوا التعاون معهم .

رسم ذلك ... فإن هذه المقاومة لم تكن وحدها مصدر كل متاعب النازيين في أوروبا فسرعان ما صارت مقاومة أهل البلاد المقهورة ، منذ أفاقوا من الذهول الذي أصابهم على أثر سيطرة الغزو الأولى ، تستند إلى تيار خفي لم يلبث أن زادها قوة على قوة ، وأقصى مضاجع الألمان وشرع يفوض أركان النظام الجديد في أوروبا . هذا التيار الخفي ، هو : الدعاية المضادة ، أو الدعاية الخفية ، ذلك السلاح السري الذي ظل نسله مرهفاً رغم أنوف النازيين لاني أوروبا متنازلة وحدها بل وفي الريح الثالث ، دولة أدلف هتلر نفسه .

التفصيل الرابع

الدعاية الخفية

كانت الدعاية من الأسلحة القاطمة التي أجاد النازيون استخدامها كل الإجازة منذ قبضوا على أزمة الحكم في ألمانيا . ومن الحقائق المعروفة الآن ، أنهم كانوا يقصدون من نشر دعايتهم إلى تأييد أركان الحزب النازي في دولة الرينخ الثالث ، ثم إدماج الرينخ في الحزب النازي نفسه ، وفرض مبادئهم وتعاليمهم فرضاً على الشعب الألماني ، حتى يتمكنوا من تأليف تلك الكتلة الصلبة المتناسكة التي كانوا يرون أنه لاغنى عن وجودها إذا أرادوا الوصول إلى السيطرة العالمية المنشودة وكانوا يقصدون كذلك إلى تهيئة بقية الشعوب الأوروبية إعدادها لاعتناق هذه المبادئ . والتعاليم ، وقبول سيطرة السادة النازيين عليهم . وقد نجحوا في داخل بلادهم نجاحاً منقطع النظير كان من نتيجته أن أصبح الحزب يسيطر كل السيطرة على الحياة الألمانية ، ويدفع بالامة دفعا عن يقين وعقيدة ، أو دون تفكير وتدبر أو تحت ضغط ماسلطوه من صفوف الإرهاب على الشعب الألماني ، إلى مناصبة الأمم الأخرى العداء والالتحام معها في معارك الحرب الطاحنة . ولم يكن من أهداف (الدعاية) الداخلية بطبيعة الحال أن يعود الشعب الألماني التفكير مطلقاً ، لأن التفكير من شأنه أن يبعث المرء على أن ينقد كل ما يعرض له من مشاكل ، ويدعو إلى مناقشة أعمال رجال الحكم ، ويسبب لذلك صعوبات جمة تتطلب جهوداً معينة لازالتها ، ولا يتفق وجودها مع برامج النازيين وخططهم .

ومن ناحية أخرى ، أصاب النازيون نجاحاً كبيراً في بقية أوروبا . وبخاصة في فرنسا والأراضي المنخفضة والبلقان ؛ فظهر في هذه البلدان التي خضعت لطغيانهم سلباً ، أو من غير مقاومة تذكر ، فريق من الكويسلنجيين تقدم ذكرهم ، قبلوا التعاون مع النازيين ، وأيدوا السيطرة الأجنبية في بلادهم . ومع أن خروج كل هؤلاء إلى الميدان ، بمجرد وقوع الاعتداء النازي على أوطانهم ، كان مفاجأة دهش لها العالم . فإن الحقيقة هي أن النازيين ظلوا منذ مدة طويلة يلقون بشبا كهـم في البلاد المجاورة لهم وكذلك في الأقطار البعيدة عنهم حتى يتسيدوا الموالين لهم ؛ وحتى يجذبوا إليهم الأنصار والمؤيدين ، يشترطونهم بالمال تارة وبالوعد (أو الوعيد) تارة أخرى . ولعبت الدعاية النازية في ذلك كله دوراً دلي على مهارة فائقة ، واستطاعت أن تقنع كثيرين من هؤلاء الموالين والأنصار بالأمور ،

التي شاء النازيون أن يقف العالم كله على « حقيقتها » . ومن هذه الأمور : - على سبيل المثال : أن اليهود والشيوعيين يأتمرون بالعالم ؛ وأن من الخير كل الخير أن تتحد الشعوب الأوربية مع النازيين في بناء حضارة جديدة ؛ وأن الكاثوليك أيضاً مع أعداء الحضارة ؛ وأنه ينبغي أن يمد السبيل إلى ذلك كله بأزالة مالحق بألمانيا من إساءات في معاهدات صلح فرساي المعروفة ، وإدخال هذه الدولة في زمرة الدول الكبيرة على قدم المساواة معها وإشراكها في توزيع موارد السلم الأولية ، ومن بين هؤلاء « المقتنعين » بصحة هذه الأقوال وجد النازيون ضالتهم ؛ وبفضل مؤازرتهم استطاعوا شيئاً فشيئاً تحطيم روح الشعوب المعنوية حتى إذا جدد الجدد وأزف موعد الفزو ، اعتمد النازيون على تسليم أهل هذه البلاد في غير حرب أو مقاومة . ثم كان لهم ما أرادوا حتى قيل إن الجيش الألماني في فتوحه الخاطفة الأولى دخل بلاداً كان قد سبق فتحها وإخضاعها منذ مدة طويلة .

يبدو أن دور الدعاية النازية لم ينته في الحقيقة عند ذلك ؛ بل سرعان ما طلب إليها بعد الانتصار الخاطف أن تنشر الدعوة بين الشعوب المقهورة لقبول النظام الجديد على نحو ما تقدم ذكره . ومن ذلك الحين صار النازيون يحرمون على تفسير معنى النظام الجديد ، ويطبقون البرهان بعد البرهان على أنه النظام الذي يكفل من جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دعم أركان تلك الحضارة الجديدة التي أطالوا الحديث عنها في السنوات الماضية . ثم اجتهدوا حتى يجلبوا أساليبهم وطرائقهم إلى أهل البلاد المفتوحة ، وينشروا بينهم تعاليمهم ومبادئهم ويشوقوهم إلى الإقبال على مناصرتهم وتأييدهم والتمازج معهم لا لتعزيز شكل الحكم الجديد وتأييد أدواته ، بل ومن أجل إقصاء العناصر المعارضة جميعها ، والقضاء على المقاومة بمختلف أنواعها ، وتسخير الأمم في إنتاج عتاد الحرب ، ثم إشراكهم أخيراً في معارك الحرب القائمة .

واعتمد النازيون على الصحافة والراديو في نشر الدعوة إلى النظام الجديد ، ووجدوا في إثارة الإشاعات والأقاويل سلاحاً ماضياً لا يقل في أثره عن فعل الكلمة المكتوبة ، أو الأحاديث التي ينقلها الأثير إلى كافة الأرجاء ؛ واستند النازيون فيما كانوا يذيعون إلى مبادئ معينة . وصلوا إليها كما قالوا بعد دراسة سيكولوجية الجماعات والشعوب . وأهمها : أن التكرار للكثير من شأنه أن يلصق في ذهن المخاطب نوع الصورة أو الفكرة التي يريد أصحابها أن تعلق في ذهنه وتغلغل في فؤاده ؛ وأن الكذب القبيح يحد من سامعه قبولاً وتصديقاً ، لأن الشخص إذا اعتاد الكذب الصغير ، في حياته اليومية ، صار لا يصدق إلا كذوبة الصغيرة ؛ بل إلا كاذب الضخمة وحدها هي التي تترك أثراً عالياً في نفسه ؛ وأن مثل

الجمهور في قدرتها على التفكير كالتعليق من القلم الذي لا إلتواء له ولا تمييز عنده بين
 شيئا كان من شرائط نجاح الدعاية ، أن تظل الآراء والأقوال الموحى بها والمتنوعة إلى
 الجماعات من نوع واحد وعلى وتيرة واحدة ، فقد أصبح ضروريا أن تحاط هذه الطبيعة
 بسياج قوى يبرئها عن غير هذا من الجماعات ، فلا توجد الآراء والأقوال المتغايرة على نطاق تفيد
 من هذا السياج إليها . فبالذلك انفسست الرقابة ، وسارت مهمتها في الدول الديكتاتورية وفي
 ألمانيا بطبيعة الحال ، السهر على أن يكون الكتاب والناشرون والقاصصون والمبشرون على التعليم
 وتربية النشء ومن اليهم ، كالرسمين ، ومديرى المسارح ، ومخرجى الصور المتحركة وشركات
 النشر والتوزيع ، من طراز معين . ذلك بأن هؤلاء جميعا من أصحاب العلم والرأى ، ويملكون
 لذلك أن يسير تفكيرهم في مجرى واحد ، فلا يترك الفكر حتى يخرج عن هذا الطريق المرسوم
 أو يطعنوا على جوانب هذا المجرى . ولما كانت يدورى الرأى والفكر أخطر من غيرها على
 النظام القائمة وكانت المصنفات السيرة ، بفضل ما تفسره من أخبار أو تعدد من عبرت مبسطة
 تهرب المئات وما تشاء من آراء إلى أذهان الجماهير ، وتوحى إليها بما تريد أن توحى به .
 أعظم أداة إلى جانب الراديو لإذاعة ما يفيض أصحابها وكتابتها إذاعته ، وضع النازيون مراسل
 الصحف على وجه الخصوص تحت رقابة شديدة ، ثم صار الرقيب لا يفسر رسائلهم إذا اشتملت
 على خبر أو رأى من شأنه أن يفتح أذهان القوم ، أو يجعل الشك من ناحية ما يعيشون فيه
 يفسرب إلى نفوسهم .

وإنك لم تكن الدعاية النازية تبدأ في نشر الدعوة إلى النظام الجديد من أواسط عام ١٩٤٠
 هربا حتى طبق النازيون الرقابة والصارمة في البلاد المفتوحة ، فسيطروا على الصحافة وعلى
 الراديو ، وكانت لهم في ذلك أساليب وطرائق متنوعة . الفرض منها جميعا تنظيم نشر
 الأخبار وإذاعة الآراء التي يوافق النازيون على نشرها وذيوها . ومن بين تلك الأساليب
 والطرائق أن يحدث نشر الخبر في البلدان المفتوحة في وقت واحد ، على شريطة أن يدرج
 الخبر أو يذيع المثال في صفحة معينة وفي مكان معين في جميع الصحف وفي جميع المدن . وإذا
 كان الفرض نرويج فكرة معينة والإيجاء برأى من الآراء لخدمة مآربهم أفرغوا هذه الفكرة
 وهذا الرأى في قوالب متنوعة تستضيفها أفهام الجماهير والشعوب التي يراد نقل الخبر إليها أو
 نشر الرأى المعين بين ظهرانيها . والغاية من ذلك ألا يتعرب خبر أو يذيع رأى لا يرغب
 النازيون فيه ، وأن يكون النشر مقصودا على ما يريدون أن يعرفه سواد الناس وخاصتهم ، وفي
 الصيغة التي تروقهم

ولهذا التصرف في نظر النازيين عدة مزايا أولها : تهيئة الفكر حتى يقبل تفسير ما يحدث

حين سبق أن دبر النازيون وقوعه ضد مدة ، مثال ذلك ، الحملة العنيفة التي أثارها النازيون ضد بولندية يدعوى أن البولنديين يسيئون إلى الأقلية البولندية التي تنتمي إلى أصل ألماني (Volksgerosse) في بلادهم شر إساءة ، ولا يتورعون عن ارتكاب كل جرم من أجل إفناء هذه الأقلية . وذلك حتى يشعلوا نيران الحقد والكراهية في نفوس الألمان ضد الشعب البولندي ، وحتى يستشكر الرأي العام الأوروبي أعمال البولنديين الاجرامية المزعومة ، فلا نجد بولندية من يعطف عليها حينما تنزل بها الكارثة ، ويحتاج الألمان أرضها .

والمرحلة الثانية ، هي أن يأنف أهل الرينج أنفسهم ، بسبب ما تفعلهم به الدعاوة النازية من أخبار وأوامر متلاحقة وعملية واحدة ، من السكون إلى ما يلقونه من ذعائم والرضى بما يلقى في دوعهم ، فينصرفون عن أعمال الفكر والروية ، لطمشتنا إلى أن قادتهم انما يقوهم من بهمة التفكير وإعمال الرأي بدلا عنهم فيصصبون في الحقيقة شبه آلات مسيرة يحركها الزعماء ويوجهونها حسبما يريدون .

ولزيادة احكام هذا الجهد التوجيهي المنظم ، سادوا كما يسميه النازيون « Gleichschaltung » على النازيون بكل صغيرة وكبيرة من مسائل النشر ، فأصدروا أوامر عدة تقيد الصحف فيما تنشره وترغمها على اتباع أنظمة خاصة في تدوين الأخبار . ولما خشوا أن تنسرب إلى الصحف آراء معادية لأرائهم على الرغم مما قد يشخونه من إحتياطات ، حرص النازيون على أن يكون محررو الصحف والكتاب من الأفراد الذين يثقون بهم كل الثقة ، ويطمثون إلى ميولهم ، ونوع تفكيرهم ، ومن ثم أخذوا يبعدون عن إدارات الصحف في جميع البلدان المحتلة ، الكتاب والمحرضين المشكوك في إخلاصهم ، والذين يعتبرونهم من أعداء النظام الجديد وأخطوا مكانهم أفرادا من الذين يقبلون التعاون معهم ، ثم لم يلبث أن دعاهم الحرس إلى إنشاء صحف محلية تنكتب باللغة الألمانية في عواصم البلدان المفتوحة ، حتى يضمموا تنفيذ التعليقات التي تصدرها مراكز الدبلوماسية الألمانية الرئيسية في الرينج ، على علاقاتها ومن غير تعديل أو تحوير يذهب ولا شك بقيمتها وأثرها ، مهما كان التعديل أو التحوير طفيفا في ظاهره . ومن ثم أصدر النازيون في باريس صحيفة Pariser Zeitung الألمانية ، وفي وارسو Warschaner Zeitung كما أصدروا صحفا أخرى في كراكوف ، وبلغراد ، وبراج ، والبروك ، والدانمرك ، وكراوتيا . وسلوفاكيا ، هذا عدا مئات بل الآلاف من الصحف الصغيرة والمجلات المصورة والنشرات وغير ذلك . ومع أن هذه الصحف كانت تصدر في بلدان مختلفة ، فقد جاءت جميعها متفقة في الشكل والتبويب وفي نوع الأخبار والبيانات التي تنشرها ، حتى لتكاد تكون كلها في الحقيقة نسخا متعددة من صحيفة واحدة ، فلا يشعر القارئ بأي اختلاف ، ولا يميز بعضها عن بعض سوى ما يدرج في مكان الأنباء المحلية .

وكان من أثر هذه الرقابة الصارمة ، وهذا «الجهد التوجيهي المنظم» الذي تقوم عليه الدعاية النازية وإدارتها ، أن وجد أهل البلاد المقهورة أنفسهم آخر الأمر في عزلة كاملة عن بقية العالم ، يقرأون ما يسمح به «التنظيم» النازي لحجب ولا يدرون من أحوال الشعوب الأخرى غير ما يبين النازيون معرفته . ولكن سرعان ما نجح عن هذا الوضع الشاذ رد فعل عميق في نفوس هؤلاء المقهورين ؛ والسبب في ذلك ، تلك العزلة ذاتها التي فرضت عليهم في وقت عظمت دعاوة النازيين إلى النظام الجديد ، وكثرت أقاويلهم التي وصفوا بها «مزايا» النظام المزعومة . هذا بينما وجد الأملون بالبرهان الساطع مما يلمسونه في حياتهم اليومية أن هذه الدعاية وهذه الأقاويل كاذبة لأنه بدلا من العيش في ظل حياة وادعة مطمئنة - كما أسرف النازيون في وعودهم - أصبح الأذى من نصيبهم ، وصار الظلم ينزل بهم من كل جانب ، ويعيشون عيش الذل والفتنة في كنف نظام ، يعمل على انحلال الأسرة وتشتيت أفرادها ، ويستخر الشباب والنساء وكبار السن والصغار في العمل الانتاجي المرهق لمصلحة الربح وحده ، ويسلب أقوات الأهالي ويتركهم يتضورون جوعا ويموتون من العرى والبرد زرافات ووحدا كما حدث في بلاد اليونان وغيرها . لذلك صار من الطبيعي أن ، يداخلهم الشك في كل ما يقرأونه ويسمعونه عن النظام الجديد ، وباتوا لا يصدقون ما تروجه الدعاية النازية من ادعاءات وأقاويل عن مزايا هذا النظام ويتوقون إلى الخلاص منه .

وعند شعرت هذه الشعوب المقهورة بأن الدعاية النازية : إنما تريد أن تضلهم بما تفشروه عليهم من أكاذيب لم يكن المقصود منها في الحقيقة سوى إخماد الروح المعنوية فيهم وتشتيتهم في خدمة مآرب النازيين ، وإحكام السيطرة الألمانية على الشعوب الأوروبية المحقرة . بدأ عهد ماصار يعرف في تاريخ المقاومة في أوروبا المحتلة باسم «الدعاوة المضادة» ، أو الدعاوة الخفية ،

والواقع أنه كان من المنتظر أن تظهر إلى عالم الوجود هذه «الدعاوة المضادة» ، عند ما تقوى موجة الفتوح الخاطفة النازية وبمجرد أن تفيق الشعوب المقهورة من أثر صدمة الغزو العنيفة إذ يسترد المذهول ، سمعه وبصره ، ويستعيد إدراكه ووعيه ؛ ومن ثم يصبح في استطاعته أن يميز بين أقوال النازيين وفعالهم ، ويمعن النظر فيما يشاهده حوله . ولم يكن من السهل على المظلوم المقهور أن يفيق من ذهوله ، ما دامت آلة الحرب النازية الضخمة ماثلة أمامه ، وما دام النازيون المنتصرون يستأثرون بأكاليل الغار ، ويدوسون تحت نعالهم شعوبا برمتها . وما دام النصر حليفهم في كل مكان وزمان . لذلك أصبح من الضروري أن تلحق بالنازيين الهزيمة ، وأن تعترض أعمالهم العسكرية بعض العقبات الكأداء ، حتى يزول من الأذهان ذلك

الزعم بأنهم شياطين لا سبيل إلى قهرهم ، وحتى يدرك أهل البلاد المفتوحة أنهم بشر يقومون في الخطأ ويعتريهم الضعف وأن مقاومتهم والتغلب عليهم في حين الإمكان .

ولما كانت التماثيل النازية لا تستند إلى شيء من المبادئ التي أخذ بها العالم المتحضر منذ أجيال وقرون ؛ ولما كانت دعواهم في إنشاء النظام الجديد الذي يريدونه دعوى عات جبار لا يرضى عن إذلال الشعوب غير الجرمانية بديلاً ؛ ولما كان البرهان قد قام على أن النازيين بشر قد بلغت النصر من أيديهم ، وقد تدركهم الهزيمة ، فإنه سرعان ما اجتمعت الأسباب التي أفضت إلى ظهور ضروب المقاومة المختلفة التي شهدناها في أوروبا المحتلة ، وإلى ظهور الدعاية المضادة . وغنى عن البيان أن المقاومة والدعاية الخفية سارتا جنباً إلى جنب ، بل إن الذي حدث فعلاً هو أن الدعاية المضادة سبقت المقاومة بعض الشيء ، كما أنها كانت في الحقيقة من أساليب المقاومة السلبية المبكرة ؛ هذا إلى أنها كانت من عوامل انتشار المقاومة ذاتها وتوجيهها كما سيأتي ذكره بعد .

وعلى ذلك كان من أسباب ظهور الدعاية المضادة ، مسلك النازيين أنفسهم في تطبيق النظام الجديد في أوروبا المحتلة ، كما كان من عواملها المباشرة هزيمة النازيين في معركة بريطانيا المشهورة (من ٨ أغسطس إلى ٣١ أكتوبر ١٩٤٠) هذا على الرغم من جهودهم الجبارة المتوالية ، وبخاصة عندما أطلق (جورج) سلاحه الجوي على لندن في ثمانية وعشرين هجوماً كبيراً في وضع النهار ما بين السادس من شهر سبتمبر والخامس من شهر أكتوبر ، فقد تطلع أهل البلاد المقهورة إلى نتيجة هذا الصراع العنيف ؛ ولم تعد رقابة النازيين الصارمة شيئاً في كتم أخبار الخسارة الجسيمة التي نزلت بسلاحهم الجوي . وفي هذه الشهور العسيرة أخذ ينمو الشعور بضرورة المقاومة لدى الشعوب المغلوب . ثم لم يلبث أن وجد هذا الشعور مكاناً في مختلف البلدان المحتلة تحت أنوف النازيين وعلى الرغم من وجوده الرقابة ، الصارمة التي أنشأوها . فكان فشل النازيين في هذه المعركة الجوية الهائلة موضع أحداث انتقوم وتعليقاتهم ؛ بل وموضع نكاتهم في بعض الأحيان . وزادت جرأتهم عندما صار البريطانيون بعد ذلك يرسلون الحملات الجوية المدمرة على أوروبا المحتلة وعلى ألمانيا ذاتها — وفي التي قال عنها جورج ، أنها منبوذة بخلفة حديدية من الاستحكامات القوية — فتكررت إغارات البريطانيون على فرنسا الشبالية والغربية وعلى الدانمرك وهولنده وبلجيكا والنرويج . ومن هذه الأحداث والتعليقات بدأت تظهر ، الدعاية المضادة ؛ ووجدت هذه الدعاية الخفية في بادئ الأمر طريقها إلى الصحف التي أجاز النازيون صدورها . فقد حارت هذه الصحف ثقيل أخبار المعارك الجوية إلى قرائها بكل دقة وأمانة . وكثيراً ما حاول محرروها

الإفلات من الرقابة الصارمة وقد نجحت محاولاتهم في بعض الأحيان . ومن أمثلة ذلك أن صحيفة بلجيكية نشرت ذات يوم خبراً مفواه أن « خمسين قاذفة قنابل ألمانية شوهدت تطير صوب بريطانيا ، ولم يعد منها ست وأربعين ، فجاءها إنذار شديد من سلطات الاحتلال الألمانية . ولم تسكد تمضي بضعة أيام حتى نشرت هذه الصحيفة نفسها خبراً آخر عن قاذفات ألمانية ذهبت للإغارة على بريطانيا فقالت : « شوهدت اليوم ٣٤ قاذفة ألمانية تطير صوب إنجلترا ، وقد عادت منها ٣٠ طائرة إلى قواعدها سالمة ! » ، فأغلقت السلطات إدارة هذه الصحيفة . وهناك تلك الصحيفة الدانمركية التي أرادت أن تنقل إلى قرائها خبر إغارة موفقة قامت بها الطائرات البريطانية ودمرت مصنعاً كان يشتغل لحساب ألمانيا في هذه البلاد ، ومنعت سلطات الاحتلال نشر خبر هذه الإغارة ، حتى مضى يومان ، فذكرت إدارة الأخبار الألمانية في اليوم الثالث من وقوعها ، أن الإغارة التي حدثت لم تكن ناجحة وأن كل ما أصابه الطيارون الانجليز بقذائفهم كان بقرة واحدة . فانتزعت الصحيفة الدانمركية إذاعة خبر الغارة ، وحاولت أن تبين لقارئها مدى الضرر الحقيقي الذي نجم عنها ، على خلاف ما أدعته الدعاية النازية ، فأثبتت الخبر كما صاغته السلطات الألمانية ، ثم أضافت التعليق الآتي : « ولا تزال هذه البقرة تحترق ! »

وبطبيعة الحال لقيت قصة البقرة التي لا تزال تحترق ، ذيوماً كبيراً ، لا يقل في الحقيقة عن ذيوغ قصة الطيارات النازية الثلاثة والأربعين التي عادت إلى قواعدها سالمة ! ووجد الأهليون في الأراضي المنخفضة والدانمرك وغيرها في ترديد هاتين القصتين على وجه الخصوص وسيلة للسخر بالساداة النازيين الذين ظالوا في فترة الحرب الأولى يبنون النفس بقهر البريطانيين وغزو بلادهم ؛ وأعلموا عن هذه الأمنية العزيزة لديهم مراراً وتكراراً ، وأكثروا من ترديدها زهواً وافتخاراً حتى وضعوها أغنية ، في هذا المعنى :

« نحن ذاهبون (أو مبجلون) إلى إنجلترا ، Wir fahren gen Engelland ، وصارت الدعاية النازية تذيب هذه الأغنية في برامجها وأصبحت الأغنية المفضلة أيضاً من الجنود النازيين في كل مناسبة . وكان الغرض من إذاعة هذه الأغنية وترديدها لإخماد أى أمل لدى الشعوب المقهورة في إمكان الاعتماد على بريطانيا في نجدهم . ولذلك لم يكذب يظهر فشل النازيين ونجدهم ، وتعرف حكاية الطائرات الثلاثة والأربعين وقصة البقرة ذات الحظ السيء حتى زالت هيبة الألمان إلى حد كبير من النفوس ، كما تزعزع الاعتقاد في أن النصر لابد أن يكون دائماً من نصيب السادة الألمان . ثم اتخذ السخر بالنازيين في هولنده وبلجيكا والدانمرك وفرنسا خصوصاً أشكالاً متنوعة . منها أن أهل الموانئ في هذه البلدان المفتوحة صاروا

ينقبضون عن الاعلانات القديمة وسبداول مواريع قيام السفن في القتال الإنجليزي ، حتى إذا عثروا على عدد من هذه الجداول أو الاعلانات ، أعادوا اصقها على جدران مكبات الجنود الألمان ، والبنائات العسكرية الألمانية ، ثم كتبوا في ذيلها يستفهمون : « وما موعد قيام المركب التالية إلى إنجلترا ؟ » . وفضلا عن ذلك فإن كثيرين من أهل هذه الموانئ صاروا يعترضون الجنود الألمان في الطريق حتى يسألوهم إذا كانوا يعرفون أن المراكب تترك ابتاع حديثاً أقوى جهاز الراديو في العالم ؟ فإذا لم يكن الجندي لبقاً متيقظاً وسأل بدوره ولماذا يشتري المراكب هذا الجهاز ، أجابوه على الفور : « لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تأتيه بإنجلترا ! » . ولعله كان من نتائج إخماق الألمان في مشروع غزو إنجلترا إخفاء الأغنية السابقة ، ثم ظهور أغنية أخرى سماها أصحاب « الدعاوة المضادة » ، بأشودة ، عدم الوصول قط إلى هناك — أي إنجلترا — « "Niegelungenlied" »

« * * »

وكان من أسباب نمو « الدعاوة المضادة » قيام الحرب بين ألمانيا النازية والروسيا في يونيه ١٩٤١ . صحيح أن النصر ظل حايث الألمانين في المعارك الأولى من هذه الحرب ، واقتطع النازيون من دولة السوفييت أقاليم شاسعة ، وكان من المنتظر أن يضمف إيمان الشعوب المقهورة من جراء هذا الانتصار السريع في بداية الحملة الروسية . ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، لعدة أسباب : منها أن اشتباك النازيين في حرب مع روسيا التي لاتعرف الجماهير عنها سوى أنها من الأقطار السحيقة ذات الموارد التي لاتنضب من الرجال الصالحين لمل السلاح ، لا بد وأن يخاف لأداة الحرب النازية مشاكل عويصة ، لا يكفي النصر السريع لتذليلها ما دام هذا النصر غير حاسم ، وما دامت الجيوش الروسية الجرارة تتخذ خطة المروغة والاستدراج ، وتنفذ على النازيين كل فرصة للاتحام مع أعدائهم في معركة فاصلة ترغم الروس على التسليم وطلب الهدنة ثم الصلح مع ألمانيا . وقد أصابت الشعوب المغلوبة كبدا الحقيقة في تفكيرها هذا ، وسرعان ماوضح على الرغم من الانتصارات الأولى . أن النازيين لا يستطيعون شن الحرب الحاطفة في أهلاك الاتحاد السوفيتي ذات الأطراف المترامية ومناطق الإنتاج الكثيرة المتباينة . ولذلك فانه بدلا من أن يكون النصر النازي المبكر في هذه الحرب سببا في إخماد « الدعاوة المضادة » ، أصبح على العكس من ذلك من أسباب ازدياد « الدعاوة الحفية » وانتشارها

أضعف إلى هذا أن الحملة الروسية — على نحو ما سبقت الإشارة — اقتضت إرسال مئات الألوف من الألمان المجندين إلى جبهة القتال ؛ هذا إلى جانب الفرق المتعددة من أبناء الدول

البلقانية الضالعة مع النازيين خصوصاً . ونشأت عن هذه الحال معضلة جديدة في الريح الثالث ، هي تزويد المصانع المشتغلة في إنتاج عتاد الحرب الألماني بالأيدي العاملة . وعهد النازيون إلى تدليل هذه الصموبة بنقل العمال الأجانب للعمل بالمصانع والمناجم الألمانية ، ثم تنظيم إنتاج المصانع والمناجم في البلدان المحتلة تحت إشراف سلطات الاحتلال ورجال الجستابو . وقد تقدم بحث مشكلة العمال الأجانب في الريح عند الكلام عن « الاقتصاد النازي » في أوروبا . ولذلك كانت تعبئة الأيدي العاملة وتسخير الألمان في الإنتاج الألماني من أهم أسباب نمو حركة « الدعاية المضادة » ، ثم إمعان أهل هذه البلدان المغاوبة في اتباع خطة المقاومة بنوعيتها مما : السلمي والإيجابي .

وزيادة على ذلك ، فانه سرعان ماظهر أن الحملة الروسية قد كفت النازيين أثماً باهظة في العتاد والرجال ؛ وأن تقهر الروس أمام الجحافل النازية الراحفة عليهم ، كان يجرى وفق خطة موضوعة إلى حد كبير . لأن الروس علمتهم تجارب الحروب الماضية منذ أكثر من مائة عام — وبخاصة إبان حملة نابليون المشهورة على بلادهم في عام ١٨١٢ — ، أنه كلما أوغل العدو في أرضهم الشاسعة وبعد عن مراكز تمرينه ، سهل على عصابات المقاتلين الروس قطع خطوط مواصلاته وإرهاق مؤخرته ، مما يجعل النصر بعيداً عن متناول يده والغلبة في نهاية الأمر لهم ومن المعروف أن الروس اتبعوا في حملة نابليون خطة « الأرض المحروقة » . واتبعوا في الحرب الهتلرية الماضية خطة إحراق الأرض بما عليها ، وتدمير المرافق وأبواب المياه وتخريب المساكن وإفقار القرى والديساكن من أهلها ، ونقل مخزونها من المؤن والأغذية وذلك حتى لا يجد الفاتح مأوى أو مأكلاً أو موضعاً لراحة أو استجمام . وقد ظهرت نتائج ذلك كله عندما اعترف النازيون بأن الحرب الروسية سوف يطول أمدها ، وأن الشتاء سوف ينزل عليهم برده القارس وهم في الميدان الشرقى المتعب ، وأن أساليب الحرب الخاطفة والرحلات الميكانيكية السريعة ، لا تنفيذ شيئاً في كسب نصر سريع ، على غير ما كان جمهور القادة ومواد الشعب الألماني يتوقع . وهذه أدلة كثيرة على أن النازيين ما كانوا ينتظرون أن يمتد أجل الحرب إلى شتاء العام التالي (١٩٤١ — ١٩٤٢) . وقد أحدثت هذه الخيبة المرة أثراً عميقاً في نفوس النازيين كما أحيت آمالاً عريضة في صدور الشعوب المقهورة . وفي الفصول التالية سوف نتحدث عن أثر هذه الخيبة في داخل ألمانيا ذاتها .

وفي نهاية العام نفسه (ديسمبر ١٩٤١) ، وجد عامل آخر كان ذا أثر بعيد في نمو الدعاية الخفية ، وانتشار الدعاية المضادة في أوروبا النازية : هذا العامل هو دخول الولايات المتحدة

الأمريكية الحرب ضد النازيين وأحلافهم . وجاء دخول الولايات المتحدة الحرب — إلى جانب اعتبارات أخرى قيمة — بمثابة الهزيمة الشنيعة لأداة الدعاية النازية . فقد كان انضمام هذه الديمقراطية العظيمة إلى جانب البريطانيين والأمم المتحدة معهم في الصراع ضد طغمة النازيين نذيراً بأن الحملة الروسية المشؤمة على السادة النازيين سوف تزداد شؤماً عليهم بمرور الأيام والشهور ، وأن الحرب سوف تجدد ميادين جديدة خارج القارة الأوروبية لتثقل اليها ، ولا يكون للنازيين أمل الإلتصار فيها أو الإحتفاظ بالقدرة على السبق في العمليات العسكرية دائماً ، وأن الحلفاء الجدد عاملون ولا شك على إيجاد جهات للقتال ثانية . وثالثاً ، توزع جهد النازيين وتشتت قوى إنتاجهم ؛ وأن عماد الحرب من مؤن وأغذية وخامات وذخائر وأسلحة وعقاقير وأدوية ، وأيد عاملة ورجال ، سوف يتدفق تدفقاً على روسيا المحاربة الصامدة ؛ وأن أى أمل لدى النازيين في النصر لا بد وأن ينقضى ويذول عاجلاً ، وأن فرصة التحرر من سلطان النظام النازي الجديد لا بد آتية ، وأن العاملين من أجل الحرية في جميع البلدان المغلوبة على أمرها سوف يظفرون بالخلاص قريباً إذا هم ساهموا من جانبهم بنصيب في إلحاق الهزيمة الماحقة بالنازيين وبأذنانهم من السكويستين والتماوين معهم في أوروبا النازية

في الواقع أن انحياز الديمقراطية الأمريكية إلى المبادئ التي ناضل البريطانيون وحلفاؤهم من أجل تمييزها كان حدثاً عظيماً لا في تاريخ هذه الحرب الضروس وحدها ، بل وفي تاريخ الحضارة والإنسانية كذلك — فمن المعروف أن النازيين ظلوا ينشرون دعاوتهم في جميع أرجاء العالم المتمدن — ومنها الأمريكتين الشمالية والجنوبية ، منذ اللحظة التي وصلوا فيها إلى مراكز الحكم في ألمانيا (١٩٣٣) . وقصة الطابور الخامس ونشاط أعضاء هذا الطابور من الموضوعات التي صار لا يحجبها إنسان منذ أن خلمت ألمانيا النازية القناع وامتشقت حسام الغزو والفتح في وجه الديمقراطية المتداعية ، ولم تتورع دولة الريخ الثالث لنشر دعاوتها عن استخدام سفاراتها وقنصلياتها في الدول الأجنبية ، كخلايا ومراكز تجمع شتات رعاياها فيها وراء البحار ، وتغظيمهم في شكل جماعات تأتمر بأمر (الفوهرر) وتدعن لمشيئة الزعيم ورغباته ، حتى تألفت من بين الألمان ، وأقارب الجرمان ، والذين ينحدرون من أصل ألماني ولكنهم تنحسوا بنسبائهم غير ألمانية ، جماعة ضخمة صارت بمثابة الاداة التي يعتمد عليها الريخ في إضعاف الروح المعنوية لدى الشعوب غير الجرمانية . وبذر بنور الانقسام بين الأهلين ، واستمالة الأنصار وهلم جرا . ثم ظهرت من بين أعضاء الطابور الخامس الكيكة طائفة من المثربين والمدربين الذين كانت مهمتهم إضعاف أداة الانتاج الاقتصادي وتعطيلها في الدول التي شعر النازيون بالخوف من ضخامة مواردها . ولذلك حرصت الدعاية النازية كما حرص

وكلا، النازي في الولايات المتحدة الأمريكية على أن يسكن إنشاء الخلايا النازية بحيث تكون شبكة عريضة تمتد في أرجاء هذه الديمقراطية العظيمة . وكان الغرض من هذا التنظيم نشر الدعاية القوية ضد دخول الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحرب الطاحنة بأي حال من الأحوال ، مستلذين فيما يبنونه من آراء وينشرونه من كتابات وبروجونه من أقوال ، إلى رغبة سواد الشعب الأمريكي في التمسك بخطة الحيايد التقليدية وعدم الاشتباك في حروب قد يخرج منها صفر اليمين إلى جانب ما تكلفه هذه الحرب عادة من ضحايا جسيمة في الأموال والأرواح كما حدث في الحرب العالمية الأولى . . . ، أركا قال النازيون وصنائعهم !

ومع هذا فإن تمسك الولايات المتحدة بخطة الحيايد حيال ذلك الصراع العالمي لم يكن كل ما رغبه النازيون بل كان من أهدافهم القريبة تنظيم مقاومة فعالة تقف في وجه كل محاولة ترمى بها الدولة إلى تحديد أسلحتها وزيادتها وتقوية استحکامات الدفاع بما يقتضيه هذا الدفاع من بناء السفن الحربية وتجهيز أدوات الحرب الحديثة وما إليها ؛ حتى إذا جد الجدد وحدث ما لم يكن في الحسبان ، شمرت هذه الديمقراطية العظيمة بنقص استعدادها العسكري ، وخشيت لذلك دخول الحرب . فإذا لم يمنعها هذا الخوف ، لحقت بها الهزيمة سريعا ، أو ظلت عاملا ثانويا لا يقدم ولا يؤخر في سير الحرب ولا يغير شيئا من نتائجها الحاسمة .

وقد أصاب النازيون بمض النجاح فيما أرادوا ، وتأخر بالفعل دخول الولايات المتحدة الحرب مدة ، وظلت الشعوب المقهورة تردد أثناء ذلك هذا السؤال : هل تخوض هذه الجمهورية العظيمة غمار الحرب إلى جانب (الديمقراطية) وتساهم في تحرير الأمم وخلصها ومتى تنحاز الولايات المتحدة إلى جانب البريطانيين وأحلافهم ؟ ولا شك في أن انضمام هذه الجمهورية إلى جانب الأمم المتحدة كان غنما كبيرا يقدر أهل البلدان المغلوبة قيمته ، كما كان النازيون يدركون خطر الآثار المترتبة عليه . وقد شمرت الدعاية النازية عن ساعدها في شهور الحرب الأولى حتى تمتنع نزول هذه الكارثة . . وكانت المهمة شاقة متعبة . لأنه لم يكن من واجبها تعزيز رغبة الحيايد في داخل الولايات المتحدة فحسب بل كان عليها أيضا أن تدخل الطمأنينة إلى قلوب الشعب الألماني نفسه في دولة الريح الثالث . لأن الألمان كانوا ما يزالون يذكرون ما أحدثته اشتباك الولايات المتحدة الأمريكية من رجحان كفة الحلفاء السابقين في الحرب العالمية الأولى ثم هزيمة القيصرية وانتشار النواحي والاضطراب في البلاد سنوات عدة حتى وصل النازيون من جراء ذلك كله إلى الحكم والسلطان على أنقاض جمهورية وينار البائسة . ولعبت الدعاية النازية في هذه المسألة شمانكة دورا غريبا ، فبينما كان وكلاهما وعماهما يبذلون كل جهد في العالم الجديد لاستمالة الرأي العام الأمريكي إليهم وإلى قبول مبادئهم ، وكسب صداقة

الأمريكيين وعظفهم على «مطالبهم» ، والتتبع بثقتهم ، كانوا من ناحية أخرى في داخل ألمانيا ذاتها يحطرون من قدر الأمريكيين ، ويعتبرونهم من بين الأمم المشحلة التي يسيطر اليهود على شؤونها وينفذون سمومهم القاتلة في كيانها .

بيد أنه سرعان ما تبين أن الدعاية النازية في الولايات المتحدة كانت فاشلة . فلم يكف يعضى عام واحد على بداية اعتداء النازيين على أوروبا حتى أصدر رئيسها (فرانكلين ديلا نوروزفلت) تصريح « الحريات الأربع » المشهور في ٧ يولييه ١٩٤٠ الذي قال فيه : « نأمل أن يطلع علينا المستقبل الذي نعمل على إعداده في الوقت الحاضر بمبادئ تقوم دعائمها على حريات البشر الأساسية . وأولى هذه الحريات : حرية القول والرأى ، والثانية : الحرية التي تحمل في استطاعة كل إنسان أن يعبد الله وفق معتقده ؛ والثالثة : الحرية التي يحصل عليها الإنسان بالتححرر من نير البؤس ، والرابعة : الحرية التي تنتج عن التحرر من الخوف . وليست هذه الحريات أحلاماً بعيدة المنال يتطلب تحقيقها أجيالاً طويلة ؛ ولكنها مبادئ حقيقية ملبوسة يجب على جيلنا الحاضر أن ينشرها في العالم أجمع » . فدل هذا التصريح — « تصريح الحريات الأربع » — على أن الديمقراطية الأمريكية العظيمة لا يمكن بأى حال أن توافق على مبادئ النازيين وتعاليمهم أو تقبلها ؛ وأنها تسير في الحقيقة بخطى حثيثة صوب الانضمام إلى جانب بريطانيا ومجموعة الأمم المتحدة ، وأن الفشل الذريع كان في نهاية الأمر نصيب الدعاية النازية في الولايات المتحدة الأمريكية . وفي الواقع كان التناقض واضحاً بين هذه « الحريات الأربع » التي أراد الرئيس الأمريكي ذيوها حتى تصبح أساساً تقوم عليه حضارة البشر ، وبين المبادئ التي انطوى عليها ذلك النظام الجديد ، الذي كان يطبقه النازيون في أوروبا المحتلة تمهيداً لفرض السيطرة الجبرمانية على أمم العالم قاطبة .

وفي الشهور التالية ترقبت الشعوب التي وقعت تحت نير النازيين بزوغ فجر ذلك اليوم الذي يصبح فيه وقوف الولايات المتحدة إلى جانب الأمم المتحدة حقيقة واقعة ، ولم يكد طغيان النازي على أيدي رجال الجستابو الملتطخة بالدماء ، ولا قسوة سلطات الاحتلال الألماني ولا الرقابة الصارمة ، شيئاً في إخماد آمالهم أو عزلهم عن بقية العالم ومنع تسرب الأخبار إليهم . وظل الحال على ذلك ، حتى جاء اليوم الذي استطاع أن يجتمع فيه رئيس الحكومة الانجليزية (واستون تشرشل) برئيس الجمهورية الأمريكية على ظهر سفينة حربية وسط المحيط الأطلسي ، ووضع الزعيمان «وثيقة الأطلسي» التاريخية في يوم ٨ أغسطس ١٩٤١ . فكانت هذه الوثيقة بمثابة العهد الأعظم الذي يتمسك به كل شعب يرغب في الحياة الحرة الصادقة في عالم يقوم على مبادئ إنسانية عالية تضمن له البقاء في ظل سلام مستقر

لا يجدد طمع الدول الكبيرة ولا يجد فيه النازيون ومن سلك مسلكهم طريقاً يمكنهم من تحقيق أغراضهم . وأى برهان أقوى على إيمان الديوقراطية الأمريكية بقضية المبادئ الإنسانية النبيلة التي تناضل من أجلها بريطانيا والأمم المتحدة ، من قول الزعميين في المادة السادسة من هذه الوثيقة أنهما يأملان بعد سحق الاستبداد النازي أن تتوطد دعائم السلم الذي ينتج لجميع الأمم وسائل العيش بسلام في دائرة حدودها ، ويمكن الناس في جميع أنحاء المعمورة من العيش في مأمن من التفتاء والخوف . وأى تنديد أشد من هذا التنديد بمبادئ النازية الفاشية وتعاليمها والحقيقة أنه لم تكن تغطي فترة وجيزة على وضع هذا الميثاق التاريخي حتى اعتدى اليابانيون اعتداءهم الأليم القادر على (بزل هاربور) في ٧ ديسمبر ١٩٤١ ، وفي ١١ منه أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية ، فأعلنت أمريكا الحرب عليهما !

وجدد صدور وثيقة الأطنطلي نشاط أنصار المقاومة السلبية والإيجابية في أوروبا النازية ووجدت : الدعاوة المضادة ، في المبادئ التي تضمنتها هذه الوثيقة وسيلة لإحياء الأمل في النفوس وزيادة الثقة في النصر القريب . ولعل أظهر آثار هذه الوثيقة ، أن الشعوب المقهورة صارت تنخذها مثالا تنسج على منواله في تحديد الأغراض والأهداف التي تسعى جماعات المقاومة لتحقيقها . فقد استرشد أنصار المقاومة السرية في فرنسا بمبادئ هذا الميثاق في وضع أسس الاتفاق الذي أرادوا أن يجمع بين جميع المقاومة الداخلية في فرنسا والفرنسيين الأحرار من أنصار (ديغول) De Gaulle في العمل المشترك من أجل تحقيق البرنامج الذي يرتضونه لتنظيم الحياة الحرة المستقبلية في فرنسا ذاتها وفي إمبراطوريتها . وجرت هذه المفاوضات تحت أنوف النازيين وعلى الرغم من سيطرة الجستابو الرهيبة ، على أساس إزالة حكومة فيشي الآثمة ، وتمتع فرنسا ، الموحدة ، بمطلق السيادة في داخل البلاد وفي الإمبراطورية ، بعد استرداد هذه السيادة وهذه الوحدة . ومعنى ذلك أن يسترد الشعب الفرنسي جميع حرياته المنقودة ، بالقضاء على دكتاتورية النظام الوطني الاشتراكي الذي أنشأه النازيون في البلاد ، وبإزالة العقوبة الشديدة بأولئك الذين تعاونوا مع أعداء الوطن وساعدوا على تحطيم حقوق الفرنسيين وألحقوا الأذى بمصالحهم ودينسوا شرفهم وإعطاء فرنسا جميع الضمانات الداخلية والخارجية ، التي تكفل الحرية والاحترام والأمن والطمأنينة لكل مواطن في داخل البلاد ، وتمنع عدوها التاريخي من غزوها ، ثم تمكنها من رد عدوانه إذا حدثته النفس بالاعتماد عليها مرة ثانية ، وكذلك بالابقاء على فرنسا أمانة على تقاليدها الجمهورية والديوقراطية ، وإحياء مثلها العليا في الحرية والإعطاء والمساواة . وقد سمي هذا الاتفاق الذي عقد في عام ١٩٤٢ بـ الميثاق الأطنطلي الفرنسي .

وفي الخلق إن الدعاية المضادة أو الدعاية الخفية قد بلغت أشدها في عام ١٩٤٢ وصار من المتحذر على النازيين لإنجاحها مهما استخدموا من أساليب . بل إن حوادث المقاومة الإيجابية التي زادت زيادة كبيرة في ذلك العام أيضاً ، كان من شأنها هي الأخرى تأييد الروح المعنوية لدى الشعوب المقهورة ، وتغذية الدعاوة المضادة بسلسلة لا تنقطع من الأخبار يحد الآهون في قراعتها شاحداً لهمهم من جهة ومسرياً عن نفوسهم من جهة أخرى . وفظلاً عن ذلك فقد لحقت بالنازيين في ذلك العام أكبر هزيمة دحاسمة ، في ميدان من الميادين التي عقدوا على الانتصار فيها آمالاً عريضة : وهو الميدان الأفريقي . ولم يكن هذا الميدان في يوم من الأيام — كما أذاعت الدعاية النازية والمحورية ، بعد أن تذوق السادة النازيون طعم الهزيمة — من الميادين الثانوية ، لأن فرض السيطرة الألمانية على القارة الأفريقية ودعم أركان هذه السيطرة كان يقتضي نشر سلطان النازية أيضاً في حوض البحر الأبيض . ومنذ بداية الحرب أدرك ثقافة الخبراء العسكريين ، وفي مقدمتهم (ماكس فرنر) Max Werner أن السيطرة على هذا البحر يقتضي دعمها الاستحواذ على الأراضي الواقعة في حوضه والتي تحدد هذا البحر من جنوبيه ، أي الاستيلاء على أقطار البحر الأبيض الشرقي والقطر المصري وأفريقية الشمالية والغربية . فكان يوماً عظيماً ذلك اليوم الذي فوت فيه البريطانيون وأحلافهم على النازيين فرصة النصر في معركة العلمين التاريخية في ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٢ . ولذلك كله لم يكن غريباً أن تظل الشعوب المغلوبة في أوروبا النازية ، أشد الشعوب قلقاً وترقباً لنتائج هذه المعركة الفاصلة ولم يكن غريباً أن يكون البولنديون وهم من أشد أنصار المقاومة بشوعها السلي والإيجابي ، أول من عرف بخبر هذه الهزيمة !

فقد حدث في الساعة العاشرة والرابع من مساء ٤ نوفمبر ١٩٤٢ أن كان جماعة من الرجال والنساء البولنديين من أنصار الدعاوة المضادة مجتمعين في أحد الأقبية حول جهاز الراديو ينصتون إلى الأخبار بسجاعات وضجورها على آذانهم خوفاً من أن يتسرب صوت الاذاعة إلى الخارج ، فيكشف الجستابو مقرهم ويكون جزاؤهم الأعدام . وإذا بصوت المذيع يتحدث إليهم بلغتهم البولندية من محطة لندن (B.B.C) وينقل إليهم خبر اندحار (روميل) في معركة العلمين وهزيمته في أفريقية الشمالية ! فكان لهذا الخبر وقع عظيم الأثر في نفوسهم : كيف لا وقد أحرز الحلفاء بعد ثلاث سنوات نصراً حاسماً !

ولم يكن البولنديون وحدهم في هذا المساء هم الذين أنصتوا إلى الاذاعة البريطانية . فقد سمع هذا الخبر أيضاً البورغاليون ، ونقله إليهم الراديو بلغتهم البورغالية . ولم يكن على البورغاليين من حرج إذا استمعوا إلى إذاعة المحطة الإنجليزية . ولذلك لم يكذب يشرق

صباح اليوم التالي (١٠ نوفمبر) حتى كل الحظ قد انتشر في أرجاء أوروبا النازية ، ولم يكن الراديو وحده صاحب الفضل في ذبوع خبر الهزيمة المنسكرة الفاصلة . بل خرجت على أهل البلاد المقهورة في صباح اليوم نفسه « الصحف السرية » تحمل هذا الشيا العظيم إلى قرائها في بولندة والنرويج وهولندة وبلجيكا وفرنسا وغيرها ، وكانت الصحف السرية من أعظم وسائل الدعاوة المضادة شأناً ومن أشدها خطراً على سلطان النازيين في أوروبا .

وهكذا بدا كأن إله الحرب قد أخذ ينصرف عن تأييد النازيين ، وبدأت من ثم تنزل الهزائم بقواتهم بعد ذلك في كل ميدان تقريباً . ثم تفاقمت حوادث التخريب والتدمير في قلب قلعة هتلر الأوربية . وقد مر بنا كيف أرغم النازيون على خوض غمار الحرب مع العصابات والجيش اليوغوسلافية واليونانية وغيرها في البلقان ، كأنما الحرب قد استؤنفت من جديد من أجل أن يفتح النازيون هذه البلدان مرة ثانية . وفي العام التالي (١٩٤٣) انهزم (روميل) نهائياً في أفريقية الشمالية والشرقية ، واستسلم (فون باولوس) قائد الجيش السادس الألماني مع هيئة أركان حربه أمام ستالينجراد . ثم غزا الحلفاء صقلية وإيطاليا وتوالت هزائم النازيين في روسيا . وكان من حوادث هذا العام أيضاً اجتماع أقطاب الديموقراطيات العظيمة في سلسلة من المؤتمرات في موسكو والقاهرة وطهران لتوحيد الجهد من أجل إحراز النصر النهائي في الحرب ضد ألمانيا واليابان وإيطاليا ، وتخليص الإنسانية من شرور النازية المستطيرة ، ودعم الأسس التي ينبغي أن يقوم عليها عالم المستقبل على قواعد « الحريات الأربع » ومبادئ ميثاق الأطلسنطى .

تلك إذن كانت العوامل التي أدت إلى ظهور الدعاوة المضادة في أوروبا النازية وسببت ذبوعها وانتشارها . وإنه يحق لنا الآن أن نتساءل عن أغراض هذه الدعاية الخفية ، ثم ننتقل من ذلك إلى بحث الوسائل التي استخدمتها في دعاوتها ضد الطاغيان النازي في أوروبا .

كان للدعاوة المضادة من أول الأمر غرض واحد . هو المساهمة في الجهد الذي تتطلبه زحزحة كابوس النازيين الجاثم على صدور أهل البلدان المقهورة ، ومن أول الأمر أيضاً ، عرف الأهلون الذين حز في نفوسهم ما شهدوه من وقوع أوطانهم قريسة في أيدي الطغاة الباغين أنه كان من المستحيل عليهم أن يطردوا هؤلاء الغزاة الفاتحين من غير سلاح يشعرونه في وجوههم ولم يكن هناك من سبيل إلى الحصول على الأسلحة أو إعداد الجيوش المنظمة في عدد كبير من هذه البلدان المغلوبة على أمرها مادام النازيون أصحاب الحكم والسيطرة . وما دام النصر

مخلفهم ، وما دام سراد الشعب — في المراحل الأولى من الحرب — ينظر إليهم كأنصاف آلهة ضلّوا من غير عيئة البشر وقدت قلوبهم من الصخر لا يلمنون ولا يرحمون . بيد أنه من جهة أخرى ، لم يلبث أن تبدد الذهول الأول رويداً رويداً . وسرعان ما صار طبيعياً أن يتساءل القوم عن غير الطرق المؤدية إلى جمع الشمل وتوحيد الكلمة وتوجيه الرأي لتدبير المقاومة ضد السادة النازيين وإضعاف شوكتهم . ومن ثم ظهرت أغراض الدعاية المضادة أو الدعاية الخفية منذ اللحظة الأولى ذات معالم معينة واضحة يمكن تلخيصها في أن أصحابها صار دأبهم الآن إحياء الآمال في صدور مواطنهم وانتشالهم من الوحدة التي أرداهم فيها النصر الألماني ، وإقناعهم بأن ساعة الخلاص لا بد آتية إذا هم أيقنوا أنه يستحيل على الغزاة مهما أوتوا من قوة وسلطان ، أن يمحوا من عالم الوجود تقاليد الأمم وأمانها وآمالها ، وأن صاحب الإيمان في قدسية قضيته وعدالتها لا بد متتصر في النهاية . ثم كان من مقتضيات إحياء هذا الآمل في النفوس أن يسترد الأهليون الثقة . وأن تزول من أذهانهم الصورة التي رسمتها انتصارات النازيين الخاطفة ، وأن يقوى الشعور بأنه ليس من العسير قط هزيمة أنصاف الآلهة هؤلاء .

ولذلك عُنيت الدعاية الخفية عقب الاحتلال النازي في أوروبا بمدة أمور : أولها ، نشر الأخبار المحلية التي منعت الرقابة النازية نشرها . وأكثر هذه الأخبار متعلق بموقف كبار الشخصيات حيال سلطات الاحتلال الألماني وعدم إذعان بعض هذه الشخصيات لأوامر النازيين الضارة بمصلحة الوطن . وكذلك حرصت الدعاية المضادة على إذاعة أنباء المقاومة وحوادث التخريب والتدمير والمظاهرات في أرجاء البلاد . والغرض من ذلك كله إقامة البرهان على أن عرق الحياة مازال ينبض في جثمان الأمة ، وأن هناك من يرفض التسليم ، وأن من الخير ألا يقنع الأهليون بالعيش الدليل في ظل الاحتلال الألماني .

أما الأمر الثاني فهو أن الدعاية الخفية اتبعت أسلوب السخر بالأسادة الألمان ؛ وكان ذلك من السهولة بمكان ، بسبب ما كانوا يبذلون من محاولات خادعة لكسب محبة الشعوب المقهورة وصدقتها ؛ الأمر الذي جعلهم يتغالون في التردد إلى الأفراد وإظهار العطف على الأطفال وحديثي السن ، هذا في وقت كانت أداة الحرب النازية تجد في سلب صفولات البلاد وأموالها وثرواتها ، وتقسيم الأهلين في الإنتاج الحرق لمصلحة الرخ ، وتمتلئ الشفائس النازية بالتحف والكسوت ، وتقرم الأهلين من الأقوات بوقود الدف . وتستولي على الماشية ، وتصدر الألبان ومنتجاتها إلى ألمانيا . وتترك أطفال الأمم المقهورة يزعى لا يجدون من الغداء ما يسد الرق وبقي الأعداء ، ثم لا تهابون أخيراً في القبح على الفئات والأوف من الرجال والنساء

ورؤسهم إلى معسكرات الاعتقال ، ولا تنجم عن إعدام الرهائن ذرافات ورحلانا . بعد أن
ترغم هؤلاء التمساء على حفر قبورهم بأيديهم !

أما الأمر الثالث فهو أن الدعاية كانت تعتمد دائماً إلى نشر أخبار العمليات العسكرية
التي يقوم بها البريطانيون وحلفائهم ؛ كما كانت تحرص على إذاعة أنباء الهزائم الألمانية بكل
وسيلة ، ولو أن هذه الهزائم كانت قليلة ومتباعدة في بداية تلك الحرب الطاحنة . وكان غرض
الدعاية الخفية من ذلك إقامة الدليل على أن السادة النازيين لم يكسبوا المصير الأخيرة بعد ،
وأن أعمارنا تزال تناضل من أجل الحرية ، وأن الألمان ما دام النظام قائماً لا يستطيعون
الإدعاء بأن في قبضتهم تقرير مصير الشعوب نهائياً ؛ وأن الإيمان بالنصر الأخير والثقة
بالكاملة هما أداة الشعوب المزلاء . وأن المستضعف وحده هو الذي يرضى بالعيش الدليل

لذلك لم نكفد تمضي مدة طويلة على استقرار الاحتلال الألماني في أوروبا النازية ، وظهور
جماعة الكويستلنجهين الذين دبروا مع النازيين منذ أوليل هزيمة أوطانهم ، ثم أقبلوا
يؤيدون الحكم الجديد ويتعاونون مع الطغاة ، حتى أضطلمت الدعاية المضادة بمهمة أخطر
شأننا من غيرها ؛ هي كشف القناع عن حقيقة ذلك النظام الجديد الذي فرضه السادة النازيون
على أوروبا فرضاً ، وتحذير الأهلين مغبة التعاون مع الغزاة الفاتحين . لذلك نشطت الدعاية
الخفية في إظهار أكاذيب الألمان وادعاءاتهم ، وعكفت على تفسير القواعد التي بنى عليها
هؤلاء نظامهم الجديد بأمثلة مستمدة مما كان يفعله الألمان كل يوم في البلدان المحتلة ؛ ولما
كان الاستقرار ضرورياً لدعم أركان النظام الجديد . وكان من أهم عوامل هذا الاستقرار
إقبال الأهلين على التعاون مع الفاتحين ، فقد أثار الدعاية الخفية حرباً شديدة ضد الكويستلنجهين
الذين أجزموا في حق الوطن بتيسير السبل على الألمان حتى يقيموا نظامهم الجديد على انقاض
الحریات القديمة والمثل العليا الانسانية التي كسبها البشر بعد نضال قرون عدة . ولذلك أذاعت
الدعاية الخفية أسماء المتعاونين ، ووجهت لهم النصيح تارة والوعيد تارة أخرى ، وحذرت
الأهلين أن يشقوا بهم أو يركفوا اليهم أو ينسجوا على منوالهم . وبما يحذر ذكره أنه كثيراً
ما حدث من جراء إذاعة شخصية بعض الكويستلنجهين المنسرين — وكانوا أشد خطراً من
بقية المتعاونين مع السادة الألمان ، لأنهم يعملون في كثير من الأحيان كعميل لقوات الجستابو
على مواطنيهم — أن كان نصيب هؤلاء الموت في ظروف مريرة ، وكانت الوفاة دائماً على
أيدي الجستابو نفسه تخلصاً منهم . حتى لا يحملهم الشعور بالخزي والعار بعد إفصاح أمرهم
على السعي للتكفير عن خطاياهم بكشف الستار عن كويستلنجهين آخرين ما يزال سواد الشعب
يجهل وجودهم ، وحتى لا يبرحوا بشيء مما قد يعرفونه عن نظام الجستابو الخفي في بلادهم .

وفي المدة الأخيرة ، وعلى الخصوص بعد ذبوح خبر « ميثاق الأطلنطي » الذي سبق
الكلام عنه والحديث عن أثره في أرجاء أوروبا النازية ، صارت الدعاية الخفية تعنى بجمع
كلية الشعوب المقهورة على النظام الذي يسمح لها اختياره من أجل العيش في ظل حياة هادئة
مستقرة عند زوال دولة الصليب المعقوف من القارة الأوروبية . مثال ذلك ما فعلته هذه الدعاية
في فرنسا ووضع مبادئ الميثاق الأطلنطي الفرنسي ، في عام ١٩٤٢ ، وما نشر في موسكو
في يناير ١٩٤٤ عن البرنامج الذي تحدثت عنه جريدة (وولنا بولسكا) ، وهي صحيفة لاتحاد
الوطنيين البولنديين ، إذ قالت أن البرنامج يتضمن عدة مسائل : منها مد حدود بولندية
الحاربة غربا ، وتسوية جميع الخلافات القائمة بين بولندية والاتحاد السوفيتي . وإنشاء نظام
ديموقراطي برلماني في البلاد ، وإخراج جميع العناصر الرجعية من بولندية ، وتوزيع الأراضي
على الفلاحين ، والتوحيد بين البولنديين من غير نظر إلى عقائدهم السياسية مع استثناء
العناصر الرجعية في الخارج . كما ذكرت أن مهمة البدء بتغيير مركز بولندية في العالم ، وإدخال
التغييرات المنتظرة في بولندية نفسها يجب أن يكون من شأن البولنديين أنفسهم ، ولا بد
لديموقراطية البولندية من أن تبحث لها عن مخرج مما هي فيه وأن تجد هذا المخرج ؛ وبإبغى لها
أن تصبح الوحدة الوطنية وثبت أركانها في أثناء مناضلة المغير وهكأخيه .

• • •

هذا ، وقد تنوعت وسائل هذه الدعاية وتعددت . ومع هذا فإنه لم يكن قط من السهل
على أحبابها — وهم جميع الوطنيين في كل أمة منهزمة ما عدا تلك الفئة القليلة التي قبلت التعاون
مع الألمان — أن يوسدوا جهود دعاتهم المضادة ، أو يشنوا بعض الفلة بينهم جميعا حتى
يعرف فريق منهم ما يفعلونه الفريق الآخر ، أو تبذل جماعة مساعدة قيمة قد تكون جماعة
أخرى في حاجتها إليها . إلى غير ذلك ؛ بل إن من أبرز مظاهر هذه الدعاية الخفية استقلال
« خلاياها » في العمل فكانت . كل منها منفصلة عن الأخرى ؛ وبلغ من إيمان أحبابها في المحافظة
على سرية هذا النشاط حدا جعل توزيع العمل ضروريا على الأفراد متفرقين حتى لا يعرف
فرد ما يقوم به فرد آخر من نفس الجماعة الواحدة . وسبب ذلك ، الخوف الشديد من بطش
سلطات الاحتلال الألمانية في البلدان المقهورة . والخوف من الوقوع في مخالب رجال الجستابو
المنتشرين في كل بلد وقرية ، ثم الخذر من أن يفت أنصار النظام الجديد من الأهلين على
حقيقة ما يفعلونه . أحباب هذه الدعاية الخفية ، فيبلغون ما يعرفون ال نازي . ويكون نصيب
الوطنيين الثرديد في معسكرات الاعتقال أو الإعدام ، أو الإقتصاص القصاوم من ذويهم .
وفي الواقع كان الأفراد ، وحدهم في أول الأمر هم الذين أخذوا على عاتقهم نشر الدعاوة

المضادة وترويضها : ووجد الفرد ، في اعتدائه على نفسه لحسب فيها يريد فعله أو إذاعته وسيلة تخلصه من الوقوع في قبضة الجستابو : فظهر من ثم الى عالم الوجود في أوروبا المحتلة فريق من الافراد (أو الأشخاص) الذين ظل سرهم مكتوما الى يومنا هذا . وكان بعض هؤلاء أصحاب جرأة عظيمة : إذ قاموا بعمليات التخريب والتدمير في الحقول والمصانع ومحطات السكك الحديدية وأحواض السفن وما إليها . ثم ظهر الى جانبهم فريق من نوع آخر اكتفى أفرادهم بقتل الأنباء التي منعت الرقابة ذبوعها ونشرها بين مواطنيهم ، حتى اذا وجد الناقل أو المتحدث مستمعا له ، جمعت بين الاثنين روابط الكراهية للحكم النازي . ثم لم يلبث أن ينضم اليهم ثالث ، ثم رابع ، وهكذا حتى تكبر جماعتهم ويتعاون جميعهم في نقل الأخبار بعد أن يسلكوا كل الطرق في سبيل الحصول عليها . ومن أهم تلك الطرق الاستماع الى الإذاعات الأجنبية ، المحرمة ، وعلى وجه الخصوص الإذاعة البريطانية المشهورة B.B.C. وهم في الأقية ووراء جدران البيوت المغلقة ، وكلمهم عيون وآذان حتى لا تأخذهم الغفلة فيفتضح أمرهم ويكون نصيبهم الموت .

ومع أنه قد يسهل على المرء أن يعترف بأن الجماعة المخربة المدمرة كانت أكثر الجماعات جرأة وشجاعة ، فإن ناشري الأخبار المسيئة الى سمعة النازيين ، ومروجي الدعاوة المضادة كانوا أيضا أصحاب جرأة وشجاعة فما كان في مقدورهم أن يفلتوا من أقسى العقوبات النازية اذا قدر لهم الوقوع في قبضة سلطات الاحتلال الألمانية .

ولم يكف هذا الفريق من أنصار الدعاية الخفية بأن يقلل نشاطهم متصورا على نقل الأحاديث أو الاستماع الى الإذاعة المحرمة ، بل إنهم سرعان ما صاروا يجدون طرقا متنوعة للهز بالألمان والسخر بهم وإظهار أباطيلهم في كل فرصة مناسبة . وكانت فرنسا في طليعة الأمم التي اتقن آبنائها هذا النوع من أساليب الدعاية الخفية . وعلى الخصوص في شهور الاحتلال الأولى . فمن ذلك أنه كثيرا ما كان يحدث أن يجد الألمان في باريس مكتوبا على إعلانات السيارات : « زوروا إيطاليا ! » أو « تطوعوا في الجيش اليوناني ! » وكثيرا ما كانوا يحثون في مدن أخرى على عبارات مخطوطة على جدران المنازل وغيرها : « أيها اليونانيون قهقروا هنا . لأن هذه فرنسا ! » . وحدث عقب معركة بريطانيا أن قرأ الباريسيون ومهم بطبيعة الحال رجال الجستابو وساطات الاحتلال — عبارات بالطباشير على الجدران تنادى بحياة فرنسا وحياة إنجلترا ، وحياة تشرشل والروسيا . كما وجد الألمان أن كثيرا من أعلام الصليب المتيقوف قد أنزلت ، ورفعت بدلا منها أعلام الجمهورية الفرنسية . ولم يستطع الألمان مكافحة هذه الحملة الطباشيرية ، بل زاد أصحابها جرأة ، ثم صاروا يصوغون عبارات

جديدة مثل « نخباء دي بول » ، ويستقطب الألمان ! . . . ووجد أنصار الدعاية الخفية ميدانا واسعا لنشاطهم في داخل المصانع المختلفة لحساب النازيين في فرنسا . فوزعت المنشورات الهدية بين الصناع ، وعذبت هذه المنشورات على وجه الخصوص بإذاعة أنباء هزيمة الألمان في معركة بريطانيا . وحدث ذات صباح أن قرأ الباريسيون بين مجموعة الإعلانات التي أجازها الألمان إعلانا طريفا قالت ذكاء النازيين إدراك معنى ما به من عبارات التهمك اللاذع ، لأنه كان يحمل عنوانا جنابا : « إلى أتهم إنجلترا ! » أما بقية الإعلانات فكان كالآتي : « إلى أتهم إنجلترا لان إنجلترا هي التي غزت فرنسا في عام ١٩٤٠ ، ولأن إنجلترا هي التي أخرجت إلى عالم الوجود فكرة ألمانيا العظمى أو السكبرى : ولأن إنجلترا هي التي ضمت إليها النمسا ، ولأن إنجلترا هي التي اغتالت ما نجان ، وماجينو ، وبارتو ، والملك اسكندر الأول (ملك يوغسلافيا) ولأن إنجلترا هي التي قامت بتسليح نفسها تسليحا خطيرا وعبأت جيشها كله ، بما في ذلك الرقيق ، ولأن إنجلترا هي التي غزت النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، وهولندا ، وبولندا وبلجيكا والنرويج ؛ ولأن إنجلترا . . . أهوه يا للعجب من هؤلاء الإنجليز ! ! . . . ولم يفطن النازيون إلى حقيقة ما يحمله هذا الإعلان من دعاوة مضادة إلا بعد أن شاعروا الباريسيين يستهزئون في الضحك بعد قراءته ، فأزالوه بعد مضي أربع وعشرين ساعة .

وفي بقية أوروبا النازية لم يقل أنصار هذا النوع من الدعاوة المضادة عن زملائهم في فرنسا . فالحملة الطباشيرية كانت تجد ميدانا فسيحا في كل بلد مقهور . ومن الحكايات المشهورة الواقعية ما حدث في بروكسل عاصمة بلجيكا . ذلك بأن الألمان علقوا ذات مرة في شوارع هذه المدينة إعلانا يحمل رسم (ونستون تشرشل) واقفا يطل على أسرة من أم وأولاد صغار أعضائهم الجوع ولا يحدون على ما تفتتهم سوى صحاف فارغة ؛ ثم كتبوا تحت هذه الصورة : « أيها الوحش ! إنك تسقينا من العذاب كؤوسا مرة ؟ » . وكان الغرض من لصق هذا الإعلان لإظهار أن بريطانيا وحدها هي المسئولة بسبب الحصار البحري الذي ضربته على أوروبا النازية ، عن انتشار المجاعة في بلجيكا . ولكن حدث أن انتشر الألمان فرصة الظلام الدامس فأجروا تمييزاً في الصورة . حتى بدت رأس المستر تشرشل في الصباح التالي ، وقد أعطيت « قصة » عجيبية كما نبت له شارب صغير . فظهر (أدولف هتلر) بدلا من المستر تشرشل يطل على هؤلاء الأطفال الجياع . وانطبق عليه القول : « أيها الوحش ! إنك تسقينا من العذاب كؤوساً مرة ! » .

ومن أمثلة هذه الدعاوة المضادة ، ما كان يحدث في الدانمرك على نحو ما سبقت الإشارة إليه . فقد وجد أهلها أن خير وسيلة لبغث الثقة في النفوس وإشغال جذوة الوطنية لإحياء

الأناشيد والأغاني القومية الشعبية ، وخصوصاً في جوتلاند الجنوبية (أو شلزويج) . حيث يعزف القوم هناك بهذه الأغاني القديمة ويجدون في ترديدها عزاء وسلاوى . ولذلك صار مئات منهم يجتمعون للإشاد في الهواء الطلق ، وذاع خبر هذه الأناشيد القومية في أنحاء الدانمرك وسرت العدوى إلى كل مدينة وقرية ، وخرج الأهليون في كل مكان لترديدها . وهكذا حدث في سبتمبر من عام ١٩٤٠ أن قامت أكبر مظاهرة « غنائية » في كوبنهاجن ، عندما اجتمع حوالي ١٥٠,٠٠٠ دانمركي في ساحة (Faelled Park) للغناء ذات مساء ، وحدث مثل ذلك أيضاً في بلدة Esbjerg حيث احتشد عشرون ألفاً من سكانها البالغين ٣٦ ألفاً للعرض نفسه وكذلك في (هازل) Hasle . ووقع ذلك كله في وقت واحد وفي يوم واحد ، حتى يعبر الدانمركيون عما يشعرون به نحو الوطن . وفي الواقع كان شهر سبتمبر من ذلك العام شهراً تاريخياً في قصة الدانمرك الوطنية . إذ قرر الشباب في أنحاء الدانمرك تأسيس جماعة « الشباب الدانمركي العامل » برئاسة (هال كوش) Hal Koch أحد الأساتذة المهروفين . ثم تأسست في طول البلاد وعرضها «أندية تشرشل» تحت أنوف الجستابو وأنصارهم ، وغنى الدانمركيون النشيد القوي الإنجليزي بعد أن وضعوا له معنى جديداً : « سوف يكسب تشرشل الحرب لا محالة ! ، حتى سمي النازيون تلك الحماسة الدافقة « بالمرض الإنجليزي ! »

وفي هذه الظروف لم يكن من العسير على أصحاب الدعاوة المضادة أن يروجوا ما يشاءون من أقوال وأقاصيص من أجل إضعاف شوكة النازيين والسخر بهم . ومن النواذر التي انتشرت في هذه البلاد أن أحد بائعي السمك اعتاد المناداة على سمكه في أسواق كوپنهاجن : « سمك من الطراز الأول ، وسمين كالماريشال جورنج ! » فألقى القبض عليه وحبس مدة أسبوعين . ولكن لم يكف يطلق سراحه حتى استأنف المناداة على بضاعته قائلاً : « سمك من الطراز الأول : ما يزال سمينا كما كان منذ أسبوعين ! » . وكذلك ظل الدانمركيون زمناً يجدون في موقف ملصكهم كريستيان مثالا يحتذى في مقاومة الألمان ، وحسنت الدعاية الحفوية على إذاعة واقعة من وقائع هذا الملك مع السادة الألمان . وهي أنه كان من عادة الملك كريستيان أن يخرج كل صباح على حصانه للتجول في شوارع كوپنهاجن ، فحدث ذات مرة أن مر ببناء من الأبنية العامة . فوجد الصليب المعقوف مرفوعاً على أعلى البناء ، فطلب إليه ضابطاً ألمانياً وأخبره بمخالفة هذا العمل لنصوص الاتفاق القائم وقتذاك بين الدانمرك وألمانيا . فلما أجاب الضابط بأن العلم النازي قد رفع على هذا البناء بمتنصفي أمر صادر من برلين ، أعلن كريستيان نيته على إرسال جندي دانمركي لانزال العلم النازي إذا ظل العلم مرفوعاً إلى وقت الظهر . وفي الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والخمسين كان العلم ما يزال مرفوعاً ، فظهر الملك وقال

إن أحد الجنود الدنمركيين سوف ينزع العلم من موضعه في الساعة الثالثة عشرة تماما . فهدد الضابط بإطلاق الرصاص على ذلك الجندي . فأجاب الملك : إذن يمكنك إطلاق الرصاص على ، لأنني أنا هذا الجندي ! ، فاضطر الألمان إلى إنزال العلم بعد دقيقة واحدة .

وهكذا تنوعت الأمثلة وتعددت في كل بلد من بلدان أوروبا المحتلة . على أنه كان أيضا من أهم أساليب نشر الدعاية الخفية استخدام ما يعرف باسم « الخطابات المسلسلة » وذلك أنه لما كان من المتعذر في كثير من الأحيان الحديث علانية في موضوع يهم المواطنين تحت رقابة الجستابو وعيونهم ، فقد كان ناقل الخبر يعتمد إلى كتابة ما يريد إذاعته في رقعة صغيرة يضعها في كفه ، حتى إذا صافح أحد المواطنين ترك هذه الرقعة في يد ذلك الوطني الذي يعتمد بدوره إلى نسخ عدة رقائق منها يوزعها على أصدقائه ومعارفه الذين يشق بهم ، فيقوم هؤلاء بتوزيعها على آخرين بعد أن ينسخوا منها أعدادا أخرى وهكذا . وتتضمن هذه الرقعة عادة ، خبر هزيمة لحقت بالنازيين ، أو ذكر حادث تخريب أو تدمير ، أو أمر بتدبير مظاهرة كبيرة ، أو مجرد تحذير الجمهور من بعض حيل النازيين الجديدة لسلب أموال الأهلين أو مواشيهم أو أغذيتهم . وكثيرا ما كانت هذه الرقائق تنقل بعض الأقاصيص التي يقصد من إذاعتها الترويج عن النفس والزاية بالسادة النازيين والسخر بهم وتقوية الروح المعنوية وشد أزر المقاومة ضد سلطات الاحتلال الألماني بجميع الطرق الممكنة ومن ذلك ما يذكرونه في الترويج حيث أراد النازيون في بداية الاحتلال أن يجتذبوا النرويجيين بالتودد إليهم ، ووجدوا (قيدكون كويسلنج) وأنصاره مقبلين على التعاون معهم ، وكان من واجب أصحاب الدعاية المضادة أن يبذلوا كل جهد حتى يعرف سواد الشعب أنه كان هناك أناس ما يزالون يشيدون بذكر الملك والوطن ويرفضون في قرارة نفوسهم العيش الذليل في ظل الاحتلال الألماني ، هذا إلى ضرورة التمسك بأهداف الأمل والرجاء دائما . ومن الوقائع التي أذاعت أنباءها الدعاية الخفية ما حدث في (أوسلو) إذ دخل أحد النازيين محلات تجاريا ، ثم رفع يده بحيا بالتحية هتلرية وسأل البائعة أن ترشده إلى مكان بيع ملابس الرجال . وكان هذا النازي ينتظر أن تجيبه الفتاة بالتحية النازية ولكنها أبت ذلك . فأجابته على الفور : « يحيا الملك ! » خلفك إلى الشمال ، وفي أبريل ١٩٤١ حدث أن استفسر رجال الاحتلال الألماني من أحد وكلاء الكنائس النرويجيين (تليفونيا) ، عن مكان في كنيسة يتسع لايواء مائة جندي ألماني . فأجاب الرجل : « بكل تأكيد ! في استنطاعتنا أن نجد مكانا يتسع لايواهم في فناء الكنيسة المخصص لدفن الموتى » .

غير أن الدعاية الخفية سرعان ما وجدت في « الراديو » و « الصحف السرية » أكبر أدوات الفعالة في نشر دعاوتها ضد النازيين ونظامهم الجديد في أوروبا. ودل استخدام الراديو في الحقيقة على مهارة كبيرة وجسارة عظيمة من جانب أنصار المقاومة في أوروبا النازية . والسبب في هذا : أنه كان من مقتضيات التنظيم الألماني « الرقابة » الصارمة التي أنشأوها من أجل ترويج دعاوتهم للنظام الجديد من جانب ، ومن أجل إخماد أية دعاوة مضادة من جانب آخر ، أن يجرى النازيون تفتيشاً دقيقاً لمصادر جميع أجهزة الراديو ذات الموجات القصيرة خصوصاً ، واحصدار العقوبات القاسية على كل من يضبط متلبساً بجريمة الإستماع للإذاعات الحرة الأجنبية ، وفي مقدمة هذه ، الإذاعات المرسلة من محطة لندن المشهورة . B.B.C. وزيادة على ذلك قام النازيون من جهة أخرى بتوزيع أجهزة للراديو ذات موجات معينة تمكن صاحبها من الإستماع للإذاعات النازية المحلية فحسب . هذا إلى أنهم دققوا على وجه الخصوص في التفتيش عن كل أجهزة الإرسال في حوزة الأفراد . وكان غرض النازيين من ذلك كله ألا يستمع الأهلون في البلدان المقهورة إلى أنباء لا يريد النازيون ذيعوها بينهم ، وإن يتعذر على الوطنيين الذين رفضوا التعاون معهم ، وكان ما يزال لديهم بقية من أمل في الخلاص من سلطانهم أن يقف بعضهم على حقيقة ما يفعله البعض الآخر ويقوم به من ضروب المقاومة ويأتيه من حوادث التخريب والتدمير ، أو أن يستطيعوا إنشاء صلة تؤدي إلى جمع الكلمة وتوحيد الصفوف في وجه سلطات الاحتلال الألمانية .

ومع هذا فقد نجح كثيرون من أهل الشعوب المقهورة في الإحتفاظ بأجهزة الراديو ذات الموجات القصيرة ، واتخذوا التدابير لإخفاء هذه الأجهزة ، ورتبوا الاجتماعات (السرية) في أوقات الإذاعة الأجنبية للإستماع إلى ما يقوله أنصار الحرية في الأمم الديمقراطية . ثم عظم الإقبال على استخدام (الراديو) عندما صارت محطة الإذاعة البريطانية تنظم برامج باللغات الأجنبية وقد بلغ عدد اللغات التي كانت تذيع بها هذه المحطة سبعة وأربعين . وتحتل الإذاعة البريطانية مكاناً ظاهراً في تاريخ الدعاية الخفية والدعاوة المضادة بسبب ما كانت تنشره من أنباء وتعليقات على هذه الأنباء ، ولم يسكن يقصد من إذاعتها أن تقف الشعوب المقهورة على حقيقة ما يقع من حوادث وتطورات في أرجاء العالم من أجل القضاء على الطغيان النازي فحسب بل كانت تبغى إلى جانب ذلك إحياء الأمل والرجاء في صدور الأهلين وشد عزيمتهم بفضل ما تنشره من أخبار القوات المحاربة الحرة إلى جانب جيوش البريطانيين والأمريكيين في ميادين القتال المتعدده ثم بفضل ما كانت تنقله إليهم من أقوال الزعماء الأحرار الذين كانوا يتولون قيادة هذا النضال إلى جانب أقطاب الديمقراطية المعروفين في العالم وكانت تظهر لهم بين وقت وآخر طرفاً من الأساليب

التي كان يتبعها النازيون لدعم أركان نظامهم الجديد في أوروبا وبسط سيطرتهم العالمية . وأخيرا صارت الإذاعة البريطانية إلى جانب ذلك كله تعنى أيضا بجمع كلمة الوطنيين الذين آلوا على أنفسهم مقاومة الاحتلال الألماني في بلادهم .

وقصة الإذاعة البريطانية - B.B.C - طريفة حقا . فمن المعروف أن النازيين منذ خلعهم الحكم في ألمانيا ؛ كانوا أول من استخدم الراديو في الإذاعة السيماعية لترويج مبادئهم قبل نشوب الحرب الماضية بعدة أعوام . ثم اتقن زعيم الدعاية والنشر في ألمانيا الدكتور جوبلز تنظيم هذه الأداة حتى أصبح الراديو من أدوات الحرب الفعالة . وكان يعتمد عليه النازيون في تهيئة الرأي العام الألماني في بلادهم بما يذيعونه من أخبار وإدعاءات مضللة كاذبة وكذلك في حرب الأعصاب المشهورة لاضعاف جبهة المقاومة والدفاع في البلدان التي أرادوا اجتياحها . أما الإذاعة البريطانية فظلت في سنوات السلم لا تعنى بالإذاعة الأجنبية . ثم استمر الحال على ذلك المنوال إلى أن وقعت الأزمة التشيكوسلوفاكية المعروفة في سبتمبر ١٩٣٨ ، وعندئذ أدركت الحكومة الانجليزية خطر الموقف ، وأيقنت أنه من المتعذر عليها أن تنشر على الملأ آراءها ورأي رئيس حكومتها وقتذاك المستر نيفيل تشمبرلين ، بين الشعوب الأوروبية بصدد هذه المسألة الشائكة مادامت محطة الإذاعة البريطانية لا تعنى بتنظيم برامج أوربية تاركة للنازيين وحدهم ترويج آرائهم وإدعاءاتهم في أنحاء العالم وكانت تقوم بذلك (وزارة الدعاية) النازية بإشراف الدكتور جوبلز وأعوانه . ولهذا تقرر في ٢٧ سبتمبر من العام نفسه أن تنشر محطة الإذاعة البريطانية (B.B.C) باللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية جميع الخطب التي يلقيها رئيس الوزارة الانجليزية ، ثم الأنباء الهامة . واقتضى تنفيذ هذا القرار وقتذاك تنظيماً واسعاً لاعداد المترجمين والمذيعين ، هذا إلى جانب إجراء تغييرات فنية متنوعة ، ثم لم تلبث هذه الصعوبات الفنية أن زادت عندما صارت (المحطة) ترتب برامج للإذاعة باللغتين الأسبانية والبرتغالية في صيف العام التالي (١٩٣٩) . كما صارت تذيع بلغات أخرى بلغت في ذلك الحين سبعة . ثم ازداد العبء الملقى على عاتق هذه الإذاعة الأجنبية عقب نشوب الحرب الماضية مباشرة ، وما تبع ذلك من نجاح الألمان في اجتياح عدة دول في وقت قصير ، وإنشاء الحكومات « الحرة » التي صارت تمثل مجموعة الأمم المتحدة في لندن واتجاه الأنظار إلى بريطانيا كموئل للاجئين السياسيين والمضطهدين ، ومن أهمهم ، بل ومركز لتنظيم المقاومة الشديدة ضد الطغيان النازي ، ثم غدت بريطانيا قلعة الحرية التي شاء النازيون أن يفرضوا عليها العزلة فرضاً قبل غزوها هي الأخرى . وعلى ذلك نشطت الإذاعة البريطانية نشاطاً عظيماً في عامي ١٩٤٠ ، ١٩٤١ وكان واجبها الأكر

أن تسمع أوروبا المقهورة صوت بريطانيا عالياً مرتفعاً وسط ضوضاء أسلحة الحرب الميكانيكية وإغارات الطائرات النازية ، وأن تسمع القلقين أو اليائسين دقات (ساعة بن) المشهورة وكان عصيباً ذلك اليوم من أيام ربيع عام ١٩٤١ عندما هدمت قذائف النازيين بناية محطة الإذاعة البريطانية . ومع هذا فقد أعيد البناء على عجل وكانت الإذاعة النازية في هذه الأيام الشديدة (من عامي ١٩٤٠ ، ١٩٤١) تكاد لا تلقى منازعاً أو منافساً في ميدان الدعاية الأوروبية أو العالمية .

ولكن الحال سرعان ما تبدل بعد ذلك إذ تمسكت الإذاعة البريطانية من تنظيم برامج للإذاعة في أنحاء الممتلكات المستتمة وفي بلدان الإمبراطورية المختلفة ، وفي أغسطس وسبتمبر ١٩٤٠ كانت قد أحكمت الصلة بطريق الأثير ، بين لندن والولايات المتحدة الأمريكية . وقد عهد لذلك ولا شك ماقررت الولايات المتحدة ذاتها من ضرورة النزول إلى ميدان الصراع المستعمر منذ أبريل في العام السابق (١٩٣٩) فلم يسكد يمضي أسبوع واحد على استيلاء (موسوليني) على مملكة البانيا ، حتى ألقى (روزفلت) خطابه المشهور على هيئة الاتحاد الأمريكي (Pan American Union) في ١٤ أبريل سنة ١٩٣٩ ، وقال أن المسألة باتت في الواقع مسألة إختيار بين اقحام الحضارة الحالية في النزاع والحروب التي يثيرها العسكريون ، وبين التمسك بمثل السلام العليا واحترام حقوق الفرد والحرص على المدنية التي ينبغي أن تظل جميع الشعوب متمتع بها . ثم حدث بعد ذلك أن ذهبت أذراج الرياح جميع الجهود التي بذلها الرئيس الأمريكي من أجل تأمين سلامة الأمم ومنع نشوب الحرب ، حتى جاء في آخر الأمر انهيار فرنسا في يونيو ١٩٤٠ مؤذناً في نظر الكثيرين من أهل الولايات المتحدة بقرب انتهاء الحرب في مصلحة ألمانيا ، وبأن مقاومة بريطانيا لاطائل تحتها وأنه من المنتظر أن ترضى هذه الدولة بالتسليم عاجلاً أو آجلاً . وفي هذه الظروف ، كان من واجب بريطانيا أن تبدل كل جهد حتى يقف الشعب الأمريكي على مقدار المقاومة التي تبديها من أجل الدفاع عن سلامتها ، وإقامة البرهان على أن هذه الجزر العظيمة لا يمكن أن ترضى بالتسليم للامان حتى يفنى آخر رجل وأمرأة بها . ووقع على عاتق الإذاعة البريطانية (B. B. C) إبلاغ هذه الرسالة إلى العالم الجديد . وكان لصوت المستر (ونستون تشرشل) السحري ، أبلغ الأثر في نفوس الأمريكيين . وزيادة على ذلك فقد ظهر في تلك الآونة أن الرأي والشعور قد تحولا نهائياً إلى جانب الديمقراطية البريطانية في النضال الدائر . لأن الأمريكيين سرعان ما صاروا يطلبون في خريف ١٩٤٠ معرفة الشيء الكثير عن جهود بريطانيا الحربية ويتساءلون لماذا تذيع لندن إلى الشعوب البريطانية في كندا ونيو فوندلند ، والهند الغربية

بينما ترك الأمريكيين من غير الاذاعة لهم ؟ ثم كان لأهل هذه الديمقراطية العظيمة ما أرادوا فكتبت جريدة (نيويورك تيمس) في ١٤ يولية ١٩٤٠ تنفى على جهود محطة الاذاعة البريطانية ، ثم قالت مامعناه إنه سرعان ماتين من شخص بعض البرامج التي تذاع من هذه المحطة أن بريطانيا أصبحت الآن لاتضيق وقت المستمعين سدى في الاصفاء إلى روايات خيالية ١ . ومن ذلك الحين أصبح الأثير الصلة الفعالة التي ربطت بين بريطانيا وأمريكا ، ونقل الأثير خبر ميثاق الاطلنطي بين روزفلت وتشيرشل في أغسطس ١٩٤١ ، وأسدت الإذاعة خدمات جليلة عقب حادث (بيرل هاربور) المشهور وذلك في أثناء زيارة المستر تشيرشل للولايات المتحدة وكندا ، ومنذ صارت الولايات المتحدة ترسل جندها إلى الشرق الأوسط والهند ، نقلت محطة الاذاعة البريطانية إلى هؤلاء برامج مذاعة من المحطات الأمريكية .

يبد أنه إلى جانب هذا كله ، سرعان ما أتت محطة الاذاعة بتنظيم إذاعاتها الأجنبية لا لتقوات الأمم المتحدة المحاربة في الميادين فحسب ، بل ولأهل البلدان المقهورة في أوروبا النازية ثم كان أظهر آثار هذا التنظيم ما حدث في ربيع عام ١٩٤١ عند بدء الدعوة لحركة جيش النصر (V-Armey) المشهورة . ومع أنه قد سبق الحديث عن هذا الجيش عند الكلام عن ضروب المقاومة الايجابية والسلبية في أوروبا النازية ، فإن تمت حقيقة واحدة لا ينبغي اغفالها ، هي أن الفضل في قيام هذه الحركة الواسعة يرجع في الحقيقة إلى الشعوب الأوروبية المقهورة نفسها أكثر من أى شيء آخر . وتفسير ذلك أن أحد أعضاء الحكومة البلجيكية السابقين ، (الميسور فيكتور ديلافيلى (Victor Delaveteye) - وهو من أولئك الذين عاهدوا النفس على الحديث من لندن إلى البلجيكيين في أرض الوطن ، أراد أن يتحقق من أن هناك من يستمع لأصواته من مواطنيه ، فأفزع عليهم ذات مرة أن يحملوا شارة معينة ترمز إليهم هي حرف (V) حرف النصر ، وأن يخطوا هذا الحرف بالطباشير على الجدران حتى يكون ذلك بمثابة علامة يعرف بها كل مستمع لإذاعته اللندنية غيره من المستمعين الآخرين . وقال هذا الاقتراح قبولاً لدى مذيع آخر . يدعى (جيرسن (Geersens) . فطلب إلى مستمعيه من البلجيكيين في إذاعته النازية أن يفعلوا هم أيضاً مثل إخوانهم فاجاب أهل بلجيكا - من والون وفلميك - هذه الرغبة ، ثم لم يلبث أن ذاع الخبر ، فتبع هؤلاء أهل البلدان الأخرى وهكذا لم يحىء شهر ابريل من عام ١٩٤١ . حتى كان حرف النصر (V) منتشرأ من أقصى القارة الأوروبية إلى أقصاها من النرويج في الشمال إلى البلقان في الجنوب ، وقد تقدم كيف تعلم الكونتيل (بریتون Britton) إدارة هذه الحملة من لندن . وفي خريف العام نفسه أسدت هذه الحركة خدمة كبرى ، عندما انتشر في أرجاء أوروبا ومن ، جديد لنوع المقاومة الايجابية

الخطيرة — وهو رسم السلحفاة ، وكان هذا رمزا للحركة الابطاء المتعمد . وقد سبق ذكر مبلغ الأضرار التي لحقت بأداة الحرب الألمانية من جراء هذا النوع من المقاومة .

» * »

هذا هو الدور الخطير الذي لعبته محطة الاذاعة البريطانية (B. B. C) في إثارة المقاومة الفعالة في وجه السادة النازيين في أرجاء القارة . وواضح أن استخدام هذه الاذاعة كان من أمضى أسلحة الدعاية المضادة أو الدعاية الخفية التي كانت ترمى إلى تنويض أركان النظام الجديد في أوروبا النازية . ولذلك ، وقع النازيون عقوبات صارمة على كل منهم بالاستماع إلى الاذاعة البريطانية شعوصاً . وتنوعت هذه العقوبات ، من الحبس الانفرادي أو الارسال إلى معسكرات الاعتقال ، إلى السجن عدة سنوات أو الاعدام (وذلك على وجه الخصوص في كل من بولندة والنرويج ، ثم في ألمانيا ذاتها) ، إذا ثبت أن المستمع للاذاعة البريطانية يمتلك جهاز الراديو ، ويدعو اخوانه ومواطنيه إلى منزله أو أى مسكان آخر للاستماع معه . إذ أن النازيين كانوا يعتبرونه في هذه الحالة مروجاً لدعاية العدو ضد سلطات الاحتلال . وقد عُنيت حكومات الأمم المتحدة المحاربة (في خارج أوروبا النازية) بإعداد قوائم طويلة بأسماء سبيء الحظ الذين ارتكبوا جريمة ، الاصفاء إلى محطات الاذاعة الأجنبية ، وخصوصاً محطة B. B. C ؛ وصدرت ضدهم أحكام بالسجن أو الاعدام واشتملت هذه القوائم أيضاً على تواريخ صدور هذه الأحكام ذاتها بكل دقة . ولم يكن من العسير على الحكومات إعداد مثل هذه القوائم الكاملة . لأن الصحف النازية نفسها في البلدان المحتلة درجت على نشر أخبار هذه الأحكام بين الأنباء المحلية ، على أمل أن يكون هذا النشر زاجراً للأهالي ، بمنعهم من الاستماع للإذاعات الأجنبية . بيد أن صرامة هذه الأحكام لم تنفذ شيئاً في ردعهم ، لأن هؤلاء ما كانوا يجدون طريقاً يعرفون به شيئاً يحدث في بلادهم أو يجرى في أوروبا النازية وفي العالم عموماً غير الاستماع لآباء محطات الاذاعة الحرة وعلى وجه الخصوص المحطة البريطانية . وعلى ذلك فانه بدلا من أن يفاج الألمان في اقناع سواد الشعوب المقهورة بالانصراف عن الإذاعة اللندنية ، زاد إقبال الأهالي على هذه الاذاعة وصاروا يحكمون الأساليب التي تمكنهم من مراوغة الجستابو والافلات من أيديهم .

وانشرت في أرجاء أوروبا المحتلة أقاصيص عن وقائع كثيرة تبين في الحقيقة مدى فشل سلطات الاحتلال الألماني في مقاومة الاذاعة البريطانية . من ذلك أن أحد الجنود الألمان سأل ذات يوم في شارع من شوارع مدينة (بروكسل) رجلا من البلجيكيين عن الوقت فتعادل الرجل معرفة الألمانية ، فسأل الجندي آخر ، ولكنه لم يظفر منه بطائل . وعندئذ

تقدمت إليه ابنة صغير وأظهرت دهشتها كيف لا يعرف هذا الألماني الوقت ، مع أن كل إنسان يعرف أن الساعة هي الساعة والرابع مساء . فدهش الألماني بدوره ، وسألها كيف استطاعت هي أن تحدد الوقت بهذه السهولة دون أن تنظر إلى ساعة ما ؟ . فقالت : « الأمر يسير هل ترى أحداً من الناس في الشارع ؟ » فأجاب الألماني بالنفي . فقالت : « حسناً كل الشوارع تكون مقفرة الآن ، لأن الناس يهرعون في هذه اللحظة إلى بيوتهم حتى يستمعوا للإذاعة الحرة . وهذه موعدها كل مساء الساعة السابعة والرابع تماماً . »

وحدث أن كتب أحد المتحمسين من أنصار التعاون مع ألمانيا في بلجيكا إلى جريدة (نوقو جورنال) البلجيكية ، يشكو من أنه سمع في الترام حديثاً بين تليذتين . قالت إحداهما في أثناءه : « أن مدرس الإنجليزية في مدرستنا رجل عظيم حقاً ! هل تدرين ماذا يفعل ؟ إنه يبدي كل يوم تعليمات متنوعة على الأنباء المذاعة من إنجلترا . إن النصرات لا محالة ! » .

ومن الأقاصيص الطريفة ما حدث في بروكسل أيضاً عندما غادر رجل مسن أحد المقاهي ، فسأله رفاقه إلى أين ؟ فقال : إلى المنزل لأن هذا وقت الاستماع إلى الإذاعة البريطانية ! ثم ذهب الرجل إلى حال سبيله . ولكنه لم يكديستقر به المقام في بيته حتى سمع طارقاً . ثم لم يلبث أن دهش عندما وجد الجسدي في ردة البيت يسألونه : « هل أنت الرجل الذي يستمع إلى الإذاعة البريطانية ؟ » فأجاب : « نعم وأعمل ذلك كل يوم ! » فسألوه : « وأين هذا الراديو ؟ » فأجاب : « لا أملك جهازاً للاستماع . وإنما جدران المنزل رقيقة لدرجة تمكنني من الاستماع لإذاعة جهاز الراديو الذي يملكه جاري . وحضرته ضابط ألماني . »

الفصل الخامس

الصحف السرية

أما أخطر وسائل الدعاية الخفية وأشدّها أثراً فكانت الصحف السرية التي انتشرت في أرجاء أوروبا النازية، وظهور هذه الصحف كان معناه في الحقيقة وجود حركة مقاومة خفية واسعة يصعب على سلطات الاحتلال الألماني ورجال الجستابو اختادها على الرغم من أن النازيين كانوا أصحاب السطوة في البلدان المفتوحة . ويعتبر ظهور هذه الصحف السرية ورواجها برهانا ساطعا على أن الهتلريين قد فشلوا تماما ، أولا في كسب صداقة الشعوب المقهورة ، واستمالتهم إلى التعاون معهم في ظل النظام الجديد من أجل دعم السيطرة الألمانية ؛ وثانيا على أنهم بالرغم من تنظيماتهم الواسعة ظلوا عاجزين عن كبح جماح الأهالي والقضاء على الروح المعنوية في البلدان التي دانت لسلطانهم . وزيادة على ذلك فقد قامت الصحف السرية بدور خطير في جمع وتوحيد الصفوف وشد أزر المقاومة ضد السادة الألمان ، وهذا بفضل ما كانت تنشره من أنباء وموضوعات متعلقة بنشاط الديموقراطيات العظيمة ونضالها المميت من أجل خلاص الحضارة من شرور النازيين وطغيانهم من جهة ، ثم بفضل ما كانت تقوم به من وسائل الدعاية المضادة التي مر ذكرها . وبكفي برهانا على خطر المهمة التي القيت على عاتق هذه الصحف السرية ، أنها كانت تعتمد في الأنباء التي تنشرها على إذاعات المحطة البريطانية (B.B.C.) ، ومعنى هذا أن الصحف السرية تروج الأنباء التي يفرض النازيون عقوبات صارمة بلغت حد الإعدام في أحياء كثيرة على كل مستمع لهذه الإذاعة ، مما يدل أيضا على أن جميع الجهود التي بذلها النازيون لمقاومة هذه الإذاعة الحرة قد ذهبت سدى ومن غير طائل هذا إلى أن نجاح الدعاية المضادة في استخدام الصحف السرية دل على أن أنصار الدعاية عديدين بل ومنشرون في أرجاء أوروبا المحتلة ، لأن إصدار هذه الصحف السرية لم يكن بالأمر السهل الطين . فهناك قبل كل شيء مشكلة الحصول على الورق ، لأن سلطات الاحتلال الألماني تهيمن على توزيعه . فلا يستطيع انسان أوهية الحصول على الورق إلا إذا سمح الحاكم الألماني ، وعرفت سلطات الاحتلال الوجوه التي يراد استخدامها فيها وهذا إلى أن الكميات التي تسمح بها السلطات محدودة وتكاد تكفي حاجة البلاد العادية . فكيف يحصل إذن أنصار الدعاية المضادة على الورق الذي يلزم لصحفهم ؟ لا بد من وجود مؤيدين لهذه الدعاية الخفية

قبل كل شيء من بين الأهلين الذين استطاعوا التمتع بثقة الألمان لأن هؤلاء وحدهم هم الذين كانوا يحصلون على هذه الكميات المحدودة من الورق . وكانت هناك مجازفة أخرى إذ كيف يحمل مصدر الصحف السرية كميات الورق التي يحصلون عليها تحت أنوف هيئات الشرطة والجستابو اليقظين ؟ وإذا استطاع أصحاب الصحف الافلات من ذلك كله ، فأين يجدون المطبعة التي تطبع صحيفتهم ؟ بيد أنه كما كان هؤلاء يجدون أفرادا وشركات وطفية تعطيهم حاجاتهم من الورق خفية ، فانهم كانوا كذلك يجدون أصحاب مطابع لا يضمنون على أصحاب الصحف السرية بما يريدون من أدوات الطباعة كالخبر والحروف والآلات وغير ذلك . وكان مصدر الصحف دائما يعتمدون الى استخدام حروف الطباعة من (البنط) الذي لا تختص باستعماله شركة أو هيئة دون أخرى ، حتى يصعب على رجال الجستابو الوقوف على المصدر الذي أمد الصحف السرية بأدوات الطباعة . ورغبة في أن يتعذر العثور على المكان الخفي الذي أقيمت فيه المطبعة السرية كثيرا ما كان أصحاب هذه الصحف يختارون مكانا منمولا خوفا من أن يسمع القاطنون في الأماكن المجاورة صوت الآلات ، ويعرف خبر وجود المطبعة . وقد حرص مصدر الصحف السرية على ألا يعتمدوا على شركة واحدة لتزويهم بالورق أو مددهم بالآلات الطباعة وأدواتها ، أو يظلوا في مكان معين يطبعون فيه صحيفتهم مدة طويلة . والسبب في ذلك الإمعان في الخفية حتى لا يتسرب شيء عن نشاطهم ، أو يتعرض معا ونوهم في هذا كله لإثارة سلطات الاحتلال عليهم فيسكون نصيبهم الموت أو التشريد لا محالة . فإذا ما تم طبع الصحيفة ، صادف أصحابها صعوبة التوزيع . فكان عليهم أولا أن ينقلوا ما طبعوه من نسخ عدة قد يشير نقلها الرتبة والشكوك . وأن يجدوا موزعين ، يحصلون هذه النسخ إلى أيدي الأهلين في كل مدينة وقريّة .

ومع هذا ، وبالرغم مما كان ينتظر كل مشترك في أية عملية من هذه العمليات جميعها من عقوبة قاسية ، الأمر الذي كان يعرفه الألمان في أوروبا المحتلة حق المعرفة . وبالرغم مما كان ينزله النازيون بمصدرى هذه الصحف ومحرريها وموزعيها من عقاب صارم يبلغ حد الإعدام في حالات كثيرة ، فإن أصحاب الصحف السرية مضوا في إنجاز أعمالهم وطبع صحفهم وتوزيعها . وكان من الطبيعي أن يتمكن النازيون بين حين وآخر من القبض على بعض الأفراد المسؤولين عن إصدار هذه الصحف وإعدامهم . ومع هذا فإن ذلك لم يبدد شيئا في منع صحف أخرى ، غير تلك التي مات أصحابها أو أرغوا على الفرار من قبضة الجستابو وترك أوطانهم ، من الظهور في أماكن أخرى . وكثيرا ما كان يحدث أن تصدر الصحيفة نفسها التي ظنت سلطات الاحتلال الألماني أنه قد قضى عليها ، محتفظة بنفس الشكل الذي اعتادت

الظهور به ، يتولى تحريرها آخرون لا يفلون وطنيته ورغبة في مقاومة الطغيان النازي عن أسلافهم .

* * *

والوقوف على طرف من قصة هذه الصحف السرية وانتشارها يظهرنا على مبالغ نشاطها وأهمية الخدمة التي كانت تؤديها كأداة من أدوات الدعاية الخفية ذات الأثر الفعال في مكافحة دعاء النظام الجديد في أوروبا النازية . ولما كان عدد من أصحاب هذه الصحف ومحرريها قد استطاع الفرار إلى إنجلترا أو إلى غيرها من الدول الحرة المحاربة أو المحايدة ؛ وكانت أسرار الكثيرين منهم ما تزال تعيش في البلدان المحتلة تحت رقابة الجستابو وفي خطر التعرض للموت أو التشريد والنفي إلى معسكرات الاعتقال ، أو قضاء بقية العمر في غياهب السجون ، إذا عرف النازيون شيئا عن نشاط أعضاء الأسرة الحاربين ، فقد أصبح من المعتاد وقتذاك نشر أسمائهم أو تدوين قصة نشاطهم الخفي كاملة . ولذلك حرصت الحكومات الحرة المحاربة على أن تظل شخصيات هؤلاء الشجعان المخاضين بحياتهم محبولة ، واكتفت بتمجيد ذكرى الأبطال الذي لم يستطيعوا الخلاص والنجاة وكشفت ساطان الاحتلال الألماني أمرهم ، فلقوا حتفهم على أيدي الجستابو اللعينة أو قدموا للمحاكمة أمام المحاكم الألمانية العسكرية ، ونفذت فيهم أحكام الإعدام الرهيبة ؛ وأصبح من حق التاريخ وحده أن يرفع ذكرهم عالميا ، كمثال للتضحية الحرة النزيهة من أجل مصالحة الوطن ، وفي سبيل خلاصه من رقة الاستعمار الأجنبي .

وفي فرنسا بدأ ظهور الصحف السرية من وقت مبكر ، عقب الاحتلال الألماني مباشرة . فقد سبب انهيار فرنسا كوارث عظيمة . وكان (بول سيمون) من بين الذين فقدوا ثرواتهم وهو من الوطنيين الممثلين حماسة وغيرة ؛ متوقد الذهن عظيم النشاط ، قرى منذ اللحظة الأولى أن يشن بمفرده حربا شعواء على السادة الألمان ، هذا إلى أنه وجد في هذه الحرب المزمعة وسيلة للترويج عن نفسه إلى جانب إشباع رغبته في الانتقام من غير الاصطدام بالنازيين المدججين بالسلاح والذين كان لا يجرؤ وهو الأعزل على الاصطدام بهم . لذلك عمد (بول سيمون) في أيام الاحتلال الأولى ، إلى العمل على تعزيز صفو الألمان ، فصار لا يدع فرصة تمر دون أن يالصق على نوافذ سيارات ضباطهم وكبار رجالهم قصاصات الورق المعد لتغطية ألواح الزجاج حتى لا تتحطم وتتناثر قطعها وقت الاغارات ، بعد أن يكتب عليها عبارات مثيرة . مثل : « من هو أجمل رجل آرى في أوروبا ؟ الدكتور جوبلز على وجه التأكيد ! ، و « من هو أعظم البلوتاركين في أوروبا ؟ — أى أعظم رجال الحكومة البلوتاركية أو التي

تألف من الأغنياء — الماريشال جورنيج دون شك ! ، . هذا عدا عبارات أخرى تمتف بحياة دييجول ، أو كتابة شعار الجمهورية الفرنسية المعروفة بالحربة والمساواة والائتاء ، واعتمد (بول سيمون) من مبدأ الأمر على معاونة ثلاثة من الوطنيين ، واستعان مع زملائه العثور على حروف للطباعة صغيرة مصنوعة من الكاوتشوك — مما يلعب به الأطفال عادة — ، ثم اشترى الجماعة كل ما استطاعوا شراؤه من ورق الزجاج المصمغ واستخدموا ذلك كله في لصق عبارات ماثلة لتلك التي تقدم ذكرها ، من عبارات الدعاوة المضادة ، على جدران باريس . وذات مساء ، فكرت الجماعة في إنشاء صحيفة سرية . وبعد مضي أربع وعشرين ساعة كان (بول سيمون) يبدل كل جهد لاقناع أحمد أصعاب المخازن المدة لبيع الورق وأدوات الكتابة حتى يبيعه مطبعة من الكاوتشوك ذات حروف أكبر حجما من الحروف التي كانوا يستخدمونها وتمكنهم من طبع أربعة سطور في وقت واحد . وفي مكان سرى أمين ، وبعيد عن أعين رجال الجستابو ، وبعد عمل شاق مضى استمر شهرا بأكمله وكلف أحدهم فقد إحدى عينيه من كثرة الاجتهاد ، تمكنت الجماعة من إخراج أول أعداد هذه الصحيفة السرية وكان اسمها (قالمي) Valmy وهو اسم المعركة التي أحرز فيها الفرنسيون أول انتصاراتهم على البروسيين في عام ١٧٩٢ في أثناء حروب الثورة الفرنسية المعروفة . وأما الاسم الآخر فكان : « عدو واحد ، هو الغاصب ! » Un seul ennemi-L'envahisseur وكانت جملة ما طبع من هذا العدد الأول خمسين نسخة فحسب . ولكن سرعان ما أحدث ظهور هذه الصحيفة أثرا عظيما وضجة هائلة . والسبب في ذلك أن ظهور (قالمي) كان تحديا صريحا لسلطات الاحتلال الألماني ، وبرهانا ساطعا على أنه ليس من العسير أن يجد الوطنيون سبيلا للافصاح عما يشعرون به نحو السادة الألمان من كراهية واستخفاف ، هذا على الرغم من عبث الجستابو المنبثة في كل مكان . وعلى الرغم من سيف العقوبة الصارمة المسلط على أعناق كل من تحدته النفس بمقاومة النظام الجديد .

بيد أن (بول سيمون) لم يلبث أن واجه بضع عقبات ، أهمها ناشئة من عدم وجود ما يكفي من حبر الطباعة لإصدار العدد الثاني من صحيفته . ولما كان يعرف حق المعرفة أنه كلما قل عدد المشرفين على إصدار هذه الصحيفة ، كان ذلك أعون على كتمان سرها ، فضلا عن أنه لم يكن يريد أن يلحق بأصدقائه أي أذى بسبب ما قد يقدمونه لصحيفته من معاونة ، فقد قرر أن « يسرق » ما يريد من حبر من مقر القيادة الألمانية العامة نفسه في شارع ريقولى . وكان من المتعذر على أي فرنسي الاقتراب من هذا المكان . لأن الألمان منعوا سير الفرنسيين من ميدان الكونكورد وفي الشارع الموصل إلى تمثال جان دارك . فكيف إذن يحقق (بول سيمون)

رغبته ؟ ان مافعله (پول سيمون) ذات مساء حتى يدخل إلى مقر القيادة الألمانية العامة ،
ويأخذ ما يشاء من كميات الخبر اللازمة لمطبعتيه ، ما يزال من الأسرار . ولا شك في أن هذا
العمل كان يتطلب من (پول سيمون) شجاعة خارقة ! ومهما يكن من شيء فقد استطاع هذا
الفرنسي أن يصدر العدد الثاني من صحيفته (قالمى) مطبوعاً بمقدار ألماني !

واتبع (سيمون) نظاماً دقيقاً في توزيع صحيفته . فقسم الموزعون إلى جماعات تعمل
منفصلة ، ولا تعرف إحداها شيئاً مما تفعله الجماعة الأخرى ، زيادة في الحيلة وحرصاً على
حياة المشرفين على اصدار الصحيفة وعلى حياة موزعيها أنفسهم . وتنفذ هؤلاء في ابتكار
الطرق التي مكنتهم من توزيع الصحيفة في أماكن لا تخطر على بال إنسان ، كما حدث في مقر
القيادة الألمانية العامة في شارع ريفولي ، (في باريس) عندما عثر الجنود الألمان وهم يلبسون
خوزاتهم على نسخ مطوية بهناية من صحيفة (قالمى) على أن (پول سيمون) لم يلبث أن وجهه
في الثوابت الباريزات موزعات من الطراز الأول ، يحملن نسخ صحيفته إلى كل مكان يذهبن
اليه حتى صار الجنود والضباط الألمان أنفسهم يحملون هذه الصحيفة « المسكروحة » مخبأة في
جيوبهم . مما سبب لهم الحيرة والارتباك ، لأن الجستابو ما كان ليسدعهم يذهبون بسلام
إذا عرف أن (قالمى) قد وجدت طريقاً إلى الاستقرار في جيوبهم . وكان من بين هؤلاء
الفتيات الجريئات عدد من اللواتي فقدن أزواجهن أو شهدن أخا يحتنى وراء جدران مركز
قيادة الجستابو العامة في شارع فرش ، أو رأين السادة الألمان يسوقون الشبان لإرغامهم على
العمل الإجبارى في ألمانيا .

وسرعان ما ذاعت شهرة (قالمى) في أرجاء فرنسا ، وصار توزيعها غير مقصور على باريس
بل صارت توزع في الأقاليم أيضاً . وبعد الجستابو من أجل ذلك كله في البحث والتنقيب عن
أصحابها ومجريها وموزعيها عندما بلغ ما يقبله (پول سيمون) من جريدته حوالى العشرة
آلاف نسخة في كل شهر . بيد أنه لم يكن من العسير على رجال الجستابو بما أوتوا من قوة
وسلطان وبفضل ما بذلوه من جهود ، أن يمشروا بعد مشقة عظيمة على المكان الذى تطبع
فيه هذه الجريدة . وعندما تعرض أصحابها للخطر داهم ، ولكن شاء حسن الحظ أن يبلغهم
الخبر في الوقت المناسب ، فقاد (سيمون) ورفاقه الوكر قبيل هجوم الجستابو ورجع هؤلاء
خفي حنين . ثم عادت الصحيفة إلى الظهور كمعادتها ، وبلغ عدد قرائها في أكتوبر من عام
١٩٤١ المائة ألف .

وما تجدر ملاحظته أن (قالمى) لم تحاول معالجة شتى الأمور التي تناولها بالأسلوب الجدى
الذى يتطلب من القارئ أعمال الفكر وكد الذهن ، كما أنها امتنعت عن إثارة الموضوعات

الجدلية التي قد تعطى للألمان فرصة الرد ومحاولة الاقتناع . فقد فطن محروها إلى أن أمضى سلاح يستخدمونه ضد السادة النازيين إنما هو سلاح التمك والسخرية والنقد اللاذع الذي يذهب بهيئة مصلطات الاحتلال الألمانية ، ويحطم ما يكون قد رسخ في أذهان الباريسيين الذين أذهلهم انهيار بلادهم بهذه السرعة الحاطفة ، من أن النصر لا يمكن أن يفات من قبضة الآلة النازيين ، وأن أحداً لن يجرؤ على نقدهم أو مقاومتهم . وفي الواقع ظلت (فالى) تقف مضاجع الألمان مدة طويلة ، وصار لا يبدأ لهم بال حتى يقبضوا على أعقابها وموزيمها ، ومن ثم أحكم رجال الجستابو رقابتهم ، وضاعفوا نشاطهم حتى استطاعوا في نهاية الأمر أن يعثروا على مكانها الجديد ؛ ولكن صاحبها (پول سيمون) تمكن في الملاحظة الأخيرة من الإفلات من قبضتهم ، ونجا بنفسه عبر الحدود ، قبل أن يطبق عليه الجستابو شبكتهم المتعددة ، اتخذ مقره في لندن يعمل مع جماعة الفرنسيين الأحرار في إنجلترا .

غير أن فرار (پول سيمون) لم يكن معناه نجاح النازيين في إخماد حركة الصحف السرية في فرنسا . ومع أن هؤلاء بدأوا يتشددون في مراقبة جميع العناصر المعادية في هذه البلاد منذ شهر ديسمبر ١٩٤١ ، فإن الصحف السرية والمنشورات والرسائل الصغيرة وما إليها سرعان ما انتشرت انتشاراً كبيراً حتى بلغ عدد النشرات الاخبارية السرية في تلك الآونة حوالي العشرين . ولم تكن (فالى) الصحيفة الوحيدة التي صدرت منذ أيام الاحتلال الأولى . لأن صدورها ونجاة صاحبها سرعان ما أفصيا إلى ظهور صحيفتين أخريين : هما (پنتاجرول) Pantagruel — وهو اسم البطل الذي أوجده خيال (رابليه) أحد أعلام الأدب الفرنسي القدماء — ؛ و (ريزستانس) Resistance — أي المقاومة . وقد تبع ظهور هاتين الصحيفتين ، إصدار صحف سرية أخرى منها : (فرنسا الحرة) — La France Libre ، (صوت باريس) La Voix de Paris ؛ و (شعب فرنسا) Peuple de France ؛ و (النضال) Combat ، وغير ذلك .

وبما هو جدير بالذكر أن الأطباء في فرنسا (قبل عام ١٩٤٣) أصدروا صحيفة علمية طبية ، ظلت تعنى بجمع الحقائق التي تساعد على معرفة مبلغ الأثر السوء الذي أحدثه الاحتلال الألماني وتطبيق النظام الجديد النازي في صحة الأهاليين . وقد وصلت هذه الصحيفة السرية إلى نتائج معينة في هذا الموضوع : أهمها أن عدة أمراض ناجمة عن سوء التغذية وقتلها مثل الأنيميا وضعف الأعصاب وهكذا) صارت تفنك بالأهاليين حتى بات متوسط الوزن الذي يفقده الشخص العادي ثلاثة كيلوجرامات في الشهر الواحد .

ولم يكن الوطنيون وحدهم هم الذين أصدروا هذه الصحف السرية ، بل اشترك معهم في

ذلك أيضا الشيوعيون . وكان لهؤلاء قبل الحرب الأخيرة صحيفة تدعى (الإنسانية) L'Humanité . أغلقها النازيون في أيام الاحتلال الأولى ؛ ولكنهم لم تمض فترة صغيرة حتى عادت الجريدة إلى الظهور وصارت في عداد الصحف السرية ذات الخطر ، وتولى تحريرها وإصدارها أحد الراديكاليين المعروفين في باريس وهو (جبرائيل پرى) Gabriel Peri . وكان (پرى) هذا عندما بدأ يصدر صحيفته السرية رجلا مريضاً بالسل ، ولا يرجو شفاء من علته الصدرية . ولذلك انكب على عمله الجديد بكل همه مضجعا في سبيل مقاومة الاحتلال الألماني بكل ما علك من مال وصحة . وظلت التبرعات تنهال على صحيفته من كل جانب ، لاسيما وأنها صارت لا تقنع في عهدها الجديد بمجرد تأييد قضية الشيوعية ، بل أخذت على عاتقها الدفاع عن مصلحة الوطن قبل أى اعتبار آخر ، وهذا بترويج الدعاية المضادة ضد السادة النازيين والعمل على تقويض أركان النظام الجديد في فرنسا . ولكن أيام (پرى) كانت معدودة . فقد قبض عليه الجستابو ، وأودع السجن مدة ساءت في أنفائها صحته كثيرا ، وكاد المرض يفتك به لولا أن قرر الألمان إعدامه رميا بالرصاص . وقابل (پرى) الموت برباطة جأش وعدم مبالاة وأخذ يردد أغنية من الأغنيات المفضلة لديه ، وعبثا حاول جلادوه إرغامه على ابطال التغنى بها ، بل ارتفع صوته قليلا قبل اطلاق الرصاص عليه . وأثار عمل (پرى) هذا إعجابا لاحدا له ، وعرفه الفرنسيون من ذلك الحين باسم « الرجل الذى مات وهو يغنى » وفى اليوم التالى زار ألوف من الباريسيين وغيرهم المكان الذى أعدم فيه ، والذى كان لا يزال ملطخا بدمائه ، ووضعوا عليه أكاليل الزهر .

أن متاعب النازيين لم تنقض وفاة (پرى) . فقد ظلت تحمل راية المقاومة في فرنسا صحف جريئة . منها جريدة (التحرير أو الخلاص) Liberation ، وجريدة (پنتا جرويل) Pantagruel أما جريدة (التحرير) السرية فقد عنيت بنشر أنباء محطة الإذاعة البريطانية (B. B. C) وأسماء الذين أعدمهم الألمان ولقوا حتفهم على أيدي رجال الجستابو ؛ هذا إلى أنها صارت تعنى أيضاً بتحذير الأهلى حتى لا يقعوا في فخاخ رجال الشرطة وشباكمهم . وكانت تنشر كذلك أسماء الفرنسيين الذين قبلوا التعاون مع السادة النازيين في بلادهم . وعظم ذبوع هذه الجريدة حتى صار الضباط الفرنسيون الأسرى في المعتقلات الألمانية لا يجدون صعوبة في الحصول على أعداد منها . وكان من بين المشتركين في تحريرها وإصدارها أحد أعضاء البرلمان السابقين عن مدينة ليون . وهو المسيو (أندريه فيليب) André Philip أستاذ الاقتصاد السياسى في جامعة ليون ، وقد عمل في أثناء الحرب كضابط اتصال مع قوات الحملة الإنجليزية في فرنسا ثم أعيد إلى عمله في الجامعة بعد انهيار فرنسا ، ثم استطاع بعد ذلك الفرار إلى إنجلترا .

وقبل أن يغادر (أندريه فيليب) فرنسا كانت جريدة (التحرير) توزع خمسين ألف نسخة . وكان أهم ما عانيت به هذه الجريدة تنظيم المظاهرات ، وبث روح المقاومة السلبية في ليون وفي بقية فرنسا لتعطيل سياسة النازيين الأولى والتي أرادوا بها كسب مودة الفرنسيين وصدافتهم في المنطقة المحتلة . وزيادة على ذلك ، اضططعت هذه الجريدة بمهمة توحيد صفوف الفرنسيين حتى لا تظل الأمة مقصورة على طبقة العمال وحدها ، لأنه كان ينبغي أن ينضم أهل الطبقة المتوسطة أيضاً إلى صفوفها . وكان هؤلاء مازالون يعتقدون على الماريشال بيتان Pétain الآمال في انقاذ فرنسا . فلما استقدم (بيتان) إلى (فيشي) Vichy المسيو بيير لافال Laval ، وأعاد استخدامه : انتهزت الجديدة هذه الفرصة لاثارة حملة شعواء ضد حكومة فيشي ونظامها ولم يكن ذلك في الحقيقة أمراً عسيراً ، لأن انضمام (لافال) إلى (بيتان) لم يلبث أن نثر القلوب في فرنسا المحتلة وقتذاك من الماريشال الطاعن في السن ، وانفض من حوله الانصار الذين عقدوا على زعامته الآمال العريضة ؛ واستطاعت جريدة (التحرير) أن تكتب عقب هذا الحادث مامعناه : « إن الاختلاف الحقيقي بين فرنسا المحتلة . وغير المحتلة ، هو أن ألمانيا في فرنسا المحتلة هي العدو الأول ؛ (وفيشي) هي العدو الثاني . أما في فرنسا غير المحتلة فإن (فيشي) هي العدو الأول ، وألمانيا هي العدو الثاني ! » .

وتعتبر (پنتاجرول) Pantagruel من أقدم الصحف السرية في فرنسا ، إن لم تكن أقدمها جميعاً . وقبل أن يستطيع (بول سيمون) الفرار من باريس ، كان الألمان قد قبضوا على محرر (پنتاجرول) وأعدموه . وقد أسدت (پنتاجرول) خدمات جليلة في الفترة التي قدر لها الظهور في أنشائها . جاء في عددها الأول ما معناه : « إن هذه الصحيفة مخصصة لنشر الأنباء ولا يمكن أن يذهب نضالها ضد سلطات الاحتلال سدى . وغرضها نشر الأخبار التي يذيعها الراديو الانجليزى ، حتى يتف عليمها كل من يتعذر عليهم الإصغاء إلى نشرة الأخبار البريطانية والذين يتألمون بسبب عجزهم هذا . إننا نرجو رجاء حاراً أن يكون النصر من نصيب الانجليز . لأن هذا من شأنه أن يخلص فرنسا ويرد إليها عدداً من أقاليمها المفقودة ومستعمراتها ، ثم يحقق لها النجاح من العبودية الاقتصادية والتضخم المزدى . وما ينبغي أن ندعى أن إنجلترا قد أعلنت عن أغراضها الحربية التي تتضمن إعادة كيان الاراضى الفرنسية برمتها سليمة . وهذا هو السبب الذى يجعلنا نرغب في انتصارها . ولو أن هذا لا يعنى بالضرورة إذلال الشعب الألمانى ... » . ولعل أهم ما يسترعى النظر في هذه الجريدة أنها أخذت على عاتقها مقاومة الدعاية النازية عند اشتداد اغارات الطائرات البريطانية على الموانئ الفرنسية ، فكان مما قالته : « وإذا سلمنا بأن الانجليز إنما يحاربون من أجلنا كما يحاربون

من أجل مصالحهم ، وهذا هو الوضع الصحيح وما يحدث فعلا ، فانه يجب علينا ألا نلومهم ، لأنهم إنما يفعلون ما يفعله جنودنا أنفسهم عندما ينسف هؤلاء الجسور أو يهدمون القلاع والحصون ... ومع هذا فقد حرصت الجريدة على أن توضح لقارئها أنها ليست بالصحيفة الانجليزية . بل على العكس من ذلك ، فانه من الواجب على كل قارئ أن يساعد على وصول هذه الصحيفة إلى المواطنين الأحرار في بريطانيا العظمى ، إذا استطاع إلى ذلك سبيلا . إذ ينبغي أن يعرف أصدقائنا وحلفاؤنا في إنجلترا ، أن الأذى الذى يحاول أعداؤنا أن يلحقوه بهم بطريق النشر والكتابة في صحفهم لم يقد شديدا في تحطيم عاطفة الصداقة التى تشهر بها نحوهم الجبهة العظمى من الشعب الفرنسى . ، وفي عدد من أعداد هذه الصحيفة ، جاء التعليق التالى : « ان هجوم الربيع (١٩٤١) الذى قام به هتلر ، أفضى الى ارسال الجيش الألماني إلى بلغراد ولكن بلغراد هذه إنما هى عاصمة أوربية وليست بكل تأكيد عاصمة بريطانيا العظمى وهكذا يتعطل سير النظام الجديد مرة أخرى . والواقع أنه من المستحسن كثيرا أن يذهب الألمان إلى أثينا وإلى بلغراد ، ولا ينزلون في لندن ! . . . وكان هذا تمكنا واضحا .

والحقيقة أن (بنتاجرول) كغيرها من الصحف السرية كانت تعتمد على التمسك والتمسك بالسادة النازيين فيما تكتب أكثر من اعتمادها على أى شئ آخر : الأمر الذى أثار سخط سلطات الاحتلال الألماني ، وأوقد حفيظة النازيين ضد هذه الجريدة . وقبل إعدام صاحبها في نوفمبر ١٩٤١ بلغ عدد النسخ التى توزعها (بنتاجرول) عشرة آلاف نسخة !

وإلى جانب هذه الصحف السرية كان يوزع أيضا أنصار الدعاية المضادة عدداً من الكتب الصغيرة التى يسهل حملها في الجيب أو في حقيبة اليد الصغيرة . ومن أشهرها ، كتيب « انتشار انتشاراً كبيراً في فرنسا المحتلة عنوانه « نصائح للأهلين في الأرض المحتلة » Conseils à L'Occupé . وهو كتيب يقع في ست عشرة صفحة ، وبلغ عدد ما وزع منه نيفاً وسبعة آلاف نسخة . وهو يتضمن إرشادات فيما ينبغى أن يفعله كل رجل وامرأة في المسلك الواجب إتباعه حيال الألمان في بلادهم . وكلها إرشادات في الحقيقة لا غنى عنها من أجل إحكام أساليب المقاومة السلبية : وأهمها الامتناع عن مخالطة الفاتحين ، والتظاهر بحمل لغتهم والامتناع عن ارتياد المقاهى التى يؤمونها ، ومقاطعة أصحاب المحلات العامة الذين يعلنون عن إمكان التخاطب بالألمانية في محالهم ، وزيادة على ذلك فإن هذا الكتيب صار يحذر الأهلين من الانخداع بما تذيعه الدعاية النازية والاستماع لأكاذيب الدكتور جوبلز وأعوانه .

وفي يوليه ١٩٤٢ كان قد بلغ عدد الصحف السرية في فرنسا الثلاثين ، وهذا عدا المنشورات والكتب الصغيرة وما إليها ، فقد أربت على الستين . وفي تلك الآونة كانت جميع

الدلائل تدل على أن هذا العدد آخذ في الزيادة المستمرة ولعل أبرز نتائج هذه الدعاية الخفية زوال الفروق السياسية التي لعبت فيما مضى دوراً خطيراً في تفسك فرنسا وانهارها فصار الأهلون جميعاً يربطهم الآن رباط واحد ، هو ضرورة مجابهة الخطر المحقق بهم من جراء وقوع الوطن تحت أقدام النازيين ، وواجب التطلع إلى مستقبل جديد يحفظ على فرنسا وحدتها ويعيد إليها امبراطوريتها ومجدها ، ويكتب لها الخلاص والتحرر من ربة الاستعباد الألماني لا في هذا الجيل وحده ، بل وخلال الأجيال المقبلة كذلك

ولم تسكن فرنسا وحدها موطن هذه الصحف السرية ، فقد كان من نتيجة الاحتلال الألماني وما تبعه من التضييق على حريات الشعوب وخنقها ، وإذلال الأهلين وسلب اقتصادهم القوي ثم تسخيرهم في العمل لدعم أركان النظام النازي الجديد ، أن صار أهل البلدان المقهورة يجدون في الصحف السرية وسيلة من الوسائل التي تمكنهم من الإفصاح عن شعورهم ولحياتهم الآمال في صدور مواطنهم ، وجمع الرأي والكلمة على ضرورة مقاومة الطغيان النازي . وكان البلجيكيون من بين هذه الشعوب المغلوبة على أمرها والتي ظلت متشبثة بحقها في حياة حرة طليقة .

وتبدأ قصة الصحف السرية في بلجيكا بحادث جدد في أذهان البلجيكيين ذكريات الصراع الدامي القديم عندما وطى الغزاة الألمان أرض الوطن بأقدامهم في عهد الاحتلال الأول في أثناء الحرب العالمية الأولى بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٨ . هذا الحادث هو مفاجأة أهل بروكسل ، في يوم ١٥ أغسطس ١٩٤٠ بظهور أول أعداد صحيفة (بلجيكا الحرة) La Libre Belgique ولم يكن هذا العنوان جديداً . لأنه في عام ١٩٤٠ كان لا يزال كثيرون من البلجيكيين يذكرون أنه في يوم أول فبراير ١٩١٥ طلعت إلى عالم الوجود ، وتحت أنوف رجال الاحتلال القيصري السابق ، جريدة المقاومة وقتذاك « بلجيكا الحرة » !

وكان ظهور هذه الصحيفة السرية (في عام ١٩٤٠) نتيجة لأمر أصدره الألمان في مايو من العام نفسه ، منعت بمقتضاه أية صحيفة بلجيكية من الظهور قبل أن ينال أصحابها تصريحاً بذلك من سلطات الاحتلال الألماني العسكرية ، وكذلك منع أى طابع من استخدام مطبعته في أى غرض من الأغراض قبل أن ينال تصريحاً بذلك من هذه السلطات ذاتها . وقد تبع هذا الأمر ، استقالة كثيرين من أصحاب الصحف ومحرريها ومراسليها . ولكن النازيين ما لبثوا أن تولوا بأنفسهم جلب المحررين والطابعين لإصدار الصحف اليومية الكبيرة وغيرها كما داتها وكان شيئاً لم يحدث بل أن السلطات الألمانية لم تتورع عن صب جلم غضبها على أصحاب

الصحف الذين رفضوا بأي حال من الأحوال ، أن يكونوا ضالعين معهم فيما أرادوه . مثال ذلك ما حدث لصاحب جريدة أنتورب المشهورة Gazet van Antwerp ، ، يدعى (دي هاسك) De Hasque إذ ألقى النازيون القبض عليه وأودعوه إحدى معسكرات الاعتقال ، حيث توفي بعد زمن قصير ، ومثال آخر ، ما حدث لمدير وكالة بلجا Belga Agency المعروفة ويدعى (بطرس) Beetres . وفي عام ١٩٤٣ كان كثيرين من أصحاب الصحف البلجيكية ومحرريها ما يزالون في غياهب السجون منهم (ديمارتو) Demartieu رئيس اتحاد الصحافة البلجيكية و (أوش) Ochs صاحب الرسوم الهزلية المشهورة في جريدة (بوركوايه) Pourquoi Pas ، وغيرها وهذا عدا مئات الصحفيين الذين آثروا العيش في فرنسا غير المحتملة في تلك السنوات الأولى ، ثم في غيرها من البلدان الحرة .

بيد أنه كان من الطبيعي وقد تخلى هؤلاء الصحفيون عن أعمالهم ، أن يتولى جماعة من المواطنين الشجعان هذه المهمة مما أدى إلى ظهور صحيفة : (بلجيكا الحرة) . التي أعلنت أن عنوانها التلغرافي هو : الحاكم الألماني العام في بروكسل ، وأن ناشرها هو (بيتر بان) Peter Pan — وهو تمثال أقيم في ميدان بروكسل بعد الحرب العالمية الأولى — ، وأنه لما كانت جميع الأعمال معطلة من جراء الاحتلال الألماني ، فإنه لا مسوغ بتاتا لنشر أية إعلانات في هذه الجريدة ! . وفي يولييه ١٩٤٢ كان قد بلغ عدد ما يوزع منها أربعين ألفا . وفشلت جميع جهود الجستابو في العثور على أصحابها ومحرريها .

وإلى جانب (بلجيكا الحرة) ظهرت ثلاثون صحيفة سرية أخرى توزع في أرجاء بلجيكا . منها (الراية الحمراء) De Roode Vaaen ، و (القناص) De vrije Schutter ، (ووطننا) Dus Vederland ، وكلها صحف فليمنكية ، هذا عن الصحف الهولندية (الفرنسية) مثل (تحت الخداع) Sous La Botte ، (البربنسون) Barbançonne ، (النيران) Feux de Barrage وغيرها ، ثم الصحف الاشتراكية : (الأمل) L'Espoir ، (العصر الحديث) Le Nouveau Temps و (الراية البيضاء) Le Drapeau Rouge ، (الوضوح) Clarté ، (الشباب الجديد) Le Jeunesse Nouvelle . وكذلك صار للنساء صحيفة سرية هي (صوت المرأة) La Voix des Femmes هذا عن صحف أخرى مثل (الفرقة السوداء) Le Coup de queue du Doudon Montois والصحف الهزلية مثل (القوم المثقفين وأفاضلهم وأن الغرض الذي كانت تتوخاه هذه الصحف هو كشف القناع عن أعمال السلب والنهب التي يرتكبها السادة الألمان تحت ستار دعم أركان النظام الجديد في

أوروبا كما كانت ترمى إلى دحض منقريبات الدعاية النازية ، ثم تعزيز روح المقاومة وحض
الأهليين على مشاهدة النازيين العسداء بكل ما يماسكون من قوة ، وأظهار شخصيات الخونة
والضالعين مع العدو والمتعاونين معه ، هذا إلى الإغاضة في الشناء على رجال سلاح الطيران
البريطاني ، ثم نقل الأخبار المذاعة من محطة لندن المعروفة ، وعلى وجه الخصوص أنباء العمليات
المسكرية وأخبار القوات البلجيكية الحرة المحاربة إلى جانب البريطانيين وحلفائهم في ميادين
القتال. وما يجدر ذكره أن جميع هذه الصحف كانت تؤدي تأييدا كاملا لموقف الملك ايوبولد البلجيكي
الذي كان يعتبر نفسه سجيننا في أيدي السلطات العسكرية الألمانية ويرفض الإذعان للنازيين
أو أن تكون له صلة مباشرة بهم . وزيادة على ذلك برعت هذه الصحف البلجيكية السرية في
أسلوب النهم اللاذع للنيل من هيبة الجندي الألماني ، وهذا بفضل ما كانت تدفعه من أخصيص
رؤاير للسخر بهم . وإلى هذه الصحف يرجع الفضل أيضا في تدبير حركات المقاومة لتعطيل
أداة الحرب الألمانية . من ذلك أن الألمان الذين كان يزعمهم نقص كبات الورق الموجودة
أرادوا أن يمتنع البلجيكيون عن إتلاف الورق القديم المهمل ، بدعوى أن صناعة الورق
الجديد من هذه الكمية المهمة من شأنها أن تفضي إلى استخدام حوالي ٦٢ ألف باجيكي ،
فانبرت الصحف السرية عقب ذلك تطالب إلى الألمان إتلاف الورق المهمل القديم ، لأن
الألمان ، كما قالت الصحف ، إنما يحتاجون إلى هذا الورق لخدمة أغراض سيئة ليست في مصلحة
الوطنيين في شيء . ثم حدث مثل هذا عندما شرع النازيون يجمعون النيكل ، فنصحت الصحف
السرية الأهليين أن يخفوا قطع النقد المصنوعة من النيكل لديهم ، لأنها سوف تنفعهم ولا شك
في يوم عاصيب ، فكانت النتيجة أن النازيين لم يستطيعوا سوى جمع ما يقرب من ٦ ٪ فقط من
النيكل الموجود بالبلاد وكانت تقدر قيمته بنحو مائتين من الفرنكات . أضف إلى ذلك
اتساع أعمال التخريب والتدمير في بلجيكا بفضل تشجيع الصحف السرية ، مثل إشعال الخرائق
في المصانع وانتزاع قضبان السكك الحديدية وتعطيل محطات الإنارة وتوليد الكهرباء ،
وانفجار القذائف دائما بين الألمان

ولذا أوقع النازيون عقوبات قاسية على كل من يضبط منلبسا بجريمة قراءة الصحف السرية
أو توزيعها أو يشترك في تحريرها أو إدارة أعمالها . وكانت هذه العقوبات تتراوح بين
السجن بضعة شهور . والسجن المؤبد ، والحبس الانفرادي ، والاعدام . مثال ذلك ما حدث
في (لييج) Liège إذ أصدرت المحكمة العسكرية الألمانية في شهر يوليو ١٩٤١ أحكاما صارمة
على عدد من الناس اتهموا بالاشتراك في إدارة وتحرير وتوزيع صحف غير مصرح بصدورها
أو ما حدث في فلندرا الشرقية إذ حكم على اثنين بالاعدام لأنهما كانا يوزعان بعض هذه

الصحف وبعض النشرات التي تضمنت أنباء مذاعة من لندن . كما سجن كثيرات من الفتيات المتهمات بجريمة توزيع صحف غير قانونية ! ومع هذا فإن الصحف السرية كانت منتشرة في بلجيكا . وكان يصدر من (بلجيكا الحرة) La Libre Belgique وحدها ثلاث طبعات إحداهما في بروكسل ، والثانية في إيسيج والثالثة في أنتورب .

وفي هولادة ظهرت الصحف السرية عقب الاحتلال الألماني مباشرة . بيد أن الحظ لم يكن من نصيب الهولنديين من أنصار الدعاية المضادة . إذ استطاع النازيون في مبدأ الأمر أن يقفوا على حقيقة أمر الكثيرين ممن اشتركوا في تحرير هذه الصحف أو توزيعها ؛ فألقوا القبض على عدد كبير من الرجال والنساء كان نصيب كثيرين منهم الإعدام أو الحياة البائسة في معسكرات الاعتقال ، ومع ذلك فقد عجز الألمان عن إخماد هذه الدعاية الخفية . وفي طليعة الصحف السرية في هولادة جريدة (القول الحق) Het Parool . وبلغ مقدار ما يوزع منها حوالي العشرين ألف نسخة يقرأها ما يقرب من المائة ألف قارئ . وكان شعار هذه الجريدة قول النشيد الوطني الهولندي « سوف أبقى أميناً لوطني حتى أموت ! » وكانت هذه الجريدة تقاوم النظام الجديد ، فتبين الأهالي ما ينطوى عليه تطبيق هذا النظام من أعمال السلب والنهب الاقتصادي . وتقف بالمرصاد لكل فرد من أعوان (مسيرت) Mussert كويسلنج هولادة المعروف . تكشف عن أعمالهم ، وتحذر الأهالي من تصديق إدعاءاتهم وتزج الستار عن كل خيانة جديدة يرتكبونها . وكان موزعو هذه الجريدة يتفنونون في ابتكار الطرق التي تضمن لجريدتهم الوصول إلى أيدي الأهالي في كل مكان تقريباً . كما كان أصحابها ينهزون الفرص دائماً لزيادة ما يوزع منها . وعند الاحتفال بعيد ميلاد الملكة وليلينا (في ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٢) طبع أصحابها رسائل صغيرة ذات لون برتقالي ، ووزعوا منها آلاف النسخ في أمستردام وحدها ، وكانت تحمل عبارة « أورانج — وهو اسم البيت المالكة الهولندي — سوف ينتصر ! »

وهناك غير هذه الجريدة عدة صحف سرية أخرى ، منها « الأرض النرويجية الحرة » Vrij Nederland « وشحاذ والبحر » De Geuzen « ومن الصحراء » Uit de Woestijn « و « شعبنا » Ons Volk وغير ذلك . والسبب في تعدد هذه الصحف السرية وتنوعها ، أن كل جماعة من الأهالي ، كالكانوليك ، والعمال ، وهلم جرا كانت تمتلك صحيفتها الخاصة بها .

ومع أن لكسمبورج تبدو صغيرة في مساحتها بالقياس إلى مجموعة الدول المحيطة بها والتي استولى النازيون عليها في حربهم الخاطفة ، إلا أن أهلها لم يكونوا أقل حماسة في مقاومة

الاحتلال الألماني من غيرهم من الشعوب المقهورة . وكانت تعترض النازيين في هذا الأقليم الصغير صعوبات كبيرة جعلت من المتعذر عليهم أن يحمّدوا صحافتها السرية . فقد استطاعت المقاومة الخفية في هذه الدولة الصغيرة لإنشاء (اتحاد وطني) غرضه الأول جمع كلمة الوطنيين ضد الاحتلال الألماني . وكان ينضم إلى هذا الاتحاد حوالي ٩٨ ٪ من أهل لكسمبورج . ثم ساعد صغر مساحة الأقليم على إحكام الصلة بين أعضاء (الاتحاد) وتنظيم جهود أعضائه على نحو يجعل منه في نطاق الدولة القديمة دولة أخرى لها قوانينها وصحفها السرية الخاصة بها .

وكان عدد الصحف السرية التي يملكها هذا الاتحاد ثلاثة ، وأهمها صحيفة De Freie letzeburger جريدة المعارضة الوطنية وكانت تمان عن أخبارها أنها مستقاة من لندن وموسكو ونيويورك ، التي تتصل بها جميعاً عن طريق الراديو . وقد حاول الألمان منع وصول الأخبار إليها بقطع التيار الكهربائي في أوقات الإذاعة البريطانية من لندن . ولكن هذه المحاولة أخفقت لأن الجريدة سرعان ما أحضرت أجهزة الراديو من ذوات البطاريات ، كما أنه كان من الميسور على محرريها الانتقال إلى الأرض الفرنسية المجاورة والاستماع منها إلى الإذاعة الأجنبية . أما أقطاب هذا (الاتحاد الوطني) فقد مات ثلاثة منهم ، أعدم الجستابو اثنين وانتحر الثالث بعد أن قتل برصاص مدسسه ثلاثة من الجستابو الذين هاجموا للقبض عليه ، ثم استطاع رابع هو (جون فرسل) John Vercei الفرار إلى لندن .

وفي (تشيكوسلوفاكيا) عرفت الصحف السرية ، قبل أن يحتاج الألمان هذه البلاد بشهرين على الأقل . أي منذ أن تلبد الأفق السياسي في أوروبا بالغيوم ، وقلق التشيك على مصير وطنهم ، فتألفت من بينهم الجمعيات الوطنية التي أزعجها مسلك الدكتاتوريين النازي والغاشي ، وصار أعضاؤها يفكرون في طرق الخلاص من الأخطار التي توقعوا إحداقها بهم ومن هؤلاء أنصار الديمقراطية الذين ظلت نفقتهم كاملة بزعم هذه الدولة الحديثة ، الدكتور بنيش (Benés) وكان من بين هؤلاء الديمقراطيين رجل قدر له أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ الدعاية الخفية في تشيكوسلوفاكيا هو يوسف سكالدا ، Joseph Skalda . وكان وكان سكالدا ، من الوطنيين المتحمسين الذين جذبوا إليهم القلوب والتف حواهم الأنصار حر الرأي صادق العزيمة ، ظل في أثناء الأزمة التشيكوسلوفاكية الممروقة (سبتمبر ١٩٣٨ — مارس ١٩٣٩) يتردد على المنتديات والمقاهي وكانت في أبراج وفي أكثر بلدان البلقان بمثابة (الصالحون) القديمة التي كان يقسمها أحباب الفكر والرأي . يتباحثون ويتناقشون في شتى الموضوعات الأدبية والاجتماعية والسياسية .

وحدث ذات مساء أن اجتمع بيوسيف سكالدا ، في مقهى من هذه المقاهي ، رجل من الوطنيين ، لم تكن له به أية معرفة سابقة . ودار الحديث بينهما في هذا الاجتماع بشأن إصدار صحيفة سرية . واختار الاثنان لهذه الجريدة الجديدة اسم (V-Boj) ومعناها (هبنا إلى السلاح) . ومنذ وافق « سكالدا » على ذلك ، انكب على عمله الجديد بهمة لا تعرف الكلل حتى استطاع أن يخرج العدد الأول من صحيفته السرية قبل نشوب الحرب ، واحتلال الألمان البلاد لمدة شهرين . وكان هذا العدد يتألف من عشرين صفحة ، نشرت فيها البحوث التي تروج لآراء أصحابها الديموقراطية ، أكثر من عنايتها بنشر الأنباء ، ثم ذاعت ذيوها كبراً حتى صار لها وكلاء يتولون توزيعها في كل مدينة وقرية تقريباً . ومع هذا لم تتعرض الحكومة القائمة الوطنية وقتذاك لهذه الجريدة بشيء ، وصار الناس يتداولونها علناً . ولذلك لم يكبد الألمان محتلون تشيكوسلوفاكيا ويضعون بوهميا ومورافيا تحت حماية الريخ الثالث حتى نقلت (V-Boj) نشاطها من ميدان الحياة العامة إلى ميدان العمل في طي الخفاء . وساعدت دقة تنظيمها السابق على بقائها واستمرار ذيوها .

ومع أنه كان من المنتظر أن يفضى مجيء الألمان ، ورجال الجستابو ، إلى مقاومة الصحف السرية والعمل على إخمادها . فإن السادة الجدد لم يعنوا في بادئ الأمر بمكافحة أصحابها ، وظل الحال على ذلك مدة سبعة شهور بتامها بعد الغزو ، واستطاع « سكالدا » ورفاقه — وكان عددهم جميعاً عشرة — أن يصدروا عدد (V-Boj) الأول في عهد الاحتلال — أو الحماية الألمانية . وفي هذه المرة كان عدد صفحات الجريدة أربعة مزدانة برسوم الأسلحة الموسمية القديمة وصورة أسد بوهميا الأبيض . وقد تضمن هذا العدد الأول مقالاً افتتاحياً يحض التشييك على التمسك بأهداب الأمل والرجاء ، وعدم اليأس ، ورفض السيطرة الألمانية ، إذ أنه مهما أصدر النازيون من أوامر وتعليمات ، فإنهم ان يستطيعوا التحكم في أفكار الناس ، هذا إلى أنه كانت توجد قوات نشيطة في البلدان الأخرى ، وعلى وجه الخصوص في بريطانيا من المنتظر أن تتمكن هذه الأفكار من الظهور حرة طليقة .

ومع هذا ، فإنه لم يلبث أن حدث في الشهر الحادي عشر ، ما دل على أن السلطات الألمانية قد أخذت تهتم بأمر هذه الجريدة . وشرع الجستابو يبحث عن أصحابها ومحرريها . وإزاء هذه البقطة الجديدة اضطرب (سكالدا) ورفاقه إلى تغيير مقرهم من وقت لآخر ، وتسليح كل فرد منهم للدفاع عن نفسه عند الحاجة . والواقع أن الخطر عليهم كان عظيماً في تلك الآونة ، لأن الجريدة كانت قد نمت نمواً كبيراً ، وزاد مقدار ما يوزع منها ، واشترك كثيرون في توزيعها ومن شأن ذلك كله أن يسهل على الجستابو معرفة مقر الصحيفة أو العثور على أحد هؤلاء

الموزعين ، ثم إرغامه بعد تهديبه على إفشاء سر الجماعة . على أنه بالرغم من هذه الأخطار ظلت (V-Boj) تظهر بانتظام في الفترة التالية ، ثم صارت تنال عليها البحوث والمقالات من كل جانب ، لا يرسلها محرروها بالبريد ، بل يرسلونها بطرق أخرى متنوعة زيادة في الحيلة والتسكيم . وفي هذه المقالات والبحوث وجد (سكالدا) ومما ونوع مادة طيبة للنشر ، ولو أنهم حرصوا على نشر الأنباء المذاعة من محطة الإذاعة البريطانية (B.B.C.) . هذا إلى أن الجريدة صارت تنشر بعض الصور الهزلية وعددا من الصور الشمسية ، حتى غدت V-Boj صحيفة بالمعنى الصحيح ، ولو أنها لم تصل إلى درجة الكمال والإتقان السابقة قبل العهد الألماني .

وكان أول ما قامت به هذه الصحيفة من أعمال المقاومة السلمية أن حذرت الوطنيين الذين أرادوا في يوم ٢٨ أكتوبر من عام ١٩٣٩ الاحتفال بالذكرى اليوم الذي ظهرت فيه دولة تشيكوسلوفاكيا الحديثة باستقلالها منذ عشرين عاما ، من نوايا النازيين الذين قرروا إراقة دماء الوطنيين المحنطين بهذا العيد . فنصحت الجريدة ، بدلا من إحياء هذه الذكرى في مواكب ومظاهرات ، بأن يلزم التشيك منازلهم حتى يتركوا شوارع براج خالية يتجول فيها السادة الألمان وحدهم ثم اقترحت إلى جانب هذا ، أن يحتفل الوطنيون بعيدهم القومي ، بحمل شارة صغيرة ذات ثلاثة ألوان — شارة الدولة الحديثة : الأزرق والأبيض والأحمر — ونجحت دعوة V-Boj نجاحا عظيما . ولكن اسوء الحظ لم يلبث هذا النجاح أن كلف الوطنيين ثمنا غاليا . فقد حدث عند ما برغت شمس يوم ٢٨ أكتوبر (١٩٣٩) . وظهرت براج يخيم عليها السكون من كل جانب كأنه لم يكن بها قاطن أن قرر كارل هرمان فرانك وزير الحماية الألماني أن يخرج مع أعوانه وفي عدد من قواته النازية ليتجول في أنحاء المدينة عله يعثر ببعض عاثرى الحظ الذين اقتضت أعمالهم أن يغادروا منازلهم في هذا اليوم المشنوم ، أو عله يستطيع أن يحمل الحراب والدمار إلى بيوت الأهالي المسلمين . ولذلك ركب (فرانك) مع جماعته السيارات ، وقصدوا جميعا إلى أحد الأحياء الأثرية القديمة في براج (طريق الفلاسكيين) فخرج لاستقبالهم يهودى هرم ظن أنهم من السائحين الزائرين الذين يقصدون مشاهدة معالم هذا الحى الأثرى ، فكان نصيبه الموت . ثم قصد (فرانك) وأعوانه بعد ذلك أحد الأحياء الكبيرة في قلب المدينة ، وهناك عثروا ببعض المساراة فألقوا عليهم القذائف اليدوية . وما أن سمع النازيون صوت هذه المفرقعات حتى تدفقوا من أَمَا كنهم وشمكناتهم ، وامتلأت بهم الشوارع ، واستطاعوا أن يخرجوا اليهود من بيوتهم أو من مخابئهم ، وقتلوا منهم سبعة عشر شخصا ، ثم قاد الجستابو ٣٦ شخصا آخر أذاقوهم العذاب . وبذلك استطاع النازيون أن يسيلوا الدماء في يوم تشيكوسلوفاكيا الوطنى ! وكان لهذه المأساة

آثار خطيرة . إذ أن الأهلين وقد ذاقوا الأمرين من عنيت السلطات الألمانية : وإصرارها على سفك دمائهم ، لم يلبثوا أن قرروا بدورهم اتباع أساليب المقاومة الإيجابية المعروفة . ومن ذلك الحين لم تنق (براج) طعم الهدوء يوماً واحداً . وقضى من ثم على كل أمل في إمكان التعاون بين التشيك وسلطات الحماية الألمانية .

بيد أن هذا لم يكن كل ما نجم من شرور . فقد أفضى إصرار الأهلين في الأيام التالية على العمل باقتراح (V-Boj) وحمل الشارة التي تقدم ذكرها ، إلى إثارة سخط النازيين عليهم حتى إن هؤلاء كثيراً ما كانوا يوقفون حاملها في الطريق ، من أجل أن ينتزعوا هذه الشارة عنوة . ولما أعيتم الخيل ، صاروا يغمزون على أصحابها باللكم والضرب : ثم لجأوا في آخر الأمر إلى إطلاق الرصاص على كل شخص جرؤ على حمل هذه الشارة في عروته !

ولما كانت جريدة (V-Boj) هي المسئولة عن ظهور هذا النوع من المقاومة السلبية ، فقد حنق الألمان عليها ، ونشط الجستابو نشاطاً عظيماً للقبض على أصحابها ومحرريها وموزعيها ، وعرضت السلطات مكافأة مالية كبيرة لمن يرشد عن أشخاصهم ، أو يدل على مكان طبع الصحيفة . وأسفرت جهود الجستابو الجديدة عن معرفة مكان مؤقت كان قد اختاره (سكالدا) ورفاقه لطبع صحيفتهم بعد حوادث ٢٨ أكتوبر المشنومة في أحد فنادق براج الكبيرة . فحاط الجستابو بهذا المكان ، ثم هاجموا . وباغتوا فيه رجلين . استطاع أحدهما أن يشعل النار في عدد الجريدة الذي أعد للظهور ، وأطلق الجستابو عليه الرصاص من الخلف ، وقفر الثاني من الشافذة فدق عنقه عند سقوطه ، وكان كل ما ظفر به الجستابو عبارة عن ٢٠ نسخة مخسب من آخر أعداد الجريدة !

ولم يعطل هذا الحادث نشاط (سكالدا) . بل إن الصحيفة لم تلبث أن أخرجت كتيباً جديداً بعد الحوادث الآتفة . تخاطفته الأيدي ، ولم ينطن الجستابو في بادئ الأمر إلى حقيقة هذا السكتيب ، لأنه كان يشبه كتيباً من سلسلة معروفة كانت تصدر في تشيكوسلوفاكيا في تلك الآونة ، ولا تعالج الموضوعات السياسية . هذا إلى أن الذي يتصفح هذا السكتيب ما كان يجد سوى أحاديث عن الأدب ، حتى إذا بلغ الصفحة الرابعة ، عثر على أقوال معادية للسلطات الألمانية وصور هزلية من النوع الذي تجيده الدعاية الخفية . وإلى جانب ذلك بعض النصائح والإرشادات الضرورية لاحكام أساليب المقاومة السلبية .

وفي براج ، ظل (سكالدا) يصدر صحيفته السرية (V-Boj) بالرغم من الأخطار التي اكتنفته . معتمداً هو وأعوانه على النساء بصفة خاصة في توزيع الصحيفة ، حتى اضطرت الجستابو إلى استخدام عدد من الألمانيات لمراقبة المحال العامة التي ترتادها السيدات بنوع

خاص . ومع هذا فقد أخفقت محاولات الجيستا بو . وفي هذه الأثناء كانت (V-Boj) قد صارت صحيفة المقاومة السابية الأولى ، وقد نشرت في أحد أعدادها الأخيرة بعض النصائح اقارئها ، كقولها : « إذا قاذك سوء الطالع إلى الوقوع في أيديهم — أي الألمان — فلا تنس دائما هذه العبارة : لا أعرف إلا أذكر ! ، وإذا ضربوك وعذبوك فاطلب من الله أن يمنحك القوة والجلد ، ثم تذكر مرة أخرى : لا أعرف إلا أذكر ، وإذا جابهوك بأحد رفاقك المتعاونين معك ، أو أحد أصدقائك ومعارفك ، ممن يقولون أمامهم دون تردد ، أنه من العيب نكران أي شيء ، ثم يطلب إليك أن تعترف ، فتذكر العبارة نفسها : لا أعرف إلا أذكر ، لأن ما تفوه به عدا ما تقدم يعمل بين أطوائه الضرر والسوء . كن شجاعا ونقورا ورجلدا صبوراً . كن صاحب مكر ودهاء . ثم تعلم كيف تقدر العواقب وتزن الأمور ، وفكر طويلا قبل أن تنضم إلى صفوفنا وتعمل معنا ، ولا تكن عجولا .. »

وزاد غيظ الجيستا بو وحققهم ، عندما ظهرت صحيفة جديدة في هذه الآونة تسمى التعاون Collaboration ، وكانت في مظهرها ، وما اشتملت عليه من عبارات عند بدء القول في بحث أو موضوع ، ثم عند اختتام هذا البحث أو الموضوع ، ما يدل على أنها كانت تدعو حقيقة إلى التعاون مع الألمان : حتى إذا أنعم القارئ في وسط المقال وفي نهاية الصفحة وجد عبارات من نار تدعو الوطنيين إلى مقاومة الطغيان النازي ، وتنتشر في الواقع (انجيل الوطنية) الذي حرصت (V-Boj) نفسها على إذاعته . وكانت هذه الصحيفة تتألف من ثمان صفحات ، وتشبه كتب الجيب في حجمها ، وبلغ ما صدر منها ثلاثة أعداد فحسب ، قبل أن يحد الجيستا بو وراء أصحابها ، وقنع هؤلاء بأن يلزموا السكون مؤقتا حتى تبدأ العاصفة

بيد أن ذيوع V-Boj من جهة ، وظهور (التعاون) وهي الجريدة التي روجت تعاليم ومبادئ الصحيفة الأولى من جهة أخرى ، سرعان ما جعل الجيستا بو يضاعف جهده حتى يقبض على مصدري V-Boj ومحريها ثم شاء الحظ أن يخدمهم في هذه المرة ، ووقع (يوسف سكالدا) في قبضتهم أخيراً ، فألقوا به في غياهب السجون مدة طويلة ، وبعد مضي ثمانية عشر شهرا ، صدر بيان جاء فيه : « إن محكمة الشعب في برلين قد أصدرت حكمها بإعدام يوسف سكالدا ، وهو كاتب تشيكي ، ثم حكمت بالسجن مددا طويلة على خمسة عشر تشيكيا آخرين لأنهم ساهموا في إصدار ونشر صحيفتين من الصحف التشيكية الحرة . »
وبهذا أسدل الستار على نشاط (يوسف سكالدا) ، ولو أن هذا كان لا يعني أن الجيستا بو قد قضى على جريدة V-Boj نهائياً .

ولا تتم قصة الصحف السرية في تشيكوسلوفاكيا من غير الإشارة إلى كتيب لتي إقبالا

عظيما في تلك البلاد ، هو كتاب « الجندي شفايك في عهد الاحتلال » . وشفايك (Schweik) هذا من الشخصيات المحبوبة في الأدب التشيكوسلوفاكي الحديث ، أخرجهما إلى عالم الوجود (ياروسلاف هاسك) Jaroslav Hasek (١٨٨٤ — ١٩٣٣) . وتقع حوادث القصة الأصلية ونوادير (شفايك) في عهد الامبراطورية النمساوية القديمة وفي أثناء الحرب العالمية الأولى . أما في كتاب الدعاية المضادة الجديد ، فتقع حوادث هذا البطل (شفايك) في عهد الحماية الألمانية في بوهيميا ومورافيا . والكتاب مملوء بالنوادير والقصص التي يقصد بها تشجيع المقاومة ضد الحماية الألمانية .

وكذلك كان من الكتب الصغيرة التي صادفت نجاحاً كبيراً ، كتيب لا يحمل عنواناً ، لم يلبث أن عرفه الوطنيون باسم كتاب « أقاصيص الصيد » ، ثم هناك عدة صحف سرية كانت توزع في تشيكوسلوفاكيا المحتلة : منها : (تحرير الوطن) Narodni Osvobozeni و (الصدق) Pravda ، (جمهورية تشيكوسلوفاكيا Cesko sloveuska Republike

* * *

وفي بولندا حيث أخفق النازيون تماماً في استمالة الأهلين إلى التعاون معهم ، وصاروا لذلك لايتورعون عن ارتكاب أية جريمة من أجل إبادة البولنديين وإفنائهم ، كانت تنتشر الصحف السرية انتشاراً عظيماً . ولم يقل عدد مظاهر منها منذ بداية الاحتلال الألماني عن ١٥٠ صحيفة . وأكثر هذه الصحف كانت تتألف من أربع صفحات مخصصة لإذاعة الأنباء هذا عدا صحف شهرية كانت تعنى بنشر البحوث العلمية والفنية ، وتمتدح في شؤون الاقتصاد والزراعة والتربية . ولكنكم لم تلبث أن تنوعت وتعددت ، حتى شملت مقالاتها وبحوثها جميع نواحي الحياة البولندية . وفي سبتمبر ١٩٤٣ كان عدد الصحف السرية التي تظهر بانتظام لا يقل عن ٧٢ صحيفة ، وكثير من هذه الصحف لم ينقطع ظهوره منذ بداية الاحتلال الألماني . فإذا أدركنا مقدار الصعوبة التي كان يواجهها أصحابها ومحرروها في العثور على الورق — كان صدور مثل هذا العدد الكبير من الصحف السرية عملاً يدعو إلى الإعجاب .

ومن أشهر هذه الصحف : صوت بولندا ، Glos Ploski ، الرقيب Warto ، الثورة Młodzież ، Insurekja ، تضامن العمال Robotnik in Walce ، الشعلة Pochodina ، الشباب Młodzież بولنده الحرة Wolna Polska ، القضية Sprawa ، وغيرها . واتخذت أ كثرية هذه الصحف شعاراً لها بعض العبارات الوطنية ، كقواها : « إن النصر هو عدم التسليم بعد الهزيمة » ، أو « أن الهزيمة تكون دائماً بمثابة الدرس اللازم لإحراز النصر في النهاية » ؛ أو « أن الفرد الذي يرفض التضحية بنفسه من أجل الخلاص ، لا يكون أهلاً للتمتع بحرايا الحرية » ، هذا

عدا بعض الارشادات . كأن يعطى القارىء العدد الذى بيده إلى قارىء بولندى آخر يشق به . ثم كثيرا ما كانت هذه الصحف تنشر قوائم بأسماء المتبرعين الذين يهودون بالمال وغيره حتى يسكنوها من الظهور . وما يسترعى النظر أن بعض هؤلاء الوطنيين كانوا يتبرعون بالأغذية كالزبد والبيض والسيجار لحررى الصحف السرية ومصدرها . والسبب فى هذا أنه كان من المتعذر على أصحاب هذه الصحف الذين يطاردونهم الجستابو ويرغمون على الانتقال كثيرا من مكان إلى آخر ، أن يجدوا كفايتهم من الأغذية لاسيما وأنهم ما كانوا يستطيعون استخدام بطاقات التموين .

ولعل أهم ما كانت تقوم به هذه الصحف ، هو حديتها عن الطرق والأساليب التى يتبعها النازيون فى تطبيق النظام الجديد فى بولندا ، ووصف الآثار التى أحدثها هذا النظام الجديد فى حياة البلاد كأغلاق المصانع وتعطل ألوف العمال البولنديين ، وصعوبات النقل المتزايدة بالسكك الحديدية . وعجز السلطات الألمانية عن تغيير القضبان الحديدية القديمة البالية والفوضى المنتشرة فى مصالح النقل عموما ، وما يتبع ذلك ، كتعذر نقل الحيوانات والمواشى التى ظفر بها الألمان فى (الأوكرين) فقد كانوا يرغبون إرسالها إلى ألمانيا أو إلى ميادين القتال لغذاء الجنود ، غير أن عددا كبيرا من هذه المواشى كان ينفق فى أفنية المحطات وعلى قارعة الطريق . وغنى عن البيان أن مرجع هذا الخلل وهذه الفوضى ، إقدام البولنديين على أعمال المقاومة الإيجابية العنيفة .

وكذلك كانت الصحف السرية تشجع الوطنيين على إتقان أساليب المقاومة السلبية كالامتناع عن إعطاء (الفرو) الذى طلبه الألمان حتى يتدثر به جنودهم فى الميادين الروسية ، أو تسليم أحذية الانزلاق على الجليد التى طلبوها أيضا لاستخدامها فى روسيا وفى الغروبيج . أضف إلى ذلك أن الصحف السرية عمارت نغى بلشر الموضوعات التى تبحث فى آمال البلاد وأمانها والأغراض التى تعزم تحقيقها فى المستقبل ! من ذلك ما نشرته جريدة (بولندا الحرة) فى عدد ٢٨ يناير ١٩٤٢ حيث قالت : «إننا نناضل من أجل دولة بولندية يكون هدفها الأعلى خدمة جميع مواطنيها على السواء ، وهذه الدولة سوف يجرى تنظيمها وفق إرادة العدد الأكبر من أهلها ، ولقائدة كل فرد من أفرادها ، ولذلك ينبغي أن تزول جميع الفروق الاجتماعية غير العادلة . » والحقيقة أنه على الرغم من وجود عدة أحزاب سياسية فقد اتفقت كلها جميعا على ضرورة توزيع الثروة على أثر انتهاء الحرب توزيعاً عادلاً والعمل على تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص لآبناء الدولة الجديدة .

أما السادة الألمان فقد كانوا هذه الصحف السرية بكل قسوة وبطش وليس أدنى على

ذلك مما حدث في وارسو في أغسطس ١٩٤٠ عندما قبض الجستابو على فتاتين تبلغان من العمر ١٦، ١٤ سنة ، وعثر معهما على عدد من الصحف السرية ، فأعدم الألمان الفتاتين ثم سلما الجشتين لأسريتهما حتى لا يتحمل الألمان نفقات الدفن ! ، أو ما حدث في ٤ يولييه ١٩٤١ عندما فاجأ الجستابو منزلا صغيرا في (تزنيا كوف) Czerniakov . كان يقيم به جماعة من المسؤولين عن إصدار جريدة (صوت بولندا) Glos Polski . فلم يكتف الجستابو بإطلاق المدافع السريعة على تعساء الحظ في هذا المنزل ، بل قبضوا على الألمان في المنازل المجاورة ، وأعدموا الجميع بالرصاص . وبلغ عدد ضحايا هذه المجزرة ٨٣ قتيلا من الأناث والذكرا . واشتدت حملة الجستابو على محرري وموزعي الصحف السرية في عام ١٩٤١ حتى بلغ متوسط الذين أعدموا (بالجيولتين) في مدينة (پونزان) Ponzan ٢٥ شخصا في الأسبوع الواحد . وفي الواقع نصب النازيون (الجيولتين) في كل مدينة وكل قرية تقريبا . وفي (سيليزيا) صاروا يرغمون أطفال المدارس على حضور عمليات الإعدام في كل مرة . وفي ٨ يونيو ١٩٤٢ شنق الألمان علنا في المدينة نفسها خمسة عشر شخصا اتهمهم بتوزيع الصحف السرية . وظلت جثث المتوفين معلقة مدة ثمان وأربعين ساعة . وكان من بين هؤلاء ثلاث عشرة امرأة ؛ هذا عدا عقوبات الإعدام والسجن لمدة طويلة ، كان يوقعها النازيون على كل منهم بالاستماع إلى محطة الإذاعة البريطانية (B.B.C) أو ترويج الأنبساط المضادة من لندن .

وفي يوغوسلافيا انبرت صحيفتها السرية المشهورة (الحرية أو الموت !) Svoboda Ali Smart تنشر قصة معركة يوغوسلافيا الثانية ، هذا بعد أن أعلن الألمان أن البلاد قد دانت بأسرها وأن الحرب قد وضعت أوزارها في يوغوسلافيا فوقع على عاتق هذه الصحيفة السرية إذن — وكانت تصدر في (لوبليانا) Ljubljana — أن تفضح كذب ادعاءات الألمان وتعلن إلى الملا تأليف جيش يوغوسلافيا الوطني الذي ظل يرفع راية الجهاد تحت قيادة الجنرال ميخائيلوفتش . فقد استطاع السربيون والكرواتيون والسلوفينيون أن يدفعوا خلافتهم القديمة ، حتى يؤافوا من بينهم جيشا كبيرا يتولى الدفاع عن أرض الوطن ، ووقع اختيارهم على الجنرال ميخائيلوفتش للقيادة العامة ، لأنه كان يتمتع بتاريخ حافل ، إذ اشترك قبل ذلك في الحرب ضد الأتراك في عام ١٩١٢ ، وحشد البلغار في عام ١٩١٣ ، وضد الألمان والنسايين في عام ١٩١٤ ، ثم كان في استطاعته عندما اجتاح الألمان بلاده في الحرب الماضية أن يفر بسلام إلى القطر المصري على متن إحدى الطائرات ولكنه رفض وآثر

المكث بين مواطنيه ، واتخذ مقره في الجبال الوعرة وهناك انضم إليه ألوف الرجال والنساء لإعداد جيش يوغوسلافيا الوطني . ولعل أهم ميزات ميخائيلوفتش أنه كان أعظم الرجال خبرة بحرب العصايات في القارة بأسرها . وقد استطاع بعد صعوبات جمة أن يجمع جيشا بلغ عدده في يونيو ١٩٤١ مائة ألف جندي .

وفي ذات يوم من أيام هذا الشهر نفسه ، فوجئ الجنود الألمان وكذلك الكروات الذين عملوا معهم ، بهجوم ميخائيلوفتش ورجاله عليهم . وكان هجوما عنيفا ، اكتسح أمامه كل شيء ، فاحتل رجاله مدينة بعد أخرى ، وقرية بعد قرية . وكان (التشنيك) عصب هذا الجيش الجديد . ولقي المحاربون في كل مكان حلوا فيه ترحيبا عظيما . وهكذا استطاع ميخائيلوفتش بعد وقت قصير أن يستلزم على مساحة بلغت عشرين ألف ميل مربع (حوالى خمسى يوغوسلافيا) ظهرت جميعها من الايطاليين والألمان . ثم أنشأ هذا القائد حكومة جديدة هي حكومة (سربيا غير المحتلة) ، وانكسب بعد ذلك على اصدار الصحف ، ومنها صحيفة (الحرية أو الموت) ، وبلغ عدد صفحاتها أربعا ، ثم صار لا يقتصر توزيعها على الأرض التي دخلت في حوزة (التشنيك) بل انتشرت في الأراضي التي احتلها الألمان والايطاليون أنفسهم .

بيد أن جريدة (الحرية أو الموت) لم تكن وحدها الصحيفة التي صارت توزع في الأراضي المحتلة ، فقد نجم عن عمل الألمان على انحداد جميع الصحف اليوغوسلافية اليومية العادية ، أن ظهر عدد من الصحف السرية المتنوعة . فصدر السربيون والكراويون والسلوفينيون جرائدهم الخاصة بهم ، وكان الأخيرين على وجه الخصوص عدة صحف ، منها : عدا (الحرية أو الموت) ، (سلوفينيا الحرة) Svobodna Slovenija ، (سلوفينيا وأوربا) Slovenija in Europa ، (فجر الحرية) Zarja Svobode ، (الرابطة السلوفينية) Slovenska Zarvej ، وغيرها وكان للشبيوعيين (البارتيزان) بعض الصحف ، كما كانت هناك صحيفة هزلية تسمى (طا بور خامس) Teti Kolumnista .

وقد تحدثت صحيفة (الرابطة السلوفينية) عن الإهداف التي كان يعمل السلوفينيون الوطنيون على تحقيقها فقالت أنه من الضروري أن يطرد جميع الجنود الأجانب الذين يحتلون البلاد وأن تنشأ دولة سلوفينية موحدة في نطاق دولة يوغوسلافية متحدة كبيرة ، على أن تجمع بين الاتحاد اليوغوسلافي المنتظر والبلدان الديمقراطية في العالم أواخر المحالفة المتينة .

أما جميع هذه الصحف السرية ، فقد عثرت بنشر أخبار الانتصارات التي أحرزها جيش الجنرال (ميخائيلوفتش) . كما صارت تتحدث عن ضرورة تنظيم أعمال المقاومة الإيجائية في نطاق واسع ، وتنتشر أخبار التدمير والتدمير التي كان يقوم بها الوطنيون من حين إلى آخر ، مثل تدمير الجسور ، وإتزان قضبان السكك الحديدية ، وقطع أسلاك التليفون ، وتعطيل الطرق وهكذا ، حتى حلت الفوضى من كل مكان ، وتعطل نقل المسافرين والبضائع ، وأهم من هذا كله عتاد الحرب الألماني . وجيش العدو . فقد نشرت جريدة (سلوفينيا الحرة) بعض تفصيلات التخريب الذي لحق بالسكك الحديدية في يناير ١٩٤٢ : من ذلك أنه لما كان الألمان يسيطرون على وادي مورافا (Morava) الذي تجرى به سكة حديد (نيش) Nish التي يستخدمونها في نقل الإمدادات الكبيرة . فقد خرب (النشنيك) هذه السكة ، ثم استطاعوا بعد ذلك أن ينشروا الفوضى في نظام النقل بين (نيش) و (أوريسا) عن طريق (صوفيا) . وكان من أخطر ما فعلوه نسف ثلاثة جسور كبيرة بين (زابيتشار) Zajetchar و (نيش) وانتقم الألمان بأن أخذوا ثلاثين ألفاً من الأهالي كرهائن ! ولم تلبث السلطات الألمانية ذاتها أن اعترفت بخضر هذا التدمير عندما نشرت إحدى صحفهم في هذه البلاد (Donau Zeitung) تحذيراً للأهالي جاء فيه ما معناه : « لقد وقعت حوادث تخريب واشتعال ، كما أشعلت عمداً حرائق كبيرة ، ولكنكم إذا ظلت الحرائق تشتعل في حقول القمح ، فإن السريين وحدهم هم الذين سوف يحرمون الخبز ، وإذا خربت الطرق والمواصلات والتليفونات ، وسائر وسائل الخدمة العامة ، فإن الضرر البالغ سوف يلاحق بالاقتران السري وحده » !

وزيادة على ذلك استطاع جيش (ميخائيلوفتش) أن يحكم الصلة بينه وبين الحكومة اليوغوسلافية المسكية في لندن ، فذكرت جريدة (سلوفينا وأوربا) ، أن ميخائيلوفتش تمكن من إرسال الدكتور (سكوليتش) Sekulitch إلى لندن حتى يشرح ما كان يفعله الجيش الوطني في يوغوسلافيا ويبين مبلغ ما يحتاجه هذا الجيش من السلاح والذخيرة والعتاد الحربي عموماً ثم لم يلبث المحاربون الوطنيون أن أوجعوا نظاماً للخبايرات المستمرة مع الحكومة اليوغوسلافية في لندن ، ثم ظهرت آثار هذا التدبير المحكم عندما نشرت جريدة (سلوفينيا الحرة) مقالاً جاء فيه . « لقد كشف الألمان في الأسبوع الماضي — ويا هول ما كشفوا — أن ميخائيلوفتش يملك دبابات بين عتاده الحربي ، كما تملك أيضاً مدافع مضادة للدبابات وعدداً عظيماً من المدفعية ... وعند ما هاجمنا الألمان في أول الأمر كانت هناك عدة مطارات سرية ما تزال في دور التكوين والنمو ، أما الآن فإن الجنرال ميخائيلوفتش يستخدم بعض هذه المطارات : هذا إلى جانب ما يوجد لديه من غواصات تجدد في العمل ، كما يعرف الإيطاليون

ذلك حق المعرفة بسبب ما يعانيه منها ! ، والحقيقة أن الألمان سرعان ما وجدوا أنفسهم
مرغمين على خوض شهور حروب شديدة ، استخدموا في معاركها الطائرات المدفوعة والدبابات
والمدفعية الثقيلة ، كما صاروا يحشدون القوات الكبيرة ومن بينهم رجال المظلات الهابطة ،
وذلك كله حتى يستعيدوا بلاداً أعلنت القيادة العليا الألمانية منذ مدة أنها قد دخلت في حوزة
الغزاة الفاتحين نهائياً .

ومن بين هذه المعارك الدموية الكبيرة ، كانت معركة (شاباتز) Chabatz وهو اسم
المدينة التي حاصرها التشيك من كل جانب بعد أن أبادوا حاميتها الألمانية وكان من آثار
هذه المعركة اشتداد حركة المقاومة الإيجابية ضد الألمان والبولنديين في كل مكان تقريباً ، حتى
صار هؤلاء لا يشعرون بأمن ولا طمأنينة في (بلغراد) ذاتها . وحدث في بلغراد ما كان
يسوغ عدم الاطمئنان قط . فقد دمرت بها محطة توليد الكهرباء ذات مساهمات الجنرال
(شرودر) Schroeder فجأة وفي ظروف مريبة ، ولحق به كثيرون أيضاً من الحراس الألمان
بالمدينة . ولم يكن من المتوقع أن تخف وطأة هذه المقاومة الشديدة ما دامت الصحف السرية
تنشر أخبارها وتشجع أبطالها على المضى في مكافحة الغزاة الفاتحين بجد وهمة .

وسرعان ما جاء دليل حاسم على فشل الألمان في قمع الوطنيين من جهة ، وعلى انتصار
جيش يوغوسلافيا الوطني من جهة أخرى عندما نشرت جريدة (الحرة أو الموت) ذات يوم
خبراً مفاده أن الألمان يريدون المفاوضة مع الجنرال ميخائيلوفتش والاتفاق معه على الشروط
التي يرضيها ، وبالفعل حدث في الأيام التالية أن توسط في هذه المفاوضة (كوبسليج)
مربياً الجنرال (نيدتش) Neditch ، وعقد الفريقان هدنة مؤقتة ، لم يدار في خلالها أي
تحسن في حالة بلغراد المحاصرة . ثم لم تلبث أن أخفقت مفاوضات الصلح ، وعرض الألمان
عقب ذلك مكافأة ٢٠٠.٠٠٠ دينار ثمناً لرأس الجنرال (ميخائيلوفتش) .

وفي عام ١٩٤٣ ، كانت صحف يوغوسلافيا السرية في نمو مطرد ، حتى بلغ عدد قراء
الصحف السرية وحدها حوالي المائة ألف ، وهذا بينما كانت الصحف الكرواتية السرية
تقوم بنشر الدعاية الحفوية أو الدعاية المضادة ضد دولي المحور .

وفي (النرويج) التي أخضعها النازيون لسلطانهم (ابريل - يونيو ١٩٤٠) . كان سواد
النرويجيين - على الرغم من انتصارات الألمان الحاطفة ، وظهور (كوبسليج) وأنصاره
من قبلوا التعاون مع الغزاة الفاتحين - لا يزالون كبيرى الثقة بانتصار بريطانيا وهزيمة ألمانيا
في النهاية . ولذلك فإن الصحف النرويجية التي رفضت الانحياز إلى الكويستليجين ، سرعان

بما صارت تحاول مراوغه (الرقيب) الألمانى ، وتمتدح الفرص حتى تنشر على جمهور قرائها التعليلات السرية التى أصدرها الألمان حتى يمنعوا هذه الصحف من إظهار أى عطف نحو قضية إنجلترا أو قضية الديمقراطية عموماً ، ومن تقديم النقد اللاذع إلى حكومة (كويسلنج) وأعوانه ، ومن الإشادة بذكر (هاكون) ملك البلاد ، ومن إذاعة القصص أو النواذر التى تقلل من هيبة السادة النازيين وتجعلهم موضع زراية أهل النرويج وسخريتهم . وكانت الرقابة التى فرضها النازيون على الصحف شديدة فى العاصمة (أوسلو) على وجه الخصوص ، وكذلك فى (برجن) ، وانتشر الجستابو فى كل مكان لمراقبة أصحاب الصحف ومحرريها . أما فى سائر المدن الداخلية فقد تهاذر على الألمان أن يوجدوا رقابة صارمة . وكان من أعمال هذه الرقابة اختيار الأنباء التى أجازت سلطات الاحتلال الألمانية إذاعتها ، وكذلك بعض المقالات الافتتاحية التى أرغمت الصحف ارغاماً على نشرها ، وكانت تتضمن تعليقات تنطوى على المبالغة فى جسامه الأضرار الناجمة عن إغارات الطائرات البريطانية على الموانئ والمدن النرويجية الساحلية ، ثم محاولة إقناع الشعب النرويجى بأنه ما كان ينبغى أن تحل به هذه الكوارث ، لو أن الملك (هاكون) قبل البقاء فى مملكته ولم يتخذ مقر حكومته فى لندن . ويتحالف مع البريطانيين الذين يغيرون على بلاده بطائراتهم وتفتك قذائفهم بأبناء وطنه .

ولما كان سواد الشعب فى شهور الاحتلال الأولى يجهل أن أصحاب الصحف الوطنية (النرويجية) ومحرريها إنما يرغمون على كتابة هذه المقالات ، ومسندات الجستابو مسلطة على رؤوسهم ، كما كانوا يجهلون المحاولات التى تبذلها الصحف حتى تتخلص من (الرقابة) الصارمة ، فقد ظن هؤلاء أن هذه الصحف إنما تنشر الدعاية للنازيين ، وتكيل السباب للبيت المالک مختارة ، ولذلك تدفقت رسائل القراء من كل جانب ، يلغى أصحابها اشتراكاتهم ، ويقطعون صلهم بالصحف التى اعتادوا أن يقرأوها منذ مدة طويلة .

وفى يونيو ١٩٤٠ أصدر النازيون عدة تعليمات حثموا على الصحف اتباعها ، فيما ينبغى نشره ، من ذلك أن البلاغات الحربية الصادرة من البلدان المحاربة ضد ألمانيا لا يجوز نشرها إلا إذا أجازت ذلك وكالة الأنباء النرويجية ، الخاضعة لرقابة النازيين ولا ينبغى أن تنشر الصحف أية أنباء مذاعة بالراديو من البلدان التى فى حالة حرب مع ألمانيا . وكذلك لا يجوز أن تنشر الصحف شيئاً من الخطابات التى يلقيها أعضاء البيت المالک ، أو الحكومة أو القيادة العامة ، كما لا ينبغى نشر صور أحد من جميع هؤلاء . وعند الحديث فى شئون السياسة الخارجية ، ينبغى دائماً أن تحترم الصحف وجهة النظر الألمانية ، ولا ينبغى مهاجمة

دولة من الدول التي عقدت اتفاقات أو معاهدات مع الرخ الثالث . وكذلك فإنه عند الكلام عن الحالة المالية في البلاد ، يجب أن تمتنع الصحف عن نشر كل ما قد يؤدي إلى إثارة الحواطر ، بل عليها بدلا من ذلك أن تعرض الموضوعات التي من هذا القبيل بشكل يضمن ادخال الطمأنينة إلى نفوس القارئين . وزيادة على ذلك ، فإن من واجب الصحف أن تمتنع امتناعا تاما عن الخوض في كل ما قد يغير النفوس بين النرويجيين والألمان . أما إذا رفض محررو الصحف اتباع هذه التعليمات ، فإنهم يصبحون معرضين لتوقيع العقوبات الشديدة عليهم عدا غلق صحفهم .

ولم يكن من المنتظر أن تدعن الصحف النرويجية لهذه الأوامر والتعليمات ، بل حاول المحررون على الرغم من صرامة الرقابة النازية ، أن يتحيموا الفرص حتى يتحرروا من أغلال هذه القيود الشديدة ، ونجحت في أحيان كثيرة هذه المحاولات ، وساعد على ذلك أن الرقباء الألمان كانوا قليلي الدراية بأساليب الكتابة النرويجية وبحقيقة الأدب النرويجي . ولكن الكويستلنجيين سرعان ما صاروا يوضحون لسادتهم النازيين ما استغلق عليهم فهمه . فأغلقت صحف كثيرة ، وقبض النازيون على عدد كبير من المحررين ، وفي بعض الحالات استبدل النازيون (بقلم التحرير) جماعة من الموالين لهم الذين وثقوا بهم ، كما فعلوا في صحيفة (أوسلو) الراديكالية المعروفة (داجبلادت) Dagbladet وفي غيرها .

بيد أنه كان من نتائج هذه الرقابة الصارمة ، ظهور الصحف السرية في بلاد النرويج . وفي خلال شهور الاحتلال التسعة الأولى اعتمد الأهلون في معرفة أنباء العالم المسيحية على الإذاعات الخارجية . ولم تفد مصادرة الألمان لأجهزة الراديو شيئا في منع الأهلين من الاستماع إلى إذاعة المحطة البريطانية B.B.C . إذ سرعان ما استخدم النرويجيون أجهزة جديدة ، وفي أول الأمر تفاقل الأهلون أخبار هذه الإذاعات شفاها ، واستمر الحال على ذلك حتى قرر أحد الوطنيين ويدعى (أولاف) Olav إنشاء صحيفة سرية ، سماها وريد وطننا ! ، Vi Vil Oss et land . ثم استطاع (أولاف) أن يجد من بين الصحافيين الوطنيين خمسة قبلوا العمل معه ، وانطلقوا جميعا يمدون العدة لإصدار جريدتهم الجديدة .

غير أنه كانت هناك صعوبات عدة في بادئ الأمر كادت تقضى على هذا المشروع بالفشل أهمها : صعوبة الحصول على الورق ، وحروف الطباعة والمطبعة . فبذل الرفاق كل جهد حتى استطاعوا الحصول على كميات مناسبة من الورق وعلى الآلات اللازمة ، ثم على مكان يطبعون فيه جريدتهم ، وانضم إليهم رجلان آخران فصاروا سبعة ، وتمكنوا من إصدار جريدتهم . وأحدث ظهور عددها الأول أثرا عميقا في النرويج ، كما أزعج الألمانين إزعاجا

شديداً . لأن هؤلاء كانوا قد ظنوا النرويجيين بعد مضي هذه الفترة الطويلة عقب الاحتلال ، قد بدأوا يقنعون بالعيش في ظل النظام الجديد ، وتوقع النازيون لذلك أن يكسر مؤيدو هذا النظام يوماً بعد يوم . وعلى هذا ، كان صدور « نريد وطننا 1 » ، قاضياً على أحلامهم وأمانهم . فجرد الألمان قوة الجستابو الخطيرة لمعرفة محرريها والقبض عليهم ، ولكن هذه المحاولات الأولى باءت بالفشل ، وعظم حنق الألمان ، كما زادت محيرتهم .

وبما أوقد حفيظة الألمان ، أن هذه الجريدة السرية ، أخذت على عاتقها بيان أضرار السادة النازيين وفضح أكاذيبهم ، وأكاذيب الدعاية النازية ، وزيادة على ذلك اتقنت الجريدة أساليب السخر بمروجي الدعاوة من أجل جذب القلوب نحو السادة الألمان ، وحث الأهالي على التعاون معهم ، كما أنها صارت تحذر النرويجيين من الانخداع بطرائق النازيين الذين حرصوا في هذه الآونة على استمالة أهل البلاد وكسب صداقتهم . أضف إلى هذا أنها أخذت تكشف عن حقيقة الاتفاقات التي عقدها السكوبسلينجيون مع الضباط الألمان من أجل ترويج الثقافة الألمانية في البلاد في نظير الحصول على أجر مالي كبير ، أو الاستفادة من هذا التعاون مع الفرة الفاتحين في نواح أخرى . ثم لم تقتصر الجريدة على توجيه النقد اللاذع لسلطات الاحتلال عموماً ، بل صار (أولاف) على وجه الخصوص ينشر الدعوة في صحيفته السرية إلى مستقبل زاهر عند هزيمة الألمان المحتومة ، على أساس إرجاع الملك هاكون إلى عرش بلاده ثم تأليف كتلة اتحادية كبيرة تضم النرويج إلى مجموعة الدول الديمقراطية في العالم ، على أن تتخلى كل دولة من أعضاء هذا الاتحاد عن بعض حقوق السيادة ، بحيث لا يترتب على ذلك أن يفقد عضو الاتحاد المزمع تأليفه ذلك الطابع الشخصي الذي يحفظ للدولة كيانها القومي في النهاية .

ولكن الدعوة إلى إنشاء مجموعة اتحادية من الدول ، كانت رأياً جريئاً ومنذ نشر (أولاف) هذا الرأي ، قرر الألمان أنه قد بات من الضروري القضاء على هذه الجريدة ، والقبض على (أولاف) وإسكات صوته . فجدد من ثم النازيون محاولاتهم ، وشر الجستابو عن ساعد الجند ولما كان توزيع الجريدة قد زاد زيادة عظيمة ، فقد أصبح من الميسور نوعاً ما على الجستابو أن يقفوا على هوية الأشخاص المشتركين في تحرير الجريدة وطبعها وتوزيعها . وذات يوم هاجم الجستابو المسكان الخفي الذي اتخذ (أولاف) وجماعته مقراً لجريدتهم . ولكن هؤلاء كانوا قد عرفوا نية الجستابو فاستطاعوا الفرار قبل الهجوم عليهم بيومين اثنين 1 وفي الأيام التالية إزداد الخطر على (أولاف) حتى اضطر إلى ترك عمله وتدبير الهرب من النرويج وبعد محاولات متعددة والتعرض لمخاطر كثيرة ، استطاع الفرار إلى إنجلترا .

ومع هذا فإن جريدة (نريد وطننا 1) لم تكن الجريدة السرية الوحيدة في النرويج بل

سرعان ما ظهرت صحف أخرى ، على غرار صحيفة (أولاف) . فكانت هناك صحيفة (Eidsvold) وهذه زينت صفحتها الأولى برسم المكان الذي صدر فيه دستور النرويج القديم في عام ١٨١٤ ، ثم كانت هناك صحيفة (البريد الملكي) KongsPosten ، (علامة الزمان) Tideus Tegn ، (حركة اتحاد العمال الحر) Fri Fagbevegelse وأخيراً صحيفة (الراديو) Radioavisin ، وهذه كانت مخصصة لنشر أنباء الإذاعات البريطانية والأجنبية .

* * *

هذه قصة الصحف السرية في أوروبا المحتلة ، التي كانت من أكبر دعائم الدعاية الخفية في القلعة الهتلرية . وهي إن دلت على شيء ، فإنما تدل على أن الأهلين في البلدان المقهورة ، وقد تذوقوا طعم الأساليب النازية عند تطبيق النظام الجديد ، وشهدوا عن كذب ضخامة الأكاذيب التي روجتها الدعاية النازية ، وهالهم إذلال أوطانهم تحت نعال الفاتحين الطغاة ، صار لا يهدأ لهم بال حتى يروا أوطانهم محررة من نير النازيين وسلطانهم . وقد يظن إنسان أن الشعوب المحتلة وحدها هي التي كانت تن من حكم هتلر وطغمته ، وأنها وحدها هي التي لجأت إلى أساليب المقاومة لمحاربة الطغيان النازي ، وأن النظام الجديد قد أخلق في أوروبا المحتلة فحسب وأن ألمانيا قلعة هتلر ، كانت موطدة الدعائم متينة الأساس . ولكن الواقع كان على خلاف ذلك . وكما فشل هتلر ونظامه الجديد في أوروبا المحتلة ، فقد فشل كذلك في داخل ألمانيا ذاتها ، ولم يكن ثمة مناص من أن تتصدع أركان القلعة الهتلرية المتداعية قصر الزمن أو طال .

الفصل السادس

حكومة هتلر

تقدم القول عند بحث رغبة النازيين في بسط سيطرتهم العالمية ، بأنه كان من الضروري لتحقيق هذه السيطرة العالمية ، أن يحملوا من ألمانيا ذاتها كتلة متأسكة ، يستحيل أن يتطرق الضعف إليها ؛ حتى يتخذها النازيون مركزاً « الدوائر » التي يطعمون في « جرميتها » في القارة الأوروبية . ومعنى هذا أن يجمع الحزب النازي في داخل ألمانيا كل أسباب السلطة ، ويتغلغل أعضاء الحزب في نواحي الحياة الألمانية جميعها ، حتى يتمكنوا من إرغام الدولة على الاندماج في الحزب في النهاية ؛ فيصبح الحزب هو الدولة . ولم يكن غريباً أن يطمع النازيون في ذلك لأنه من عادة الدول التي يقبض على زمام الأمور فيها حزب واحد ، وهي الدول التي تسيطر عليها الدكتاتورية سيطرة تامة ، أن يجد هذا الحزب في القضاء على جميع التقاليد والنظم القديمة ويعمل في الوقت ذاته على إنشاء أنظمة جديدة ، قد يحدث إنشاؤها عقب ثورة جاحجة تكتسح معالم الحياة القديمة اكتساحاً ، على غرار ما حدث في روسيا ؛ أو تظهر إلى عالم الوجود شيئاً فشيئاً دون التجاء إلى الثورة كما فعل النازيون في ألمانيا ، فإن هؤلاء وهم الذين اشتدت حملتهم على الشيوعيين منذ قيام حركتهم ، ما كانوا يريدون أن يعرف عنهم سواد الشعب أنهم من أنصار الانقلاب والثورة . ولذلك اتبعوا في مبدأ الأمر أساليب مغايرة لأساليب جيرانهم الشرقيين ، وبدؤوا يقوضون أركان المقاومة في داخل الریح بالتغلب على الأحزاب المنافسة لهم ،

وكان من عوامل نجاح النازيين أنهم استغلوا الفوضى التي تغلغلت في جميع نواحي الحياة الألمانية عقب هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى ، وتذمر طبقات الشعب المختلفة من هذه الفوضى ، فطفقوا يبذلون كل جهد حتى يستميلوا إليهم هؤلاء المتذمرين الراغبين في إزالة الآثار التي اعتقدوا أنها من نتائج هزيمة الدولة القيصرية . ولذلك كان أول ماعنى بها (حزب العمال الألمان الوطني الاشتراكي) وضع برنامج شامل صدر في ميونخ في ٢٤ فبراير ١٩٢٠ وكان يتألف من خمسة وعشرين مادة ، وأهم ما يلاحظ عليه ، أنه كان كما جاء في مقدمته برنامجاً أملمته ظروف الحال (zeitprogramm) وقد يعنى هذا الوصف إنه كان برنامجاً مؤقتاً ، أو نهائياً ، والغرض من اختيار هذا الوصف بالذات عدم التقيد في الحقيقة بمحتويات البرنامج

تقيداً حرفياً إذا أثبتت الظروف في المستقبل أن من المصلحة عدم التمسك بحرفيته . ومع أن النازيين في الاجتماع الكبير الذي عقده أعضاء الحزب في ٢٢ مايو ١٩٣٦ ، اتخذوا بعد بحث وتمحيص ، قراراً بأن هذا البرنامج لا يمكن تغييره بأي حال من الأحوال ، فقد درجوا على تفسير مواده وفق رغباتهم ، ثم سلكوا في تطبيق هذه المواد من الوجهة العملية ، المسلك الذي أملت عليه عليهم مصالحهم ، أي ما يمكنهم من القبض على أزمة السلطة في ألمانيا بأسرها ، وإزالة جميع العناصر المعارضة لهم . وزيادة على هذا ، تضمن البرنامج مجموعة من الآراء والمبادئ المتضاربة ، التي نجمت في الواقع عن السخط المنتشر بين جميع الطبقات المختلفة من جراء ما خلفته الحرب العالمية الأولى من آثار سيئة ، وبسبب ما حدث من مشكلات إقتصادية واجتماعية خطيرة ، في الفترة التي تلت إنتهاء الحرب مباشرة . أضف إلى ذلك أن البرنامج كان يتضمن مبادئ إقتصادية حرص النازيون عند إثباتها على أن تكون من النوع الذي يقضى تحقيقه كفايات غير تلك التي يتمتع بها أعضاء الحزب — من زعماء وموظفين — من يشرفون على تطبيق هذه المبادئ من أجل تحويل ألمانيا إلى دولة وطنية اشتراكية خالصة ثم عمل النازيون على أن يشتمل برنامجهم على مطالب إقتصادية تجلب رضا أصحاب رؤوس الأموال ، مثل كبار الصناع والمنتجين وكبار الزراع ومن إليهم كما تجلب رضا الطبقة العمالية وقد ترتب على المحاولة التي قام بها النازيون للتوفيق بين هذه المصالح المتعارضة ، وخصوصاً عندما هيمتوا على شئون الدولة وحلفقوا ينفذون برنامجهم الإقتصادي ، أن صار يختلف الناس في تفسير الوطنية الاشتراكية ، فهناك من وصفها بأنها من ضروب الاحتيال المالي لمساعدة الزعماء النازيين على جمع الثروة الطائلة وهناك من وصفها بأنها باشفية صحيحة وان اتخذت لها لونا مغايراً للون البلشفي الأحمر ، أو أنها من النظم التي وضعت خصيصاً لحماية الرأسمالية ، وهكذا . ولو أن التفسير الحقيقي للوطنية الاشتراكية ، على ضوء ما أسفر عنه تطبيق مبادئها في السنوات التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية وفي السنوات التالية ، هو أنها الخطة والنظام الذي يؤدي إلى تحقيق أطماع جماعة من الناس يسيطرون فعلاً على مصير ألمانيا ، أما هذه الأطماع ذاتها فانها تلخص في رغبة النازيين في الاستئثار بكل سيطرة سياسية مطلقة لحسب .

على أن برنامج النازيين (في عام ١٩٢٠) كان يتضمن فكرة إفناء الفرد في الدولة ، على غرار ما يحدث في كل نظام اشتراكي ، ولذلك فإنه لما كانت الدولة ذات شخصية يجب أن تتلاشى بسببها ومن أجل دعم كيائها حرية الفرد وجميع حقوقه ، فقد أصبح من حق الدولة وحدها الهيمنة على حياة الفرد وتدير شؤونه على النحو الذي تراه مؤيداً لمصلحتها العليا وحدها

وترتب على إفناء الفرد في الدولة أن صارت هذه تجمع في خصائصها وميزاتها السيطرة على شؤون التربية والتعليم والصحة العامة والجيش والصحافة ، وتقرير مصير مواطنيها ، وهكذا . ولذلك فإنه لم يغب عن النازيين النص على هذه الحقوق جميعها في برنامج حزبهم . وكان من المنتظر ، بوصف أنهم الأداة التي تتولى عن الدولة إدارة هذه الشؤون عند استلام أزمة الحكم في ألمانيا ، أن يجمع النازيون في أيديهم السلطة المطلقة ، ثم كان من المنتظر أيضا ، بفضل ما نص عليه برنامج حزبهم ، من أن من شروط المواطن أن يكون آريا ، وأن يكون جرمانيا ينحدر من سلالة عاشت في ألمانيا أو في البلدان الجرمانية الصحيحة منذ أمد طويل ، أن تتعقب دولة الريخ الثالث غير الآريين كاليهود وغيرهم من اللاجئين من البلدان المجاورة والذين دخلوا ألمانيا ابتداء من ٢ أغسطس ١٩١٤ ، بالتشريد والإفناء في غير رحمة أو شفقة .

ولما كان الحزب الوطني الاشتراكي في بدء تكوينه يريد كعادته جمع أصحاب المذاهب والمشارب المتنوعة حوله ، فقد ذكر في المادة الرابعة والعشرين من برنامج ، أن الدولة مكلفة بالدفاع عن المسيحية الواقعية ، ولإدخالها الطمأنينة على النفوس ، جاء في هذه المادة نفسها ما معناه أن الحزب يطلب التسامح مع الآراء الحديثة المختلفة في الدولة ، ما دامت لا تعرض كيان الدولة للخطر ، وما دامت لا تتنافى مع عادات الجنس الجرمانى وتقاليده وقد استثنيت اليهودية من هذا التسامح . ومع هذا فإن النص على ضرورة قيام الدولة بمهمة الدفاع عن المسيحية الواقعية كان معناه ، كما شهد الكاثوليك والبروتستنت على السواء بعد ذلك ، أن النازيين عند وصولهم إلى الحكم سوف يتدخلون في شؤون العبادة ، من أجل إخضاع الكنيسة لسيطرتهم ، وأن ، المسيحية الواقعية ، سوف تتخذ لذلك معنى غير المعنى الذى عرفه بها سواد الشعب فيما مضى . فقد ظن الأهليون أن انحياز الوطنيين الاشتراكيين إلى معاضدة المسيحية الواقعية ، يعنى أن الريخ الثالث سوف يضمن للدين المسيحى الحرية الكاملة وزيادة الانتشار هذا إلى جانب السهر على صيانتها والذود عنها ، ولم يشأ النازيون أن يزعموا هذا الاعتقاد في بادئ الأمر . ولكنهم عند ما ثبتت أقدامهم في الريخ الجديد طفقوا يفسرون المسيحية الواقعية ، بما يتفق مع أهوائهم ويتمشى مع مصالحهم ، ويخلص هذا التفسير في أن المسيحية الواقعية تعنى مجرد الفعال الإنسانية .

ولنه لمن الحقائق المعروفة أن النازيين ما استطاعوا الوصول إلى الحكم إلا بفضل الانقسامات الكثيرة في الطبقات الرأسمالية والعمالية ، فقد وجد من بين الرأسماليين عدد من زعماء الصناعة المحافظين الذين كانت بغيتهم حل المشكلة الاقتصادية في ألمانيا دون الالتجاء

إلى مغامرات أجنبية ؛ وكان هناك فريق آخر من زعماء الصناعة الذين يشعرون بإمكان اجتياز أزمة الاقتصاد الألماني بالطرق والأساليب العادية ، فصاروا يدعون إلى الحرب كعلاج حاسم لهذه الأزمة المستحكمة . ومما يذكر أن الفريقين سرعان ما صاروا يجادلان في دعاوى الوطنيين الاشتراكيين ووعود زعمائهم ، وعلى الخصوص الهر هتلر نفسه ، ما حملهما على تأييد النازية وهى ما تزال فى دور النشوء ، ومدها بالأموال اللازمة لتنظيم الحزب ، وخوض غمار الانتخابات . وكذلك وجد من بين كبار أصحاب الأرض والملك ، فريق أعتقد أن الوطنية الاشتراكية عنوان الفوضى الاقتصادية ومن المنتظر أن يؤدى انتصارها إلى الخراب والدمار ، وفريق آخر يخشى الباشفية شأنه فى ذلك شأن الطبقات الرأسمالية الأخرى ، والطبقات المتوسطة (أو البرجوازية) — وقد أقبل هذا الفريق على الهر هتلر يؤازره على أمل أن يصون نجاحه مصالح كبار الزراع وأصحاب الأراضي . لأن النازيين كانوا فى نظرهم ممن لا يحسرون على القيام بتجارب جريئة ، بل يتصفون قبل كل شئ بالولاء الكامل للطبقة التى ينتمون إليها ، وهى الطبقة المتوسطة التى تستمد قوتها من الأرض ، وتدين لها بوجودها وقد اقتضى هذا التفكير أن يطمئن كبار الرأسماليين المحافظين من جهة ، ثم أصحاب الأراضي الواسعة من جهة أخرى ، إلى أن مصلحة النازيين ألا يدفعوا بالأمة الألمانية إلى حروب جديدة . ومع هذا ، فإن هذه الطبقة المتوسطة نفسها ، وهى الطبقة التى يستمد منها النازيون أنصارهم ومؤيديهم ، كانت أيضاً الطبقة التى ينتمى إليها المحاربون القدماء فى ألمانيا ، وأصحاب الخوذ الفولاذية ، برئاسة (سلدت) Seldte وهم من العسكريين الرجعيين ، وكانوا تحت زعامة (ألفرد هوجنبرج) Hugenberg وكان من كبار أصحاب رؤوس الأموال ويملك نحو الأربعين صحيفة وعددا من الشركات منها شركة (أوفا) UFA السينمائية ذات الشهرة الذائعة . وهؤلاء جميعا كانوا يريدون الحرب حتى يثأروا لألمانيا وهزيمتها فى الحرب العالمية الأولى .

أما الطبقة المالية ، فكانت لا تقل فى انقسامها عن الرأسمالية . فهناك أحزاب الشيوعيين والاشتراكيين الديموقراطيين ، والأحرار ، ومن الغريب أن بعض أحزاب اليسار ، كالاشتراكيين الديموقراطيين ظلوا فترة معتقدون أن ظفر الحزب النازى لا يكون الا على حساب العناصر الرجعية ، الرأسمالية ، وأن هذا الظفر غالى الثمن لا بد أن يفضى الى تفكك طبقة النابخبين وضعفها ، أى الطبقة المتوسطة وجماعة الرأسماليين ، وأن العماليين هم الذين يفيدون من انحلال هذه الجماعة فى النهاية ، ولذلك لم يجمعوا عن مؤازرة النازيين ، وكانوا بموقفهم هذا من العوامل التى يسرت على هؤلاء الظفر بالسلطة المطلقة فى ألمانيا .

وفضلا عن ذلك فإن الشيوعيين فى ألمانيا ، كبقية زملائهم فى أرجاء العالم فى ذلك الحين ،

كانوا يطلقون أوامرهم من مركز الشيوعية الدولية في موسكو ، ولذلك ظلوا « مستقلين » ، في نشاطهم عن مائت أحزاب اليسار . وكان الشيوعيون والاشتراكيون الديمقراطيون يعمهون حولهم وفيما بينهم اثني عشر مليوناً من الأصوات للشيوعيين وحوالي خمسة ملايين . وفي عهد جمهورية (ويمار) كان زعيم الاشتراكيين الديمقراطيون رجلاً من العمال ، هو (ثالمان Thälmann) صار فيما بعد من مؤسسي الحزب الاشتراكي المستقل ، ثم اشترك بعد هذا في تأسيس الحزب الشيوعي . ومنذ عام ١٩٢٤ ظل يمثل الشيوعيين في الريخستاغ حتى مجيء هتلر . وفي عام ١٩٣٢ رشح (ثالمان) نفسه في انتخابات رئاسة الجمهورية فنال من الأصوات خمسة ملايين . ومع هذا فإنه لم يكن متمتعاً بالصفات التي تيسر له جمع كتلة الاشتراكيين الصميين فكانت النتيجة أن صار الشيوعيون أنفسهم يعتبرون وجود الاشتراكية الديمقراطية من الموانع التي تحول دون انتشار الروح الاشتراكية الخالصة بين الطبقات العاملة ، ولذلك أصبحوا يخشون من الاشتراكيين الديمقراطيين ، أكثر مما يخافون النازية .

وإلى جانب هذا الانقسام الواضح في الطبقات الرأسمالية والعمالية على حد سواء ، ساعد سوء الحالة الاقتصادية في ألمانيا ، على وصول النازيين إلى الحكم . فمن الظواهر التي لا يمكن نكرانها أن إخفاق الوطنية الاشتراكية أو نجاحها بعد الحرب العالمية الأولى كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة الاقتصادية في ألمانيا في عهد جمهورية (ويمار) التي أنشئت على أنقاض القيصرية ، فإنه حتى آخر عام ١٩٢٤ كان (حزب العمال الألمان الوطني الاشتراكي) محروماً من الاجتماع أو النشاط قانوناً ، ولو أن هذا لم يكن معناه أن الحزب قد اختفى من الوجود ، لأن (لودندورف) لم يلبث أن بسط عليه جناحه ، فصار يعرف باسم « حزب الحرية الشعبي » واستطاع أن ينال في انتخابات مايو ١٩٢٤ - أي في وقت الفوضى الاقتصادية - حوالي ١,٩٢٠,٠٠٠ صوتاً ، وأرسل إلى الريخستاغ اثنين وثلاثين نائباً . ومع هذا فإنه عقب البدء في تنفيذ (مشروع داويز Daws) لتنظيم مسألة دفع التعويضات الألمانية ، وانتعاش حال ألمانيا المعنوية والاقتصادية نوعاً ما ، فقدت جماعة هتلر حوالي عشرين مقعداً . ثم حدث عند وفاة (فودريك إيبيرت Ebert) رئيس جمهورية ومار الأول (١٩٢٥) وإجراء انتخابات الرئاسة ، أن انهزم (لودندورف) مرشح الوطنيين الاشتراكيين أو الهتلريين ، فلم يزل سوى ٢١٠,٩٦٨ صوتاً . ولما لم تكن هذه الانتخابات حاسمة ، أعيد الانتخاب مرة ثانية . ولكن هتلر في هذه المرة فضل إعطاء أصوات حزبه إلى الماريشال الكهل (فون هيندنبيرج) ، ففاز بمنصب رئاسة الجمهورية . أما الحزب النازي

فقد تدهور شأنه كثيراً عقب ذلك ؛ وفي مايو ١٩٣٨ أسفرت الانتخابات العامة لمجلس الريخستاج عن إرسال اثني عشر نائباً نازياً ليس غير . وقد أدرك أدولف هتلر خطر الأزيمة التي هددت باجتماع حزبه ، ولذلك طفق يستميل إليه الوطنيين والرأسماليين وكبار زعماء الصناعة ، ومن اليهم . وكان التناقض البين في برنامج الحزب — على نحو ما تقدم ذكره — من أقوى العوامل التي ساعدت الزعيم النازي على استمالتهم . ومع هذا فإن السنوات المنقضية بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٩ — وهي الفترة التي استطاعت ألمانيا في أثنائها أن تفيد من التسويات التي وضعت لمسألة التعويضات ، ومنها مشروع يونج (Young) الذي وضع في عام ١٩٢٩ وقبلته ألمانيا في العام التالي — كانت فترة التنظيم الاقتصادي الذي أوجد حالة من الرخاء ، ولو أنه كان رخاء زائفاً ، فقلت البطالة ، ونقص عدد المتعطلين حتى صار لا يزيد على المليونين إلا قليلاً ، وشرع الريخ يشيد المصانع ويستقدم إليها الآلات والأدوات الجديدة ، ويبني الكستدراتيات الفخمة ، والمباني الصحية لسكنى العمال ، والمتنزهات ، ودور السينما والمسارح وهكذا ، ووسط هذا الانتعاش ، كان من المتعذر على المرء هتلر وحزبه النازي إدراك أى نجاح ، على الرغم من الأموال التي أخذت تتدفق على حزبه من أصحاب رؤوس الأموال وزعماء الصناعة أمثال (فريتز ثيسن) Fritz Thyssen وغيره .

بيد أن النجاح كان من نصيب النازيين في النهاية لعدة أسباب ، منها عدا ما تقدم ، أن الأزيمة الاقتصادية الكبرى كانت على وشك اجتياح العالم . ويحدد عام ١٩٢٩ بداية هذه الأزيمة الدولية ، وكان من أخطر أسبابها ، التوسع في الإنتاج الصناعي . وفي ألمانيا ذاتها حدث هذا التوسع بسرعة عظيمة ، وبدرجة تسكنى لسد مطالب جزء كبير من أسواق العالم قاطبة . ولكنه كما قال أحد زعماء الصناعة الألمان (كروپ فون بوهلن) Krupp von Bohlen ، إن الصناعة شيء ، والقدرة على بيع المصنوعات شيء آخر ، ولم تستطع السوق الألمانية الداخلية بطبيعة الحال استهلاك كل هذه المنتجات ، وكان من الضروري إيجاد أسواق خارجية ولكنه ، كما قال (كروپ) أيضاً ، كانت أسواق العالم مغلقة دوننا ، مع حاجتنا إلى هذه الأسواق . فقد أقامت بريطانيا العظمى حواجز جمركية ، كما كانت تعترض التجارة الألمانية في فرنسا وإيطاليا والسويد والبلقان ، وفي كل مكان عراقل من المنتظر أن يصبح التغلب عليها متعذراً من جراء ازدياد هذه العراقل زيادة مطردة ، ولذلك فلم يكدي يحل عام ١٩٣٠ ، حتى كان العمال الألمان يواجهون أزمة شديدة ، فقد تعطل منهم في الأسبوعين الأولين من شهر يناير حوالي الأربعمائة ألف عامل ، وهذا بينما زاد عدد المتعطلين في منتصف العام نفسه من حوالي المليونين إلى ستة ملايين . أما الصادرات الألمانية التي بلغت في عام ١٩٢٩ حوالي

الثلاثة عشر ألف مليون ريشمارك ، فقد نقصت في عام ١٩٣٣ إلى خمسة آلاف مليون ريشمارك لحسب . وإلى جانب هذا الجيش الجرار من المتعطلين ، وجد عدد عظيم من الرجال والنساء الذين نقصت أوقات عملهم في اليوم إلى ساعات محدودة ؛ وبالتالي نقصت قيمة الأجور التي يقبضونها ، ويعيشون عليها . وهكذا أضحت ألمانيا في عام ١٩٣٠ ، بلد الشحاذين ! ، أي أنها رجعت إلى الحال التي كانت عليها في سنوات التضخم النقدي عقب الهدنة التي عقدت في نهاية الحرب العالمية الأولى . فاذا قدرنا أن كل رجل متعطّل يعول في المتوسط أسرة مؤلفة من شخصين اثنين لحسب على أقل تقدير ، لو جدنا أن عدد من صاروا يعيشون في بؤس وتعاسة ويعتمدون في قوتهم اليومي على إعانات الدولة وحسنات المتصدقين قد بلغ ثمانية عشر مليوناً ، هذا عدداً حوالى عشرين مليوناً آخرين يعيشون على أجورهم المنخفضة .

وكان من نتائج سوء الحالة الاقتصادية ، أن طرد الاشتراكيون الديمقراطيون من الحكم ، وألف الوزارة رجال (الوسط) وعلى رأسهم (هنريك برونيج) Brüning وأما النتيجة الهامة فكانت القضاء على أي أمل في بعث الطبقة المتوسطة الألمانية من جديد ، وهي دائماً عماد الجمهورية الديمقراطية أو الملكية البرلمانية . فقد قضى التضخم النقدي على هذه الطبقة ، ثم لم يمكن إحيائها في فترة الرخاء الصناعي المفتعل بين عامي ١٩٢٥ ، ١٩٢٩ . وكان الاشتراكيون الديمقراطيون وحدهم الذين أفادوا من هذا الرخاء ، وعندما وقعت الأزمة كان (هرمان مولر) Müller الوزير الاشتراكي على رأس الحكومة (منذ يولييه ١٩٢٨) فلم تلبث أن سقطت حكومته بسبب الأزمة في مارس ١٩٣٠ ، وبسقوط هذه الحكومة اختفى كل أمل في إمكان إحياء الجمهورية الألمانية .

وأعطى هذا الاضطراب الاقتصادي والسياسي الفرص للوطنيين الاشتراكيين ، حتى يعودوا إلى مسرح السياسة بعد أن ظلوا محتجبين طوال السنوات الأربع الماضية . وهكذا فاز النازيون في انتخابات ١٤ سبتمبر ١٩٣٠ بعدد من المقاعد في مجلس الريخستاغ بلغ ١٠٧ (بعد أن كان لهم ١٢ مقعداً ليس غير) . وكان لهذا الانتصار مغزى كبير ؛ فإن النازيين عندما بلغ عدد المتعطلين حوالى المليون ، كان كل ما أحرزوه من أصوات يقل عن المليون ، حتى إذا ارتفع عدد المتعطلين إلى ستة ملايين ، ظفروا بستة ملايين صوت . ثم استغل النازيون هذا الانتصار إلى درجة بعيدة ، فنشطت دعاوتهم تستميل إليهم الانتصار والمؤيدين ، وتخفف الأسى عن المتعطلين المشكوبين ، ذلك بأنها صارت تلصق مسؤولية الفسكات الاقتصادية التي حلت بالشعب الألماني ، بالسياسة الذين وضعوا شروط الصلح في فرساي ، وفرضوا على ألمانيا التعويضات ، وهذا كله ، كما أدعوا ، بتحريض من فرنسا عدو الألمان

التاريخي ، وهكذا ظفر النازيون بأصوات الناخبين الذين انصرفوا أيضاً عن تأييد الشيوعيين .
لخوفهم من أن يدفع هؤلاء بالأمة إل سقوط غمار حرب جديدة . فلم ينل الشيوعيون في
هذه الانتخابات سوى ٧٧ مقعداً . وفي الريخستاج ، منذ أن خرج الاشتراكيون
الديموقراطيون وأنصارهم ، أصبح الحكم البرلماني مستحيلاً بسبب العداوة المستحكم بين الوطنيين
الاشتراكيين . وبين الشيوعيين الذين سيطروا فيما بينهم على الحياة السياسية . وكان هذا
النضال مؤذناً بنهاية جمهورية ويمار ، ومهداً في الحقيقة لاستئثار النازيين بالسلطان الكامل
في الدولة .

وفي الشهور التالية ازدادت الأحوال الاقتصادية سوءاً ، وأفاد النازيون من ذلك كل
فائدة . لأن الأهلين الذين تذوقوا طعم الفاقة ، وأحسوا بالضيق ومرارة العيش ، سرعان
ما صاروا يتوقون إلى حدوث تغيير أو تبديل جوهري من شأنه لإفساح المجال لجماعة جدد
من السياسيين الذين قد يستطيعون انتشالهم من وهدة البؤس والعوز . ولما كانوا قليلي الثقة
بالشيوعيين ، فقد عقدوا آمالهم على الوطنيين الاشتراكيين ، واستنطاع الهر هتلر بفضل
مؤازرتهم أن ينال في الانتخابات التي أجريت لرياسة الجمهورية في التصويت الأول (في
مارس ١٩٣٢) ١١٩,٣٤٤,١١٩ صوتاً أو ما يزيد على ٣٠٪ ، ونال في التصويت الثاني (في
١٠ أبريل ١٩٣٢) ١٣,٤١٧,٤٦٠ صوتاً أو حوالي ٣٧٪ ، بينما فاز (هندنبرج) بنحو
سبعة عشر مليوناً ونصف من الأصوات . وفي الانتخابات التالية لمجلس الريخستاج في (٣١
يوليه ١٩٣٢) أحرز النازيون ١٣,٧٣٣,٠٠٠ صوتاً أو ما يزيد على حوالي ٣٧٪ وظفروا
بمائتين وثلاثين مقعداً .

ومع هذا ، فإنه من الحقائق المعروفة أن الهر هتلر ما كان يستطيع الوصول إلى منصب
المستشارية ، أي رئاسة الحكومة في الريخ الألماني ، لو أن (البطانة) المقربة من رئيس
الجمهورية (هندنبرج) ظلت متحدة ، ولم يعمد بعض أعضائها إلى المناورات السياسية للتخلص
من منافسيهم ، والاستئثار بالسيطرة على رجل تقدمت به السن كثيراً ، حتى يخلص لهم الحكم
في ألمانيا . فمن الثابت أن هندنبرج عقب انتخابات ٣١ يوليه ١٩٣٢ رفض أن يولي الهر
هتلر منصب المستشارية عندما زين فرانز فون بابن Franz Von Papen أحد أفراد البطانة
لهتلر ، أن يطلب إلى المارشال الكهل إعطاءه مركزاً مشابهاً للبركن الذي ظفر به موسوليني
عقب زحفه المشهور على رومة ، فرفض هندنبرج وقال كلمته المأثورة : « أيتوقع مثل هذا
الرجل أن يصبح مستشاراً لدولة الريخ ! إن كل ما يستطيع أن يظفر به هو منصب ساعي

بريد ١ ، . ومن الثابت كذلك أن النازيين في انتخابات ٦ نوفمبر ١٩٣٢ ، لم يلبثوا أن فقدوا عدداً كبيراً من الأصوات ، فلم يزد ما أحرزوه على ١١,٧٠٠,٠٠٠ صوتاً تقريباً . ولكن المناورات السياسية وحدها هي التي مهدت الطريق للوصول لهرتلر إلى منصب المستشارية في النهاية .

فقد التفت حول الماريشال الكمل - (كان يناهز الخامسة والثمانين) ، بطانة ، كان من أهم أعضائها ابنه (أوسكار) Oskar ، وهو ضابط عامل في الجيش ، و (أوتوميسنر) Otto Messiner مستشار الرئيس وأحد وزراء الحكومة ، وفرانز فون باين ، أستاذ مستشاري الريخ في هذا العهد ، والجنرال (كيرت فون شليخسر) Kurt von Schleicher من وزراء الحرية ومن زملاء هندنبرج القدماء ، وصاحب أكبر نفوذ في ألمانيا الجمهورية . وغير هؤلاء . وكان غرض هذه (البطانة) الأساسية بعد أن تبينوا خطر المركز الذي صار يتمتع به النازيون وعلى رأسهم لهرتلر ، أن ينفذ ملايين النازيين الذين أعطوا أصواتهم للنازيين من حول لهرتلر ، وأن ينصرف إهتمامهم إلى تحقيق أغراض أخرى ، كما أنهم صاروا يعنون بضرورة تأييد الرأسماليين وتعزيز مراكزهم حيال أية محاولة اشتراكية ضدهم في المستقبل ، كما أرادوا أن يعيدوا تشييد صرح الدولة الألمانية على أساس المسيحية القديم ، وهو الأساس الذي كان قد أخذ يتداعى منذ مدة طويلة حتى أشرف على الانهيار ، وكانوا يرغبون كذلك في إعادة البحث في الدستور الألماني ، وتنظيم كيان الدولة على نحو يضمن استمرار الحكم في أيدي أحزاب (الوطنيين) من أصحاب الإرادة القوية والفكر الناضج ، وكانوا يعنون أنفسهم بهذا الوصف ، لأنهم اعتقدوا أن خلاص ألمانيا - كما أرادوها - لا يمكن أن يحدث إلا إذا حرم الأهلون كافة الحقوق عدا حق واحد يحول لهم انتخاب دكتاتور يهيمن على شؤون البلاد ، وهو حق لا يستطيع النازيون بأورسته إلا في فترات متقطعة .

وكان موقف هذه (البطانة) من الوطنية الاشتراكية موقفاً غريباً حقاً . فلم يكن يضيرهم وجود النازيين لأنهم كانوا يدخلون الرعب إلى قلوب الاشتراكيين ، ولكنهم كانوا بوصفهم من قواد الجيش يكرهون الفوضى والأحزاب السياسية قاطبة ، وبوصفهم من أصحاب الأراضي الزراعية الواسعة يسوءهم رؤية ضياعهم العظيمة ، (المفلسة) غشيمة يقتسمها الفلاحون فيما بينهم ، كما أنهم كانوا لا يرضون كرجال أعمال عن (الأوتاركية) أو (الاكتفاء الذاتي) . وما كانوا يوافقون قط على أن تمتد يد الاشتراكية إلى ممتلكاتهم و ثرواتهم ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يكرهون لهرتلر على اعتبار أنه من قادة الجماهير ، وقد ظل مغموراً حتى أتاحت له الظروف الطارئة أن يظهر على مسرح السياسة . ولذلك وجدوا أن خير وسيلة لتحقيق

أغراضهم أن يحصروا حركة الطبقة المتوسطة التي يتزعمها هتلر — وهى حركة ثورية — ، وأن يحدوا من انتشارها ، حتى يستطيع الرأسماليون استئناف أعمالهم .

وغنى عن البيان أن (بطانة) بلغت آراء أعضائها ازاء الوطنية الاشتراكية من التضارب هذا المبلغ ، واعتمدت فى وجودها على صداقة رئيس الجمهورية لها وعطفه عليها ، ما كان فى استطاعتها أن تحقق أغراضها إلا بالاتجاه إلى المناورات السياسية واستصدار المراسيم والقرارات الحكومية ، وتعطيل مواد الدستور ، حتى يتسنى لها الفوز بالحكم دون إشراك مجلس الريخستاج ، « أو الأمة » وبخاصة عندما ظفر الوطنيون الاشتراكيون (النازيون) بمقاعد كثيرة فى هذا المجلس . وهذا ما حدث فعلا . فقد ظل مستشار الريخ فى تلك الآونة الدكتور برونيج يحكم بمقتضى قرارات استثنائية ، وحاول كينج جماع هتلر وأنصاره بتنفيذ مطالب حزبهم المعتدلة . ولكن ما كاد يشرع فى تجزئة (الجفالك) الواسعة فى بروسيا الشرقية إلى ملكيات صغيرة حتى ثار عليه أصحاب هذه الأراضى المعروفين باسم (يونكر) Junkers ، واتخذ منافسوه من بين رجال (البطانة) من هذه المحاولة ذريعة لا يغار صدر الماريشال هندنبرج عليه ، فطرد (برونيج) من المستشارية فى مايو ١٩٣٢ . أما هؤلاء المنافسون فكانوا (هو جنبرج) ، زعيم الوطنيين وأصحاب الخوذ الفولاذية ، وفون پاپن ، والدكتور شاخت Schacht (وكان محافظا لبنك الريخ بين عامى ١٩٢٣ ، ١٩٢٩ ، ثم غادر صفوف الديمقراطيين وانحاز إلى اليمين ، ثم اتصل بالنازيين منذ عام ١٩٣١) كما انضم إلى هؤلاء المتآمرين فى بطانة الرئيس ، الوطنيون الاشتراكيون ، وكانوا جميعا قد استطاعوا منذ مدة أن يؤلفوا من بينهم جبهة قوية عرفت باسم « محالفة هارتزبرج » ، وكان من أول أعمال هذا التحالف تأييد ترشيح أدولف هتلر لرياسة الجمهورية ضد الماريشال هندنبرج نفسه فى انتخابات ١٠ ابريل ١٩٣٢ . ولم يكفل النجاح للماريشال وقتذاك سوى انحياز الاشتراكيين الديمقراطيين إلى جانبه .

أما هندنبرج ، فإنه لم يلبث أن عهد بالمستشارية بعد طرد (برونيج) إلى (فون پاپن) على الرغم من أن پاپن ما كان يستطيع الحصول على عدد من الأصوات فى داخل مجلس الريخستاج يزيد على أصوات حزب (هو جنبرج) ولذلك صار يعتمد الاعتماد كله على صداقة رئيس الجمهورية لحسب . ولما كان غرض (فون پاپن) اقضاء الاشتراكيين الديمقراطيين عن حكومة بروسيا اقضاء تاما فقد قرر الاستناد إلى تأييد الجيش الألماني النظامى الذى تألف بعد الحرب العالمية الأولى وهو (الريشوير Reichswehr) وعلى ذلك عين رئيس هذا الجيش الجنرال (كيرت فون شاينر) وزيرا للحرية ، واستطاع فون پاپن تنفيذ مآربه .

ومنذ انشئت جمهورية ويمار الاتحادية ، واتسعت اختصاصات حكومة بروسيا حتى شملت ما يزيد مساحته على ثلاثة أرباع دولة الريخ ، كان الاشتراكيون الديمقراطيون والكاثوليك والديموقراطيون هم الذين يؤلفون الأكثرية المطلقة في المجلس البروسياني (لاندتاج) Landtag : كما كانت الحكومة البروسيامية للسبب نفسه تتألف من ممثلي هذه الأحزاب الثلاثة ، وكان يرأسها رجل من الحزب الاشتراكي الديمقراطي هو (أوتوبرون) Otto Braun وقد ازدادت شعوبات (أوتوبرون) عندما أسفرت انتخابات هذا الديايط البروسياني في ٢٤ ابريل ١٩٣٢ عن عدم فوز حزب من هذه الأحزاب الثلاثة فوزا يمكن أحدها من تأليف الوزارة أو يحمل من الميسور لإنشاء حكومة ائتلافية قوية فظل (أوتوبرون) والاشتراكيون في الحكم « مؤقتا » ، ونجى عن ذلك تعذر التعاون بين هذه الحكومة البروسيامية التي تغلب عليها الصبغة (الماركسية) أو الاشتراكية وحكومة الريخ المركزية التي يرأسها (فون باين) ، والتي أطلق عليها اسم (حكومة البارونات) . فأصدر (باين) بموافقة هندلج مرسوما في ٢٠ يولية ١٩٣٢ يقضى بتهيينه أي (فون باين) قوميسيرا الريخ في بروسيا ، وعين نائب له وكان هذا المرسوم يقضى إلى جانب هذا ، بمنع حكومة بروسيا من مباشرة أعمالها . وبهذا حقق (فون باين) غرضه الأول وكان هذا العمل تحديا للاشتراكية التي اعتبرت بروسيا حصنها المنيع منذ مدة طويلة ، وكاد طرد الاشتراكيين يقضى إلى ملاحم عنيفة ، ولكن (شليخر) أسرع في اظهار استعداداته الكامل لمؤازرة (فون باين) ، بينما تفرقت كلمة الاشتراكيين الديمقراطيون والشيوعيين ، مما أدى إلى تضعضع الطبقة العمالية . لذلك لم يلبث سواد الشعب في الانتخابات التالية لمجلس الريخستاج (٣١ يولية ١٩٣٢) أن أظهر سخطة على هذا الانقسام ، فكان النصر في تلك الانتخابات لحليف النازيين والشيوعيين ، ففاز النازيون بما يزيد على ٣٧ ٪ من عدد الأصوات ، وظفروا بمائتين وثلاثين مقعدا ، بينما نال الشيوعيون ٨٩ مقعدا ، واختفت أحزاب الطبقة المتوسطة تماما ، ورجع الاشتراكيون الديمقراطيون إلى حالهم السابقة القديمة في عام ١٩٣٤ .

وتمل جنود الهجوم النازي بخمر الظفر ، فاجتاحت الريخ موجة من الارهاب النازي عنيفة ، وطلق النازيون من ذلك الحين ينتقمون من معارضيههم وأعدائهم السياسيين انتقاما بلغ الغاية في قسوته ووحشيته حتى اضطر (فون باين) إلى اعلان الاحكام العرفية ، كما هدد (شليخر) باستخدام الجيش النظامي ضد (جنود الهجوم) النازيين ، وأصدر (فون باين) تصريحاً أنحى فيه باللائمة على هتلر ، وأعلن استعداده لتأييد حكم القانون والقضاء على الفوضى التي أثارها النازيون بمسلكهم . وإزاء هذا التهديد لجأ هتلر إلى المفاوضة ، مهدداً تارة ومسترضياً تارة

أخرى فجمع جنود المهجوم بالقرب من برلين . ووعده بتأييد وزارة فون باين إذا وافقت . أخيرا على إطلاق يد هؤلاء مدة ثلاثة أيام لحسب وسكن باين رفض هذا العرض بطبيعة الحال ، وزاد حنق هندنبرج عندما طلب هتلر منصب المستشارية لنفسه . فابقي الرئيس فون باين في الحكم ، وانقلب هتلر وأعوانه منذ ذلك الحين يدبرون المكائد ضد هندنبرج ووزيره ، وعمت الفوضى من جراء ذلك كله مجلس الريخستاج حتى اضطر (فون باين) إلى حلّه ، ثم أجريت انتخابات جديدة في ٦ نوفمبر ١٩٣٢ ، نال فيها هتلر ١١٧٠٥٠٥٠٠ صوتا ، هذا بينما زاد عدد أنصار الشيوعيين وأنصار (هوجنبرج) ، وكان من الواضح أن الشيوعيين هم الذين أفادوا من هذه المناورات السياسية .

ولما كان الخوف من نجاح الشيوعيين ما يزال من العوامل الحاسمة في جمع كلمة أحزاب اليمين عامة ، فقد أدى هذا الخوف إلى عودة الائتلاف بين أنصار (باين) و (هوجنبرج) و (شاخت) فالحزب هتلر ، فتعززت من ثم جبهة هارتزبرج السابقة . وفي ٢ ديسمبر من العام نفسه أخرج (فون باين) من مستشارية الريخ ، وعهد هندنبرج بهذا المنصب إلى رئيس (الريششهر) الجنرال (فون شليخر) . وكان من الواضح أن سبب سقوط (باين) هو أنه صار من المتعذر عليه أن يظل في الحكم بعد أن أثار الأمة بأجمعها ضده . واقترنت (البطانة) القديمة الماريشال هندنبرج بضرورة إعطاء منصب المستشارية إلى رجل قوى . ولما كان (شليخر) في هذه الآونة زعيم الجيش ، فقد اعتبر أقوى رجل في ألمانيا ، ومساعدته على تحقيق مطامعه أنه كان من أصدقاء (أوسكار فون هندنبرج) والمقربين إليه ، كما أنه كان صديقا لأفراد (البطانة) التي كانت تتمتع بنفوذ كبير لدى الماريشال .

ومنذ أن وصل (شليخر) إلى الحكم طفق يعمل للقضاء على هتلر وجماعيته . ولما كان يعد برنامجا شاملا للأصلاح وكان يميل في إصلاحه الاجتماعي إلى ادخال تغييرات جريئة من أجل (خلاص ألمانيا) على حد قوله فقد أصبح من السهل عليه لتنفيذ هذه الإصلاحات من جهة ، ولضعاف هتلر من جهة أخرى أن يوطد الصلة بينه وبين جناح اليسار من حزب هتلر نفسه ، وهو الجناح الذي كان يتزعمه (جريجور ستراسر) Strasser ، فعرض عليه منصب نائب المستشارية كما أنه دعا زعيم (اتحادات التجارة الحرة) ويدعى (ثيودور ليپارت Leipart) للاشتراك معه في تأليف الحكومة التي أراد أن تقوم على أساس اشتراكي واسع ولكن هذه الميول الاشتراكية لم تلبث أن أثارت عليه حفيظة أصحاب الأراضي الواسعة ، Junkers كما أغضبت رجال (البطانة) وشرعوا يدبرون المكائد لاستقاطه واستطاع (فون باين) في هذه الظروف أن يجذب الحزب هتلر إلى معاونتهم عندما وعد بأن

يسدد ديون الحرب النازي التي بلغت في هذه الآونة ١٢,٠٠٠,٠٠٠ ريشمارك تقريباً وحدث في بداية شهر يناير من العام التالي (١٩٣٣) أن عقد اجتماع في (كولون) في بيت (شرودر) Schroeder أحد رجال المال المعروفين ، وفي هذا الاجتماع تقابل هتلر مع فون باين ومع (شرودر) بفضل وساطة أحد الوكلاء التجاريين وهو (فون ريبنتروب Ribbentrop وسويت مالية الحزب النازي وأسفرت هذه التسوية عن اتفاق كل من هتلر ، وشاخب وباين ، وهو جنبرج ورجال بطانة الرئيس هيندبرج على ضرورة عزل (شليختر) من منصب المستشارية : ولما عجز (شليختر) عن المقاومة ، فكر جديداً في تأليف حكومة تستند إلى مؤازرة (الاتحادات) Unions ، وفأوض بالفعل في ذلك كلاماً من (جزييجور ستراسر) و (تيودور ليارت) . ثم فأوض زعيم الاشتراكيين الديمقراطيون في الريخستاج فيما إذا كان رجال حزبه على استعداد لتأييده ، ولكنه أخفق في محاولته ، وازداد موقفه حرجاً عندما اقترب موعد افتتاح الريخستاج (في ٣١ يناير ١٩٣٣ ، وكان من رأيه حل هذا المجلس قبل اجتماعه ، ولكن كان لابد من حصوله على موافقة هيندبرج ولكنه لم يوفق واستأنف شليختر المفاوضات من جديد ، وعلى غير طائل ومن جانب آخر دخل الزعماء المعارضون في مفاوضات مع هتلر ولكن هتلر أصر على أن تكون المستشارية في هذه المرة من نصيبه ، وظل الحال على كذلك ، حتى استطاع (فون باين) في إحدى مناوراته السيامية البارعة ، أن يجمع كلمة المعارضين على ضرورة إعطاء منصب المستشارية للبر هتلمر .

وكان مما اعتمد عليه (باين) في حيلته خيوط المؤامرة ، الإشاعات التي انطلقت في ذلك الحين تروج خبراً مفاده أن شليختر صار يعد العدة لإحداث (انقلاب) بمؤازرة (الريشفهر) وبفضل هذا الخوف المصطنع أمكن التأثير في هيندبرج حتى قبل أخيراً أن يعهد بمنصب المستشارية إلى البر هتلمر . فأصبح هتلر مستشار الريخ الجديد . وفي مساء ٣٠ يناير ١٩٣٣ دبر الهتلريون مظاهرة عظيمة اشترك فيها خمسة عشر ألفاً من النازيين حملوا المشاعل في حضرة أدولف هتلمر ، وكان إلى جانبه المارشال هيندبرج ، فقضت المظاهرة على آمال ، المعارضة ، حتى أنها لم تجد مناصاً عقب ذلك ، من التسليم بدون إبداء أية مقاومة وعلى إثر تعيين أدولف هتلمر مستشاراً للريخ الألماني ، طفق يتخذ التدابير لمنع (بطانة) الرئيس من تمثيل الدور الذي أفضى إلى إقصاء كل من بروننج ، وباين ، وشليختر من الحكم ، فعين (هرمان جورنج) وزيراً للريخ ، وقوميسيراً للطيران ، ووزيراً للداخلية في حكومة بروسيا وقد خطب (جورنج) رجال الشرطة ، فقال : « إن الشرطة لم توجد من أجل العناية بالمر ثمانين أو مائة ألف مجرم في السجون ، فخذير بنا أن نضع حداً لهذه الانسانية المزيفة ، لأن

من واجب الشرطة أن تقوم بأعمال قد تبدو قاسية للغاية ، ولكنها في الواقع ضرورية ولا غنى عنها البتة . وأما هذه الأعمال التي يشير إليها فهي القضاء على أعداء النازيين ومعارضتهم . ولما كان رجال الشرطة النظاميون مائة ألف ، وهو عدد لا يكفي لتحقيق هذه الأغراض ؛ فقد شكل (جورنج) قوة إضافية من النازيين تبلغ ثمانين ألفاً . وبذلك بدأ عهد الإرهاب النازي في ألمانيا ، وسرعان ما تبين لمندبري المكائد السابقين من (بطانة) الرئيس أن هتلر والنازيين إنما يريدون أن يقبضوا على أزمة الحكم بيد من حديد ، وأن من العيب أن يتوقعوا الاستمتاع بالمزايا التي ألغوها في اليهود الماضية . ثم عظمتم مخاوفهم عندما وجدوا المستشار النازي مصمماً على إجراء انتخابات جديدة حتى يفوز بأغلبية مطلقة تمكنه من إنشاء حكومة مؤيدة له ، واستطاع بالفعل أن ينال من هندنبرج أمراً بحل الريخستاج وإجراء هذه الانتخابات الجديدة في يوم ٥ مارس ١٩٣٣ .

على أن موقف النازيين في أول الأمر لم يزعج كلا من باين وهو جنبرج وأوسكار فون هندنبرج إلى حد كبير . ولم يقض مضاجعهم تهديد هتلر وأنصاره بأنهم مسمومون على البقاء في الحكم مهما كانت نتيجة الانتخابات المقبلة ، ذلك بأن النازيين كانوا قد اتفقوا معهم وقت المفاوضات التي سبقت تعيين هتلر في منصب المستشارية ، على أن يظل الائتلاف قائماً لمدة أربعة أعوام على الأقل ، ولو اقتضى الأمر مخالفة رغبات الأمة . ولكنهم أدركوا في النهاية أن النازيين سوف يتحينون الفرص لطردهم من الحكومة ، وانعدمت من ثم ثقتهم في الهر هتلر ، وطفقوا يدبرون المكائد ضده ، وانضم إليهم (شليختر) في ذلك . بيد أن هذه المكائد لم تكن خافية على الهر هالر . والواقع أن الهتلريين أنفسهم لم يكونوا يتوقعون إحراز نصر حاسم في الانتخابات المقبلة . ولذلك شرعوا من جانبهم يدبرون (إنقلاباً سياسياً) يضمن لهم الغلبة والنفوز في يوم ٥ مارس . ومن هذه الجهود الخفية جميعها ، نشأت جميع الحوادث التي كفلت الفوز للنازيين في النهاية .

• • •

فقد حدث في الأسبوع الثاني من شهر فبراير عام ١٩٣٣ . أن راجت إشاعة خوارها أن النازيين يريدون إخراج أعضاء (الائتلاف) المتعاونين معهم من الحكومة يوم الانتخابات نفسه ؛ ويطلبون إجراء (استفتاء عام) من أجل انتخاب الهر هتلر لمنصب رئاسة الدولة . ووجد (باين) في هذه الإشاعة مسوغاً لطبعه خبوط مؤامراته من أجل الخلاص من هتلر ؛ وقابل في ذلك (هو جنبرج) وحضر المقابلة أيضاً زعماء (أحزاب الحوادث الفولاذية) ، ثم تباحث (باين) مع الجنرال (شليختر) ومع الرئيس هندنبرج ومع ابنه (أوسكار) .

وأسفرت هذه المؤامرة عن وضع خطة نالت موافقة الجميع ، وترمى هذه الخطة إلى حشد جنود (الخوذات الفولاذية) في برلين في يوم الانتخابات نفسه ، على أن يحتلوا قلب المدينة ويسمروا على حراسة (الوطاسستراس) ، بينما تحتشد عدة فرق من الجيش النظامي (الريششمير) في (دوبريتز) Döberitz التي تبعد نحو العشرين ميلا عن برلين ؛ على أن يغادر هيندنبرج العاصمة في هذا اليوم إلى (دوبريتز) بحجة الإشراف على استعراض يقوم به بجيش (الريششمير) هناك . حتى إذا وقعت في يوم ٥ مارس أية محاولة من جانب الهتلريين لإحداث (انقلاب سياسي) استطاع عشرة آلاف جندي من أصحاب الخوذات الفولاذية مقاومة جنود الهجوم النازيين (S.A.) والدفاع عن قلب المدينة حتى تأتي إليهم نجدة (الريششمير) من (دوبريتز) .

بيد أن هتلر لم يلبث أن عرف أمر هذا التدمير ، فأرسل بدوره (هرمان جورج) يحمل تهديدا إلى (سلدت) Seldte زعيم جنود أصحاب الخوذات الفولاذية ، بأنه إذا أبدى هؤلاء أي حراك ، فإن هتلر لن يرى مذبوحة عن تعبئة قوات جنود الهجوم النازيين تعبئة كاملة . وقد أحدث هذا التهديد أثره في نفوس المتآمرين الذين أزعجهم انكشاف أمرهم ، وصاروا يخشون عواقب حديث الاصطدام بين قوات الحكومة ، فنكسوا على أعقابهم ، وفشلت مؤامرتهم ، واستطاع النازيون أن يتفرغوا لمكائفة أعدائهم الآخرين ، وهم الجمهوريون والشيوعيون ، فأشرف (هرمان جورج) نفسه على تعقبهم . وفي إحدى الهجمات الفجائية التي قام بها الشرطة على مراكزهم الرئيسية ، استطاع جورج أن يعثر في مقر الحزب الشيوعي (بيت كارل ليبكنخت) Liebknecht على خطط مفصلة قال جورج إن الشيوعيين وضعوها لتنظيم إشعال الثورة في ألمانيا وأخفوها في أقبية سرية عتيقة . وكان هذا الكشف انتصارا عظيما للنازيين الذين صمموا على استغلال هذا الحادث بشكل يقضي على أعدائهم الشيوعيين قضاء مبرما في الانتخابات المقبلة ، ويدخل الذعر والرعب في نفوس الأهلين ؛ وكان أخشى ما يخشاه سواد الشعب في تلك الآونة أن يشعل المتطرفون من أحزاب اليسار نار الثورة في ألمانيا ؛ هذا إلى أنه يقضي على كل أمل لدى (بطانة) الرئيس في إمكان الفوز على المرهتلر وأعوانه بتدبير أية مؤامرة جديدة .

وعقب ذلك حدث في مساء ٢٧ فبراير ١٩٣٣ في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين أن شهد أهل برلين فجأة السنة النيران تصل إلى عنان السماء . واللهب يضيء المدينة ، ثم نظائر الخبز بسرعة البرق ، بأن الريخستاج يحترق ! وكان حريق الريخستاج من العوامل الحاسمة التي ساعدت النازيين على أن يقبضوا بأيديهم من حديد على أزمة الحكم في ألمانيا ، ويفرضوا

على دولة الريخ تلك السيطرة التامة التي طمعوا فيها منذ مدة طويلة ، حتى يبسطوا سيطرتهم على القارة الأوروبية ، ثم على العالم أجمع في النهاية .

والواقع أن الزعماء النازيين كانوا في تلك الليلة أول من خف إلى مكان الحريق . ونقل الناس عن الهر هتلر قوله في وصف هذا الحادث ، وأنه نعمة من السماء ، Ein Zeichen vom Himmel . وأعلنت الحكومة في التو والساعة أن الحريق من صنع الشيوعيين وحدهم وفي الليلة نفسها صادر النازيون الصحف الشيوعية وجميع منشورات الشيوعيين وإعلاناتهم الانتخابية ، ومنعوا الاجتماعات السياسية سواء أكانت في الهواء الطلق أم في منازل أفراد الحزب ، وفي اليوم التالي وقع هندنبرج قرارا ألغى الدستور بمقتضاه ، وفي أول مارس صدر قرار آخر يفرض الرقابة ، على البريد والتليفون والبرق في أنحاء الريخ ، فتحقق بكل هذا ظفر النازيين واطمأنوا إلى الدخول في المعركة الانتخابية من غير منافس ! والحقيقة أن هذه التدابير الصارمة لم تقض على الشيوعيين وحدهم ، بل إنما أوجدت الارتباك والفوضى في صفوف الأحزاب الأخرى ، ثم رفعت في ساعات معدودة مستشار الريخ إلى مركز الديكتاتور المطلق . ولم تكن التدابير التي اتخذها النازيون من أجل محاربة أعدائهم ومنافسهم بنت ساعتها ، بل دل صدورها وتنفيذها بالسرعة المتقدمة على أنها كانت معدة منذ مدة سابقة ، وما يزال التاريخ يلصق تهمة إشعال النار في مبنى الريخستاج بالنازيين وحدهم إذ أنه حتى الآن ما يزال من المستحيل على أى إنسان أن يقف على كنهه العلاقة التي ربطت بين النازيين وفان دير لوب هذا الشخص الأبله الذى ثبتت إدانته وحده ثم أعدم . ومن المحتمل أن تظل حقيقة هذه العلاقة محمولة إلى الأبد

والمعروف أن (مارينوس فان دير لوب) Marinus Van Der Lubbe وهو من الرعايا الهولنديين ، لم يكن في يوم من الأيام منتسبا إلى الحزب الشيوعى ، بل كان هذا الرجل متعطلا ، لا مأوى له ومن المخبولين المنغمسين في حماة الرذيلة ومن ذوى الشذوذ الجنسي . وقد قبض عليه رجال الشرطة في ليل الحادث عند أحد أبواب الريخستاج ، وليس عليه من الملابس غير سراويله ، لأنه كما يظهر كان قد استخدم قميصه وبقية ملابسه المهملة في إشعال الحريق . ومع أن (جورننج) ادعى في ذلك الحين أن (لوب) كان يحمل بطاقة الحزب الشيوعى هذا إلى جانب بضعة أوراق أخرى تلصق التهمة بالشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيين . فإن هذا الادعاء كان كاذبا ، كما أن (فان دير لوب) من ناحية أخرى لم يكن من الوكلاء النازيين أصلا .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن (فان دير لوب) ما كان يستطيع وحده وبمفرده إشعال

الحريق الذى التهم جزءاً كبيراً من مبنى الريخستاج فى تلك الليلة . فقد أثبت البحث أن مقداراً كبيراً من المواد القابلة للاشتعال ، ومنها البترول ، قد استخدم فعلاً فى الحرائق التى نشبت فى عدة أماكن مختلفة من هذا المبنى وفى وقت واحد . ولم يكن لدى (لوب) من الملابس ما يكفى لإشعال حريق عظيم ياتهم بهو الريخستاج الكبير بأجمعه قبل وصول رجال المطافئ . وزيادة على ذلك فقد أثبت التحقيق أن وسط هذا المبنى كان شعلة من النيران عقب دخول (فان دير لوب) إليه بدقيقتين وخمس ثوان لحسب ؛ ولذلك فلا بد من أن يكون هناك غيره اشتركوا معه ، وعلى غير علم منه على ما يبدو ، فى إشعال هذا الحريق الكبير . ولكن أحداً لم يقف على أثر طؤلاء المساهمين . إذ استطاعوا الخروج من المبنى دون أن يراهم أحد . ولما كان هناك قبو سنلى يوضع به جهاز التدفئة ، ويمتد منه عم يربط بين أقبية الريخستاج ، والمبنى الذى يقيم به رئيسه ، فإن القرائن تدل على أن محدثى الحريق استخدموا هذا الممر الخفى أولاً فى نقل المواد المتفجرة — والبترول — إلى الريخستاج ، ثم استخدموه فى الفرار والنجاة بأنفسهم بعد إشعال الحريق ، وكان رئيس الريخستاج الهرممان جورنج !

ومع هذا فقد اعتقل النازيون ثلاثة من زعماء الشيوعيين — البلغاريين كانوا يعيشون فى برلين فى تلك الآونة ، وهم (ديمتروف) Dimitroff و (تانيف) Taneff و (بوبوف) Popoff بتهمة إشعال الحريق ؛ كما ألقوا القبض على النائب الشيوعى الألمانى (تورجلر) Torgler ، ثم قدموا الجميع إلى المحاكمة أمام المحكمة العليا الألمانية فى لينبرج . وفى هذه المحاكمة اعترف (فان دير لوب) بجرمه ثم أعدهم . وأما (ديمتروف) فقد دافع دفاعاً مجيداً وحمل حملة شعواء على الهرممان جورنج نفسه وعلى النظام النازى بأجمعه ، وانتهى الأمر بالحكم ببراءته وبرائة زملائه الآخرين . وقد سافر (ديمتروف) إلى موسكو ، أما (تورجلر) الألمانى فقد أرسل إلى أحد معسكرات الاعتقال النازية .

ولكن تبرئة الشيوعيين جاءت متأخرة . إذ أن النازيين كانوا قد حققوا أغراضهم ، فأنشروا الارهاب والرعب فى أنحاء البلاد وقام الشرطة بتلك الأعمال التى قال عنها جورنج : أنها قد تبدو قاسية للغاية ولكنها فى الواقع ضرورية ولا غنى عنها البتة . . . وعيناً حاول أعضاء الحكومة — من : بطانة ، الرئيس هيندنبرج — الاحتجاج على هذه الحملة الارهابية ، فقد أجاب جورنج على ذلك بقوله : « إنه يشعر بقوة مركزه إلى حد يسوغ له الاضطلاع بكل مسئولية » . وعمل النازيون على قمع كل معارضة ، دون أن يترددوا فى ارتكاب أية جريمة حتى صار الأهليون يعثرون فى القنوات ومجارى المياه على جثث أفراد عديدين من العمال ، الذين عرفوا بقوة المراس والشكيمة وشدة معارضتهم للحزب النازى . وفى يوم الانتخاب قام

بالمحافظة على النظام ثمانون ألفاً من أصحاب القمصان السحر النازيين !

ولكن على الرغم من هذا الارهاب العظيم ، لم يظفر النازيون في يوم ٥ مارس ١٩٣٣ بالأغلبية المطلقة ، فحصلوا على ٤٣,٩ ٪ من الأصوات فقط . فإذا كانت هذه هي النتيجة التي بلغها النازيون وهم في أوج سيطرتهم ، ولا أثر للمعارضة أو المنافسة يمكن عليهم صنفهم ، فماذا كان يحدث لو أن الريخستاج لم يحرق ؟ ، ولو أن الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية على وجه الخصوص ظلت حرة طليقة ، تمارس حقوقها الانتخابية في أمان إلى جانب النازيين والعضالين معهم من أحزاب الوطنيين ؟ . لاشك في أن انتخابات ٥ مارس ١٩٣٣ كانت هزيمة النازيين لا تقل عن هزيمتهم القديمة في انتخابات ٦ نوفمبر من العام السابق ومع هذا ، فقد سجد النازيون حتى يوطدوا أقدامهم بكل وسيلة . فاعلن أدولف هتلر في خطاب ألقاه في ميونيخ (تمبلهوف) في أول أبريل ، أن الثورة الوطنية قد بدأت ، وفي اليوم نفسه نظمت مقاطعة اليهود ، وفي ٢ مايو وبنام على أوامر الحكومة صادر جنود هتلر جميع ممتلكات الأحزاب والمؤسسات العمالية في أنحاء الريخ ، ولم يقارمهم أحد . وقبض النازيون على زعماء الاتحادات التجارية الحرة أمثال (ليبارت) Leipart و (غراسمان) Grassman وغيرهما من صفار الزعماء وألقوا بهم في غياهب السجون ، وفي ١٨ مايو صادر هتلر يون جميع مبانى وأماكن الجمعيات التعاونية ، فخر الاشتراكية الألمانية كما صادروا جميع مبانى الاشتراكيين الديمقراطيين وممتلكاتهم وأموالهم ومطابعهم . وهكذا قضوا الهتلر على كل منافسة وأعدائهم (الشيوعيون ، النقابات العمالية ، الاشتراكيون الديمقراطيون) . وبلغ الارهاب النازى ذروته ، إذ كان عدد الذين أرسلوا إلى السجون أو مصسكرات الاعتقال نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ ألمانيا ، وانفسح المجال أمام (جنرال هيجوم) الهتلري ووقع تحت رحمتهم يهود والاشتراكيون الديمقراطيون والأحرار ، ولم ينبج من أيديهم الشيخ الكبير أو الصبي الصغير في غير تمييز بين الذكر والأنثى .

ولم يسكد ينتهى أمر أحزاب اليسار حتى وجه الهتلر عنانيه للقضاء على أحزاب اليمين وكان من السهل عليه بلوغ مقاصده . لأن طرد النواب الشيوعيين من الريخستاج أكسب الوطنية الاشتراكية — أو النازية — والبرلمان قوة كبيرة . وبفضل هذه القوة الجديدة ، استطاع الهتلر أن يقنع حزب الوسط الكاثوليكي في ريخستاج بأن من مصلحة هذا الحزب ومن مصلحة الكنيسة أيضاً أن يظفر الهتلريون بالأغلبية المطلقة في الريخستاج ، وأن حزب الوسط الكاثوليكي والكنيسة سوف يكون من نصيبهما حتما الانتعاش والشجاع في دولة الريخ الثالث ، فقبل الحزب الانحياز إلى النازيين عند التصويت من أجل الموافقة على القانون الذى

أعطى الهرتلر سلطات واسعة استثنائية تمكنه من إصلاح (الدستور) ومن التشريع عن طريق إصدار المراسيم في مدة الأعوام الأربعة التالية ، وعندئذ لم يتردد الهرتلر لحظة واحدة في تطهير الحكومة من (بطانة) الرئيس هيندبيرج ، والذين تألفت من بينهم وبفضل مساعدتهم (جبهة هارتزبرج) القديمة ، فطرد في ٢٧ يولية ١٩٣٣ الفريد هوجنبرج من الحكومة ، وولى مكانه رجلا من جماعة الرأسماليين والصناعيين الذين كانوا يريدون الحرب ويجدون فيها علاجا حاسما لازمة البلاد الاقتصادية المستحكة وهو (الدكتور شميدت) Schmidt . ثم عظم تهديد الهتلريين لأحزاب المحافظين من الكاثوليك والألمان الوطنيين ، وحل الاضطهاد وعمائمهم ، وقادتهم ، كالمكانوا من الاشتراكيين الديمقراطيين سواء بسواء . وفي آخر الأمر اضطروا المحافظون إلى تصفية ، أحزابهم وجماعاتهم وفي ١٤ يولية ١٩٣٣ أعلن الهرتلر أن الوطنية الاشتراكية هي الحزب القانوني الوحيد في ألمانيا بأسرها . وبهذا تكون قد بدأت حياة الريح الثالث الجديدة . . . ويكون قد تمهد الطريق لخوض غمار الحرب العالمية الثانية

□ □ □

تلك كانت الظروف التي لا بدت وصول الهتلريين إلى الحكم في ألمانيا . وجمعت أسباب السلطة المطلقة في أيديهم . ومع هذا فإنه ما كان من المستطاع أن يصل النازيون إلى ما وصلوا إليه ، وأن يتمكنوا من بسط سلطانهم بشكل يقضى على كل معارضة ، لو أنهم لم يعنوا من بادية الأمر بتنظيم حزبهم وتنسيق جهودهم في نظام من شأنه أن ينشر خلايا الحزب ومؤسساته وهيئاته في كل ركن من أركان الدولة ويفرض الطاعة العمياء على كل عضو من أعضاء الحزب لزعيمه (الفوهرر) أدولف هتler . ولذلك فإن تنظيم الحزب النازي نفسه كان من أهم العوامل التي كفلت للهتلريين الفوز ، ووضععت مصير البلاد في أيديهم .

فقد جعلت دقة تنظيم الحزب الوطني الاشتراكي من الممكن أن تتغافل أنظمة الوطنية الاشتراكية في كيان ألمانيا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، حتى هيمن النازيون في النهاية على حياة الأهلين هيمنة تامة تحت ستار إنشاء (الدولة الجديدة ذات الخدمة الموحدة) ومعنى هذا أن ينظم نشاط أفراد الدولة في فروع المصالح — أو الخدمات — المختلفة في نطاق واحد تحت إشراف الدولة وتوجيه منها . ولحمة هذا النظام وسداه الطاعة العمياء لزعيم الدولة . ويشبه الحزب الوطني الاشتراكي في نظامه (نظام المجموعة الشمسية) ، بمعنى أن الفوهرر أو الزعيم وهو أدولف هتler يتوسط بمجموعة الزعماء الآخرين الذين يشرفون على كل فرع من فروع الحزب وهي كثيرة . ولما كان غرض النازيين إحراز السيطرة السياسية وإحكام الرقابة

الدقيقة على حياة الأفراد الذين تتألف منهم دولة الريخ ، نظمت إدارة الحزب على نحو يتضمن هذه السيطرة وتلك الرقابة ، ولذلك صارت هناك منظمات إقليمية ووظائفه واستشارية ، استطاع النازيون بفضلها جميعاً منذ عام ١٩٣٢ أن يتوغلوا في كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ويتدخلوا في معيشة كل فرد من أفراد المجتمع الألماني وينقسم تنظيم الحزب الوطني الاشتراكي قسمين رئيسيين : يعرف أولهما باسم « هيئات الخدمة » (Dienstordnungen) - ومن هذه الهيئات نظام الشبيبة الهتلرية ، وخدمة العمل والخدمة العسكرية ، والخدمة المدنية ، والممن الحرة ، أو وظائف الأعمال الكبرى . وبفضل الالتحاق بأحدى هذه الهيئات يتسنى لإعداد الفرد وتجهيزه لأن يشغل إحدى الوظائف أو يمارس عملاً من الأعمال من أجل خدمة الدولة ، على شريطة أن يحدث هذا الإعداد تحت إشراف النازيين ووفق أساليبهم ، حتى إذا كملت تربيته ، صار انتخابه كموطن صالح لخدمة الريخ من بين أعضاء هذه الهيئات المختلفة التي يتكون من مجموعها في الحقيقة هيكل الدولة الاقتصادية والاجتماعي في ألمانيا النازية .

أما القسم الثاني ، فيتألف من اندماج هذه الهيئات نظرياً وعملياً فيما يعرف باسم المصالح أو الدوائر (Staende) . ومن مجموعها يتألف ما يعرف عادة بالنظام الوطني الاقتصادي . ومن هذه المصالح أو الدوائر مصلحة أو دائرة الزراعة ، ودائرة الصناعة والتجارة ، ودائرة الحرف (والممن اليدوية) ، وجبهة العمل ، ودائرة الثقافة . وهذه الدائرة الأخيرة تخرج في الحقيقة عن محيط الحياة الاقتصادية . وقد أنشئت جميع هذه الدوائر بمقتضى قرارات ومراسيم صدرت في عامي ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ، ثم أتيحت لها الفرصة حتى تثبت أركانها في خلال الأعوام السابقة على إعلان الحرب العالمية الثانية ، وهكذا عندما نشبت الحرب ورغب النازيون في تعبئة مرافق الدولة في خدمة الحرب ، أصبح من السهل عليهم أن يدمجوا هذه الدوائر جميعها في (المجلس العام لاقتصاد الحرب) الذي أنشأوه في يناير ١٩٤٠ ووضعوه تحت رئاسة (جورج) .

ولهذا القسم الثاني في التنظيم النازي أهمية كبيرة لأن (الدوائر) Staende كما أعلن النازيون أنفسهم إنما تمثل الكيفية التي تجري بها إدارة المصالح المختلفة في الاقتصاد القومي على أساس المبادئ والنماذج النازية الرئيسية الصحيحة . ومن المعروف أن الوطنية الاشتراكية تعتبر أن (المجتمع الانتاجي) إنما يقوم على دعائم ثلاث أولاهما : (العمل) ، والعمل قيمة اجتماعية عظمى في هذا النظام الوطني الاشتراكي ، وتسمين (جبهة العمل) على كل ما يتصل به من شئون وثانيهما (الأرض) أو التربة التي ينشأ عليها الزراع . وترتبط بها حياتهم ومصالحهم .

وتشرف (دائرة الزراعة) على هذا كله ؛ وثالثها (الانتاج) أى إنتاج السلع التى لابد من استخدام رؤوس الأموال فى صنعها ، وتشرف عليه (دائرة الصناعة والتجارة) . والواقع أن الروابط التى تربط بين هذه الدعامات الثلاث ، وما ينجم عن تأثير كل منها فى الأخرى ، تحت إشراف الدولة ، هو ما يطلق عليه النازيون إسم (الاشتراكية الوطنية) ، على شريطة أن يتحرر (رأس المال) من خاصية العمل دائماً على الزيادة والنمو بطريق الربح والامتلاك والاستثمار . وقد أفاد النازيون من هذا التنظيم الحزبي الدقيق إذ أنه جعل فى مقدورهم ، بعد أن دانت لهم السلطة ، أن ينظموا الاقتصاد القومى فى ألمانيا على نحو يحقق مآربهم من السيطرة التى ظفروا بها ، فاجتاز الاقتصاد النازى فى نموه ثلاث مراحل : الأولى مرحلة الكشفاح ضد التعطل من العمل ، وقد عرف الهم هتلر نفسه هذه المرحلة إذ قال فى ٣ فبراير ١٩٣٣ ما معناه : سوف تقوم الحكومة الوطنية بوضع حل للمشكلة الكبرى ، مشكلة إعادة تنظيم الاقتصاد الشعبى وفق برنامجين يستغرق العمل بكل منهما أربعة أعوام ، هما تحرير الفلاح الألماني حتى يتمكن من الاحتفاظ بالأسس التى تكفل إمدادنا بمورد لا ينقطع من الطعام والأغذية ، تلك الأسس التى تستند إليها حياتنا ، وتحرير العامل الألماني بأعداد هائلة عظيم واسع النطاق على مسألة التعطل من العمل . ولذلك فإنه فى خلال الأعوام الأربعة المقبلة ينبغي أن يتم تحقيق انتاج الفلاح الألماني من حيرته وكربه ، كما ينبغي فى بحر هذه المدة نفسها أن يتم القضاء على التعطل عن العمل قضاء مبرماً .

أما المرحلة الثانية فقد خصصت للعودة إلى التسليح من جديد ، وتحقيق مبدأ (الاكتفاء الذاتى) فى الريخ الألماني . وقد أعلن الهم هتلر أيضاً عن بدء هذه المرحلة حين قال فى ٩ سبتمبر ١٩٣٦ ما معناه : واليوم أعلن البرنامج الجديد للسفنرات الأربع وهو على الوجه التالى : ينبغي فى خلال أربعة أعوام من تاريخ هذا اليوم أن تصبح ألمانيا مستقلة عن الأجانب فى كل ما يلزمها من مواد لابد أن تمد بها العبقرية الجرمانية صناعتنا الكيميائية والصناعة المخصصة لإنتاج الآلات وكذلك صناعة التعدين . وسوف يكون من شأن إقامة هذه الصناعات الجرمانية العظيمة ، استخدام سواد الشعب بعد أن يتم تسليحه من جديد ، بطرائق تكفل خدمة الاقتصاد القومى على خير وجه . .

أما آخر المراحل فكانت تعبئة الاقتصاد القومى من أجل المضى فى الحرب وكسبها . وقد بدأ تحول الاقتصاد النازى إلى اقتصاد حربي قبل نشوب الحرب بمدة ، عند ما قسم النازيون البلاد إلى ثمان عشرة منطقة دفاعية (Wehr kreise) بدعوى ضرورة الإشراف على جميع الشؤون الاقتصادية ، والتأكد من أن القرارات التى تتخذ فى هذه الشؤون موحدة لاتضارب

بينها ، وقد تبسح هذا التقسيم تعطيل أداة الحكم الذاتي في جميع هذه المناطق ، ومن الممكن القول بأن (الاقتصاد الحربي) ظهر إلى الوجود في شكاه النهائي في يناير ، ١٩٤٠ عندما أنشئ (المجلس العام لاقتصاد الحرب) الذي مر ذكره .

* * *

ومما يدل على دقة التنظيم الحربي ، تلك الشسدة التي اصطلحها المتطربون في القضاء على العناصر التي بدأت تظهر شيئاً من المخالفة أو المعارضة في داخل الصفوف النازية ذاتها ، إذ كان ظهور الاختلاف في الرأي والانقسام بين النازيين عقب امتتباب الأمر لهم في الحكومة أمراً لا مندوحة عنه لا سيما وأن أدولف هتلر الذي دعا إلى الثورة وبذل الوجود الشخصي من أجل إرضاء الشعب الألماني ، لم ينفذ شيئاً مما دعا إليه ووعده به خلال الشهور التي تلت باوغه منصب المستشارية ، الأمر الذي أثار التذمر ضده وضد حكمته في طول البلاد وعرضها . فالطبقة العمالية كانت عاتزال تروح تحت ضغط شديد ، ثم صارت في العهد الجديد ، في حال أشجع بحال الرقيق ، يعيش أفرادها في ظل إرهاب دائم ولا يستطيعون التفكير في أية مقاومة . ومثل الطبقة العمالية في ذلك سواد الشعب الألماني . ولكن عنصراً له خطره كان يهدد بأضعاف الحركة النازية لو ترك وشأنه وسبح له بالفر حتى يستفحل أمره ، هذا العنصر هو جماعة الراديكاليين النازيين الذين لم يستطيعوا الموافقة على سياسة الحر هتلر الرجعية . وكانوا يعدون الزعيم بمثابة الأداة التي يحركها (كروب) وأمثاله من كبار رجال الصناعة وأصحاب رؤوس الأموال المؤيدين للنازية ، كما يحركها الجيش النظامي (الريششر) وكانوا يعتقدون أن من حقهم أن يستمع الزعيم لأرائهم لا لآراء القواد الرجعيين . كما ركز في أذهانهم ، بعد التمكن في معنى المبادئ التي تضمنها البرنامج النازي القديم (١٩٢٠) ، أن شيئاً من هذه المبادئ لم يتحقق ، وأن الوطنية الاشتراكية لم يكن نصيبها سوى الضرر والخيانة وكان من بين الوطنيين الاشتراكيين الذين انجموا صوب الاشتراكية النضحية . مجتهدين التعاون مع الاشتراكيين الخالص رجال مثل (ليبارت) وصحبه كما كان من بينهم (جريجور ستراسر) Gregor Strasser وكان هذا السكياتي البافاري ممن قام على أكتافهم جمع شتات الحزب النازي وتنظيمه عقب حركة الانقلاب المشهورة التي فشلت والتي حوكم بسببها الحر هتلر وأودع في قلعة (لندسبرج) أي في الفترة الواقعة بين عام ١٩٢٣ ، عام ١٩٢٦ . وقد طلب إليه الراديكاليون النازيون أن يتزعم حركتهم . وكان الزعماء النازيون أنفسهم في تلك الآونة في نضال مستمر فيما بينهم من أجل الحصول على السلطة في داخل الحزب والدولة ، (فغورنج) ينازع (هيملر) السيطرة على قوة الجيستابو و (جوبلز) يخشى (جورنج) ، و (هيملر) لا يثق بالكاتبين (روم)

صاحب السمعة السيئة ، و (روم) نفسه يساوره الشك من ناحية (جورنج) ، و (جورنج) يحترق (جوباز) وهكذا ، واملأ أخطر مشا كل تلك الآونة أن الجيش النظامي (الريشهر) كان لا يرضى عن وجود (جند الهجوم) النازيين (Sturm Abteilung (S. A) ، وقد اتخذت تشكيلاتهم صبغة رسمية منذ أصبح الفوهرر مستشار الريخ الألماني ، هذا بينما كان جنود الهجوم أنفسهم لا يشقون (بجند الحرس) (Schutz Staffel (SS) الذين اختارهم الهتلر خصيصا من طلائف أرقى حتى يكونوا حرسا له (منذ ١٩٣٨) .

أما أدواف هتلر ، فقد أزعجته هذه الفوضى المنتشرة في صفوف حزبه ومؤيديه ، وزادت حيرته عندما تدفقت عليه الآراء والنصائح من كل جانب فيما ينبغي عليه فعله حتى يقضى على الانقسام الداخلي ؛ وكان (الريشهر) في مقدمة المطالبين بضرورة القضاء على هذه الفوضى وفي ١٧ يونيو ١٩٣٤ خطب (فون هاين) في (ماربورج) متحدثا باسم كبار الصناع والرأسماليين وأصحاب الأراضي الواسعة (اليونسكر) لحمل بشدة على أولئك النظريين المتعصبين الذين أحدثوا الفوضى وأرادوا أن تبقى ألمانيا متردية في أحضان الاضطراب والثورة ، وحدث قبل ذلك يومين . في ١٤ ، ١٥ يونيو أن نصيح السنيور موسوليني الهتلر عند اجتماعهما في البندقية ، بأن يقبض على أزمة الأمور بيد من حديد . ويسلك في سياسته الداخلية والخارجية طريقا لا يعرف الموادة أو الشفقة . لذلك لم يأت يوم ٢٠ يونيو سنة ١٩٣٤ حتى كانت اليونسكر ، وكبار الصناع والممولين ، والريشهر ، والنازيون الرجعيون قد انتهوا فيما بينهم من تأليف جبهة متحدة على استعداد تام ومهاجمة العناصر المعارضة في داخل الحزب النازي نفسه وما هي إلا عشرة أيام حتى قامت حركة التطهير الأولى بين النازيين في حادث (حمام الدم) المشهور في ٣٠ يونيو ١٩٣٤ .

ذلك بأن النازيين كانوا معتمدين في دعم ساطنتهم في العام الأول من حكمهم على جند الهجوم S.A. أصحاب الأردية السراء ، وكان عددهم يبلغ المليونين أو الثلاثة ملايين . وقد قام جنود الهجوم بما كلفوا به على خير وجه حتى غصت السجون ومعسكرات الاعتقال بأعداء النازيين والمشتبه في ولائهم ومن إليهم واستمر هذا الارهاب عاما كاملا . ولكن سرعان ما تبين بعد هذا النجاح أنه لم يصبج لدى جنود الهجوم واجبات معينة يكفون بأدائها هذا إلى أن الهتلر كان يجد قوة كبيرة أخرى يستند إليها في جماعة جند الحرس (SS) وفي قوة الجستابو ذات الخطر كما أصبح في استطاعة (الفوهرر) أن يعتمد الاعتماد كله على تأييد (الريشهر) بنوع خاص لأن وزير الحربية الجنرال فون بلومبرج Blomberg كان

من كبار المعجيين به . فاتفق لذلك كل سبب يدعو إلى بقاء جنود الهجوم وأصبح من الضروري تسريح هذه القوة ، ولكن هذا لم يرق في عين رئيس جنود الهجوم ، السكاين (إرنست روم) Roehm لذلك تقدم إلى مجلس الوزراء باقتراح يقضى بادماج جنود الهجوم في الجيش النظامي (الريشمر) لتأليف جيش وطني ألماني كبير برئاسة ، فمارض هذا الرأي كل من (فون بلومبرج) وزير الحربية ، (فون فريتش) القائد العام ، بدعوى أن هذا الإدماج من شأنه القضاء قضاء مبرما على الجيش النظامي . فالتخذ (روم) من هذه الدعوى وسيلة لهاجمة القواد الذين أيدهم جميع الوزراء الرجعيين أمثال جوردنج وهيملر (رئيس جنود الحرس SS) وكبار الصناع والممولين واليونكر ثم طلب هؤلاء جميعا إلى هتلر أن يسرح جنود الهجوم .

ولما كان النظام النازي بعد أن مضى عليه عام بطوله لم يفلح في تخفيف وطأة الأزمة الاقتصادية ، بل كان من نتائج السياسة التي انتهجها الريخ في هذا العهد إقامة الحواجز الجمركية والتقليل من استيراد المواد الغذائية بكل وسيلة حتى يتسنى للدولة جلب المواد الضرورية لصنع الأسلحة وما إليها ، فقد ساء عيش الشعب الألماني ، كما حدث لأول مرة منذ سنوات عدة عجز في ميزان ألمانيا التجاري ، وتوترت من جراء ذلك كله الأعصاب ، وكثر التذمر والاحتجاج في كل مناسبة ومن كل جانب . وساء هتلر أن يشهد في الوقت نفسه انقساماً في صفوف حزبه وكانت ريخ هذا الانقسام تهب من ناحيتين ناحية (روم) وأنصاره من جنود الهجوم وكانوا في الحقيقة شرارهم مجندة من عامة الشعب والسوقة ، وعنصر اضطراب وفوضى ، لا يعرفون قانوناً ، ولا يردعهم رداغ ، وناحية الراديكاليين من أنصار (جوردنج ستراسر) وقد سبق الحديث عنهم . إزاء ذلك قرر (الفوهرر) أن يظهر الحزب من كل هؤلاء بضربة قاصمة مروعة تشر الذعر والهلع في قلوب النازيين جميعاً ، وتجعلهم يتذوقون طعم الارهاب الذي طالما أذاقوه غيرهم .

لذلك أجب هتلر طالب (الريشمر) . ووقع اختياره على اليوم الأول من شهر يوليو تاريخاً للبدء في فض تشكيلات جنود الهجوم — في مدى شهرين لحسب ! على ألا يصرح لهؤلاء الجند في أثناء هذه المدة بارتداء قمصانهم السمراء وقد أثار هذا القرار موجة من الاستياء عظيمة في صفوف هذه القوة التي كانت تعتبر (الفوهرر) مديناً لها بكل نجاح أحرزه منذ بدىء في تكوين الحزب . ومع هذا فلم يكن هناك ما يدل على أن (روم) نفسه أو غيره من قواد الهجوم الآخرين يعترضون معارضة هذا القرار أو مقاومة الهتلر . ولكن موجة التذمر كانت من الشدة بحيث أفضت مضاجع زعماء (الريشمر) فخرج الجيش النظامي يستعد

لمواجهة نضال مرير توقع حدوثه قريباً مع جنود الهجوم . ويبدو أنه كان لابد من حدوث انقسام داخلي كبير أو حرب أهلية مروعة تقضي إلى تدهور الحزب النازي وفنائه في النهاية إذا ترك (جنود الهجوم) وشأنهم . لذلك رأى هتلر أن الساعة قد أوفت للقيام بعمل حاسم . عندئذ أصدر القوهرر أوامره المشددة إلى كل من جورنج وهيملر ، بشأن ما يجب عليهما القيام به في برلين ، وفي مساء ٢٩ يونيه استقل طائرة مع (جورنجر) إلى ألمانيا الجنوبية ، فبلغ ميونيخ في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي (٣٠ يونيه) . وكان هتلر في المساء السابق قد طلب إلى (واجنر) Wagner حاكم ميونيخ ليفرض أن تتخذ التدابير السكيفية بالقضاء على زعماء جند الهجوم ، وصدع الحاكم بأمره ، ولقى كثيرون من هؤلاء حتفهم . واستطاع هتلر عقب وصوله إلى ميونيخ أن يقف من (واجنر) على نتيجة هذا التطهير الأول . ثم استقل سيارة مع فريق من حرسه الخاص إلى ضاحية (فايس) Weisse على مسافة عشرين ميلاً من ميونيخ ، حيث كان يقم (إرنست روم) وغيره من زعماء (الهجوم) يقضون عطلتهم ويستعدون في الوقت ذاته لحضور اجتماع كان من المزمع عقده في اليوم التالي بحضور (القوهرر) نفسه . وفي الساعة السادسة صباحاً بلغ هتلر وجماعته المكان الذي كان فيه (روم) فأبطلوه من نومه وقبضوا عليه بحضور هتلر ، ثم اقتعدوا في جناح آخر غرفة أخرى كان يقم بها (أدولف هاينس) Heines مع رفيق له ، هو سائق سيارته . وقد وجدا معاً في فراش واحد ، فأطلق المقتحمون عليهما الرصاص . وفي ميونيخ نفسها استوفى (رولف هيس) Hess على البيت الأسمر ، مقر النازيين في هذه المدينة ، ووضع به حراساً من جند الحرس S.S. كما ألقى القبض في ذلك اليوم على عدد آخر من زعماء جند الهجوم في ميونيخ وفي (فايس) . أما (روم) فقد ألقى في السجن وأعطى مسدساً يفتح به ، وسككته رفض مصحفاً على أن يكون موته على يده هتلر نفسه ، وعندئذ أطلق عليه جند الحرس الرصاص وقتلوه في عصر اليوم التالي (أول يوليه ١٩٣٤)

وأما بقية فصول هذه المأساة ، فقد تولى كل من جورنج وهيملر تمثيلها في برلين العاصمة . إذ انتهر الرجلان هذه الفرصة لاغتيال أعدائهما القداماء وكل من رغبا في التخلص منه لسبب شخصي ، وعلى هذا قتل جند الحرس عدداً كبيراً من زعماء الكاثوليك والقواد والوزراء السابقين ورجال الأكليروس وغيرهم . كما قبض الجستابو في يوم ٣٠ يونيه على (كارل إرنست) من زعماء جند الهجوم ومن أقرب المقربين إلى (روم) ، وكان (كارل إرنست) في برلين في طريقه إلى (الآزورا) لفضية شهر العسل مع عروسه ، فخلوه بالطائرة إلى برلين وأعدموه رمياً بالرصاص . وبما هو جدير بالذكر أن هؤلاء جميعاً لقوا حتفهم وهم

ينادون ، يحمي هتلر ، مما يدل على أنهم ما كانوا فقط يتوقعون الضر من جانبه ، وما يدحض مفتريات الفوهرر حين ادعى فيما بعد أن جميع هؤلاء كانوا يدبرون ثورة داخلية حددوا لاشغالها اليوم نفسه الذي أوقع فيه الفوهرر هذه المجزرة الدموية بهم . وكان من بين ضحايا هذا التطهير الدموي ، رئيس حكومة بشاريا القديم (جوستاف فون كار) Kahr الذي كان من بين المتسببين في إخفاق حركة الانقلاب ، التي قام بها الهتلريون في ميونخ في ٩ نوفمبر ١٩٢٣ . فرغم سنه المتقدمة (٦٣ عاماً) أرسله النازيون إلى معسكر الاعتقال في (داشو) Dachau حيث لقي حتفه بعد تعذيب ألیم ، وكذلك لقي (جريجور ستراسر) مصرعه في منزله . كما قتل الأب ستامپفل Stampfle وهو القسيس الذي ساعد الهر هتلر في تدوين كتابه (كفاحي) ، والجنرال فون شلينجر ، قتله الجيستابو الذين هاجموا في منزله كما قتلوا زوجته التي أرادت حمايته . وكان عدد الذين أعدموا في (حمام الدم) المشنوم يزيد على الألف وهكذا قضى الهر هتلر على جنود الهجوم وحل تنظيماتهم .

o o o

وكان من عوامل نجاح الهر هتلر في التغلب على جنود الهجوم ونشر الرعب والإرهاب في ألمانيا وبخاصة في أثناء أزمة حمام الدم السابقة أنه استطاع منذ وصوله إلى منصب المستشارية لإعداد ، بوليس الدولة السري الألماني ، المعروف باسم الجيستابو Gestapo — مختصر Geheime Staatspolizei — على أن تكون مهمته القضاء على جميع المعارضين لشخص الفوهرر والنظام الديكتاتورية النازية .

وكان تأسيس الجيستابو على يد هرمان جورنج في أبريل ١٩٣٣ ، على أن يكون نشاط رجاله مقصوراً على بروسيا وحدها ، وكان جورنج في ذلك الحين يتولى رئاسة الوزارة بها إلى جانب وظائفه الأخرى المتنوعة ، هذا بينما كلفت قوات البوليس السياسي في ولايات ، الاتحاد الألماني الأخرى بتأدية أعمال وواجبات البوليس الوطني الاشتراكي السري . بيد أن المدة التي ظل الجيستابو في أنتمائها مخصصاً للعمل في بروسيا كانت قصيرة . وقد أصدر النازيون عدة قوانين لتنظيم شئون التوظيف في الاتحاد الألماني أقصى بمقتضاها غير الآريين والمعروفون بعداتهم أو معارضتهم للنازية وجميع المشتبه في أمرهم من الوظائف التي يشغلونها ، كما أوجدت هذه القوانين نوعاً من التنسيق الدقيق بين المؤسسات العامة والخاصة مطابفاً لما تدعو إليه تعاليم الوطنية الاشتراكية والفلسفة النازية . ثم عين بمقتضى أحد هذه القوانين ويسمى قانون الوصاية Statthaltergesetz حکام أو (أوصياء) Reichsstatthalter يتراوح عددهم بين اثني عشر وأربعة عشر حاكماً مسؤولين أمام الزعيم أدولف هتلر نفسه .

وقد ضمن وجودهم في الحكومات الإقليمية ، أي حكومات ولايات الاتحاد ، استخدام الشرطة لمصلحة النازيين . وبما ينبغي ذكره أن هؤلاء الحكام ، أو الأوصياء ، كانوا غير القادة أو الزعماء الذين كان الحزب النازي نفسه يختارهم للإشراف على نشاط الحزب وإدارته في (المناطق الحزبية) التي أوجدها الهتلريون في ألمانيا ويسمى هؤلاء « زعماء الأقاليم » (Gauleiter)

ومع وجود هذه التنظيمات أدرك النازيون أهمية تعزيز السلطة المركزية الداخلية ، فانتزوا فرصة مرور عام على وصول أدولف هتلر إلى منصب المستشارية وأنشأوا نظاما جديدا في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٤ ، وضع (البوليس) بمقتضاه تحت إشراف الريخ ، وجعل الإشراف على إدارته من نصيب ولايات الاتحاد الألماني ، وهي التي أصبحت منذ صدور (قانون الوصاية) السابق عبارة عن مقاطعات إدارية ليس غير . ثم ظل (بوليس) الريخ الألماني الجديد مفتقرا إلى زعيم مستقل بالهيئة على شئونه ، خير وزير الريخ للشئون الداخلية الذي بعد بحكم منصبه مسئولا عن هذه القوة ، حتى عين (هنريك هيملر) في أبريل ١٩٣٤ رئيساً لأهم فروع هذا البوليس ، وهو الجستابو . وكان هيملر ممن اشتركوا في تنظيم (جنود الحرس) S.S. ، ثم عين زعيماً لهم في عام ١٩٢٩ ، كما أنه كان من كبار النازيين الذين قاموا بتنظيم المخابرات السرية في داخل ألمانيا وفي البلدان الأجنبية ، ثم لم يلبث أن عهد إليه بسبب هذه الخبرة الواسعة برئاسة البوليس السياسي في نوفمبر ١٩٣٣ أولا في همبرج ثم في ميكلنبرج ولوبك ، وثورينجيا ، وهيس ، وبادن ، وسكسونيا ، ثم عينه (جورنج) رئيساً للبوليس السري في حكومة بروسيا ، وهكذا بعد مضي أقل من ثلاثة شهور على وضع « البوليس » تحت إشراف الريخ ، عين هنريك هيملر رئيساً « للبوليس السري » في دولة الريخ قاطبة . وفي أثناء حوادث (حمام الدم) المعروفة ، كان هيملر رئيس قوة الجستابو الرهيبة .

وظل الجستابو يعمل دون أن يحدد القانون وظائف رجاله ؛ بل كان كل ما حدث في هذه الناحية ، أن صدرت قرارات أو مراسيم بالموافقة على إجراءات ما يعرف باسم (الحبس الوقائي) في ٢٨ فبراير ١٩٣٣ و ٨ مارس ١٩٣٤ ، كما قررت محكمة الإدارة البروسانية في ٢ مايو ١٩٣٥ أن « البوليس السري » لا يخضع للرقابة القضائية ، ثم لم يلبث أن تأيد هذا الحكم بصدور قانون بروسيا في ١٠ فبراير ١٩٣٦ ، جاء فيه « أن أوامر وأعمال البوليس السري لا تدخل تحت إشراف المحاكم الإدارية ، أو في دائرة بحثها » . وهكذا ظلت جميع الشئون المتعلقة بنشاط الجستابو لا يوضح معالمها أو يبين حدودها قانون في دولة الريخ الثالث . بل إن كل ما صدر في هذا الموضوع كان لا يخرج عن تحديد مركز هيملر إزاء

وزير داخلية الرينج من حيث مسؤولية رئيس الجستابو أمامه ، وتعيينه نائباً له في حالة غياب الوزير . وزيادة على ذلك ، أعطى هيلمير مقعداً في مجلس الوزارة كلما اجتمع الوزراء لبحث المسائل المتعلقة بأعمال « البوليس » .

والعل أهم ما يلاحظ في ذلك كله ، أن الجستابو كان مستقلاً كل الاستقلال عن الرقابة القضائية . وقد تقدم كيف قضت المحكمة الإدارية البروسيانة في ٢ مايو ١٩٣٥ بعدم خضوع البوليس السرى لهذه الرقابة . وجاء في هذا الحكم أيضاً أن أى أمر يصدره الجستابو بسجن الأفراد في (الحبس الوقائى) لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون موضع معارضة في المحاكم القانونية . ثم تأيد هذا الحكم في الفترة التالية ، عندما صدرت أحكام أخرى بهذا المعنى أيضاً في عام ١٩٣٦ . وفي نفس العام صدر قانون مشهور وضع أعمال الجستابو ومدى نشاطه ، فجاء في هذا القانون ما معناه : « أن من واجب بوليس الدولة السرى أن يكشف أمر جميع القوى المتضامنة التى يعتبر وجودها خطراً على الدولة وأن يقاومها . ومن واجبه كذلك أن يجمع ويصدر النتائج التى يسفر عنها هذا البحث . على أن يحظر الحكومة بهذه النتائج ، وأن يضع تحت تصرفها كل ما يجمعه من أدلة وبراهين . ثم يفصل رئيس بوليس الدولة السرى بالاتفاق مع وزير الداخلية في المسائل التى ينبغى أن تكون العناية بها من نصيب بوليس الدولة السرى ، وعلى أن يجرى الفصل في كل مسألة على حدة » .

ومسائل الجستابو في أعماله ثلاث : الإنذار أو التحذير ، والحبس الوقائى ، والإرسال إلى معسكرات الاعتقال . وقد جرت العادة عند الرغبة في التحذير ، أن يستدعى الشخص المراد إنذاره إلى أقرب مركز للبوليس السرى ، ويتلو الجستابو عليه بعض الحقائق المتعلقة بحياته الخاصة ، وما يكون قد تفوه به من أقوال لا يرضى الجستابو عنها ، ثم يحذره من العودة إلى ذلك وإلا أرسل إلى معسكر للاعتقال . أما مسألة (الحبس الوقائى) — فهى بحاجة إلى شيء من البيان والتفسير . والأصل في الحبس الوقائى أنه كان مخصصاً لوقاية الأفراد الذين لم يرتكبوا جرمًا معيناً ، وإنما توصلوا بسبب مسلكهم إلى إثارة كراهية الجماهير ضدهم إلى حد يخشى منه أن يلاحق بهم مكروه على أيدي الجماهير لو أنهم تركوا وشأنهم ، فلا يجد الشرطة مناصاً في هذه الحالة من حجزهم في مركز « البوليس » لوقايتهم من سخط الجماهير عليهم . غير أنه عندما وصل الوطنيون الاشتراكيون إلى الحكم قبض رجال الشرطة على عدد عظيم من الأفراد وأودعهم الحبس الوقائى من غير ضرورة تدعو إلى ذلك ، ومن غير أن تتحقق الشروط المتقدمة في أحوال المقبوض عليهم . وعلى هذا خرج الحبس الوقائى عن كونه إجراء تقتضيه حماية الأفراد من بطش الجماهير ، إلى

لإجراء صار الغرض منه بجرء ، حماية ، الدولة من نشاط أفراد اعتبرهم النازيون أعداء لهم . أما معسكرات الاعتقال فكانت أشد الوسائل خطراً ، وكثيراً ما لجأ إليها الجيستابو للقضاء على أعداء النظام النازي في ألمانيا . ومع أنه كان من المعتذر وقتئذ معرفة عدد هذه المعسكرات بالدقة ، فقد اكتسبت بعضها شهرة سيئة كبيرة حتى أصبحت أما كتبها معروفة . ومن بينها معسكر الاعتقال في (أرنهبرج) Oranienburg ثم في (بوشنفلد) Buchenwald و (داشو) Dachau و (ساشسهاوسن) Sachsenhausen وغيرها . وكان من بين هذه المعسكرات ما هو مخصص لاعتقال النساء .

ومع أن نظام الجيستابو كان من الأسرار التي حرص النازيون على عدم إفشائها بحيث لم يكن يعرف دخائله سوى عدد قليل من كبار الزعماء النازيين أنفسهم ، فقد استطاع أنصار المقاومة الخفية في أوروبا النازية الوقوف على حقيقة هذا النظام الذي كان من نتائجه انتشار وكلاء الجيستابو للتجسس على حياة الأفراد الخاصة والعامة في كل ركن وزاوية .

وكانت قوة الجيستابو موزعة على دوائر (Kreise) ثلاث : الدائرة الأولى Kreis I كان مقرها شارع البرنس إلبرت في برلين ؛ وكانت فروعها منتشرة في أرجاء ألمانيا ، وهي الهيئة التنفيذية لقوة البوليس الممرى المخصصة للتجسس على الشؤون الداخلية ، وكان رجالها يلبثون في كل قرية ، ويشرفون على أعمال البوليس العادي — أي رجال الأمن المحلي . كما كان من اختصاص هذه الدائرة المهمة على معسكرات الاعتقال .

أما الدائرة الثانية Kreis II فكان مقرها في ميدان اسكندر ، وكانت تختص بالإشراف على أعمال ونشاط الدائرة الأولى ، وتولى « مراقبة » البريد والتليفون والبرق وينتشر رجالها على حدود الريخ ، وفي مكاتب السياحة والسفر ، وفي المطارات المدنية ، والفنادق الكبيرة . وزيادة على ذلك كانت هذه الدائرة تتولى الإشراف على جميع الوكلاء وأعضاء الهيئات النازية في الخارج ، كما تقوم بتوجيه نشاطهم ، فكان يذهب في كل ثلاثة شهور مفتشون يمثلون هذه الدائرة لزيارة المراكز الفرعية الموزعة في أنحاء العالم ، وكان (الجيستابو الأجنبي) منفصلاً كل الانفصال عن البعث والهيئات الدبلوماسية العادية . ولو أن كل سفارة أو مفوضية أو قنصلية في البلدان الأجنبية لم تكن تخلو من وجود رجل من الجيستابو يعمل ضمن موظفيها . وفي الدائرة الثالثة Kreis III كانت تتركز سلطة الإشراف التام على نشاط الجيستابو في الدائرتين السابقتين ، وكانت هذه السلطة في أيدي جماعة من ذوي الشخصيات المجهولة . ومن المعتقد أنهم كانوا يتلقون تعليماتهم من مكتب هنريك هيملر نفسه . وهو مقر جنود الحرس S.S. المخصصين لحراسة مستشار الريخ — ورئيس الدولة — بعد أن توفي هيندنبرج في ٢

أغسطس ١٩٣٤ — وكانت مهمة أعضاء الدائرة الثالثة إلى جانب الإشراف على أعمال الدائرتين الأولى والثانية ملاحظة سلوك موظفي الحكومة قاطبة بما في ذلك المبعوثين السياسيين والعسكريين في الخارج ، ومراقبة نشاط الهيئات الدبلوماسية والقنصلية في البلدان الأجنبية . وإلى جانب هذه الدوائر ، كانت هناك دائرة رابعة Kreis IV تعمل على توجيه نشاط وكلاء الطابور الخامس في أنحاء العالم ، على أن تتعاون في ذلك مع قسم الجاسوسية العسكرية برئاسة الكولونيل نيكولاى (Nicolai) وكان من ذوي السمعة السيئة .

البُصْرَةُ السَّابِعَةُ

ألمانيا النازية

سيطر النازيون بفضل تنظيماتهم الحزبية على الحياة الألمانية سيطرة كاملة ، وكان غرضهم من هذه السيطرة أن يؤلفوا من الرينخ تلك الكتلة الصلدة المتناسكة التي اعتبروا وجودها ضروريا من أجل إحراز السيطرة على القارة الأوروبية ثم على بقية العالم في النهاية ولا ريب في أن النازيين نجحوا في فرض سلطانهم على ألمانيا . ولو أنه من المشكوك فيه — أنهم نجحوا في تأليف تلك الكتلة الصلدة المتناسكة التي كانوا يحلمون بها . وقد أفضى العمل على فرض سلطانهم على الرينخ إلى التدخل في حياة الأفراد ، رجاء أن يتمكنوا من توجيه الحياة العامة في ألمانيا حتى تسير في طريق واحد وعلى أسلوب واحد ثم يقضون في أثناء ذلك على كل معارضة أو تدمير ويسعون لخلق الفرد الألماني الذي يبعثون خلقه من جديد وفق الطراز النازي الصميم ، أي الفرد الذي لا يستطيع أن يتذوق طعم السعادة الحقيقية الخالصة إلا بالاندماج أو الفناء في شخص الدولة التي يهيمن الزعيم على شئونها ومصيرها .

ولما كان إحكام هذه السيطرة الداخلية من أول الأسس التي أراد النازيون أن يشيّدوا عليها صرح السلطة في داخل ألمانيا وخارجها ، فقد وضعوا نصب أعينهم منذ أن خلص الحكم لهم التدخل في حياة الفرد والأسرة . ومر هذا التدخل في مراحل معينة ، فنشط النازيون في أول الأمر يبعثون فرض رقابتهم الدقيقة على حياة أعضاء الحزب النازي الخاصة حتى ينشئوا أعضاء الحزب تنشئة نازية خالصة صحيحة ، ويقصوا من صفوف الحزب كل المشتبه في ولائهم لتعاليم النازية ولشخص الزعيم . لذلك لم يكبد النازيون يطمثون إلى خلوص الحزب من كل شائبه حتى طفقوا يتدخلون في حياة بقية المواطنين ومنذ بداية شهر مايو عام ١٩٣٦ اتسعت سلطة الزعماء السياسيين حتى شملت كل مواطني دولة الرينخ . وكانت فترة هذه المرحلة طويلة — وهي مرحلة بدأت في الحقيقة منذ وصول النازيين إلى الحكم في عام ١٩٣٣ ، وامتدت إلى وقت نشوب الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ . وفي أثناءها بذل النازيون كل جهودهم حتى يعمموا المبادئ والتعاليم النازية ويطبقونها في مناحي الحياة جميعها من خاصة وعامة ، ثم صاروا يعملون على تنظيم المجتمع الألماني وفق « توجيه موحد » ، كاف الغرض المقصود منه أن يصبح الرينخ الثالث مستعداً لخوض غمار الحرب في النهاية من أجل بسط السيطرة الألمانية على أوروبا ثم على العالم أجمع .

بيد أن اشتغال الحرب لم يلبث أن أفضى إلى زيادة توغل النازيين وتدخلهم في حياة الأفراد الخاصة ، حتى يشتد إحكام التوجيه الموحد ، ويقوى الانتاج الحربى إلى الدرجة المطلوبة من جهة ، وحتى يمتنع على الأهاليين أى سبيل للتدمير أو المعارضة الداخلية من جهة أخرى ، ولذلك فقد ساءت حياة الفرد العادى فى أثناء هذه المرحلة إلى حد كبير وسرعان ما اشتد طغيان النازيين ، وبخاصة منذ بدأت حربهم مع روسيا (فى يونيه ١٩٤١) ، حتى تحطمت حياة الفرد الخاصة تحطيا ، وعبأت الدولة السكول والنساء فى خدمة الحرب وتذوق الألمان طعم الهزيمة فى الميادين الروسية ، ثم أصابهم الدمار فى بلادهم عندما أخذت أسراب الطائرات البريطانية والأمريكية تلقى على مدنها الصناعية الكبيرة أطنان القذائف المحرقة والمدمرة دون رفق أو شفقة . وفى هذا الدور الأخير كان قد بلغ السيل الزبى وعجز الأفراد عن أن يتحملوا أكثر مما أرغموا على تحمله من تضحية بالغة طوال السنين الماضية ، واضطر النازيون اضطرارا إزاء ذلك كله إلى الاعتراف بوجود ما أطلقوا عليه هم أنفسهم اسم « الجبهة الداخلية » أى الجبهة التى كان عمادها سواد الشعب الألمانى المتدمر من ثقل التضحيات التى تحملها على غير طائل .

ومنشأ سيطرة النازيين على حياة الأفراد الخاصة والعامة فى ألمانيا أن زعماءهم وقادتهم كانوا يعتبرون أن من واجهم الإشراف على نشاط الأفراد وتوجيه هذا النشاط الوجهة التى يريدونها ، لأن الأفراد إذا تركوا وشأنهم كانوا فى نظرهم كالأطفال الذين لا يعرفون غير اللهو والعيب ، ولا يمكن أن يقدرُوا ما فيه مصلحتهم أو يصرفوا نشاطهم فى وجوه غير التى تطلبها أو ترتضيها الدولة ، هذا بينما كان إغناء الفرد فى الدولة من المبادئ الأساسية فى نظام الوطنية الاشتراكية وقد قال الدكتور (لى) Ley زعيم جبهة العمل ، ما معناه : « إن الأفراد الذين يتألف منهم كل شعب أطفال ، ولذلك ينبغى أن يعاملوا كما يعامل الأطفال سواء بسواء ، إلى أن قال . « وعلى السياسى أن يشرف بنفسه على كل شئ » ، وقد استطاع النازيون أن يستأثروا بهذا الإشراف والتوجيه كل الاستئثار ؛ فاعترف الدكتور (لى) . « بأنهم — أى أتباع هتلر — قد أوجدوا زعامة تعهدوها حتى أضحي من الممكن أن تقوم هذه الزعامة بفحص حالة كل مواطن مهما صغر شأنه ، وإرشاده إلى الطريق الذى ينبغى عليه أن يسلكه فى حياته وفق أسباب معقولة ، ولم يكن (لى) مغاليا فيما ذهب إليه أو اعترف به . لأن هذا الفحص وذلك الإرشاد ، أو بالأحرى إرغام المواطن على أن يسلك مسلكا معينا فى حياته الخاصة والعامة ، هو ما كان يقوم به النازيون بالفعل فى دراستهم الوطنية الاشتراكية ويسوغ (لى) نفسه هذه السيطرة المرهقة بقوله ، واصفا الثورة النازية بأنها . « ثورة شاملة ينبغى

أن تكون شاملة ، ولا يمكن أن تجبر استثناء ولو رغب أصحابها ومنشئوها في ذلك ، ولذلك لم يكن هناك مكان لما يصح أن يوصف بالفرد العادي في ألمانيا الوطنية الاشتراكية . بل إن الفرد في دولة أدولف هتلر ، ما كان في وسعه أن يستمتع بحياته الخاصة إلا وقت النوم حسب إذ « مضمي العهد الذي يمكن أن يقال فيه أن هناك شئونا خاصة في ألمانيا »

وهذه المبادئ هي التي طبقها النازيون في دولتهم بكل دقة . ولم يلجأ النازيون إلى الموارد لإخفاء ما كانوا يريدون ؛ بل أعلن الدكتور (لي) تأييداً لإشراف الدولة — أي الحزب النازي نفسه — على حياة الأفراد : « أن من الواجب على كل فرد أن ينضم إلى صفوفنا ويسير معنا ، ومن واجبه أن يقبل العمل بالروح المتخابة علينا ويرضى به ، وإلا تعذر عليه تماماً أن يجد هواه يستشقه ؛ لأننا سوف نحرمه أية فرصة تمسكه من كسب عيشه ، بل ندعه يموت ، وبغنى . وإذا قال قائل أنه يريد أن يترك وشأنه ليعيش في سلام أجهنمه بالتمني دائماً . وقلنا له كلا يا صديقي . فإني لن أفكر في فعل شيء من هذا مطلقاً . والواقع أن الدكتور (لي) كان يعني ما يقول ؛ إذ من المعروف أنه كان لديه حوالى المليون من الرجال المنتشرين في كل نواحي البلاد مهمتهم الأولى الحرص على تطبيق ما قاله زعيم جبهة العمل في الرايخ الثالث .

ولما كانت هذه مبادئ النازية وتعاليمها ، ولم يكن مسعوحاً للأفراد أن يتخلفوا في الطريق حتى يحياوا الحياة التي يريدونها ، على النازيون من مبدأ الأمر بضرورة القضاء على كل معارضة من شأنها عرقلة سير هذا النظام الوطني الاشتراكي ، وضربوا بيد من حديد على كل مخالفة داخلية منذ خلاص لهم الحكم في ألمانيا . فقد تساءل وزير دعاوتهم المعروف الهر جوباز في خطاب ألقاه في نوفمبر ١٩٣٤ : « عن أولئك الذين ينقدون النظام القائم ، فقال : هل هم من أعضاء الحزب النازي ؟ كلا ! هل هم إذن بقية الشعب الألماني ؟ إذا كان الأمر كذلك فخليق بهم أن يعدوا أنفسهم سعداء لأنهم لا يزالون على قيد الحياة ! الواقع أنه من المتعذر كل التعذر أن يطمع إنسان يعيش بفضل ما نظره من رحمة عليه ، في أن نسمح له بتوجيه النقد إلينا . ورغبة في أن يقضى النازيون على كل أثر للمعارضة أو التذمر اعتبرت (محكمة الرايخ العليا) أي نقد يوجه للنظام القائم من الأمور التي تدخل تحت طائلة القانون ، وتقضى عند الإدانة توقيع العقوبة الصارمة ، سواء أكان هذا النقد أو التجريح أو التعريض في دائرة الأسرة وبين جدران البيت بين الزوج وزوجه أو الوالد وولده ، أم كان علانية في محل عام . بل إن هذه المحكمة العليا لم تلبث أن ذهبت في سبتمبر ١٩٣٧ إلى أنه من واجب الأفراد أن يتحللوا من أية يمين أقسموها على كتمان حديث دار سرّاً وتناول المتحدث في أثنائه النظام القائم أو نشاط الميمنين على شئون الشعب بالنقد أو التجريح ؛ كما ذهبت إلى أنه من حقها

توقيع العقوبة في المحاللات التي يثبت فيها أن المتحدث لم يكن يريد التفسير بالنظام القائم أو بأشخاص المسؤولين عن هذا النظام أو بأعمالهم ونشاطهم . ومن الطريف أن المحكمة العليا قضت بعدم إنزال العقوبة بالأشخاص الذين يثبت أنهم كانوا يتحدثون إلى أنفسهم ولا يقصدون إذاعة شيء مما يقولون ، ولا يرومون أن يسمع أحد ما يتحدثون به إلى أنفسهم ، وكذلك أولئك الذين يدونون انتقاداتهم في مذكرات أو يوميات خاصة ، ولا يحتفظون بها من أجل نشرها ؛ ثم وقعت هذه المذكرات أو اليوميات بطريق المصادفة أو الإهمال في أيدي غيرهم . ومع هذا كان (الجستابو) يأخذ برأى مخالف لما ذمعت إليه المحاكم في هذه الشؤون وما يماثلها . وقد تقدم كيف سيطر الجستابو سيطرة تامة على الحياة في ألمانيا حتى صار لا يمكن أن يقات من قبضته إنسان .

وكان من أثر ذلك أنه لم يعد في ألمانيا وجود حياة خاصة ، في البيت أو الأسرة ، كما انعدمت الحياة الحرة الطليقة التي تمكفل حرية الرأي والفكر والعمل . ومن أقوال بعض الذين درسوا هذا الموضوع في ألمانيا النازية قبل الحرب ، أن تدخل النازيين في حياة الفرد إنما يبدأ في الحقيقة قبل أن يولد ويخرج إلى عالم الوجود ، ثم يظل هذا التدخل باقياً حتى بعد وفاة الفرد وانتقاله إلى العالم الآخر ؛ لأن النازيين هم الذين يقررون هل ينبغى لك أن تولد أو لا تولد ، فهم الذين يقررون أي الأشخاص يصبح له أن يتزوج أو لا يتزوج ؛ وهم الذين يشترطون على من يرغب في الزواج ، ويصرح له بذلك ، أن يختار الزوج التي يرون أنها تصلح له ؛ وهم الذين يقررون إذا كان ينبغى للزوج أن يكون له نسل أو لا يكون ؛ كما أنهم يقررون مصير من يرونهم غير صالحين للزواج ، فيقتلونهم أو ينفسونهم أو يعاقبونهم . وليس أدل على مبلغ صحة هذا القول من النظر في حياة أسرة عادية في ألمانيا النازية .

* * *

وفي التنظيم النازي تحتل الأسرة مكاناً ممتازاً ، لا لأن النازيين يبنون بدعم أركانها على اعتبار أنها الأساس الذي يقوم عليه بنية المجتمع ، وإنما يعني النازيون بأمر الأسرة من وجهة نظر محدودة ، إذ يعتبرونها مجرد أداة تمسكهم إذا أحكوا الإشراف عليها ، وسيطروا على حياة أعضائها ، من بنية النظام الوطني الاشتراكي الذي ينشدونه ، وهو نظام كما تقدم القول ، يرمى إلى إفناء الأسرة في شخص الدولة . وإفناء الفرد في شخص الزعيم تحقيقاً في نهاية الأمر لمبدأ الرعاية المسؤولة . ومن هذه الناحية وحدها نشأ اهتمام النازيين بأمر الأسرة . فإذا عرف أن من برنامج النازيين لتحقيق سيطرتهم الأوربية والعالمية ، أنه ينبغى من مبدأ الأمر تأليف كتلة صلبة متماسكة في قلب الرينج الألماني ، أصبح من الميسور إدراك

ما للأسرة من أهمية في نظامهم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي . إذ كيف يتسنى لهم إنشاء ذلك المجتمع النازي المتناسك في قلب ألمانيا إذا ظل أعضاء كل أسرة أحراراً طليقين ، يعيشون ويفسكرون ، ويعملون كما يشاءون ؟ لذلك لم يكفد يتسلم النازيون أزمة الحكم في ألمانيا حتى شرعوا ينظمون حياة الأسرة تنظيمًا دقيقًا ، ارتبط منذ البداية بالخطط والقواعد التي وضعوها لدعم النظام الجديد ، الذي أكثروا من الدعاية له عندما أحرزوا انتصاراتهم الحاطقة في القارة الأوروبية ، بينما لم يكن هذا النظام جديدًا في الحقيقة ، بل عرفه الألمان أنفسهم وتذوقوا طعمه في ألمانيا ذاتها ، قبل أن يطبقه النازيون في بقية أرجاء أوروبا المفتوحة زمن طويل .

وكان معنى الاشراف على تنظيم حياة الأسرة ، تدخل الدولة — أو بالأحرى الحزب النازي نفسه — في شئون الزواج ، وتربية الأطفال والفاشية ، والصحة العامة ، كما اقتضى هذا التدخل بحث مركز المرأة ، وتحديد العلاقة بين المرأة والرجل ، وتنظيم حياة الأسرة من الناحية الاقتصادية أيضا لتحمين مقدار حاجاتها من مأكل وملبس ومأوى وما إلى ذلك من مطالب . على أن هذا التنظيم لم يكن سهلا هينا ؛ لأنه كان يرتبط في الحقيقة بجميع المسائل والمعضلات الاجتماعية الاقتصادية التي واجهت النازيين من أول الأمر : وأهمها مسائل الآرية واليهودية ، وتحديد النسل أو الإكثار منه ، واحتقار المرأة أو الإعلاء من شأنها ، واجازة العلاقات الجنسية الشاذة أو تشجيع الزواج ، إلى غير ذلك .

ولعل أدق المشكلات التي كانت تواجه الفرد الألماني العادي في دولة النازيين ، هي مشكلة زواجه ولما كان من المتعذر الافاضة في بحث فكرة الزواج ومنشئها البيولوجي أو الاجتماعي ، وتطورها في مختلف العصور ، فقد يكفي أن يذكر القارئ أن الزواج في المجتمع الألماني ، قبل وصول النازيين إلى الحكم ، كان يتم بشاء على الرغبة المتبادلة بين الرجل والمرأة على أساس اتفاق الميول أو العاطفة أو المصلحة . ولكنه لما كان الزواج هو الأساس الذي يمد لقيام الأسرة والرباط الوثيق الذي يحفظها ، لم يرض النازيون بأن يظل الزواج من المسائل الشخصية المتروكة لتدبير الراغبين فيه ، بل جعلوا للزواج مقاييس جديدة ، جنسية ، واجتماعية وعقلية ، وجثمانية وخلقية ، بدعوى أن ملاحظة هذه المقاييس من الأمور التي تعنى الدولة ذاتها قبل أن تعنى الأفراد . لأن مهمة الدولة في النظام النازي الجديد ، إنما هي السهر على اعداد مجتمع وطني اشتراكي صميم ؛ وينبغي لذلك أن تتوافر في الأفراد الذين يتألف منهم هذا المجتمع صفات جثمانية وجنسية وعقلية وخلقية خاصة . لذلك سرعان ما أصدر النازيون في هذا الشأن قانونا أسموه « قانون المحافظة على صحة الشعب الألماني الوراثة » . واشتهر هذا القانون باسم « قانون الصحة والزواج » .

وبمقتضى هذا القانون أنشئت رقابة صارمة على الزواج ؛ فمنع من الاستمتاع به كل مصاب بعاهة جثمانية أو عقلية أو انحلال خلق ؛ ثم تحتم في الوقت نفسه على كل راغب في الزواج أن يحصل مقدما على « شهادة صلاحية للزواج » . وهذه الشهادات كانت تصدرها السلطات المسئولة عن الصحة العامة — أو مكاتب الصحة العمومية — ولم تكن تعطى لمن يطلبها إلا إذا فحص طبيبا دقيقا وأجاب على عدة أسئلة تتعلق بحالته الشخصية ، وبحال أمرته . ومن المسائل التي كان يفحصها « الممتحنون » ، وينبغي تدوينها في « شهادة صلاحية الزواج » — أو رخصة الزواج مقدار نحو الشخص الجثامى ، وتوزيع الدهن في جسمه ، ونحو عضلاته ، ثم حياته الجنسية وحال أعضائه التناسلية وعدد مرات إخفاقه في أثناء دراسته ونواحي نموه العقلي وسن الطفولة التي أمكنه فيها أن يتكلم وأن يمشى وكذلك أمراض الطفولة ، ومقدار انكبابه على السكحول والتدخين ومدى قدرته على الانسال ، إلى غير ذلك من الأمور . وكانت جميع هذه التفاصيل تدون على أحد وجهي الرخصة المعلقة ؛ بينما يلصق على الوجه الآخر صورة شمسية نصفية لصاحب الرخصة .

أما الأشخاص الذين كانوا يحرمون بتاتا من الزواج — رجالا كانوا أم نساء — فهم الذين كانوا يدخلون بمقتضى قانون الصحة والزواج ، في زمرة جماعة من الجماعات الأربع الآتية . — (أولا) الأشخاص المصابون بأمراض معدية ؛ ويخشى أن يقضى زواجهم إلى نقل هذه الأمراض إلى زوجاتهم — أو أزواجهم — أو إلى أطفالهم ؛ (ثانيا) كل الموضوعين تحت الوصاية أو ما يماثلها ؛ (ثالثا) الأشخاص الذين — على الرغم من عدم وجودهم تحت نوع من أنواع الوصاية — يثبت أنهم مصابون باختلال أو ارتباك عقلي ، ويبدو من وجهة نظر المجتمع عموما في هذه الحالة ، أنه من غير المرغوب فيه زواجهم . (رابعا) الأشخاص المصابون بأمراض وراثية . وزيادة على ذلك فإن المحاكم النازية عند تفسير هذا القانون ما لبثت أن أضافت جماعة خامسة حرم عليها الزواج ، ووصف أفرادها بأنهم من الذين يعتبر زواجهم مخالفا لروح القانون وأهدافه . مثال ذلك الرجل الذى صار عقيا . فانه لا يفيى له أن يتزوج من امرأة متمتعة بصحة طيبة وبقدرة كاملة على الانسال . لأن الزواج في هذه الحالة لا يؤدي الغرض منه ، وهو إنتاج الأطفال الذين يحتاجهم الدولة .

وأما الأمراض المعدية فهي الزهري والحمى الصفراء والدفتريا والتيفوس ، والبرص والجذري ، والطاعون ، والسل . وأما الموضوعون تحت الوصاية فهم أولئك الذين تقرر المحاكم عدم قدرتهم على إدارة شئونهم لاصابتهم بالخبل أو إمعانهم في السكر ، أو اسرافهم في الاقتراض والاستدانة ، وأما أفراد الجماعة الثالثة فهم المتمعون باللواط ، والاختلاط الجنسى

الشاذ مع النساء ، وهؤلاء يجب عليهم أن ينتظروا حتى يكتب لهم الشفاء التام من هذه الأدوية وكذلك الميالون إلى الإجرام أو الذين صدرت ضدهم أحكام بسبب القتل أو السرقة أو خطف الأطفال والأفراد .

ولعل أقوى ما في هذا القانون حرمان الطائفة الثانية من الزواج ، إذ كيف يتسنى تحديد مدى الاختلال أو الارتباك العقلي الذي يمنع صاحبه من الزواج إطلاقاً ، أضف إلى هذا أنه حتى في الحالات الأخرى ، مازال مسألة انتقال الأمراض أو العاهات بالوراثة من الممرضات التي يعالجها العلم ولم يصل فيها إلى رأى حاسم ، كما أنه لم يقدم دليل قاطع على أن جميع الموضوعين تحت الوصاية أو ما يماثلها لا يصلحون للزواج . ومع هذا فقد تشدد النازيون في تنفيذ هذا القانون إلى حد أنهم صاروا يعتبرون كل زواج وقع مخالفاً لمقتضيات (قانون الصحة والزواج) كأنه لم يكن . وكل شخص يقدم على مخالفة هذا القانون يعاقب بالسجن مدة لا تقل عن ثلاثة شهور .

ولم يمنع الزعماء النازيون باصدار هذا القانون ، كما أنهم لم يشاءوا أن يتركوا المحاكم تجري تطبيقه حسباً ببدو لها ، فطفقوا من ناحية أخرى يقسمون النساء الألمانيات الصالحات للزواج بمجموعات حسب صلاحيتهن البيولوجية ، فقال (ولتر داريه) Walther Darré وزير الزراعة في دولة الرايخ ، وزعيم المزارعين أو الفلاحين ، مامعناه . « إن الألمانيات ينقسمن من هذه الناحية أربعة أقسام : فهناك نساء الدرجة الأولى ويسمح لهن بالزواج من الأشخاص الذين وصفهم (داريه) بأنهم يؤلفون طبقة الإشراف (النازية) الجديدة — وأما نساء الدرجة الثانية ، فهن اللواتي يسمح لهن بالزواج من هؤلاء الإشراف أو النبلاء ، إذا نجحن في خدمة المجتمع في فترة يوضعن في أثنائها تحت الاختبار — ولو أنه لم يبين نوع هذه الخدمة . وأما نساء الدرجة الثالثة ، فهن اللواتي يستطعن الزواج من رجال الفئة السفلى ، على أن تقوم الدولة في هذه الحالة بمقهم هؤلاء الرجال حتى لا ينسلوا أطفالاً مشابهين لهم من الفئة السفلى . — وأما نساء الدرجة الرابعة ، فهن اللواتي لا يسمح لهن بالزواج أو الانسال إطلاقاً .

وكان جميع هذه القيود والاشتراطات لم تكن كافية ، فتحدثت إحدى المجلات النازية عن مقياس جديد للزواج ، هو مقدار ميل الفرد لغشيان المسارح والاشتمام أو الشغف بالألعاب الرياضية . هذا إلى جانب مقدار خلوص جنسه من الشوائب ، فقالت : « من الواجب على كل رجل آرى أن يتزوج من امرأة آرية شقراء ، ذات عينيْن واسمعتين زرقاوين ووجه طويل بيضى الشكل ، جلدها أبيض مشرب بالخمرة ، لها أنف دقيق ، وفم صغير ،

كما يجب أن تكون هذه المرأة عذراء مهما كانت الظروف أى أن الرجل الأشقر صاحب العينين الزرقاوين لا ينبغي أن يتزوج من امرأة سمراء أو من امرأة من نوع نساء البحر الأبيض ذات سيقان قصيرة وشعر أسود وأنف معوج وشفاة غليظة وفم واسع ، تميل إلى البدانة . وكذلك فإن البطل الآرى الأشقر من واجبه ألا يتزوج من امرأة شبه زنجية ذات الرأس المعروف والجسم النحيل الهزيل ، وزيادة على هذا ، فإن البطل الآرى من واجبه أن يتزوج من امرأة آرية مساوية له ، على أن تكون هذه المرأة من غير المشنوفات بالذهاب إلى المسارح أو الحفلات أو الموامات ، بالألعاب الرياضية ، أو من اللواتي يملن إلى تمضية الوقت خارج بيوتهن .

وظاهر من جميع ما تقدم ان الغرض من هذه القيود الثقيلة هو أن يظل الجنس الألماني خالصا من كل شائبة فلا يتزوج الآرى إلا من آرية وبالعكس ، ثم إنشاء مجتمع نازى سليم العقل والجسم معا ، ولتحقيق هذا الغرض قسم النازيون أفراد المجتمع الألماني طبقات ثلاث أولاها طبقة ، النبلاء ، الجدد النازيين ، وهم أعضاء الحزب ، أو الأفراد الذين ينبغي ان يقوم على اكتافهم تشييد الدولة الوطنية الاشتراكية الجديدة مثل جنود الحرس (S.S) . وهؤلاء كانوا — كما سنرى — مقيدين إلى جانب ما تقدم في اختيار زوجاتهم بقيود صارمة أما الثانية فطبقة العامة من الآريين ، بقية أفراد الدولة الذين يجب ان يخضعوا لمتطلبات قانون الصحة والزواج وما يتصل به من تفسيرات قاسية ، أما الثالثة فطبقة الآريين — التى لا يصلح أفرادها أصلا للزواج ، او التى ينبغي ان يمنع اعتناقها من ان ينسأوا إطلاقا إذا أيسح لهم أن يتزوجوا ، وهم يؤلفون الطبقة السفلى . وما ينبغي ذكره ان النظام النازى الجديد لا يشرع لغير الآريين كالزنوج أو اليهود على وجه الخصوص فى داخل ألمانيا ذاتها لأنه لا يعترف بأنهم بشر لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات التى لبقية أفراد المجتمع الألماني ، ولذلك عنى النازيون منذ البداية بمسائل ثلاث هى مسألة نقاء الجنس من الشوائب ، ويتصل بذلك اضطهاد اليهود والعمل على إبادتهم بشتى الوسائل ومسألة الصلاحية الاجتماعية والعقلية ، وبؤدى بحثها إلى ذكر الوسائل التى كان يقيمها النازيون من أجل اقضاء غير الصالحين من أعضاء المجتمع الألماني ، وأخيرا مسألة دعم طبقة النبلاء النازيين الجديدة .

ولما كان الغرض الذى كان يرمى النازيون إلى تحقيقه من هذا كله ، لإيجاد الكتلة الصلبة المتماسكة فى داخل الريخ ، تلك الكتلة التى لم يكن عن وجودها غنى فى نظرهم لم يسطروا مبادئهم العالمية فى النهاية ، فقد تفرع عن هذه المسائل الثلاث ، واتصل بها فى الوقت نفسه اتصالا وثيقا ، مسألتان أخريان ، هما ضرورة تحديد مركز المرأة فى المجتمع النازى وضرورة

الاكثار في النسل بشتى الوسائل حتى تجمد الدولة الوطنية الاشتراكية ، قوة بشرية « تستطيع بعد تنشئتها التنشئة النازية الصحيحة ، أن تستخدمها كأداة فعالة في بسط سلطتها على القارة الأوروبية وعلى بقية العالم في النهاية .

وكان من رأى مفكرى النازيين ه أن نوع الجنس الذى ينتمى إليه الإنسان يؤثر في أعماق نزواته النفسية مهما كانت هذه النزوات لاشهورية ، كما أن من شأن هذا الأثر أن يتغلغل إلى ادق أجزاء المنح . وعلى ذلك يطبع الجنس خصائص الإنسان النفسية أو الروحية بطابع معين لا يحى أثره كما يترك طابعه أيضا على مناهج الإنسان الخارجى ، فالجنس هو الذى يعين نوع الأفكار والإدراكات العقلية التى تكون من نصيب الإنسان ؛ وهو أيضا يعين مدى قوته ومدى غرائزه وميوله ، ويقرر نوع خلقه وطبيعة نفسه .

وعلى هذه النظرية بنى النازيون أكثر ما فى برنامجهم من قواعد ومطالب ، وعلى ضوءها ساروا في تطبيق مبدأ اختيار الصالحين الزواج والانسال في دولة الريح الثالث . وقد قال فيلسوفهم (الفرد روزنبرج) أنه شديد الاعتقاد بأن الأجناس المختلفة شديدة التباين من حيث أثرها في تكوين الخلق ، ورسم السلوك ؛ كما أن هذا الأثر لا مندوحة عن ظهوره في نوع الموسيقى والرقص . إذ أن من المسلم به أن نوعا معينا من الموسيقى أو الرقص لا يمكن نقله من شعب اختص به إلى شعب من جنس آخر وكذلك الحال في أمر اللغة . . . وقد أقتفى أثر (روزنبرج) في هذا أيضا عالم آخر ، هو الدكتور (جردشهاك) Gerd Cehak فأعلن أن لكل جنس طريقته الخاصة في الكلام من حيث الاسراع أو الابطاء في إخراج اللفظ ، ثم في السير وفي الحركة ومن رأيه أن الجنس النوردي هو أبطأ الأجناس قاطبة في ذلك . وقد ترتب على الأخذ بنظرية التأثير الجنسى هذه القول بأن كل جنس من الأجناس المعروفة يميل إلى تفضيل ألوان معينة ، أى أن لكل جنس مزاجه اللوني الخاص فيميل النورديون كما يؤكد (الدكتور هانس جونتشر) Hans F.R Guenther إلى اللونين الأزرق والأخضر الخفيف أو الباهت ، بينما يفضل الجنس المعروف باسم (Westic) اللونين الأحمر والأصفر ، والجنس الدينارى الأخضر الغامق والأرجواني والأوستيكى (Ostic) البنى والبنفسجى . وكذلك تختلف مقاييس الجمال باختلاف الأجناس ، فيذكر (روزنبرج) أن النورديين يميلون إلى طوليل القامة المنحيف ذى العينين الزرقاوين ، ومن رأيه أن الشعوب التى يفضل رجالها السمراوات ، قد بدأ ينتشر بينها اختلاط الأجناس ، كما أنها في الحقيقة قد شرعت تسير بخطى حثيثة نحو الانحلال والفناء ، لأن السمراوات لا يمكن أن

يكن نورديات بل هن سلالة جنس آخر . وهكذا حتى بلغ ه الهنديان الجنس ، درجة بعيدة فاستطاع (جونثر) وأمثاله أن يميزوا بين المرأة النوردية وغيرها — على حد قولهم — من جلستها ، فإذا ضمت السيدة ساقها وقت جلوسها كانت نوردية ، أما إذا فعلت عكس ذلك كانت (أوستيكية) ومن رأيهم أن الرجل الذي يفضل إرخاء لحية كشيعة تملأ وجهه فهو نوردي . ويمتاز الآري على غيره بفتوته الجشائية . وتفوقه على غيره بسبب ذلك في ميادين الرياضة ، وقد عظم اعتقاد النازيين بهذا النوع من التفوق إلى حد أن الهتلر رفض متساقفة الأبطال الرياضيين من غير الآريين — الذين تفوقوا في الألعاب الأولمبية التي جرت في ألمانيا في عام ١٩٣٦ ، وكذلك فإن الأقبال على النظافة من أهم صفات الآريين ، ولذلك يؤكد الدكتور (جونثر) أن الصابون وفرشاة الشعر اختراعا نورديان .

ولكن متى وأين نشأ هذا الجنس الآري المبجل المفضل ؟

يقول العلماء النازيون أن الجنس الآري أو النوردي وجد منذ أقدم الأزمنة في إقليم يبدأ من (لوبك) ويمتد صوب الشمال إلى (استكهولم) ثم صوب الجنوب إلى (برنزيك) ويتألف هذا الجنس من رجال أفذاذ أصحاب قامات فرعاء وسيقان طويلة ، نحاف الأجسام ، عريضى الكتفين ، ضيقى الخوضين ، شعرهم أشقر ، ولون بشرتهم أبيض ، وعيونهم زرقاء أو زرقاء رمادية في العادة وهو أفضل الأجناس قاطبة ، وحامل لواء المدنية والحضارة في العالم ولهذا السبب نفسه ينبغي أن يبذل النازيون كل جهد من أجل أن يظل مخلدا باقيا وفي كتاب (كفاحي) شهد الهتلر بفضل الآري على العالم فكتب ما معناه : « أن مانراه حولنا اليوم من ثقافة إنسانية وبرز في الفن والعلم والصناعة ، يكاد يكون برمته من نتاج الآري وحده . وإن هذه الحقيقة ذاتها هي التي تفسر قولنا بأن الآري وحده ، كان على وجه التأکید موجد الحياة الإنسانية العليا . ولذلك فإن مانسميه الإنسان — أو المخلوق البشرى — إنما هو في الحقيقة هذا الآري ليس غير وعلى هذا فإذا قدر للآري الزوال من الوجود ، فإن الظلام الحالك سرعان ما يطبق على الأرض ، ومن المحتمل لذلك أن تختفي الحضارة الإنسانية في غضون ألوف قليلة من السنوات ، ويعود العالم إلى حالته الصحراوية السابقة . » ثم لم يشأ الهتلر أن يقصر مسئولية الآريين على نشر الحضارة في أوروبا وأمريكا ، بل شاء خياله أن يجعل من الآريين والأوربيين والأمريكيين رسل الحضارة والمدنية في القارة الآسيوية أيضا ذلك بأنه عزا إليهم الفضل في إدخال المدنية إلى اليابان . وكان من رأيه أن الآريين هم الذين أوجدوا الثقافة اليابانية ، وأنه إذا قدر للآريين الانسحاب من اليابان ثم قطع صلتهن بها ، فإن اليابان لانلبث أن تغط في نومها القديم الذي أيقظها الآريون منه .

وأمام هذا التمجيد العظيم للآرية والآريين ، يحق للقارىء أن يتساءل ، وماذا ياترى تكون نسبة الآريين الخالص في المجتمع الألماني ؟

لقد أجاب على هذا السؤال الدكتور جوتشر فقال أن نسبتهم تتراوح بين ٦٪ و ٨٪ من مجموع الشعب الجرمانى ؛ وأنه من المحتمل أن تكون هذه في الواقع أعلى نسبة موجودة بين أى شعب على ظهر الأرض ، أضف إلى ذلك أن هذه النسبة تشمل جميع النورديين الموجودين في العالم . وظاهر أنها نسبة ضئيلة . ولذلك فقد أصبح من واجب النازيين أن يشكروا في أنجح الوسائل التي تحفظ هذا الجنس الرفيع الشأن من الانقراض لاسيما وقد اعتقد النازيون أنفسهم أن عدة مصائب قد نزلت بهذا الجنس النوردي منذ أزمنة قديمة لدرجة تهدد بحدوث أسوأ النتائج للشعب الجرمانى ، بل وللحضارة قاطبة إذا ظل الأمر غير متدارك بصورة فعالة . وكان النازيون يعزون أسباب هذه الشرور التي أفنت هذا المقدار العظيم من الجنس النوردي إلى الحروب التي خاض غمارها النورديون الشجعان على مر العصور فأفنت الأعداد العظيمة منهم . هذا إلى أن الريخ الألماني كثيراً ما كان يخسر أبناءه النورديين الذين آثروا ظروف مشوعة الخروج من أرض الوطن والهجرة إلى جهات أخرى ؛ كما أن النورديين الذين ظلوا في الريخ كانوا معرضين للوفاة في سن باكورة بنسبة تفوق كثيراً نسبة الوفيات التي تحدث في هذه السن بين بقية الأهالي من الأجناس الأخرى ؛ على أن النورديين كانوا دائماً أقل قدرة على التناسل من غيرهم . بيد أن أشد الأخطار التي يتعرض لها الآريون ، منشؤها في زعم النازيين ، ما يحدث من اختلاط النورديين بغيرهم من الأجناس الوضيعة .

ولذلك فإنه بينما يندرج حوالى ٦٪ أو ٨٪ من الجرمانيين من الجنس الآرى أو النوردي الصميم ، فإن نصف الشعب الجرمانى بأجمعه ما يزال يحرق في عروقه الدم النوردي ممزوجاً بدم الأجناس الأخرى . ولما كان من فضائل المرأة النوردية الاحتشام الشديد ، وكان اكتمال الأنوثة أو الرجولة بين أفراد الشعب النوردي يتأخر وكان الرجل النوردي لا يتزوج من المرأة النوردية إلا في سن متقدمة نسبياً ، ولا ينسل المتزوجون سوى القليل من الأطفال ، فقد خشى علماء النازيين أمثال الدكتور جوتشر من احتمال اختفاء الجنس النوردي الخالص في نهاية الأمر . أضف إلى هذا خطر زواج النورديين من النساء السمرات المتمتعات بالصفات الجنسية المضرة الشائعة بين نساء الأجناس الأخرى غير النوردية . وكذلك فإن من العوامل المساعدة على اختفاء الجنس النوردي ما هو مشاهد في أفراد هذا الجنس من الميل إلى الانتحار .

وفي كتاب (كفاحى) لخص الهرتزل النتائج التي تحدث من اختلاط الأجناس المختلفة

في قوله إن ذلك يؤدي (أولا) إلى هبوط مستوى الجنس الأعلى مكانة و (ثانيا) إلى انحطاط جثافي وروحي يفضي ولا شك إلى انتشار الضعف والمرض ، ولو أن هذا يحدث بطيئا في بداية الأمر . ولذلك رأى الهرتزل من الضروري أن يسود قانون أعلى ومقدس يضيئ بمقتضاه أن يحرص كل إنسان على أن يظل « الدم » نقيًا خالصا . ويسوغ الهرتزل وجود هذا القانون وواجب العمل به بزعمه أن امتزاج الدم وهبوط المستوى الجنسي تبعًا لذلك قد أفصيا وحدهما إلى فناء الثقافات القديمة ، كما حدث للثقافة الآرية على وجه الخصوص . فقد ظل الفاتحون ساء القوم ، وخالفوا أو مبتكروا ألوان الثقافات المتنوعة ما داموا متمسكين بمراكمهم كحكام ، وما داموا يحتفظون بنقاوة الدم الذي يجري في عروقهم . غير أنه في كل مرة امتزج دم الآري بغيره من دم الأجناس الوضيعة ، أظهر التاريخ أن النتيجة الحتمية لهذا الامتزاج كانت اختفاء حامل لواء الحضارة ، أي الرجل الآري وحده

وأما الذين أفادوا من هذا الامتزاج فكانوا دائما شعوب الأجناس الوضيعة ، لأن الدم الآري من شأنه أن يحفظ لهم بقاءهم إذ بغيره يسرون إلى الفناء بخطوات سريعة والشر في ذلك كله أن هذه الشعوب الوضيعة إنما تعتمد القوة والحياة من طريق تدنيس الآريين وإحالتهم إلى شعب « لقيط » أي إلى شعب غير نقي الدم .

ثم يعضي الهرتزل فيقول إن هذا الفساد كان قد بدأ يحطم ميزات الجنس النوردي في ألمانيا قبل وصول النازيين إلى الحكم إلى حد دد يجعل القاطنين بالمدن الألمانية الكبيرة خصوصا يشبهون من حيث مستواهم الجنسي الشعوب القاطنة بأرض إيطاليا الجنوبية . ومع هذا فإن خطر انحطاط الجنس النوردي لم يكن في رأيه مقصورا على الجرمانيين وحدهم ، بل إنه كان يهدد العالم أجمع بعواقب وخيمة ، لأن إهمال الألمان في صون نقاء الدم الذي يجري في عروقهم جعلهم يخفقون في إحراز السيطرة العالمية إذ « إن السموم التي أثرت في شعبنا (من جراء امتزاج الدم الآري بدم شعوب الأجناس الأخرى) وخصوصا من أيام حرب الثلاثين سنة المعروفة ، لم تسبب انحلال دماننا فحسب بل وأرواحنا أيضا ، حتى نجم عن ذلك أن أصيب الشعب الجرمانى بالانحلال في كل ظرف عصيب قابله ، إذ ينقص الشعب الألماني وجود غريزة الجماعة القوية التي أساسها وحدة الدم وتجانسه ، والتي من شأنها على وجه الخصوص في اللحظات التي يحى فيها الخطر مهددا أن تصون الأمة وتحفظها من الدمار . . . فلو أن الشعب الألماني كان يتمتع بهذه الوحدة المستمدة من وجود غريزة الجماعة القوية في أثناء نموه التاريخي وهي الوحدة التي انتفعت بها شعوب أخرى — لأصبح الرخ الألماني سيد الكرة الأرضية بأجمعها . . . » .

وقد زعم الهتلريون ان أفضل الطرق الحاسمة لضمان نقاء الدم الآرى ، فى دولة الريخ الثالث ، قناء اليهود أو طردهم من ألمانيا . ولذلك ارتبطت (هيسترىا الدم) عند النازيين (هيسترىا) أخرى كانت وماتزال فى الحقيقة أشد خطرا على البشرية من دعاوى المجلس الخالص ، والدم النقى ، هى (هيسترىا اليهودية) ، وكما أن (هيسترىا الدم) لاتستند إلى أى أساس علمى صحيح كما أثبت علماء الأجناس ، فإن (هيسترىا اليهودية) فى ألمانيا تستند إلى طائفة من المعلومات المشوهة والحقائق المزيفة التى حرص النازيون منذ طمعوا فى فرض سلطانهم على ألمانيا ، على أن يغذوا بها الجماهير المتقلبة فى أحضان القوضى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى أعقبت انهيار دولة الريخ القيصريّة بعد هزيمة الحرب العالمية الأولى .

فقد قدر النازيون أنفسهم ، قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية بعام واحد ، ان عدد سكان ألمانيا — عدا النمسا — الذين يجرى فى عروقهم دم يهودى بنسبة ٢٥ ٪ أو أكثر يتراوح بين ٨٠٠.٠٠٠ ، ومليون ، من بينهم ٥٠٠.٠٠٠ إلى ٦٣٥.٠٠٠ يهودى و ٢٠٠.٠٠٠ إلى ٢٥٠.٠٠٠ أنصاف يهود ، و ١٠٠ إلى ١٢٥.٠٠٠ أرباع يهود ، وعلى هذا اعترف النازيون أنفسهم بأن اليهود الخالص كانوا لايجاوزون $\frac{٧}{١٠}$ أو $\frac{٩}{١٠}$ من ١ ٪ من عدد سكان ألمانيا ، بينما يبلغ أنصاف اليهود $\frac{٢}{٣}$ أو $\frac{٣}{٤}$ من ١ ٪ ، أما أرباع اليهود فيؤلفون جزءا صغيرا يزيد قليلا على $\frac{١}{١٠}$ من ١ ٪ وزيادة على هذا فن الثابت أن عدد اليهود فى ألمانيا كان آخذا فى النقصان بدرجة ملموسة قبل حدوث الثورة النازية ذاتها ، فقد دلت الاحصائيات على أن نسبة المواليد (بما فى ذلك اليهود) فى عام ١٨٨٠ بلغت ١٠٥ ٪ فى الألف . من ذلك ٣٢٢ فى الألف بين اليهود الألمان ، ولكن هذه النسبة انخفضت فى عام ١٩١٠ إلى ٣٣٠ فى الألف ، من ذلك ١٦٥ فى الألف بين اليهود . وفى الفترة بين عامى ١٩١١ ، ١٩٢٥ بلغت زيادة الوفيات على المواليد بين اليهود البروسيايين ٣٧.٩٣ ٪ ومن المحتمل أن هذه النسبة كانت محفوظة أيضا فى بقية أنحاء الريخ . وعلى هذا فانه استنادا إلى ما كان يذيعه النازيون أنفسهم ، يتضح أن عدد اليهود فى ألمانيا كان قليلا جدا ، بل وآخذا فى النقصان المستمر حتى قبل أن يصل النازيون إلى الحكم .

ومع ذلك ، زعم النازيون أن اليهود هم أخطر أعداء ألمانيا ، ومن حق القارىء أن يسأل كيف تصبح أقلية تافهة لاتزيد على ١ ٪ أو ١.٤ ٪ مصدر الخطر الكبير على أغلبية عظيمة تبلغ ٩٨ ٪ ، ولكن من العبث أن ينتظر انسان جوابا من النازيين على هذا السؤال فاذا فعلوا كانت أجابتهم تشتمل على الدعاوى الآتية : (أولا) ان اليهود إذا لم يكسح جماعهم

ظالوا مستأثرين بالمراكز الهامة في البلاد وصار لهم نفوذ كبير لا يتناسب قطعاً مع عددهم الضئيل (ثانياً) أن اليهود جنس جرم النشاط يتمتع بحماية عظيمة حتى أن الفرد الواحد منهم ليرجع كفته ٩٩ ألمانيا من غير اليهود ، (ثالثاً) مما يزيد هذا الأمر خطراً أن الضرر الذي يهدد الريخ ليس مصدره اليهود في داخل ألمانيا نفسها ، بل مصدره الحقيقي كل أولئك اليهود المنتشرين في أرجاء العالم والذين يتآمرون ضد دولة الريخ الثالث .

ولذلك بدأ اضطهاد اليهود في ألمانيا منذ بدأت الحركة الوطنية الاشتراكية في عام ١٩٢٠ ومن المعروف أن الوطنية الاشتراكية عند نشأتها كانت تتألف من الزراعيين برئاسة الكونت إرنست تزوريفنتلو Ernst zu Reventlow ، ومن الحزب الألماني الاشتراكي برئاسة كونز Kunze ، ثم من الشراذم التي التفت حول لودندورف وهتلر وحاولت الثورة في عام ١٩٢٣ وقد جعل كل هؤلاء اضطهاد اليهود وإقصاءهم عن ألمانيا أو أفناءهم من الأهداف التي تمسكوا بضرورة تحقيقها واشتملت عليها برامجهم . وإلى لودندورف يرجع الفضل في كشف تلك المخالفة ذات الخطر التي ادعى أن اليهود قد أوثقوا عراها مع جماعة الجزويت الدوليين والبنائين الأحرار ، من أجل القضاء على الدولة الوطنية وتقبض أركانها وكان مما ساعد (لودندورف) على الوصول إلى هذا الكشف تلك الأقصوصة الرائعة التي روجها أعداء اليهودية في العالم عندما نشرها في ألمانيا عام ١٩١٩ وثيقة عرفت باسم « بروتوكولات عقلاء أو حكماء صهيون » The Protocols of the Elders of Zion ، قالوا عنها إنها عبارة عن صورة طبق الأصل من تفاصيل ما جاء في المؤتمر الصهيوني المنعقد في مدينة (بال) من أعمال سويسرة في عام ١٨٩٧ ، وتحدثت هذه الوثيقة عن مؤامرة يهودية واسعة النطاق الغرض منها فرض سيطرة اليهود على العالم أجمع بيد أن كبار المسؤولين من اليهود سرعان ما أجمعوا على إنكار هذه الوثيقة وأعلنوا زيفها ، ثم استطاعت جريدة (التيمنس) في عام ١٩٢١ بعد بحث مستقل وفحص دقيق اثبات تزويرها . فقد أظهرت هذه الجريدة أن أحد أفراد البوليس السري القيصرى الروسى القديم — أو الأوخرانا Okhrana كما كانت تدعى هذه القوة — هو الذى وضع هذه البروتوكولات ، حتى يوجد مسوغاً للحكومة القيصرية يمكنها من المضي في اضطهاد اليهود في روسيا . وزيادة على ذلك فإن هذا الموظف الروسى لم يبتكر هذه البروتوكولات ، ابتكاراً بل كان كل ما فعله أنه استمد وصف الاجتماع الموهوم وما حدث فيه من رسالة صغيرة وضعها أحد المتكلمين الفرنسيين الديمقراطيين في عام ١٨٦٥ في عهد الامبراطور نابليون الثالث ، يصف فيها اجتماعاً عقد في (جهنم) كان الغرض منه ، على نحو ما تخيله هذا الفرنسي التفكير في الوسائل التي تمكن الامبراطور نابليون الثالث من توسيع فتوحه حتى تشمل العالم

اجمع . وأما مقال (التيسيس) فقد نشرته الصحف في البلدان الأخرى ، ومنها ألمانيا .

ومع هذا ، وعلى الرغم من ظهور زيف هذه البروتوكولات ، وإقامة البرهان على أنها كانت مزورة ، فقد ظل النازيون يعمون في إدعاءاتهم واستطاع اهر هتلر أن يذكر في كتابه (كفاحي) « ومع أن جريدة فرانكفورت Frankfurter Zeitung تعلن إلى العالم بذلة وخضوع أن « بروتوكولات حكماء أو عقلاء صهيون » زائفة مزورة . فإن هذا الإنكار في حد ذاته ما هو في الحقيقة إلا برهان ساطع على أن هذه البروتوكولات حقيقة وغير مزورة ، وقد استطاع اهر هتلر أن يصل إلى نتائج لها خطرها في هذا الموضوع منها أن اليهودية الدولية تبغى الاستئثار بالشؤون المالية في العالم والسيطرة عليها ، وتريد أن تتخذ من روسيا قاعدة تعمل منها لأجل تقوية أركان الدول الوطنية ، ثم تسعى لجعل فلسطين مقرا لجميع المؤامرات التي تحاك خيوطها لتحرريك الشعوب للثورة ضد الحكومات الوطنية في العالم . على أنه لما كان اليهودي — كما يقول اهر هتلر — عاجزا عن ممارسة شؤون الحكم وإخضاع المجلس الأبيض لسلطانه المباشر ، ولما كان يعترف في قرارة نفسه بهذا العجز ، فقد أخذ يعمل على تلويث المجلس الأبيض حتى يسهل عليه إخضاع هذه الشعوب ، ولذلك « فإن الشاب اليهودي ذا الشعر الأسود يمكن ساعات طويلة يشع في وجهه حبور شيطاني ، مترقبا الفرصة التي تمكنه من السطو على عرض فتاة غريبة تعوزها الخبرة وتنقصها القدرة على المقاومة ودفع الإغراء بل إن هذه الرغبة في تلويث الأبيض هي التي جعلت اليهود يحضرون الجنود السود إلى أقلام الراين بموافقة فرنسا التي تعتبر بلا جدال أكبر أعدائنا ، والتي يؤدي ذلك الاختلاط المتزايد بين شعبها وبين الزنوج إلى خطر يهدد في المستقبل الجنس الأبيض في أوروبا ، وقد خلص اهر هتلر من ذلك كله إلى نتيجة واحدة ، هي ضرورة القضاء على اليهود قضاء مبرما . وفي ذلك يقول . « واعتقد إلى أنما أعمل اليوم بما يتفق تمام الاتفاق مع أغراض الخلق العظيم . فاني عند مهاجمتي اليهود إنما أخوض في الحقيقة نضالا من أجل إتمام عمل الآلهة نفسه ،

وإذا كان هذا رأي الزعامة المسؤولة ، فإن من السهل إدراك مدى تلك الدعاوة التي روج لها النازيون في داخل ألمانيا وخارجها من أجل اضطهاد اليهود وإفنائهم فقد نسج صفار الزعماء والكتاب النازيين على منوال زعيمهم الكبير ، إذ جاء في نداء وطني اشتراكي أعيد طبعه وتوزيعه مرارا ، مامعناه « ان اليهودي هو السبب في أننا نرسف في أغلال الرق والعبودية وهو الذي أفاد من ذلك كل الفائدة ، فقد حطم جنسنا ولوث أخلاقنا ، وتسبب في اضطراب معين حياتنا ، وعدم قوتنا ، وقال (ريفنتلو) Reventlow « إن اليهودي هو الدود الذي ينخر في هيكل الانسان فعليا أن نهلكه ! ، وقال غير هؤلاء ، ان من مقتضيات طقوس اليهود

الدينية قبل المسيحيين واستباحة دماهم ، كما أنهم يأخذون الربا الفاحش لأسباب دينية ، ويزيلون بكاره الشابات المسيحيات عامدين ويعملون على إفساد الساطات الألمانية مما يقدهون من رشوة رغير ذلك ، ويشربون دماء سواهم من الأجناد .

وإلى جانب هذه الدعاية ، أصدرت دولة الريح الثالث طائفة من القوانين الصارمة لإقصاء اليهود عن الوظائف الحكومية والخدمة العامة ، ولم يكن إصدار هذه القوانين أمراً غريباً أو غير متوقع الحدوث . فإن إقصاء اليهود عن الوظائف وإخراجهم من ألمانيا كان في الحقيقة من أهم الوعود التي تضمنها البرنامج الذي أذاعه النازيون على الأهلين ، ولم يعارضه هؤلاء فقد وعد (جريجور ستراسر) Gregor Strasser في آخر أكتوبر ١٩٣١ ، أي قبل انفصاله عن النازيين وخروجه عليهم — بأن يقضى النازيون على اليهودية في ألمانيا قضاء مبرماً . كما وعد أحد النواب النازيين (في مجلس الديات البروسي) في ٢ يونيو ١٩٣٢ ، بأنه عقب أن يفرغ النازيون من تنظيم البيت — أي ترتيب شؤونهم الداخلية — تصبح مسألة طرد اليهود في ألمانيا في بساطتها وسهولتها كلعبة الأطفال . وفي هذا الوقت أيضاً ، أفضى (هرمان جورنج) بحديث إلى جريدة إيطالية جاء فيه « بينما بنال اليهود الذين ألحقوا الأذى بألمانيا جزاءهم العادل على ما فعلوا ، فإن جميع اليهود الذين دخلوا ألمانيا بعد شهر أغسطس من عام ١٩١٤ سوف يطردون من البلاد ، وسوف يطرد كذلك بقية اليهود دون نظر إلى منشئهم ، من جميع الوظائف المسؤولة في الصحافة والمسرح والسينما والمدارس والجامعات وعلى الجملة من كل عمل أو وظيفة قد يستطيع شغلها استخدام نفوذه لإضعاف الأمة وإفسادها ومكافحة الروح الوطنية والقومية ونشر الميول والآراء الدولية ، في غير مصلحة الشعب الألماني » .

والواقع أنه بعد أن آلت السلطة في ألمانيا للنازيين شرعوا ينفذون وعودهم السابقة دون إبطاء ففي أول أبريل ١٩٣٣ ، أي بعد أقل من شهر واحد من وصول هتلر إلى منصب المستشارية ، وفي اليوم نفسه الذي أعلن فيه (الفوهرر) بداية الثورة الوطنية الاشتراكية في الخطاب الذي ألقاه في مبنى (تمبلوف) ، حدث أن نظمت مقاطعة اليهود ، وبدأ اضطهادهم . حتى أصبح يوماً تاريخياً لا يمكن أن ينساه اليهود قاطبة . وفي ٧ أبريل ١٩٣٣ صدر قانون يقضى بطرد غير الآريين من الخدمة العامة ، أو إقالتهم من وظائفهم إذا استحقوا معاشاً . وجاء في تفسير (غير الآريين) أن المقصودين بذلك هم جميع الأفراد الذين ثبتت أن أحد آبائهم أو جدودهم من اليهود أو سبق لهم اعتناق اليهودية ، على أن يستثنى من ذلك جميع الذين شغلوا وظائف حكومية مدنية قبل أول أغسطس ١٩١٤ . ومن فالتوا في الحرب العظمى الماضية دفاعاً عن ألمانيا أو في جانب إحدى حليفتها ، وكذلك الذين فقدوا آبائهم

أو أبناءهم في أثناء الحرب ؛ وأما الخدمة العامة التي ذكرها هذا القانون وتشمل جميع وظائف الحكومة الفدرالية ، أو المحلية ، والنقابات ، والشركات . والهيئات المختلفة عدا الدينية منها ، والقضاء والمحاماة والتعليم في الجامعات وغيرها ، عدا المدارس اليهودية التي يدرس بها يهود فقط ، وجنود الخدمة الوطنية (أو الميليشيا) عدا الضباط والجنود العاملين ، ثم أصحاب الوظائف الشرفية ، وقد صدر قانون في ١٨ مايو ١٩٣٣ يمنع غير الآريين من شغل الوظائف (الشرفية) وخصوصا ما كان متعلقا منها بوظائف التأمين الإجتماعي وإسداء المعونة والنجدة لضحايا الحرب . وفي ٧ أبريل ١٩٣٣ صدر قانون خول السلطات القضائية طرد غير الآريين من مهنة المحاماة ، وفي ٢٥ أبريل ١٩٣٣ صدر قانون « لمنع ازدحام المدارس الثانوية والعليا من شأنه منع غير الآريين بطريق غير مباشرة ، من الالتحاق في المستقبل بعمل من الأعمال التي تقتضى مزاولتها ثقافة عالية ، وفي ٣٠ يونيو ١٩٣٣ صدر قانون آخر يمنع غير الآريين من شغل الوظائف المدنية ، ويقضى بطرد أى موظف متزوج باعتراف غير آرية أو يتزوج في المستقبل بغير آرية . وفي ١٣ يوليو ١٩٣٣ تقرر لإخراج جميع مديري السينا والمخرجين والمؤلفين ومهندسي التصوير ومن اليهم من الخدمة إذا تعذر عليهم اثبات آريتهم .

وفي عام ١٩٣٥ صدر « قانون وقرار الجنسية وتعيين صفة المواطن » وقد جاء في هذا القانون ما معناه « أن المواطن في دولة الرايخ هو الذي يجرى في عروقه الدم الجرمانى أو الدم القريب منه ، والذي يبين بفضل مساهمته أنه يرغب في خدمة الشعب الألماني ودولة الرايخ بأمانة ، ويكون صالحا لهذه الخدمة ولما كان الرايخ يحتاج يعتقد تمام الاعتقاد بأن نقاء الجنس الجرمانى ضرورة لا غنى عنها لبقاء الأمة الألمانية ، ولما كان يحذو العزم الذي لا يمكن أن يتزعزع للمحافظة على كيائها إلى الأبد ، لذلك قرر الرايخ يحتاج بالإجماع قبول (قانون نورمبرج لصون الجنس والشرف الجرمانى) الصادر في سبتمبر ١٩٣٥ . وعلى ذلك يمتنع الزواج بين اليهود والرعايا الذين هم من دم جرمانى أو من الدم القريب منه . وكل زواج يعقد بالرغم من وجود هذا القانون يكون لاغيا حتى لو كان هذا الزواج معقودا في الخارج ك محاولة لتجنب آثار هذا القانون ولا ينبغي أن يستخدم اليهود في بيوتهم رعايا الرايخ الذين هم من دم جرمانى أو من دم قريب منه والذين تقل أعمارهم عن خمسة وأربعين عاما . ويمنع اليهود من أن ينشروا الرايخ أو العلم الوطنى أو يظهروا الأعلام القومية . والذين لهم حق التصويت في المسائل السياسية ، وشغل الوظائف العامة هم مواطنو الرايخ المتمتعون بكامل حقوقهم السياسية ولا يمكن أن يكون اليهودى مواطنا في دولة الرايخ ، وليس له حق التصويت ولا الحق في أن يشغل إحدى الوظائف العامة

وقد أطلق على جميع القوانين والقرارات والأوامر التي أصدرتها السلطات النازية ضد اليهود اسم (قوانين نورمبرج) . وفي الفترة التالية ، وعلى الخصوص عند اشتداد الحملة الإرهابية على اليهود ، أعادت الصحف نشر بعض هذه القوانين ، كما نشرت ملخصا شاملا لأهم محتوياتها ، ومن ذلك يتبين أن (قوانين نورمبرج) كانت تقضى : (أولا) بطرد جميع الموظفين غير الآريين من الخدمة العامة ، ويدخل في ذلك الموظفون العاديون وأخوانهم من المستخدمين في البلديات ، والمدرسون ، وأساتذة الجامعات ، والقضاة ، والمدعون العموميون ، وكذلك صدر قانون يمنع المحامين غير الآريين من مزاوله مهنتهم . وكانت تقضى : (ثانيا) بحرمان الأطباء غير الآريين ثم أطباء الأسنان والجراحين من مزاوله عملهم . وفي قانون جديد حرم غير الآريين من التوظيف في المستقبل ، كما أن (جهة العمل) وهي التي حلت محل النقابات العمالية واتحادات أحزاب العمل ، طبقت هي الأخرى هذه القوانين كما كانت تقضى : (ثالثا) بحرمان اليهود من التعليم في المدارس والجامعات و (رابعا) بحرمان غير الآريين — اليهود — من العمل في صناعة الأفلام و (خامسا) بعدم السماح لليهود بالانضمام إلى جماعات الوقاية ضد الغارات الجوية و (سادسا) بمنع أى شخص لا يستطيع إثبات انحدره أو انحدر زوجته من أصل آرى منذ عام ١٨٠٠ ميلادية ، من وراثة الأرض التي يزرعها و (سابعا) بتحريم العمل في الصحافة على غير الآريين ، إلا إذا كانت الصحف التي يعملون بها يهودية صميمة و (ثامنا) بمنع جميع أعضاء الحزب النازي من الاختلاط أو الاتصال باليهود ؛ وهذا بناء على قرار أصدره (ريدولف هس) نائب هتلر في ذلك الحين و (تاسعا) بقيام وزارة المعارف النازية بنشر قائمة من الكتب التي فرضت استخدامها في المدارس ، وذلك حتى تعرف الناشئة المسألة اليهودية على حقيقتها ؛ ومن هذه الكتب : بروتوكولات شيكا صهيون ، المزورة و (عاشرا) بإصدار قرار من وزير الداخلية يسمح للآريين فقط بدخول امتحانات كلية الطب ؛ كما أصدر الوزير قرارا ثابتا بعدم إعطاء الصيادلة غير الآريين الترخيص اللازم لمزاوله أعمالهم و (أحد عشر) بإصدار قرار بمنع كل من لا يستطيع إثبات انحدره وانحدر زوجته من أصل آرى منذ عام ١٨٠٠ ميلادية من الاشتغال في أعمال الطباعة والنشر .

هذه خلاصة (قوانين نورمبرج) ؛ وقد تطرف النازيون في تعاقب تلك القوانين فأصدر الحكام ورؤساء البلديات في المدن المختلفة طائفة من القرارات والأوامر والتعليقات ضد اليهود ، وكل ما هو يهودي ، لدرجة كانت تدعوا إلى السخرية في بعض الأحيان . من ذلك ، الأمر الذي أصدره رئيس بلدة (كوينجسدورف) Koenigsdorf في بافاريا في أول أكتوبر

١٩٣٥ ، خاصا بالآبقار والمماشية المشتراة بطريق مباشر أو غير مباشر من اليهود ، فنقص هذا الأمر على ضرورة عزل هذه الآبقار والمماشية حتى لا تعيش في صعيد واحد مع الثيران التي يملكها غير اليهود ؛ وزيادة على ذلك نص الأمر على أن الآبقار والمماشية التي ثبت أنها كانت تعيش في مكان واحد مع آبقار ومماشية يملكها يهودي ، ينبغي وضعها تحت المراقبة لمدة عام بأكمله . وفي أثناء هذه المدة يتحتم عزلها أيضا عن الثيران التي يملكها آريون .

وفي مثل هذه الظروف ، كان من الطبيعي أن تنتشر في ألمانيا عروجة من الاضطهاد البنيف ضد اليهود ، واتخذ هذا الاضطهاد أشكالا متنوعة على أيدي المتعصبين ، وزعانف انقوم وأراذلهم ، فأخذوا يدنسون مقابر اليهود ومعابدهم ، حتى بلغ عدد الحوادث التي من هذا القبيل إلى صيف عام ١٩٣٢ مائة وتسعة (١٠٩) ؛ وأعلن المتعصبون ومن إليهم عن مهم على إحراق معابد اليهود وبيعهم في القريب العاجل . هذا ، إلى الضرر الجسم الذي ألحق بحوانات اليهود ومخازنهم التجارية . ومن الحوادث المشهورة ما فعله متطرفو النازيين في عيد فصح اليهود عام ١٩٣٢ . فقد هاجموا في هذا اليوم في (كورفندام) أحد شوارع برلين كل شخص اشتبهوا في أنه ينحدر من جنس سامي . وكان المخيرون وهم -حوالي العشرين من الشبان صغار السن الذين لا خبرة لهم في مسائل الجنس . واستطاعت هيئة يهودية بعد ذلك أن تنشر قائمة طويلة بحوادث الاعتداء المتكرر على أشخاص اليهود المنفردين . وزيادة على ذلك فقد وجد الصبيان والفتيات الصغيرات تسليية كبيرة في تلطيخ بيوت اليهود وحوانيتهم بالأقذار ورسم الصليب المعقوف — رمز النازية — في كل مكان . ولم يقتصر الأمر على إهانة كبار السن وإذائهم ، بل إن الأطفال اليهود في المدارس لم يسلموا من الاعتداء عليهم . ومن أن يؤذيهم زملائهم المسيحيون . وفي كثير من المدن الصغيرة أرغم التجار اليهود إرغاما على ترك متاجرهم ومحالهم ومغادرة القرية أو المدينة التي عاش فيها أجدادهم منذ أجيال طويلة وذلك لشدة الاضطهاد وإحكام المقاطعة . وفي جامعة برلين ، قرر الطلبة النازيون طرد جميع اليهود . ومع أنه كان من المنتظر أن يجد اليهودى في المحاكم والقضاء وسيلة للوقاية أو الحماية من اعتداء المعتدين ، فإن هذه المحاكم لم تجد سببا يسوغ توقيفها العقوبة على ملحقى الأذى باليهود ، لأنها كما قررت كانت لا ترى أن استخدام كلمة يهودى في معرض التحقير من شأنه إثارة غضب أحد . وكذلك فإن هذه المحاكم لم تجد مسوغا لتوقيع عقوبة قاسية على كثيرين ممن اشتركوا في حوادث تدنيس مقابر اليهود وبيعهم . وإزاء هذا كله ، لم يجد عدد من اليهود في صيف ١٩٣٢ مناصا من الكتابة إلى مستشار دولة الريخ ، يسألونه عما إذا كانت الحكومة

لا توجد ضرورة لإعطاء المواطنين اليهود الحماية التي من حقهم كمواطنين أن ينتظروها من حكومةهم .

بيد أنه كان في الحقيقة من المتعذر إعطاء اليهود أى ضمان أو وعد بالحماية ضد الاعتداءات المتكررة عليهم ، إذ كان زعماء الدولة النازية أنفسهم في طليعة منظمي حركة المقاطعة والاضطهاد وكانوا لا ينفكون يشيرون الخواطر ضد اليهود في كل آن ولحظة منذ ظهرت الوطنية الاشتراكية بشكلها المتطرف الرهيب إلى عالم الوجود . فهناك كتاب (كفاحي) مشحون بالمفريات الكثيرة على اليهود ، ولا يقل عنه في ذلك كتاب (الفرد روزنبرج) عن أسطورة القرن العشرين . ومن المعروف أن هذين الكتابين من الكتب التي فرض النازيون قراءتها على الشبيبة الجديدة . وهناك خطابات ألهر هتلر نفسه ، وهو الذي قال منذ عام ١٩٢٢ أن اليهود قد أظهروا نبوغا حقيقيا في معرفة كيف يفيدون من ظروف السياسة المتقلبة ، حتى صار لهم أنصار ضمن أحزاب اليمين وأحزاب اليسار يعملون جميعا من أجل نشر الفساد في الدولة بشتى الطرق المردولة . وهناك كتابات كبار النازيين الآخرين أمثال الأستاذ هرمان جوش Hermann Gauch ، والدكتور كريك Kriek ، و (والتر داريه) Walther Darre ، و (والتر شارر) Walter Scharrer وغيرهم . وكلها ملأى بالمطاعن على اليهودية واليهود .

ولما كان من المتعذر سرد جميع حوادث اضطهاد اليهود في ألمانيا منذ برز الحزب النازي إلى عالم الوجود ووصل رئيسه إلى مستشارية الرئخ ، إلى وقت اندلاع الحرب العالمية الثانية ، فإنه يكفي أن نسجل الآن حوادث موجات الاضطهاد التي اجتاحت اليهود في كل من ألمانيا والنمسا في شهرى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٣٨ ، لا لتبيان ما وصل اليه الطغيان النازي من شدة مريعة فحسب بل ولأن هذه الاضطهادات المروعة سرعان ما أوجدت مشكلة اللاجئين . تلك المشكلة التي ذهب عدد غفير من اليهود ضحية لها من أوروبا عموما وفي أوروبا الوسطى على وجه الخصوص .

فيعد أن سقطت النمسا في قبضة ألمانيا في مارس ١٩٣٨ أعلن (هرمان جورنج) في فيينا الحرب على اليهود بقوله : « إننا لانحب اليهود ، وهم لا يحبوننا ؟ وإذلك فسوف ندخل عليهم السرور بإرغامهم على مغادرة البلاد ! » . وكان هذا الإعلان بمثابة إنذار لبدء موجة الاضطهاد العظيمة التي سرعان ما أثارت الرعب والفرع في فيينا في أبريل من العام نفسه ، إذ سيطر النازيون سيوف الإرهاب على أعناق اليهود في هذه المدينة التاريخية القديمة . وكان عدد اليهود بها لا يزيد على ١٧٠,٠٠٠ ، وضائق السبل في وجه الكثيرين منهم حتى بلغ متوسط سن فضلوها الانتحار منهم في كل يوم من أيام هذا الشهر مائة وثلاثين : وظلت موجة الانتحار

على شدتها بين اليهود في الشهور التالية ، حتى بلغ عدد المنتحرين في يوم من أيام شهر يولييه عام ١٩٣٨ ثمانمائة (٨٠٠) ؛ بل لقد قدر عدد المنتحرين عموما في خلال الشهور الأربعة الأولى من الاحتلال الألماني بنحو سبعة آلاف يهودي . أما الذين لم يلجأوا إلى الانتحار كوسيلة موأنية لتخلصهم مما هم فيه من كرب وبلاء ، فقد استطاع النازيون أن يتسكروا طرقا متنوعة لإفنائهم ولمبادتهم ، من ذلك تلك الحادثة المشهورة التي رواها (لويس جولدينج) Louis Golding في كتابه عن « المشكلة اليهودية » في عام ١٩٣٨ ، وقد رواها غيره كذلك . وهي تلخص في أن واحدا وخمسين شخصا وضعوا على ظهر سفينة في نهر الدانوب بالقرب من الحدود التشيكوسلوفاكية دون أن يقدم اليهم طعام أو نقود . . . وقد استطاع التشيكي أن ينفذوهم ؛ وهبأوا لهم مأوى مؤقتا وأمدوهم بالطعام . ولكنهم ما كانوا يجرؤون على الترحيب بهم واستضافتهم مدة طويلة أو على الدوام . ولذلك عملوا على ترحيلهم إلى هنغاريا . فأعادتهم إلى النمسا . (ليلاقوا العذاب ثانية ١) . وقد حدث مثل ذلك أيضا لجماعة أخرى ، أخرجتهم النمسا من ديارهم ووضعتهم على ظهر سفينة ظلت تسير بهم في نهر الدانوب عدة أسابيع على غير هدى حتى وقفت خارج إحدى الموانئ النهرية الهنغارية ١ . . . وانتهى الأمر بالسماح لهؤلاء المنكوبين بالدخول إلى فلسطين . وكان هؤلاء القلائل ولا شك من المحظوظين ، لأن ألوفاً من إخوانهم لم يظفروا بهذه النعمة العظيمة .

أما في ألمانيا ، فقد بدأت موجة الاضطهاد الكبرى في شهرى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٣٨ أيضا ، وذلك عندما قرر النازيون طرد اليهود نهائيا خارج حدود دولتهم . فكان مما حدث نتيجة لهذا القرار أن شرع النازيون يقبضون على اليهود المنحدرين من أصل بولندي المنشأ في أنحاء الرينخ الثالث ، وكان أكثرهم لا يزال بملابس النوم الخفيفة عند القبض عليهم وأرغموهم على عبور الحدود البولندية الألمانية ، سيراً على الأقدام ، ومن ورائهم الجنود النازيون بمدافعهم الرشاشة . وقد بلغ عدد هؤلاء المنكوبين ^{القرى} ١٥٠٠٠ من بينهم ألفان من الأطفال وفي يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٣٨ كان عدد الذين تركوا وشأنهم من غير مأوى أو ملابس أو ما كل ، يضر بون في الأرض الفضاء الواقعة بين حدود ألمانيا وبولندا عند بلدة زبونستزين Zbonszyn نحو سبعة آلاف نسمة .

وقد نشرت بيريدة (نيوز كرونيكل) الانجليزية في عددها الصادر في ١٤ نوفمبر ١٩٣٨ قصة هؤلاء التعساء كما رواها واحد منهم فقالت : « في الساعة الخامسة من صبيحة يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر ١٩٣٨ ، أوقفنا من نومنا وألقي القبض علينا . . . ولما كانت الستجون تعج بمن فيها من اليهود البولنديين فقد أرغمنا مع مئات غيرنا على الوقوف والانتظار

في ساحة السجن ينهمر علينا المطر مدرارا . وفي هذا المسكن خاطبنا أحد زعماء جنود الحرس (S.S) وأخبرنا بأنه قد تقرر طردنا وإخراجنا من البلاد ، وبأنه سوف يجرى ترحيلنا من ألمانيا في الساعة السابعة مساء . ولم يسمح لنا بالعودة إلى بيوتنا . وعلى هذا أرغمنا على مغادرة ألمانيا بما كان على أجسامنا من ملابس ليس غير أما بقيه ملابسنا وكذلك أثاث بيوتنا ، وأموالنا ، فقد اضطررنا إلى تركها جميعا في ألمانيا ، وصادرها رجال الجستابو . ثم نقلنا بعد ذلك إلى عربات السكة الحديدية المخصصة لنقل المهائم ، وتذوقنا في هذه الرحلة صنوفا من العذاب وتحملنا آلام الوقوف والجوع والبرد . ثم قطعنا المسافة بين الحدود الألمانية عند (نيوبوشن) Neu Beuchen والحدود البولندية سيرا على الأقدام ، وهي مسافة تبلغ عشرة كيلو مترات . وكان الجنود النازيون عندما غادرنا القطار قبل هذا السير المظني ، يدفعوننا ويسوقوننا أمامهم كالأنعام ، ويهالون علينا بالضرب المبرح ، ويحيطون بنا من اليمين واليسار حاملين بشادقهم ذات الحراب ، وفي الخلف ، مصويين مدافعهم الرشاشة نحونا وفي نهاية الأمر وصلنا إلى الحدود البولندية ونحن في حالة إعياء شديد . حتى سقط على الأرض الشيوخ من الرجال ، والعجائز من النساء ، وغيرهن من برج بين التعب وكذلك الأطفال . وكان جميع هؤلاء يتكون من غير إسعاف أو مساعدة . ولكن الحراس البولنديين لم يسمحوا لنا بالمضي في سبيلنا واجتياز حدود بلادهم وأرغم هذا الحشد وكنا ثمانية آلاف ، من همبرج ، وبرلين وكولون ، وإيسن ، على المسك في غابة هناك . وفي أثناء ذلك كله ما كان يعنى بأمرنا الإنسان . فأخذ منا الجوع كل مأخذ . وحضنا البرد القارس بأنيابنا ، وسقط منا كثيرون ضحية للجوع والبرد وظلمنا على هذه الحال حتى استطعنا أن نجد مكانا في قرية على الحدود مكثنا بها ثمانية أيام يحرسنا الجنود البولنديون وكانت إقامتنا خلال هذه المدة في حظائر الخيول . وفي اثنين من هذه الحظائر التي ما كانت احدهما تتسع لأكثر من مائة حصان ، اضطر حوالى الثمانية آلاف شخص إلى الإقامة . ينامون على القش ويهلكهم البرد وأخيرا شكلت لجنة لمساعدتنا وتزويدنا بالطعام . فكنا نتناول وجبتين احدهما في الصباح والأخرى في المساء ولم يكن ما نأكله في كل وجبة يزيد على كسرة صغيرة من الخبز وقليل من الحساء وهي كمية لم تكن تسد الرمق مما أدى إلى انتشار المرض وكان المرضى يعزلون في خيام وينامون على القش . وكان عدد هذه الخيام مبيعة ، ويجرى العمل لبناء عشر غيرها بسبب ازدحامها وليس هناك أى مستشفى . ويزداد عدد المرضى الذين يشكون من الآم الممدة بسبب رداءة الطعام وقلة التغذية أما الذين أصيدوا بحمى التيفود فقد بلغوا المائة . والباء الموجود في معسكرنا لا يصلح للشرب لأنه ماوث . ومع هذا يدفع اليأس الجميع إلى الشرب منه إذ لا يوجد سواه !

هذه القصة كتبت بعد مضي أممبوع واحد على وجود هؤلاء المنكوبين في المنطقة الحرام الواقعة بين الحدود البولندية والألمانية . وقد اضطر حوالى خمسة آلاف من هؤلاء التمساء إلى البقاء في (زبونستزين) Zbonszyn أكثر من شهرين . يتلقون مساعدة الهيئات اليهودية البولندية التى جمعت التبرعات لإعانتهم ونجدهم في جميع أنحاء العالم .

* * *

أما السبب الذى دعا إلى بقاء هؤلاء المنكوبين وأمثالهم من غير مأوى أو ملبس أو مأكل في المناطق الحرام الواقعة بين حدود دولة الريخ وحدود الدول المجاورة ، فهو أن هؤلاء « اللاجئيين » اليهود كانوا في الحقيقة لا يحملون « جوازات » أو أية أوراق رسمية من حكومة الريخ الثالث تدل على جنسياتهم . ذلك بأن النازيين رفضوا بتاتا إعطاء هؤلاء اليهود المطرودين المنبوذين أية جوازات أو أوراق رسمية ، كما فعلوا مع خصوصهم السياسيين الآخرين الذين اضطروا الى الفرار من الطغيان النازى ، أو أرغمهم النازيون أنفسهم على مغادرة البلاد الأمر الذى أوجد ما صار يعرف باسم « مشكلة اللاجئيين » .

وذلك أنه كان من المتعذر على الحكومات ، تبعا لأحكام القانون ، أن تقبل في بلادها الاشخاص الذين ليس لديهم جوازات تثبت جنسياتهم (فعرفوا لذلك باسم الأشخاص الذين لا دولة أو لا وطن لهم) وكذلك الأشخاص الذين ليس لديهم تأشيرات من قنصليات الدول التى يبغيون اجتياز حدودها أو الإقامة بأرضها .

وقد أوضح أحد الثقة طرفا من أسباب مشكلة « اللاجئيين » هذه ، بقوله « ان لعب كرة التنس الذى يتقاذف أفرادا من البشر قد أصبح أمرا مأثوفا معروفا في أوروبا الوسطى منذ وضعت الحرب العظمى الماضية أوزارها بيد أن عدد ضخائيا هذه اللعبة في الماضي كان قليلا كما أن هؤلاء الضحايا كانوا في الحقيقة من الأفراد الذين أمسوا لا دولة لهم إذ فقدوا جنسياتهم من جراء التغيير الذى طرأ على الخريطة السياسية بعد انحلال امبراطورية الهابسبرج القديمة أما الآن فقد صار تقاذف أفراد البشر من المسليات الجديدة التى أوجدها إيمان ألمانيا في طرد اليهود وغير الآريين والخصوم السياسيين دون رحمة أو شفقة . وصار حراس الحدود في كل دولة إذا ما أرغى الليل سدوله يتنافسون في الخلاص من أكبر عدد ممكن من هؤلاء (اللاجئيين) الموجودين في المناطق الحرام المتاخمة لحدود بلادهم ، وذلك بأرغامهم على اجتياز الحدود والدخول إلى أرض الدول المجاورة بطريقة لا يقرها عرف أو قانون وبذلك يساعد رجال الشرطة في كل دولة مثل هؤلاء الرجال والنساء والأطفال على خرق قوانين الدولة الأخرى بل أنهم ليدفعونهم الى ذلك دفعا فكان جند الحرس (S.S) ورجال الجستابو ينقلون

كل مساء حوالى الأربعين لاجئاً من النمسا الألمانية إلى القرى الواقعة على حدود مورافيا ، ثم يأمرهم بعد إعطائهم بعض نقود تشيكية بالعدو السريع عبر الحدود . فيتلقاهم من الجانب الآخر الحراس التشيك ويرغمونهم على عبور الحدود مرة ثانية إلى بلادهم والعودة من حيث أتوا . أما الذين يستطيعون الإفلات من قبضة هؤلاء الحراس ، فكانوا يعيشون عيش المجرمين فى المدن التى يلجأون إليها . لأنهم ما كانوا يجرؤون على قيد أسمائهم فى سجلات « البوليس » أو كسب قوتهم . بل كانوا فى خوف دائم من أن يكشف أمرهم ويرغموا فى النهاية على الخضوع لهذه التجربة القاسية مرة أخرى . وكان من أثر هذا الرعب الذين فيه يصبحون وفيه يمسون أن صاروا فريسة سهلة فى أيدي أصحاب المحال التى ينزلون بها أو أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم ، فيظل هؤلاء يهددونهم بفضح أمرهم « للبوليس » حتى يستعروهم فى أعمالهم بأجور زهيدة لا يجد اللاجئون مناصاً من قبولها خشية أن يؤدى إفشاء سرهم إلى أن تطبق عليهم القوانين التى وضعتها حكومات هذه البلاد ضد اللاجئين .

« وقد حدث مثل ذلك أيضاً عند الحدود السويسرية ؛ بل إن حوادث اللاجئين عند هذه الحدود مالم يثبت أن زادت زيادة كبيرة إذ أن سويسرة أجازت مؤقتاً دخول اللاجئين إلى بلادها بيد أن السلطات الحكومية فى (برن) مالم يثبت هى الأخرى أن غيرت من موقفها آراءهم ، فصارت ترفض كما فعلت حكومة (براج) — التشيكوسلوفاكية — قبول اللاجئين إليها . وهكذا أخذ جنودها ورجال الشرطة فيها ومن إليهم يبدون نشاطاً عظيماً فى حراسة معابر الجبال وشواطئ بحيرة (كونستانس) حتى أوصد هذا الباب فى وجوه اللاجئين وزادت تبعاً لذلك شقاوتهم وتعاستهم . »

تلك كانت (هيسترى اليهودية) فى ألمانيا النازية . وظاهر أن هذه الهستيريا بلغت ذروتها فى كل من ألمانيا وكذلك النمسا (بعد احتلالها) فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٣٨ . وفى الواقع إن هذه الموجة القاسية كانت تقترن بحملة واسعة ضد اليهود فى ألمانيا . فطنقت الصحف النازية تذكر الأهلين من جديد بقوانين نورمبرج . ونشرت (Schwarze Korps) فى عددها الصادر فى ٢٣ نوفمبر ١٩٣٨ — وهى صحيفة الجستابو والحرس الهتلرى المختار — (S.S.) ، طائفة من القوانين والقرارات التى يقصد بها حرمان اليهود من كسب الجيش فى ألمانيا . ثم قالت : « سوف يستنفد اليهود مالهيم من رؤوس أموال ، ويغدون فى أعداد المجرمين ، وعند بلوغ هذه المرحلة ، فسوف نواجه ضرورة ملحة شديدة . هى ضرورة إبادة عالم اليهود الإجرامى بالوسائل التى تتبعها مع المجرمين . أى بالسيف والنار . وأما النتيجة المتوقعة فهى نهاية اليهودية وتحطيمها تحطياً لا قیامة لها من بعده . »

ولما كانت (هستريا اليهودية) جزءاً متما (هستريا الجنس) ولا يمكن أن تنفصل عنها ، فقد صار من الضروري إظهار مدى ما بلغته هذه الهستيريا الأخيرة في مسألة صون الجنس الآري وتهيئته للسيطرة العالمية المنتظرة لا من جهة ضمان نقاء الدم الآري وعدم تلوثه بدم الأجناس الأخرى غير الآرية مثل اليهود ، وإنما من جهة لا تقل في نظر النازيين خطراً عن سابقتهما وهي ضرورة تأسيس المجتمع النازي من أفراد أشداء صحيحي الأجسام ، سليمي العقول ، يصابون بفضل نقاء دسهم ، وصحة أبدانهم وسلامة عقولهم (؟) للاستثمار بالحكم والسفطان لافي المانيا وحدها بل وفي العالم أجمع .

• • •

لم يتورع النازيون عن ارتكاب أشنع الجرائم للتخلص من جميع الأفراد الذين قضوا بعدم صلاحيتهم لأن يكونوا أعضاء في المجتمع النازي الذي ينبغي أن يتألف في نظرهم من الأقداد والاسماء محسب . ولجأوا في تحقيق أغراضهم إلى وسائل ثلاث : هي القتل ، والخصي والتعقيم . إذ أنه لم يكن هناك مناص من اختيار الصالحين بدنيا وعقلياً وخلقياً حتى ينسلوا أطفالاً صالحين من تلك النواحي ، تقوم على أكتافهم عندما يشبون عن الطوق صرح الدولة الوطنية الاشتراكية العنصرية .

وقد دلت الإحصائيات على أن عدد المصابين بملل جثمانية وعنصرية وبأمراض تنمهم من النضال في الحياة من أجل كسب العيش يبلغ المليونين . من هذا العدد الضخم ، كان دافعو الضرائب في دولة الرينخ بولون ١,١٥١,٠٠٠ : وقدوما كانوا يتكفون به بمبلغ ١,١٥١,٠٠٠,٠٠٠ ريخمارك سنوياً . وقدّر عدد المصابين عنهم بأمراض عقلية بنحو ٨٨٠,٠٠٠ أي ٧٦ ٪ من مجموعهم . ويبلغ ما كان ينفقه عليهم دافعو الضرائب سنوياً ٢٣١,٠٠٠,٠٠٠ ريخمارك أو ٥٤ ٪ من العبء المالي كله . وقد استبدل النازيون من ذلك على أن بقاء هذه الحال على ما هي عليه لابد مفضى إلى تدهور المجتمع في النهاية . ولذلك استقر رأيهم على أن من واجب الدولة العمل على التخلص من هؤلاء المرضى غير الصالحين دون إبطاء .

ومع أن النازيين لم يعترفوا صراحة بأنهم يلجأون إلى القتل حتى يتخلصوا من يرون أنهم غير صالحين للعيش في المجتمع الألماني ، فقد أخفى هذا الأمر من الحقائق المعروفة ؛ ودل البحث على أن عدد القتلى من هؤلاء المشكوبين بلغ في عامي ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ مائة ألف شخص اختارهم الزعماء والإحصائيون النازيون ، وتولى رجال الجستابو عملية الإجهاز عليهم من غير استشارة أسرهم في ذلك ، فلم يعرف أهلهم من أمرهم شيئاً بل كان يصلهم نبأ وفاة مرضاهم

لجأة على غير انتظار . وقد تقدم كيف أن (جرافينيك) ، (هارثيم) و (بيرنا) كانت مراكن هذه المجازر البشرية .

وفي أول يناير ١٩٣٤ صدر قانون يقضى بأن يخصى غير الصالحين . ثم نفذ (مكتب سياسة الجنس أو العنصرية) هذا القانون ، فبلغ عدد من تم خصيمهم في عامي ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ٩٩٦ شخصا : وقدر (المكتب) المذكور عدد الذين أخصوا عموما منذ صدور هذا القانون إلى قيام الحرب في سبتمبر ١٩٣٩ بين ١٥٠٠ ، ٢٠٠٠ أى بما يزيد على ٣٠٠ شخص في كل ستة .

وبعد خمسة شهور من وصول الهر هتلر إلى الحكم ، صدر قانون استطاع النازيون بفعله أن يعقموا (٣٧٥,٠٠٠) شخصا تقريبا في ست سنوات . أى إلى عام ١٩٣٩ . وأما هذا القانون . ويطلق عليه اسم : قانون منع المصابين بالأمراض الوراثية من التناسل ، فقد نص على ضرورة إجراء جراحة لكل فرد مصاب بمرض وراثي . حتى يصبح عاجزا عن أن يكون له أطفال ، على شريطة أن يثبت بطريق الخبرة والتجارب العلمية الطبية أنه من المحتمل جدا أن يرث الأطفال الذين يولدون لهذا الشخص قدرا كبيرا من النقص الجثافي والمثلي . وبلغت هذه الأمراض الوراثية تسعة . منها ضعف العقل ، والصرع ، والهمم والمثلي الوراثيان ، والعاهات الجثمانية والجنون والإدمان على المسكرات وغيرها . وكان هذا القانون يطبق على الألمان وعلى الأجانب سواء بسواء ، فلم يستطع الآخرون الإفلات من جراحة التعقيم إلا إذا غادروا الريخ . وأما الألمان المصابون بأحد هذه الأمراض ، وكانت منهم تزيد على عشر سنوات فكانت تجري لهم هذه الجراحة ، ولم يستثن من ذلك سوى الأشخاص الذين لم تكن لديهم قدرة على التناسل بسبب شيخوختهم أو لأسباب أخرى ، وكذلك الأشخاص الذين كان يخشى على حياتهم من إجراء هذه الجراحة لهم . هذا فضلا عن الأشخاص الموضوعين تحت الرقابة التامة في إحدى المؤسسات أو المصحات التي توافق عليها الدولة . أ. الذين كانوا يفضلون بعض اختيارهم دخول إحدى هذه المؤسسات حتى لا تعقمهم الدولة . وقد أجاز النازيون التعقيم بصفة اختيارية ما دامت الجراحة لا تعرض حياة الراغبين في إجرائها للخطر ، وفي غير الظروف التي يثبت فيها أن الأفراد الذين يرغبون فيها ، غير مصابين بعاهات أو أمراض يخشى انتقالها بالوراثة إلى ذريتهم . والسبب في هذا التقييد أن القانون النازي كان يعتبر الإكثار من النسل واجبا تفرضه الدولة على المواطنين الاتحادي . انتخاب العقول والأجسام السليمة ، كما كان يعتبر منع المرضى والمصابين بالعلل الوراثية من أن يتناسلوا من أهم وأقدس واجبات الدولة .

ولا شك في أن (قانون منع المصابين بالأمراض الوراثية من التناسل) كان من أخطر القوانين التي سنّها النازيون وأقساها . فمن الناحية العلمية ، لم يقطع علماء البيولوجيا برأى في أنواع الأمراض التي يمكن انتقالها بالوراثة ؛ كما أنه من المتعذر تقدير مدى ضعف التفكير وإعمال الروية لدى أى إنسان ، أو إقامة الدليل على أن رجلا من الرجال ضعيف العقل قاصر الذهن ، قليل الإدراك . وكل هذه من الحالات التي كان النازيون يطلبون أن يعقم من أجلها أصحابها ولم يجدوا ضمو هذا القانون وسيلة للتمييز بين ذوى العقول السليمة وذوى العقول المضطربة سوى الإلتجاء إلى ما يسمونه (اختبارات الذكاء) . وهى عبارة عن مجموعة من الأسئلة كانت تضعها الحكومة النازية وتطلب إلى الأفراد الذين تريد فحصهم الإجابة عليها ؛ فإذا استطاعوا ذلك كانوا من أصحاب العقول الراجحة السليمة . أما إذا عجزوا ، كان التعقيم الإلجبارى من نصيبهم . غير أنه كان يحدث فى حالات عدة أن (المرضى) كانوا يستطيعون الحصول على الإجابات المطلوبة فى نظير رشوة يدفعونها عن طيب خاطر فى سبيل التحرر من قسوة هذا القانون . ولما وجد النازيون أن كثيرين من خصومهم الذين أرادوا حرمانهم القدرة على التناسل نكابة بهم قد استطاعوا الإفلات من (اختبارات الذكاء) ابتكروا « مقاييس » أخرى تمكنهم من تنفيذ مآربهم . فقال الهير هتلر إنه يكفى لإثبات حالات ضعف العقل وقصور الذهن أن يؤسم الفرد بالتفكير السطحي أو بعدم القدرة على تقلب وجوده الرأى فى أمر من الأمور ، أو بالانحلال الخلقي ، وهكذا عقم النازيون أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ شخص بسبب « ضعف عقولهم » ، كما أدعوا . كما سيطروا بفضل هذا القانون وبفضل التفسيرات والاختبارات التي أعدوها على حياة ثمانين مليوناً من الأنفس فى دولة الريخ الثالث .

ولم يقنع النازيون بإجراء عمليات التعقيم والخصى للأشخاص الذين ينطبق عليهم القانون بل اتخذوا من وجود هذا القانون ذريعة لإلقاء الرعب والفرع فى قلوب أولئك المواطنين الذين اعتبرهم السادة النازيون أعداء للنظام القائم . فكان التعقيم والخصى إلى جانب القتل . والعزل فى مصحات الاعتقال من وسائل بسط نفوذهم وسلطانهم على ألمانيا .

ومع هذا كان النازيون يبررون ما يفعلون بأنهم إنما يريدون أن ينشئوا مجتمعاً من السادة الصالحين لممارسة شؤون الحكم فى العالم . فهم من أجل إنشاء هذه الطبقة (النبيلة) لا يترددون فى اتباع كل ما يروونه ضرورياً للحفاظ على نقاء الدم وخلوص الجنس الأرى من الشوائب . ولذا أكد من أن الصالحين جثانياً وعقلياً وخلقياً هم وحدهم أصحاب الحق فى

أن يتناسلوا . وكان ذلك أهم ما دعا النازيين إلى إصدار ماسبق الحديث عنه من القوانين المتعلقة بالزواج .

ومما يدل على أن النازيين كانوا يريدون من سن هذه القوانين الصارمة أن يربطوا مجتمعا من الرجال الأفذاذ المتخصصين للقيادة النازية ولتعاليم الزعيم ، والذين لا يعرفون غير الدولة الوطنية الاشتراكية الصميمة وطننا لا يحجمون عن أن يفتدوه بالمهيج والأرواح . أن الزعماء النازيين حرصوا دائما على أن يختاروا جماعة الحرس المختارة (S.S) الذين اصطفاهم المهرتل وانتقى منهم حراسه الخصوصيين الذين يسهرون على حياته من بين الذين نشأوا نشأة نازية صحيحة وثبت نقاء جنسهم الآرى وصلاحياتهم العقلية والحلقية حسب مقاييس الحزب ، ولزيادة التأكد من أن طبقة النبلاء الجديدة من جنود الحرس ، سوف تظل دائما بمنأى عن أن يلوثها بطريق المصادفة أو الخطأ امتزاج دم الأجناس الأخرى بدم أعضائها الآرى النقي . أو انتقال أحد الأمراض المعدية إلى أفرادها وذرياتهم ، لم يمنع النازيون بالقوانين القائمة المعمول بها في هذا الشأن ، بل أصدروا أوامر وتعليمات خاصة طلبوا إلى جنود الحرس (S.S) الخضوع لها والعمل بها ، فصدر (هنريك هيملر) في آخر ديسمبر ١٩٣١ أمرا جاء فيه : (أولا) رجل الحرس (S.S) يجري اختياره بدقة من بين الألمان الذين ينحدرون من أصل آرى صحيح ، (ثانيا) وعملا بما تتطلبه أغراض الوطنية الاشتراكية ، وبناء على ما هو معروف من أن مستقبل الشعب الألماني (الجرمانى) يتوقف على بقاء الدم الذى يجري في عروق هذا الشعب نقياً ، تقرر أن تعد تصريحات خاصة لزواج جنود الحرس ابتداء من أول يناير ١٩٣٣ ، (ثالثا) الغرض من هذا إنشاء أسر جرمانية محترمة من الجنس الآرى ، وبقاء هذه الأسرات ، (رابعا) تعطى أو تمنع تصريحات الزواج هذه بناء على اعتبارات متعلقة ببقاء الجنس وسلامة الصحة الموروثة لحسب (خامسا) كل فرد من أفراد الحرس (S.S) يريد الزواج عليه أن يحصل على ترخيص من زعيم هذه الجماعة هنريك هيملر ، (سادسا) جميع من يتزوجون على الرغم من رفض الترخيص لهم بذلك يطردون من جنود الحرس . وفى المواد (السابعة والثامنة والتاسعة) طلب هيملر من الراغبين فى الزواج أن يقدموا جميع الوثائق التى تثبت خلوص آريتهم وآرية الزوجات اللواتى يقع عليهن اختيارهم حتى تستطيع الهيئة المسكفة بفحص هذه المسألة أن تهتئ وشجرة الأسرة كاملة لفرق الحرس وأن تحتفظ بها ضمن أوراقها ووثائقها . وفى المادة العاشرة والأخيرة ، اختتم هيملر هذا الأمر بقوله : « إن جنود الحرس (S.S) يعرفون دون ريب أننا نخطونا بفضل صدور هذا الأمر خطوة لها أهميتها . وكل سخرية أو تحقير أو سوء فهم لا يؤثر فينا ، فإنما المستقبل لنا وحدنا »

ولما كان جنود الحرس من الذين سبق لهم اجتياز اختبارات الحزب النازي المنوعة قبل انضمامهم إلى هذه الجماعة المصطفاة ، فإن جميع المتاعب الناشئة عن تطبيق هذا الأمر كانت في الحقيقة من نصيب المرأة التي تحدثها النفس بالزواج من أحد هؤلاء النبلاء الجدد ، فكان عليها قبل كل شيء أن تكتب إلى عدد من الأبروشيات حتى تستخرج من سجلاتها شهادات الميلاد ووثائق الزواج الخاصة بأجدادها إلى الجدد الثالث على الأقل ولم يكن استخراج هذه الشهادات والوثائق من الأمور السهلة الهينة ، بل كان يتطلب جهدا عظيما من السيدة إذ كثيرا ما كانت تضطر إلى السفر والانتقال من مكان إلى آخر باحثة منقبة ، تقابل طائفة من الموظفين وتتحدث إلى رجال الدين المكلفين بحفظ هذه « السجلات » ، « الثمينة » في الأبروشيات المختلفة ومن يدري لعلها لا تظهر بعد هذا الجهد المضني بطائل ، لضياع هذه الشهادات والوثائق القديمة نتيجة أهمال المكلفين بحفظها في بعض الأحيان ، وبعد وصول النازيين إلى الحكم وصدور قوانين الزواج الصارمة ، تعددت حوادث السطو على الأبروشيات لسرقة سجلات المواليد والوفيات وعقود الزواج ، رغبة في (تزوير) شهادات ووثائق يمكن بيعها في (السوق السوداء) التي أوجدتها قوانين الزواج النازية لمن يغنون لإثبات أن الدم الآري النقي يجري في عروقهم وعروق أجدادهم من أزيمة قديمة ، حتى تنح لهم فرصة الزواج أو الالتحاق بإحدى الوظائف الحكومية الهامة أو الانخراط في سلك الحزب النازي العتيق ، أو الانضمام إلى طوائف الحرس الأسود (S.S) والتمتع بالمزايا التي أضحت من نصيب هؤلاء « النبلاء » الجدد في ألمانيا النازية .

فاذا استطاعت السيدة بعد هذه المتاعب الأولى الحصول على الشهادات والوثائق التي تريدها من الأبروشيات المختلفة ، وقبلت السلطات النازية هذه الأوراق وقطعت بأنها صحيحة ، وجب عليها بعد ذلك أن تعرض نفسها لفحص طبي دقيق تقوم به وزارة الصحة حتى تحصل على « شهادة الصحة » التي لا غنى عنها بقاها من أجل إجازة الزواج والموافقة عليه . وقد يظن القارئ أن هذا الفحص الطبي بالمعنى المعروف ، ولكن الذي يحدث خلاف ذلك ، إذ يكفي أن تقتنع السلطات النازية بأن السيدة من مؤيدات « الزعيم » والنظام القائم ، فتعطيها الشهادة الطبية المطلوبة مادامت ذات شعر أشقر ، وجهمة طويلة وعينين زرقاوين ولها غير ذلك من الخصائص الجثمانية التي تميز في نظر النازيين الجنس الآري من الأجناس الأخرى . وبما ينبغي ذكره أن هذا الفحص الطبي قد أغفل إغفالا تاما في أثناء الحرب . فصار طالبو الزواج يحصلون على الشهادات الصحية بعد فحص سجلات الصحة العمومية . بينما يعني الجنود وغيرهم ممن يؤدون خدمات وطنية مماثلة لما يؤديه الجنود من الفحص الطبي إعفاء تاما .

فاذا استطاعت السيدة إرضاء السلطات النازية والحصول على « شجرة الأسرة » المطلوبة

أو « جواز الآرية » . ثم على الشهادة الصحية . أمكنها أن تقدم طلبا للدولة حتى تحصل على « قرض الزواج » ، ذلك بأن الدولة النازية أخذت على عاتقها منذ دانت السلطة للهتلريين في دولة الريخ الثالث . إعطاء الزوجين معا قرضا يصل أحيانا إلى الألف من الريخماركات أو الخمسين جنيهها انجليزيا . وعند بدء العمل بهذا النظام منذ أول يونيه ١٩٣٣ كثر الإقبال على الزواج حتى اعتبر النازيون هذا التنظيم نجاحا عظيما لهم . وعلى هذا لم يكن الغرض الأول من (قروض الزواج) سوى معالجة أزمة البطالة المنتشرة في تلك الآونة بطريق غير مباشر . إذ كان من شروط الحصول على (قروض الزواج) أن تكشف السيدة المزمعة على الزواج عن مواولة عمل من أعمال كسب العيش في الدولة . فتفسح بخروجها من ميدان العمل مكانا لأحد الرجال العاطلين . أما ما أحدثه هذا التنظيم من آثار فيحسن إرجاء الكلام فيه حتى يبحث مركز المرأة في ألمانيا في ظل النظام النازي الجديد .

فإذا استطاعت السيدة التسلح « بجواز الآرية » ، و « الشهادة الصحية » ، و « وثيقة (قروض الزواج) » . فإن عليها إذا أصرت بعد ذلك كله على الزواج من خطيبها جندي الحرس الأسود (S.S) أن تلتحق بمدرسة أعدت خصيصا « للعرائس » ، Bräuteschule ، وهي مدارس انتشرت في ألمانيا وأرغم النازيون « العرائس » على الالتحاق بها حتى يتلقين التعليم الذي كان يعده النازيون ضروريا لكل امرأة تريد الزواج من أحد جنود الحرس والانضمام بفضل هذا الزواج إلى زمرة « النبلاء » الذين تتألف منهم أرقى الدبقات وأعلامها في المجتمع النازي .

ولكن لماذا كان على المرأة وحدها أن تتحمل كل هذه المتاعب ؟ بعض السبب في هذا أن جنود الحرس الأسود (S.S) رجال سبق اختيارهم واطمأن الزعماء إلى أنهم يتمتعون بجميع ميزات « البطل الآري » . ولسكن السبب الأكبر هو طبيعة المركز الذي كانت تحتله المرأة في المجتمع النازي الجديد . ويوضح نظره النازيين إلى المرأة ومقدار ما يحملونه لها من احترام أو تحقير ، أقوال زعمائهم وكتابتهم ، وكذلك تصرفاتهم وتشريعاتهم منذ وصولهم إلى الحكم . فقد حرص النازيون من مبدأ الأمر على إبراز حقيقة لها أهميتها : هي أن الدولة التي يعتزمون إنشائها (دولة رجال) لا يمكن أن توجد المرأة في وظائفها المدنية والسياسية مكانا تستطيع أن تعمل فيه إلى جانب الرجل ، أو أن تنافسه في كسب العيش ؛ كما أنها محرومة الحرمان كله في (دولة الرجل) هذه من أية حقوق سياسية ، وبخاصة حق التصويت في الانتخابات .

لذلك كتب أحد النازيين عقب وصول حزبه إلى الحكم يقول : سوف تعيش المرأة الألمانية منذ الآن في دولة يشيدها ويقودها الرجل ، أى في دولة غير برلمانية ، دولة محافظة لن يكون للمرأة فيها خلال المدة الطويلة التالية أى نفوذ مباشر ، كما كان الحال فيما مضى . وفى كتاب (أسطورة القرن العشرين) ، كتب فيلسوف النازية (الفرد روزنبرج) : « لقد كان دائماً من رأى أعجاب التفكير العميق أن الرجل متفوق على المرأة في ميادين البحث العلمى والاختراع والكشف ، وفى جميع الأعمال التى تدعو إلى الابتكار ، أما المرأة فوظيفتها مقصورة على صون الدم وتخليد الجنس (أى التناسل) ، . إلى أن قال : « وفى أوقات المحن العصبية ، يظهر إلى عالم الوجود كل من الرجل الخشن والمرأة المحررة ، وكلاهما دليل الانحلال السياسى والثقافى . وعلى الرغم من جميع الحريات الممنوحة للمرأة ، فإن قول الفيلسوف اليونانى أرسطو لا يزال صحيحاً وهو : إن عجز المرأة هو الذى يجعل منها المرأة التى نمرقها ، وعلى ذلك . كان منح المرأة نفوذاً دائماً فى أعمال الدولة من علامات انحلال العصر التى لا يمكن أن يخطئها أحد ، وآية ذلك — فى نظر روزنبرج — « هذا الهبوط الشنيع الذى نلاحظه فى مستوى الثقافة الأمريكية نتيجة لتتبع المرأة بمركز له خطره فى المجتمع الأمريكى . بل إن (روزنبرج) لا يتردد فى الاعتقاد بأنه لو كان أمر الدفاع وتحرير شؤون السياسة متروكاً بأيدي النساء ، لكان مصير أمريكا الضياع وانقضاء منذ مدة طويلة . وفى عام ١٩٣٤ تحدث هتلر إلى (مؤتمر النساء) عند انعقاد الحزب النازى فقال : « لقد حرصنا نحن الوطنيين الاشتراكيين منذ عهد طويل على أن نمنع النساء من التدخل فى شؤون الحياة السياسية التى لاتعنيهن إذ أن هذا التدخل عار وأى عار .

ومع هذا ، فقد حرص النازيون على ألا يظهر أو يظهر المحقرين لشأن المرأة ؛ ومن الحقائق المعروفة أن النساء فى ألمانيا كن من أكبر المشجعين للحزب الوطنى الاشتراكى عند نشأته . ومن أكبر المؤيدين للزعيم هتلر وأنصاره فى جميع الانتخابات التى أوصلته فى النهاية إلى منصب المستشارية ، اعترف هتلر نفسه بهذه الحقيقة ، فقال إنه لايسعه سوى الاعتراف بما كان لجلد النساء وشدة احتمالهن للمصاعب ، وإخلاصهن للحركة النازية من أثر كبير فى نجاحها ؛ فلو لا هذا الجلد وذياك الإخلاص من جانب المرأة الألمانية لما استطاع أن يقود الحزب إلى النصر فى النهاية . ولذلك لم يشأ الزعماء النازيون فى البداية إغضاب المرأة ، فشرع (ألبر جوبلز) وزير دعايتهم يفسر أقوال (روزنبرج) وغيره ، بقوله إن إخراج المرأة من الحياة العامة ليس المقصود منه التخلص منها أو الاستغناء عن خدماتها ، وإنما إرجاعها إلى الحياة الأصلية الشريفة حياة الأسرة والمنزل .

غير أن أقوال (جوربال) وأمثاله ما كانت لتغير شيئاً من نصيب المرأة التي انحط مركزها في المجتمع الهتلري حتى صارت هدفا لكل الإهانات التي شاء متطرفو النازيين أن يوجهوها إليها . وكانت السيدات « الآريات » التي نشأ بينهن وبين اليهود غير الآريين مودة وصداقة أكثر عرضة للتحقير والإهانة من غيرهن ، وتحملن عذاباً أليماً على أيدي الشبان الهتلريين في كل ظرف ومناجبة . من ذلك ما حدث في (نورمبرج) في يوم من أيام شهر أغسطس عام ١٩٣٣ عندما قبض على شاب من جنود المهجوم (S.A) على فتاة آرية تبلغ التاسعة عشر ربيعاً كانت تسير في صحبة شاب يهودي ، فانتزعا قسراً إلى مكان قريب حيث قص شعرها وحاق رأسها وعلق حول عنقها إعلاناً كتب عليه : « لقد أسلمت نفسي إلى رجل يهودي ! » ولم يكن هذا كل ما حدث للبائسة ، إذ اجتمع من حولها زعانف النازيين وأرغموها على السير في الشوارع والتثقل من مقهى إلى آخر ، وفي كل من هذه المقاهي أرغموها على أن تقف فوق منصة عالية وانهاوا عليها بأفحش ألفاظ الشتم والسباب . أما الفتاة المسكيننة فسرعان ما فقدت عقلها عقب هذا الحادث المؤلم ، وأودعت مستشفى للأمراض العقلية ولا يدرى أحد ما حدث لها بعد ذلك وإذا كان هذا نصيب المرأة الآرية ، فإن نصيب المرأة اليهودية على أيدي الهتلريين كان أشد وأنكى . فاليهوديات كن « المتهودات » في المجتمع النازي الجديد . ومن المعروف أن النازيين بعد سقوط النمسا أرغموا السيدات اليهوديات في مدينة فيينا على تنظيف (مراحيض) الرجال ونقل القاذورات بأيديهن !

وكذلك يتبين مبلغ إمتنان المرأة من الأساليب التي كان يتبعها الهتلريون في معاملة النساء عامة في المجتمع الألماني . فبينما كانوا يطلبون إلى زوجاتهم البقاء في بيوتهم لإدارة شؤون الأسرة ويحضونهن على عدم التزين واستخدام المساحيق وما إليها بحجة أن المرأة النوردية ليست في حاجة إلى مثل هذه الوسائل المتنافية للحيمة والتي تلجأ إليها غير الآريات والزنجيات ومن في عدادهن لاصطياد الرجال واغرائهم ، كانوا من ناحية أخرى ، باعتبارهم أصحاب السيادة والنفوذ في دولة الرجل الجديدة يسرون مع غير زوجاتهم سيرة معوجة . فيقبلون على معاشره الشقراوات الجميلات خارج نطاق الزوجية ، ويطلبون إلى خلياتهم الاهتمام بكل ما يزيدهن جمالاً ويكثرون من إهدائن الورود والزهور ، ويترعون معهن كؤوس التراب مترعة حتى قال أحد النقاد الاجتماعيين ما معناه : إن كل شيء في ألمانيا لا يمكن الحصول عليه بدون بطاقة التموين ، عدا الشقراوات ، والزهور والرياحين ، والشمبانيا ، ومعاطف الفرو الثين والجشنري ! ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد ظهرت عوامل أخرى نشأ بعضها ولا شك من إمتنان المرأة وتحقيرها وتحريم الزينة عليها وإرغامها على الترهل والبدانة — لأن البدانة كما كان يزعم

النازيون من أنجح الوسائل لسرعة الحمل وولادة الأطفال الأصحاء — ونشأ بعضها الآخر من طبيعة تنظيم الحزب النازي نفسه ، وكذلك تنظيم الدولة التي شاء الزعماء أن تكون دولة من الرجال ، وللرجال وحدهم وقد نجم عن تضافر هذه العوامل انتشار مرض الاختلاط الجنسي الشاذ بين هؤلاء الرجال أنفسهم .

وهذا المرض الاجتماعي الويل ، يرجع في الحقيقة إلى أصول تاريخية وثقافية قديمة ، يمكن إدراكها إذا عرف شيء عن تاريخ الأمة الألمانية خلال حرب التحرير من السيطرة النابليونية وكذلك عندما ظهرت رغبتها في التحرر من سلطان الأباطورية النمساوية القديمة في القرن التاسع عشر فقد لجأت في سبيل تحقيق أغراضها ومآربها إلى تأليف الجمعيات السياسية من أبناء الجامعات الألمانية وغيرها أمثال (البورشنشافت) (Burschienschaft) وجماعات الطلبة (ستودنتنشافت) (Studentenschaft) ، وكذلك جماعات « شباب ألمانيا الحرة » (فرايدوتش يوجند) (Freideutsche Jugend) . التي تأسست في عام ١٩١٣ من الشباب الذين أرادوا الاحتفال بالذكرى مرور مائة عام على معركة (ليبزج) حيث انهزم نابليون بونابرت في أكتوبر ١٨١٣ . وكانت كل من هذه الجماعات تقوم على أساس إقناع الفرد في شخص الحزب أو الجمعية وإقناع الحزب أو الجمعية في شخص الزعيم ، وكان يربط بين الأعضاء من ناحية وبينهم وبين الزعيم من ناحية أخرى رباط الدم على غرار ما كان يحدث بين القبائل والعشائر الجرمانية القديمة . كما أن مؤسسي هذه الجماعات اعتقدوا بضرورة عزل أعضائهم الشباب — ومنعهم من مخالطة النساء ، بدعوى أن هذه المخالطة تصرف الأعضاء عن تكريس أنفسهم لخدمة القضية التي نصبوا أنفسهم لخدمتها . ولذلك أنشأوا لأعضاء هذه الجمعيات منتديات خاصة ، ورسوموا لهم نوع الحياة التي يجب أن يعيشوها في معسكراتهم ؛ وكان من السهل أن ينشأ مرض الاختلاط الجنسي الشاذ بين هذه الجماعات البعيدة عن النساء ، شأن كل جماعة تعيش في عزلة جنسية .

وقد تقدم الكلام عن تأسيس الحزب النازي وشرح نظرية (الزعامة) المسؤولة وبيان ما كانت تتطلبه تلك الزعامة من ضرورة إقناع الفرد في شخص الزعيم ؛ كما تقدم الكلام عن رغبة الزعماء النازيين في أن يؤلفوا من شبان حزبهم طليعة جديدة من النبلاء في ألمانيا ، فعزلوهم عن غيرهم ، كما قيدوا زواج أعضاء الحزب وجماعة الحرس الأسود على وجه الخصوص بذلك القود الصارمة التي سبق ذكرها . ويتضح من هذا كله أن النازيين أنشأوا حزبهم على القواعد والمبادئ ذاتها التي عملت بها الأحزاب والجماعات القديمة ، مثل (البورشنشافت) وغيرها . وقد انتشرت العلاقات الجنسية الشاذة بين أعضاء الحزب النازي انتشارا مربعا من مبدأ الأمر

حتى صار زعماء الحزب لا يجدون غضاضة في أن يعرف الناس عنهم هذه الصفات المردولة ، بل لأنهم كانوا يفخرون بها ، وما يزال حادث (إرنست روم) وإخوانه من ضحايا دهم الدم ، المشهور في ميونخ في يونيو ١٩٣٤ ماثلا للاذهان .

وزيادة على ذلك ، فإن هذه الرذيلة الجنسية الشاذة لم يكن لها سند تاريخي فحسب ، بل كانت ترجع كذلك إلى أصل ثقافي . فقد استطاع أحد كبار الكتاب والمؤرخين (أوتوزاريك) Oto Zarek أن ينشر في عام ١٩٤٣ بحثا قويا عن تاريخ الثقافة الألمانية من أدب وشعر وموسيقى وتصوير وفلسفة واجتماع وكان من النتائج التي انتهى إليها من جميع هذه البحوث ، أن (الروح) الألمانية روح مزدوجة تحلق بالألمان في سماء الإنسانية والمجد من ناحية ، وتهبط بهم إلى حضيمض الحيوانية واستمرار البطش والقسوة من ناحية أخرى في الوقت نفسه . وكان من بين ما تناوله هذا الكاتب المؤرخ مسألة وجود هذا المرض الجنسي الشاذ وانتشاره بين الجماعات والأحزاب الألمانية السيامية وغيرها من القديم ؛ وبين الحزب النازي نفسه . وقد أسفرت بحوثه في هذا الموضوع عن نشر حقيقة ظلت الدعاية الألمانية على أيدي الهر جوبلز وأمثاله تحاول أن تطمس معالمها وهي أن الهر هتلر نفسه زعيم الحزب النازي ، وزعيم دولة الريخ الثالث ، كان من أشد الناس انغماسا في هذه الرذيلة فقد ذكر (زاريك) في كتابه (الثقافة الألمانية) German Kultur صفحة ١٨٤ ما ترجمته :-

ه كان (روم) الرجل الذي نجح نجاحا عظيما في تنظيم خلايا الحزب النازي الجديد فجمع أعضاء الحزب من بين أفراد (حركة الشباب الألماني) الذين كانوا أكثر قبولا من غيرهم للإضمحار إلى حزبه . وقد تبين أن ما قاله (بلوهر) Blüher ، قول صادق ، وهو أن الحركة النازية ما كان يمكن أن تنجح لو أن هتلر لم يضع نفسه على رأسها ، ، فإن كل شيء يتوقف على الشخصية ، ، وهذا أمر مسلم به . ولكن شخصية هتلر لم تكن تتلاءم تماما مع ما كان يطلبه (بلوهر) ففيا بين عامي ١٩٢٠ ، ١٩٢٢ قبل حركة الانقلاب والثورة الفاشلة (Putsch) ، كان نشاط هتلر الجنسي الشاذ معروفا في ميونخ . ثم سمى هتلر حتى يخفى أمر انغماسه في هذه الرذيلة ، ويحيط هذا النشاط بسياج من السكتان عندما أدرك أنه سوف يحتل مكانا ملحوظا في أعين الجماهير . بل إن يقظته سرعان ما جعلته يحمل على هذه الرذيلة الشاذة في خطبه العامة ، ولو أنه كان يعرف حق المعرفة أن أخص أتباعه المقربين إليه كانوا من المنغمسين في حماة هذه الرذيلة .

وهتلر نفسه هو الذي جعل من (إرنست) صاحب الشهرة السيئة من هذه الناحية في مجتمعات برلين ، رئيسا لجنود الحرس الاسود (S.S) في سيلزيا ، وقد ظل (إرنست) يحتل

هذا المكان الرفيع حتى قضى عليه فيمن قتلوا من زملاء (روم) في حادث ميونخ . وشعار نفسه هو الذى اختار (بالدور فون شيراش) Raldur von Schirach لزعامه شباب الريخ Reich Jugend führer . فلم تنقضى فترة قصيرة حتى أطلق عليه أحد المتطرفين فى برلين اسم (مفسد شباب الريخ) Reich Jugen verführer (ومعنى verführer بالعربية المضلل أو الرجل الذى يحمل سواه على سلوك سبيل الفواية) . وهتلر نفسه هو الذى نصب الدكتور (فونك) Dr Funk وزيرا للمالية الريخ ، والدكتور فونك من الذين كانوا يترددون كل مساء على عواخير الاختلاط الجنسى الشاذ وهتلر نفسه هو الذى منح مركزا عاليا فى وزارة المالية لصديقه (ارنست والتر) (Walter) من محترفى الملاكمة ومدربه القديم فى السباحة .

ولكن أهم من ذلك تلك القصة التى رويها ويؤكد صدقها أحد أقرباء وزير نازي مشهور ، وهى تلقى ضوءا على حياة هتلر الشاذة . فقد اعترف هذا الشاهد بأن (بالدور فون شيراش) كان الشخص المكلف باختيار ضحايا الزعيم ، أما هؤلاء الضحايا فكانوا بعد اقتراح الزعيم العظيم لهم وقسوته الشاذة معهم . يقتلون فى التو والساعة تخلصا منهم حتى لا يذيع شيء من أمر هذه المآسى . وعندئذ يرسل زعيم شباب الريخ خطاب تعزية لوالدى الضحية البائس يخبرهما فيه بأن فتاهما أصيب بحادث أودى بحياته فى أثناء خروجه فى رحلة للسير على الأقدام مع زملائه .

ويختتم (أوتو زاريك) هذا الحديث بقوله : « وإن هذه القصة لتتفق الاتفاق كله مع نظام التربية الألمانى ، وطقوس رباط الدم الأخوى الخفية ، وهى فى الحقيقة النتيجة المنطقية لعملية بدأت فى الواقع قبل تأسيس دولة الريخ الثالث على أيدي هتلر بحوالى المائة عام ! » . ولعل أكبر دليل على انتشار هذه الرذيلة ما أذاعته جريدة الحرس الأسود (S.S) والبوليس الرسمية — المسماة Das Schwarzekorps — فى مارس ١٩٣٧ من أن عدد المصابين بهذا الداء الويل والملتحقين بمختلف الأندية المخصصة لإتيان هذه الفاحشة فى أنحاء الريخ ، بلغوا المليونين عند وصول النازيين إلى الحكم . وهذا بطبيعة الحال عدا أولئك الذين كانوا لا ينتمون إلى هيئة من الهيئات التى أحصيت .

وفى استطاعة القارىء أن يتصور ما تكون عليه حال المرأة فى مجتمع تنتشر بين شبابه ورجاله وزعمائه رذيلة الاختلاط الجنسى الشاذ هذا الانتشار المروع . على أن المصائب التى نزلت بالمرأة الألمانية لم يكن مصدرها جميعا انتشار هذا المرض فهناك ناحية إيجابية أيضا فى التنظيم والتشريع النازى سبب للمرأة الألمانية آلاما لا تحصى ،

وألحقت بها المهذلة والمهانة . مثال ذلك ما فعله النازيون إذ حرروا النساء في دولة الرايخ الثالث مباشرة حقوقهن السياسية .

فن الحقائق المعروفة أن عدد النائبات في مجلس الريخستاج المنحل في ٣١ يولية عام ١٩٣٣ كان يبلغ الثمانية والثلاثين امرأة : نقص إلى خمس وثلاثين في نوفمبر ثم إلى ثلاثين في انتخابات مارس ١٩٣٣ ، ثم اختفى النساء من الريخستاج نهائيا منذ استأثر النازيون بالسلطان المطلق في الدولة . وزيادة على ذلك فقد أصدرت الحكومة البروسية في ٢٧ أبريل ١٩٣٤ أمرا يقضى بطرد جميع المتزوجات اللواتي تستطيع أسرتهن إعالةهن من الوظائف . وظلت الحكومة النازية تتذرع بشتى الوسائل لانقاص عدد الموظفات إلى أقل عدد ممكن ، وطرد النازيون فيمن طردوا عددا كبيرا من المعلمات بمدارس البنات واستبدلوا بهن الرجال ، وبذلك نقص عدد المدرسات بمدارس البنات العالية في عام ١٩٣٥ إلى (٩٠٩٤١) بعد أن كان قبل استلام النازيين لأزمة الحكم (١١٠٣٧٠) . وفي السنة الدراسية ١٩٣٥ — ١٩٣٦ بلغ عدد من يقومون بالتدريس في المعاهد العالية (٥٨٨٨٠) كان عدد النساء بينهم (٤٦) لم يعطين إلى جانب ذلك مناصب ثابتة أو مراكز مستقرة . ومع أن عدد المشتغلات بالأعمال الاجتماعية الصرفة ، ظل على ما هو عليه تقريبا مع ازدياد عدد الطبيبات فقد استأثر الرينال بالمراكز المسؤولة ، وقد هدد الدكتور (جيرهارد واجنر) Gerhard Wagner وهو رئيس الأطباء النازيين في ذلك الحين ، في اجتماع عقد في برلين في ديسمبر ١٩٣٤ : « بأنهم — أي النازيين — سوف يقضون على كل تربية عالية للنساء » ، إذ قيد النازيون تعليم المرأة العالي بقيود صارمة ، فأصدروا في ٢٣ أبريل ١٩٣٣ قانونا قضى بانقاص عدد الطلبة في الجامعات الألمانية إلى ١٢٠.٠٠٠ طالب ، على أن تبلغ نسبة عدد الطالبات ١٪ من هذا المجموع ، أي ١٢.٠٠٠ طالبة . فإذا عرف أن عدد الطالبات في الجامعات الألمانية في آخر سنة مدرسية سبقت وصول النازيين إلى الحكم . بلغ (٨٢٩ و ٢١) أي ١٩٣٢ ٪ من مجموع المنتسقين بالجامعات ، لتبين أن عدد الطالبات اللواتي أراد النازيون إخراجهن من الجامعات وحرمانهن الدراسة العالية لم يكن يقل عن (١٠.٠٠٠) فتاة . ومع أن السلطات النازية لم تلبث أن ألغت هذا القانون في ٩ فبراير ١٩٣٥ ، فإن الفتاة الألمانية الراغبة في إتمام دراستها العالية كانت تجد مشقة عظيمة في تحقيق هذه الرغبة .

ولكن إذا حرمت المرأة التعليم العالي ، والفرصة التي تمكنها من مزاولة المهنة التي يقع عليها اختيارها كالطب أو التدريس أو الخدمة الاجتماعية ، فإذا ياترى كان يريد النازيون أن يكون عملها ؟ لم يستطع النازيون الإدلاء برأى صريح حاسم في هذه المسألة . ولو أنهم قالوا أن الخدمة المنزلية ، هي ميدان المرأة الطبيعي الذي يتلاءم مع أنوثتها . إذ في وسعها أن تعمل

كمرضة أو كحربية للأطفال أو مديرة منزل أو خادمة . وكان من رأيهم قبل اشتداد أزمة الأيدي العاملة خلال سنوات الحرب أن العمل في المصانع أو المكاتب لا يتلاءم مع أنوثة المرأة ، بل ينبغي أن يكون من نصيب الرجل وحده ؛ والظاهر أنهم كانوا يريدون تفريغ أزمة البطالة التي واجهت النازيين في بداية عهدهم . لذلك بذل النازيون جهداً عظيماً لإخراج النساء من ميدان العمل ولتكنهن كانت جهوداً فاشلة . إذ دلت الإحصائيات الحكومية على أن عدد النساء العاملات قد ارتفع من ٤,٢٧٢,٤٨٧ في يناير ١٩٣٣ إلى ٥,٣٣٧,٥٧٣ في عام ١٩٣٦ أي بزيادة (١,٠٦٥,٠٨٦) امرأة . وسر هذا الفشل أن الرجل المتزوج ظل تحت الحكم النازي عاجزاً عن زيادة كسبه بدرجة تمكنه من الانفاق على أسرته ؛ أضف إلى هذا أن النازيين لم يستطيعوا تحقيق الوعود التي أسرفوا في بذلها للنساء الألمانيات عند بداية حكمهم ؛ ومنها إعداده البيوت ، ذات الطراز الحديث التي ينبغي أن تكون من نصيب كل أسرة ألمانية في دولة الريح الجديدة ؛ فقد وجد النازيون أن تشييد هذه البيوت وتجهيزها للسكنى من الأمور المستعصية في وقت كان الزعماء يوجهون فيه نشاط الأمة الألمانية نحو الاستعداد للحرب المنتظرة بل لقد كان هذا الاستعداد نفسه من الأسباب التي أدت إلى فشل النازيين في إخراج المرأة من ميادين العمل المختلفة . فإن الحكومة النازية سرعان ما جعلت نشاطها مقصوراً على إنتاج عتاد الحرب ، حتى ظهرت الحاجة الملحة إلى الأيدي العاملة وإلى استخدام النساء في نواحي الاقتصاد الأهلي المتعددة . بل إن النازيين سرعان ما عمدوا إلى إرغام عدد من النساء على ترك العمل في الحوانيت والمكاتب وهو ما يلائم أنوثتهن ، للعمل في المصنع والحقل . وقد حدث هذا حتى قبل نشوب الحرب مدة طويلة . ثم لم تلبث أن عظممت الحاجة إلى خدمات النساء في مختلف الأعمال الإنتاجية بعد قيام الحرب وإخفاق النازيين في جعلها حرباً خاطفة ، تكفل لهم النصر السريع .

ذلك بأن الحرب أوجدت النازيين أمام مشاكل كثيرة ؛ كان بعضها متعلقاً بضرورة استخدام جميع الوسائل التي من شأنها زيادة الإنتاج الحربي ، ومن أهم هذه الوسائل : الأيدي العاملة . وكان البعض الآخر متعلقاً بضرورة الإكثار من عدد المقاتلين الذين يرسلون تبعاً إلى ميادين القتال من جهة ، وإلى البلدان التي غزاها الألمان وخضعت لحكمهم من جهة أخرى . وقد أحدث وجود هذه المشكلات تغييراً ملحوظاً في مركز المرأة وفي الحياة بصفة عامة في داخل ألمانيا .

فأما عن الأثر الأول — فقد مر بنا كيف كان عدد النساء العاملات آخذاً في الزيادة بدرجة كبيرة ؛ بما يدل على أن النازيين قد أرغموا بإرغاماً بسبب ظروف الحرب والحاجة إلى

الأيدي العاملة على تغيير نظرهم إلى المرأة ، حتى صاروا يعتبرون لها بالذكاء والقدره على التفكير ، وإمكان الاعتماد عليها كأداة نافعة من أدوات الإنتاج الهامة ؛ فأجازوا لامرأة المزارع الذى أرسل إلى ميدان القتال ، أن تدبر شؤون المزرعة ، ولزوجة صاحب المحانوت الذى سقط فى ساحة الوغى أن تدبر عمله ؛ وهذا بطبيعة الحال إلى جانب عملها (الطبيعى) الذى يتلاءم مع أنوثتها فى البيت والمطبخ . كما أجاز النازيون استخدام الفتيات ضمن القوات المشاربة كعاملات للتليفون والتناصراف . وفى المصانع كذلك . بل إن الدولة ، فى هذه الظروف الجديده ، صارت تحتم على النساء المتزوجات ، مهما بلغ عدد أطفالهن — أن يكبرن ساعات معينة من كل يوم ، بطريق « التطوع » ، للخدمة العامة كباثعات أو مشغلات فى عمل من الأعمال التى كانت تشرف عليها مكاتب العمل الرسمية ، وهذا من غير نظر إلى سلامة هذه الأعمال أو عدم ملائمتها لهن . (كما جاء فى إحدى صحف برلين الصادرة فى ١٨ أبريل ١٩٤٢ .)

(Berliner Borsenzeitung) وقد نشرت جريدة فرنكفورت (Fränkischer Zeitung) فى عدد ٢٩ مارس ١٩٤٢ ، أنه ينبغي على النساء أن يراوحن بعض المهن التى يقوم بها الاسكافيون أو السكربائيون ومن اليهم ؛ إلى جانب اشتغالهن بتمريض جرحى الحرب . إذ كان النازيون يطلبون إلى جميع النساء بين سن السادسة عشرة والستين التطوع فى خدمة الصليب الأحمر . ويتبين معنى التطوع ، فى هذه الخدمة الإنسانية ، مما نشرته جريدة (فولكشير بيوبختر) (völkischer Beobachter) فى عدد ٢٩ مارس ١٩٤٢ تحت عنوان : « قلوب النساء فى الميدان » ، إذ قالت مامعناه أن حماسة النساء المتطوعات للتمريض من شأنها أن تقلل من الخطأ الذى يرتكبه غيرهن من النساء اللواتى يصلحن لهذا العمل ولكنهن يمتنعن عن التضحية بأوقات فراغهن فى هذه الخدمة ؛ غير أنه من المنتظر أن يدرك أمثال هؤلاء أهمية هذا العمل الآن ! .

أما عن الأثر الثانى ، فقد بذل النازيون كل جهد حتى يقنعوا النساء بضرورة الاكثار من ولادة الأطفال بكل وسيلة ؛ إذ نظموا حملة واسعة لهذا الغرض ؛ وأطلقت الدعاية النازية العنان لنشاطها فى سبيل « معركة الأطفال » التى أرادوا إقناع الشعب الألماني بأن كسبها لا يقل أهمية فى الحقيقة عن كسب معارك الحرب الحامية ضد أعداء دولة الرايخ الكثيرين الذين يريدون القضاء على ألمانيا الكبرى وكانت تشرف على هذه الحملة (زعيمة النساء) فى الرايخ ، السيدة (شولتز كلينك) Frau Scholtz-klinik ومن عباراتها المأثورة : « أعطونا أطفالاً ومدافع ! » وقد أدرك الزعماء النازيون أنه لا مفر لهم عن تغيير نظرتهم السابقة نحو المرأة حتى يقضى نجاح هذه المعركة ؛ لذلك شرعوا يحثون المرأة النوردية على ضرورة العناية

مظهرها ، وانتقاء الأثواب الجميلة التي تناسبها ، واستخدام المساحيق التي تلائم بشرتها كما صاروا يطلبون من الرجال الابتعاد عن المشغولة وه السلوك ، العسكرية الجفاف في مجالس السيدات ؛ حتى أن زعيم الشباب (بلدورفون شيراش) وسميته السميثة أشهر من أن يشار إليها لم يلبث أن أعلن في يناير سنة ١٩٣٨ عن إعداد برنامج شامل الغرض منه تجميل الفتيات الألمانيات « سواء أرغبين في ذلك أم رغبين عنه ! » — على حد قوله . ثم أنشأ (فون شيراش) جمعية للفتيات الألمانيات بين الثامنة عشرة والحادية والعشرين أطلق عليها اسم جماعة « العمل والجمال ، والامانة ، وجعل التحاق الفتيات بها إجباريا . ولم يمضِ حلة د التجميل ، الجديدة سوى نشوب الحرب .

وسمع هذا فقد ظل النازيون يطلبون إلى الألمانيات أن يحرصن على جمال أجسامهن وأناقة مظهرهن على الرغم من الصعوبات التي أوجدتها ظروف الحرب على أن ه معركة الأطفال ، هذه كان نجاحها يتطلب زيادة في اقبال الشعب الألماني المطردة على الزواج . ومن مبدأ الأمر عني النازيون بمسألة الزواج لاهمية هذه المسألة من ناحية نقاء الجنس والدم ، وما يترتب على ذلك من تنظيمات اجتماعية وسياسية واقتصادية سبق الحديث عن طرف منها وعن قروض الزواج ، كوسيلة من وسائل التشجيع على الخروج من نطاق العزوبة رغبة في الأكلتار من النسل . وقد نفذ قانون قرض الزواج هذا ابتداء من أول أغسطس ١٩٣٣ . وأفاد منه كثيرون ، حتى بلغ عدد القروض التي أعطتها الدولة « للزوجين ، من بدء العمل به إلى أول مايو ١٩٣٩ (١,٢٠٠,٠٠٠) قرضا . كلفت الخزانة حوالي (٧٥٠,٠٠,٠٠٠) ريخمارك ؛ هذا عددا جملة قروض أخرى أعطيت للغرض نفسه بمعدل ٢٥ ألفا في الشهر الواحد . وتدل الاحصائيات الرسمية على أن نسبة الزواج ارتفعت بالفعل من ٧,٩ في الألف في عام ١٩٣٢ إلى ٩,٤ في الألف في عام ١٩٣٨ ؛ كما ارتفعت نسبة المواليد من ١٥,١ في الألف في عام ١٩٣٢ إلى ١٩,٧ في الألف في عام ١٩٣٨ . وبلغ عدد المواليد حتى أول مايو ١٩٣٩ حوالي المليون طفل ولدوا لآباء استطاعوا الزواج بفضل القروض التي حصلوا عليها من الدولة .

وكذلك كان من وسائل تشجيع الأكلتار من النسل أن الدولة أخذت على عاتقها إمداد أصحاب الأسرات الكبيرة بالإعانات حتى أن الرجل والد الأطفال الكثيرين صار يحصل على إعانات تزيد قيمتها على ما يمكن أن يحصل عليه بكسبه من عمله العادي . ولم تشترط الدولة لمنح هذه الإعانات أن يكون الأطفال من أسرة واحدة ، بل ان الأسرة التي تتبنى طفلا أرا أكثر أو يكون أحد أطفالها من أب آخر وأم أخرى تستطيع أن تحصل كذلك على إعانة الدولة السخية مثلها في ذلك مثل الأسرة العادية المؤلفة من أب وأم وأولادها . وقد

بدأ النازيون يدفعون هذه الاعانات في اكتوبر ١٩٣٥ ، فبلغ ماتفوه حتى أول مايو ١٩٣٩ حوالي (٢٥٥,٠٠٠,٠٠٠) ريخمارك ، لأطفال بلغ عددهم حوالي (٣,٧٥٠,٠٠٠) أي بمعدل ٦٨ ريخمارك لكل طفل . ولم يلبث أن زاد سخاء النازيين فعدلوا في شروط منح هذه الاعانات ، وخففوا من قيودها إلى حد كبير في أكتوبر ١٩٣٧ ، ثم في ابريل ١٩٣٨ حتى بلغ ماصاروا يدفعونه في كل شهر (— كما ذكر النازيون أنفسهم في صيف ١٩٣٩) حوالي ٣٠,٨٠٠,٠٠٠ ريخمارك لعدد من الأطفال يبلغ (٢,٥٠٠,٠٠٠) .

هذا إلى أن النازيين صاروا يصرفون أجوراً عالية لأصحاب الأسر الكبيرة . وذلك عدا تسكينهم للأمهات اللواتي يلدن أطفالا كثيرين ، حتى أعد هتلر أوسمة خاصة تعطى للأمهات حسبما يكون هن من أطفال ، فتمثال ذات الأربعة أو الخمسة أطفال وساما حديديا وذات الستة أو السبعة وساما فضيا ، وذات الثمانية أو التسعة وساما ذهبيا . وعينت الدولة يوما مشهوداً ، هو يوم مولد هتلر نفسه (١٢ أغسطس) من كل عام لتوزيع هذه الوسامات في احتفال رسمي كبير ، وسمته ، يوم الشرف لجميع الأمهات ، وفضلا عن ذلك ضمنت الدولة راحة الحوامل فعملت على تخفيف أعباء العمل ، وإزالة المصنعي منه عن كواهلهن ، كما أصدرت قوانين معينة لمعاينة كل من تعدته نفسه باهانة الأمهات أو الحوامل كما أن الدولة لم تلبث أن اتخذت اجراءات صارمة لمنع الإجهاض ، وحرمت ذبوع الموضوعات التي تبحث في وسائل منع الحمل ، كما منعت بيع الادوية أو الأجهزة الخاصة بذلك .

ومع هذا لم يقتنع النازيون في معركة الأطفال بما أدركوه من نجاح كان في نظرهم ما يزال محدوداً ، فطفقوا يبحثون عن وسائل جديدة وبخاصة عندما حوى وطيس القتال في ميادين الحرب المختلفة وعظم عدد قتلاهم ، فهداهم التفكير السقيم إلى ابتكار أسلوب جديد للاكثار من النسل ، كان وما يزال منذ بدء الحليقة من الأمور التي حرمتها جميع الشرائع والأديان ، وأنكرتها المقاييس الخلقية انكاراً شديداً . هذا الأسلوب هو تشجيع التناسل خارج نطاق الزوجية الشرعية .

وقد برر النازيون تشجيعهم هذا العمل المنسكر بضرورة توفر الكثرة العددية لديهم حتى يستطيعوا فرض سلطانهم على أوروبا ثم على العالم في النهاية ، وقد افتتح هتلر نفسه هذه الحملة الجديدة في سبيل الاكثار من الأطفال عن أى طريق ، فقال يتألف برنامج حركة النساء الوطنيات الاشتراكيات من مادة واحدة فحسب هي الطفل ! . ثم لم يأنف هتلر من استخدام الطرق ، التي توقع فائدتها في إغراء النساء على إتيان هذا المنسكر ، من

ذلك أنه كان يتقتر فرصة انعقاد مؤتمر الحزب السنوى فى نورمبرج ، فيختار نخبة من الشبان الأشداء أصحاب الأجسام المتسقة ذات العضل المقتول ، ويجعلهم يسرون فى عرض بديع أمام الجماهير ، ويذنبهم النساء طبعاً . على ألا يرتدى هؤلاء الشبان سوى سراويل قصيرة وأحذية . يحدث فى عام ١٩٣٥ بعد عرض مثل هذا أن وقف (الفوهرر) يخاطب الفتيات والسيدات الحاضرات ، فقال :

« وعندما يرى النساء هؤلاء الشبان (من جماعة العمل) يرتدون سراويلهم القصيرة ليس غير ويعرضون صدورهم عارية تماماً ، فإن النساء ولا شك سوف يرددن ما أجمل هؤلاء الشبان ! وما أحلى متعة المرأة بهم ! ، وليس بعد هذا التحريض الرسمى على أتيان الفاحشة شئ . وقد قال فيلسوف النازية (الفرد روزنبرج) : « إن الأمة الجرمانية ما كانت تستطيع اجتياز الأزمات العصبية التى اعترضت نموها فى الماضى لو أن رجالها آثروا العيش مع امرأة واحدة فحسب ! ، وقال أيضاً : « سوف ينظر الربخ الألمانى فى المستقبل للمرأة التى لا أولاد لها ، سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة (!) ، كعضو لا يتمتع بالحقوق السكاملة التى يتمتع بها بقية أعضاء هذا المجتمع . وعند الكلام فى هذا الصدد ، لا ينبغى أن تكون جميع العلاقات الجنسية التى تسفر عن ولادة أطفال فى خارج نطاق الزوجية ، موضع مؤاخظة أو عقوبة قانونية ! ،

ومع هذا فقد كان هناك متحمسون لفكرة الإكثار من الأطفال غير الشرعيين بحيث يعتبر قول (روزنبرج) سائفاً مقبولاً . مثال ذلك ما جاء فى صحيفة من صحف (جبهة العمل) فى إحدى المناسبات ، إذ ذكرت أنه من المحتمل جداً أن يكون هؤلاء الأطفال غير الشرعيين أكثر صلاحية من الناحية العنصرية من الأطفال الشرعيين ، لأن الأطفال غير الشرعيين لا بد وأن يكونوا بالضرورة ثمار حب أشد وأقوى عنفاً . وقال الدكتور (لى) Ley رئيس جبهة العمل ورئيس تحرير هذه الجريدة : « إننا نقاوم فى الحقيقة ميولاً ضارة عميقة بالية : لأنه لا ينبغى أن يترك الزواج حتى يصبح عقبة فى سبيل القوة الدافعة الطبيعية ! ، أى الشهوة البريمية بمعنى آخر .

وقد كان لهذه الأقوال وأمثالها آثار بعيدة فى المجتمع الألمانى . فقد نشر مكتب الإحصاء الفدرالى بسويسرة فى جريدة فرنسكفورت اليومية Frankfurter Zeitung بتاريخ ٢١ أغسطس ١٩٣٦ ، إحصاء عن عدد الأولاد البكر الذين ولدوا قبل مضى تسعة أشهر على زواج والديهم . فقال أنهم يبلغون فى كل مائة : ١٧ فى فرنسا و ٢٧ فى إيطاليا و ٢٩ فى سويسرة و ٣٧ فى استراليا ونيوزيلندة و ٥١ فى سكسونيا الألمانية ! . ومنذ نشوب الحرب العالمية الثانية شجع الزعماء النازيون الإكثار من هؤلاء الأطفال غير الشرعيين بكل الطرق

وأيد كل من (هس) Hess و (هيملر) Himmler المبدأ الذى أذاعه الدكتور (لى) Levy عن عدم استمرار الزواج الشرعى عقبه تحسول دون إطلاق العنان للفريرة الجنسية . فقال (ردولف هس): « أن كل مولود جديد له أهمية خاصة وقت الحرب ؛ لأن الحرب تكلف الأمة حياة كثيرين من خيرة رجالها ؛ ولذلك فإنه عندما يذهب الشبان الذين ثبت نقاؤهم من الناحية العنصرية إلى الحرب بعد أن يتركوا وراءهم أطفالا لا يجرى في عروقهم دماء آبائهم النقية ، وفي وسعهم نقل هذه الدماء إلى الأجيال المستقبلية ، بينما يجرى في عروقهم كذلك دماء أمهات من الشابات سليكات البنية من الناحية الوراثية ، ولكن كان من المتعذر لسبب ما زواجهن من آباء هؤلاء الأطفال . عندئذ سوف يبدل كل جهد حتى تترك هذه السكك القومية دون أن تلقى ماتستحقه من العناية » وقال ، (هنريك هيملر) ، « أن الواجب يقتضى على السيدات والفتيات الألمانيات اللواتي يجرى في عروقهن الدم الآرى النقى أن يصبحن أمهات لأطفال يلدنهم من آباء يذهبون إلى جبهات القتال المختلفة ، ولو اقتضى الأمر أن يولد هؤلاء الأطفال خارج نطاق الزوجية الشرعية ! » وقد جاء هذا القول فى أمر أصدره (هيملر) فى ٢٨ أكتوبر ١٩٤٢ بوصفه رئيسا لقوة البوليس الألمانى ووزيرا للداخلية ، إلى جميع جنود الحرس الأسود (S.S) ورجال البوليس ، بدعو فيه إلى الإكثار من « إنتاج » الأطفال سواء أكانوا شرعيين أو غير شرعيين ، ويطمئن الأمهات اللواتي يرملن من جراء وفاة آباء أطفالهن فى ساحات القتال سواء أكان هؤلاء الآباء أزواجا شرعيين أم غير شرعيين على مستقبل أطفالهن ؛ فيعدهن بأن الدولة ذاتها سوف تقوم بالاتفاق عليهن والعناية بتربية أولادهن . ما دامت هذه الحرب قائمة ، وبعد انقضاء الحرب أيضا ؛ لأن واجب جنود الحرس المختارين (S.S) ، وواجب الشابات السليكات من يجرى في عروقهن الدم الآرى النقى ، أن يحرصوا جميعا على أن يكون لدى دولة الرىخ العدد العظيم من الآريين والآرييات لضمان نقاء العنصر الجرماني الخالص وخلوده .

وقد عزز الأساتذة الألمان هذا الرأى الأخير ، فذكر الأستاذ (أرنست بيرجمان) Ernst Bergmann ، ما معناه : « لأمنا من أن ننظر الدولة التى تقوم على أساس معقول ! إلى المرأة التى لا ولد لها كأمراة محقرة لا شرف لها ! . فهناك الآن عدد كبير من الشبان الراغبين فى إنشاء الصلات الوثيقة بينهم وبين كثير من السيدات والشابات . وأنه لمن حسن الحظ أن يستطيع الشباب المنحدر من جنس طيب — أى الآرى — سد الرغبة الجنسية لدى عشرين شابة بل واشباعها ، ولا شك فى أن الفتيات من جانبهن يقبلن بسرور على تلبية الدعوة إلى الإكثار من الأطفال ، دون تردد لو اختفت من الوجود نهائيا فكرة الزواج الخاطئة

التي تدعو إليها المضارة الزائفة زاهمة أن من الضروري أن يتزوج الشاب زوجة واحدة وأن يكون للمرأة رجل واحد ، — إذ أنها تتعارض كل المعارضة مع جميع حقائق الطبيعة ورسالتها المعروفة ! .

وإذا كانت هذه نصيحة الرجال المسؤولين في دولة الرايخ حتى يكسبوا (معركة الأبطال) بأي ثمن ؛ وكانت هذه آراء زعمائهم فيما ينبغي أن يفعله الشبان والشابات في دولتهم من أجل « ملء الأرض » بالأطفال ، رجال المستقبل ونسائه في عالم النازية المنتظر ، فإنه ولا شك من الجهود الضائعة أن يحاول لإنسان إقامة البرهان على أن المقاييس الخلقية قد تغيرت تغيرا كبيرا في دولة الرايخ الثالث حتى صارت تختلف تماما عما تواضع عليه البشر في تحديد نوع العلاقات الجنسية التي ينبغي أن تسود كل مجتمع منذ نشأة الحضارة الإنسانية حتى الوقت الحاضر ويكفي للدلالة على مبلغ ما وصلت إليه هذه المعايير الأخلاقية من تدهور ، الإشارة إلى طراز جديد من الإعلانات التي كانت تنشرها الصحف الألمانية . من ذلك ما نشرته صحيفة أسبوعية Süddeutsche Sonntagspost في سبتمبر ١٩٤١ ، عندما أدرج « جندي في العشرين من عمره له بشرة بيضاء وعينان زرقاوان » إعلانا يطلب فيه — « قبل التضحية بنفسه في سبيل الزعيم والوطن ، أن يجتمع بامرأة ألمانية يستطيع أن يضمن لها حملا يؤدي ثماره طفلا كترات يخلفه أعظمه ألمانيا 1 ، أو ما نشرته هذه الصحيفة نفسها « لقناة ألمانية ترغب في أن تصبح أما لطفل من والد جندي ، يقال في سبيل القضية الاشتراكية ١ ، أو ما نشرته صحيفة أخرى في إعلان الوفيات لامرأة أرادت إحياء ذكرى والد طفلها (غير الشرعي) فقالت : من أجل الزعيم وألمانيا الكبرى ، قصف المنون عودك ولما تبلغ الثانية والعشرين يا خطيبي العزيز ووالد طفلي في يوم ١٦ أغسطس ١٩٤١ وأنت تقاتل ضد البلاشفة .

أما عدد الأطفال غير الشرعيين في ألمانيا ، فقد بلغ المائة ألف في كل عام . وتذكر الإحصاءات أن هذا العدد مساو لما وصلت إليه نسبة عدد الأطفال غير الشرعيين في عهد جمهورية ويمار ، وأنه لمن المتعذر بتاتا فضلا عن ذلك معرفة عدد الأطفال الذين يولدون قبل مضي المدة القانونية للحمل وهي تسعة شهور .

والبره أن يتساءل ، وما مصير هؤلاء الأطفال من شرعيين وغير شرعيين في دولة الرايخ الثالث ؟ وكيف ينشأون ؟

والإجابة على هذا السؤال ، تعود بنا مرة أخرى لذكر المتاعب التي كانت تصادفها المرأة في دولة الرايخ الثالث . وأول المشاكل التي كانت تعترضها عقب ولادة الطفل ، هي انتقاء اسم

المولود الجديد . وذلك أن النازيين وضعوا « لتنظيم » اختيار الأسماء في دولتهم قواعد صارمة تقتضى باختيار « اسم » من شأنه أن يظهر بوضوح « شخصية » الفرد العنصرية والقومية والجنسية لذلك كان يتحتم اجتناب الأسماء اليهودية واختيار الأسماء النوردية وحدها ؛ وحتى هذه الأسماء كان ينبغي ألا يسبب النطق بها أى شك في كون صاحبها نوردياً خالصاً . وكانت تقبل الأسماء التى من أصل أجنبي إذا شاع استعمالها من زمن قديم حتى صارت جرمانية مثل هانز ، ماريا والياصابات . وكان من الواجب اختيار الأسماء الملائمة لنوع الطفل ذكرًا كان أو أنثى ، فلا يسمى الصبي (ماريا) كما درج الكاثوليك على ذلك فى بعض جهات ألمانيا وجعل القانون النازى من الصعوبة بمكان تغيير الأسماء واستبدال غيرها بها ولو أن السلطات الحكومية النازية أخذت لنفسها الحق بقتضى هذا القانون نفسه فى تغيير أسماء من تريد من الأحياء ومن الأموات أيضاً .

وكانت السلطات الحكومية تبرر عملها هذا بقولها إن من واجب وزارة الداخلية فى الحقيقة التدخل للفصل فيما إذا كانت الأسرة جرمانية الأصل آرية ، أو أجنبية أو من جنس غير آرى ، كما أن من حقها أيضاً أن تتدخل للفصل فى صحة انتساب الابن لآبيه أو لوالد آخر على أن يسرى قرارها على الأحياء والأموات معاً . وقد شرح الدكتور (شميدت كليفتو) Schmidt-Klevenow أحد موظفى (المكتب الرئيسى للحرس الأسود (S.S) لشئون الجنس والوطن) ، مسوغات هذا التدخل فى إحدى صحف برلين بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٣٦ فقال : « من المعروف جيداً أن نسبة الأطفال المبكر الذين تحمل بهم أماتهم قبل الزواج كبيرة ولذلك فإن الحزب (النازى) والدولة وبقية أعضاء الأسرة ينبغي أن يخولوا جميعاً حق مناقشة شرعية الطفل » .

وفى إبريل ١٩٣٨ صدر قانون يخول الحكومة الحق فى اتخاذ الإجراءات اللازمة للتأكد من صحة نسب كل طفل فى كل حالة تدعو فيها المصلحة العامة إلى ذلك سواء أبدى الوالدان ، أو أحدهما شكاً فى صحة نسب الابن أو لم يفعل ذلك ويدل تدخل الحكومة فى أكثر الحالات التى طبق فيها القانون ، على أن غرض السلطات النازية الأول من هذا كله إنما هو التأكد من صحة آرية الأشخاص المشكوك فى جنسهم . أو الاطمئنان إلى أنهم غير « صابين بعاهات أو أمراض وراثية » .

أما المشكلة التالية ، فكانت تربية هؤلاء الأطفال . وقد ذكر الهرتلر ما تفعله الدولة النازية لمعالجة هذه المشكلة ، فقال فى إحدى خطبه فى برلين فى يوم أول مايو عام ١٩٣٧ « بما معناه : « لقد بدأنا بالشباب ؛ إذ هناك بعض كبار السن السخفاء الذين لا يرجى منهم أى

نفع . . . بيد أن هذا لا ينجحنا في شيء فنحن نأخذ منهم أطفالهم ، ونعمل على تنشئتهم كي يصبحوا مخلوقات بشرية ألمانية جديدة ، ونتمهد تربيتهم بكل دقة . والطفل في سن العاشرة لا يدرك شيئاً ولا يشعر بأهمية مولده أو نشأته . ولا اختلاف بين طفل وآخر ، وفي هذه السن نأخذهم ونصنع منهم مجتمعا يظلون من أعضائه حتى يبلغوا الثامنة عشرة . ومع هذا فنحن أيضاً ندعهم وشأنهم بعد هذه المرحلة بل نلحقهم بالحزب ، وبجماعة جند الهجوم (S.A) ؛ وبالجرس الأسود (S.S) ؛ وبعد ذلك يلحقون بالجماعات أو التنظيمات الأخرى أو يرسلون مباشرة إلى المصانع أو إلى جهة العمل وإلى الخدمة العالية . ويلحقون أيضاً بالجيش مدة عامين ، .

وهذا ما كان يحدث ! فكان الأطفال يعيشون في بيوتهم حيث يتكفل أبائهم بالإفناق عليهم حتى يبلغوا العاشرة . وفي أثناء ذلك يقوم النازيون بالأشراف والمراقبة ، حتى إذا وجدوا الآباء ينشئون أطفالهم تنشئة لا تتفق مع التعاليم والمبادئ النازية ، انتزعوا هؤلاء الأطفال من أحضانهم . وفي فبراير ١٩٣٧ ، ثم في نوفمبر من العام نفسه ، أصدرت المحاكم الألمانية أحكاماً تقضى بإعطاء حق تربية الأطفال الذين شكت السلطان الحكومية في عدم أهلية والديهم للقيام بتربيتهم ، للدولة — أي الحزب النازي نفسه .

وفي سائر مراحل التربية التي أشار إليها الهر هتلر في خطابه . كانت تنحصر مهمة النازيين في قطع الصلة التي تربط بين هؤلاء الشباب والشابات ووالديهم ؛ وذلك بإخضاع العواطف البنوية ، وتمويد الشباب والشابات الاعتزاز بحياة مستقلة ذات مسؤولية كاملة ، وتنقيتهم من « التقاليد البالية الضارة » التي حرص المعلمون القدماء على صونها وملاحظتها في أثناء تربية النشء وتعليمه ، إذ كانت تقوم — في نظر النازيين — على ضرورة كبت الغرائز الطبيعية ؛ ثم تنقيتهم من هؤلاء الأساتذة والمعلمين القدماء أنفسهم وتشجيعهم على الامعان في احتقارهم وامتهانهم ، ثم تلقينهم مبادئ النازية وتعاليمها القائمة على إفناء الفرد في الدولة ، والتضحية من أجل الزعيم والإخلاص في خدمة دولة الريح الجديدة ، وما يقتضيه هذا الإخلاص في مذاهبهم من ضرورة التجسس على آبائهم وأقاربهم واحتقارهم .

وفي الواقع لم يكن من المتعذر على النازيين بلوغ مآربهم بتاتا بفضل التنظيمات والجماعات العدة التي أوجدوها وأشار إليها الهر هتلر في خطابه ، والتي حتموا على الشباب الالتحاق بها في أثناء عملهم وفي أوقات فراغهم ، والتي كان الغرض منها تنمية الأجسام القوية قبل أي شيء آخر . وقد شرحت إحدى الكاتبات E. O. Lorimer كيف سيطر النازيون على حياة الشباب في دولة الريح ، فقالت : تستغرق تنظيمات فرق الكشف النازية التي تأسست في عام ١٩٣٣

والالتحاق الإجبارى بهامندأول ديسمبر ١٩٣٦ ، نشاط الصبيان فى كل لحظة من لحظات فراغهم بعد دراستهم وألعابهم الرياضية الاجبارية . فان الصبي بين العاشرة والثالثة عشرة يلتحق بجماعات الشبان الألمان حديثى السن ، (Deutsches Jungvolk) ؛ وبين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، يلتحق بجماعة الشبيبة هتلرية (Hitler Jugend) ، وعند بلوغه التاسعة عشرة يجبر على العمل مدة ستة شهور فى (خدمة العمل) (Arbeitsdienst) ؛ ثم يقضى بعد ذلك مدة سنتين أخريين فى الخدمة العسكرية . وله بعد هذه المرحلة أن يدخل إحدى الجامعات أو يلتحق بعمل من الأعمال ، أو يحترف إحدى المهن التى يختارها ؛ وفى جميع هذه الحالات لا يكون الشاب حر التصرف فى حياته يوجهها كيفما شاء . والسبب فى هذا ما تحتمه الدولة من الانتماء إلى جماعة جنود الهجوم (S. A) أو الحرس الأسود (S. S) ، أو الانتماء إلى جهة العمل (Arbeitsfront) وهى بمثابة اتحاد وطنى عام لجميع المستخدمين والذين يخدمونهم ؛ أو أن ينتمى الى جماعة (انتاج الطعام) Reichsnährstand ، أو إلى غير ذلك من التنظيمات الخاضعة لاشراف الدولة . وفى سن الخامسة والثلاثين يدخل فى زمرة (القوة الاحتياطية)؛ وفى سن الخامسة والأربعين يقتر ضمن القوات المستعدة للخدمة العسكرية وقت التجنيد العام Landsturm ويعيننا بعد ذلك معرفة ما إذا كان فى استطاعة الفتى بين العاشرة والتاسعة عشرة أن يجد متسعاً من الوقت للدرس والتحصيل فى أثناء إقامته فى المعسكرات وفنادق الشباب (Youth Hostels) ، والقيام برحلات السير على الأقدام ، وممارسة الألعاب الرياضية وما إلى ذلك ؟ لا شك فى أن المشرفين على هذه الشئون جميعها لا يدعون لحظة تمس من غير أن يزودوا هؤلاء الفتيان بقدر واف من تعاليم ودروس النازية . وكانت جميع هذه الدروس تدور حول تمجيد الحرب والقتال واحياء روح المغامرة ، حتى أن كتب الأغاني التى وضعها النازيون للفتيان الألمان ، كانت حافلة بذكر المعارك والحروب ؛ كما أن الكتب المدرسية المعطاة لجماعة الشبيبة الهتلرية ، كانت تحمل الدعوة إلى انتظار المجد والشرف الرفيع بالموت فى ساحة القتال .

ولم يقنع النازيون بالمدارس العادية الموجودة فى دولة الرينخ ، بل أنشأوا أنواعاً جديدة من المدارس يتلقى فيها الأحداث والشبان الدروس ، التى يبعثون تلقينها إليهم لتخرج الرجال الذين ينتظر اسناد مناصب الزعامة فى الحزب النازى اليهم . ومن هذه المدارس (مدارس أدولف هتلر) ، والمدارس الاعدادية Aufbau Schools (والمدارس الوطنية السياسية) Nationalpolitische Aualten التى كان يتعلم بها الشبان تمهيداً للاندخاق بالمدارس الحربية .

وقد تناول كثير من الكتاب الاخصائيين بالبحث والتجسس مسائل التربية والتعليم في ألمانيا النازية ، فوصلوا في ذلك إلى نتائج هامة خلاصتها أن النازيين جريا على عادتهم المعروفة في كل شأن من شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع في دولتهم طبقوا في شؤون التربية والتعليم نظريتهم الفلسفية في الحياة (Weltanschauung) واستطاعوا في خلال سبعة أعوام أن يعمدوا تنظيم شؤون التربية والتعليم في كل درجاتها حتى يصلوا إلى أغراضهم ، وهى أغراض صرح بها وزير معارفهم في حديث له نشرته صحيفة (فولكشير بوباختر) في ١٣ فبراير ١٩٣٨ ، جاء فيه : « تنحصر المهمة التى تضطلع بها التربية عندنا في تخريج الوطنيين الاشتراكيين ! » وقبل ذلك بثلاثة أعوام (١٩٣٥) أعلن (كروجر) W. Kruger مدير جامعة برلين أن غرض التربية والتعليم في جامعته ، إنما هو الدعوة إلى محور البقايا المتخلفة من العصر الحاضر الماضى ، وإنشاء جامعة وطنية اشتراكية في دولة وطنية اشتراكية جديدة . وكذلك وضع (بوملر) A. Boemler أحد المشتغلين بالتربية والتعليم في ألمانيا . الغرض من التعليم في بداية مراحله ، فقال إن المدارس الأولية ينبغي أن تصبح مدرسة لمثل الشعب العليا وفلسفته في الحياة ، تحت حماية الدولة . وأما المدارس الثانوية فقد جاء في أقوال وزارة المعارف الألمانية (١٩٣٨) ما يبين الغرض منها ، وهو العمل على إقصاء (مثل الثقافة الانسانية) Bildung وإفساح المكان « لمثل الرجل الجرمانى الذى تؤثر فيه الدماء التى تجري في عروقه والمصير التاريخى الذى ينتظره » .

وقد جرى النازيون على تطبيق مبدأ (الترابط والتوحيد) (Gleichschaltung) في شؤون التربية والتعليم ومعنى ذلك خضوع تلك الشؤون لرقابة الدولة وإشرافها السياسى لأنه لما كان الغرض من التربية والتعليم أعداد الشبان النازيين الذين لا يعرفون مؤثرا في حياتهم أو موجهها لها سوى (الدم والمصير التاريخى) — أى أعدادهم ليكونوا أدوات صالحة لخوض معارك الحروب المنتظرة لتحقيق السيطرة الجرمانية الصحيحة على أوروبا والعالم — فقد صار من أهم واجبات الدولة الإشراف على تربية النشء وتكوينه . قال هتلر في خطاب ألقاه يوم مايو ١٩٣٧ : « لن يسلم الريح الحديث شبابه الأحداث إلى يد أى انسان ! » وأصبح من المنتظر أن تكون التربية المزمعة تربية سياسية ، نازية قبل أى اعتبار آخر . وابتداء من عام ١٩٣٧ استطاع النازيون تطبيق مبدأ (الزعامة المسئولة) في الجامعات والمدارس حتى خرج الأمر في الجامعات من أيدي المجالس والهيئات والمديرين في جميع مسائل التربية وشؤون التنظيم إلى أيدي وزراء معينين خلعت عليها ألقاب الزعامة في الجامعات المختلفة فكان لكل جامعة ثلاثة زعماء : زعيم الجامعة Führer يقوم بأعمال المدير، وزعيم يمثل

طائفة الأساتذة والمدرسين في التنظيم المحلي للحزب (Dozentenführer) ، وزعيم يمثل جماعة الطلاب للغرض نفسه (Studentenführer) ويختار زعيم الجامعة عمداء السكليات وبقية أعضاء مجالس الجامعات . وهذا بينما أضحى مجالس السكليات بمثابة لجان استشارية فقط . وبمقتضى قرار صدر في (٣ مارس ١٩٣٩) أصبح جميع أساتذة الجامعات ومدرسيها في عداد الموظفين المدنيين فكانوا يمينون في وظائفهم من قبل الوزارة ، ولا يستطيعون الانتقال من جامعة إلى أخرى دون موافقتها ، ولو أن الوزارة نفسها تمسكت دائماً بحق نقل من تشاء منهم سواء أوافقوا على ذلك أم عارضوا فيه . وكذلك سيطرت الحكومة على المدارس سيطرة كاملة وكانت مهمتها في هذا الميدان سهلة ، لأن المدرسين كانوا في عداد الموظفين المدنيين منذ مدة طويلة (بمقتضى قانون قديم صدر في عام ١٨٧٢) . ومع هذا فقد تعهد وزير المعارف النازي في فبراير ١٩٣٣ بطرد كل شخص غير جرمانى من جميع المدارس الأولية ، والقضاء على كل ما هو غير جرمانى في هذه المدارس ، بعنف وشدة ، وفي يولية من العام نفسه ، أُنذر المدرسون بضرورة قطع صلاتهم بالحزب الاشتراكي الديمقراطي ، كما طلب اليهم ان يدرسوا كتاب (كفاحي) لأدولف هتلر دراسة عميقة ، ثم أرغم جميع الموظفين بالمدارس الثانوية على كتابة تعهد بان يطيعوا قوانين الدولة الوطنية الاشتراكية طاعة عمياء .

وقد عمد النازيون إلى القضاء على جميع المراكز الثقافية التي توقعوا معارضتها لنظامهم وتعاليمهم . فظهروا مكشبات المدارس من المكتب التي ألفها اليهود ، أو تضمنت أى امتداح لهذا الشعب ؛ أو قصرت في إظهار الاحترام الكامل للشعب الجرمانى والرجل الآرى ، كما حتم النازيون على رجال المكتبات أن يختاروا ما يريدون شراؤه من بين الكتب التي اعتبرتها وزارة المعارف ملائمة .

وعند النظر في برامج الدراسة النازية يبين مدى التغيير الذي أراد الهتلريون أن يدخلوه على التعليم ، وأثر هذا التغيير في الناشئة . فقد أصدروا قراراً في ١٣ سبتمبر ١٩٣٣ بحتم تدريس مادة (البيولوجيا) في جميع المدارس الثانوية من أدنى الفرق إلى أعلاها ولو أدى ذلك إلى تضحية الرياضيات واللغة الأجنبية . وفي ١٥ يناير ١٩٣٥ صدر قرار آخر ينسب هذه الخطوة جاء فيه أن (الفوهور) يريد أن يلم كل فتى وفتاة بالمدرسة بمسألة نقاء الجنس وضرورتها . ولذلك ينبغي أن يكون الغرض من تدريس البيولوجيا ، إظهار أهمية المحافظة على نقاء الجنس وأدراك مافى امتزاج الأجناس من خطر ، ومعرفة المسألة اليهودية وقوانين نورمبرج ، والوقوف على حقيقة الإصلاح الذي تم من أجل تحسين الجنس نتيجة الفلسفة والاشتراكية الوطني الاشتراكي . ومعنى هذا أن الغرض من تدريس البيولوجيا ليس إلا تخريج ناشئة تعلى في صدورهما من أجل الحق على اليهود . وفضلاً عن ذلك فإن جميع برامج الدراسة تحتم تلقين

الغلاميد دروسا مهيئة في الاجتماع والعلوم والرياضة والسياسة والاقتصاد والتاريخ ؛ على أن يتم هذا كله في ضوء المبادئ والتعاليم النازية المعروفة . فلا بد للتلميذ أو الطالب من أن يحضر دروسا تتناول القبيلة والجنس ، وعصر ما قبل التاريخ ؛ وأصل الإنسان والسلالات البشرية ، وتطور الشعب الألماني من الناحية السياسية خلال السنوات المائة الأخيرة على وجه الخصوص .

هذه صورة موجزة لما كان يجري في داخل ألمانيا منذ تسلم النازيون أزمة الحكم بها ، ولكن قد يتساءل المرء . إذا كان الحزب النازي قد أدخل كل هذه التغييرات في حياة الشعب الألماني ، وفرض سيطرته عليه ، بالتدخل في شؤون أفراد الخاصة ، وانتهاك الحرية الشخصية ، وامتهان المرأة ، والقضاء على مئات الألوف من الألمان سواء أكان ذلك بقتلهم أو بتعقيمهم أو بخصيمهم تحت ستار عدم صلاحيتهم لأن يكونوا أعضاء نافعين في المجتمع النازي ؛ ثم إذا كان الحزب النازي قد ضرب بجميع المثل الأخلاقية والمبادئ الاجتماعية عرض الحائط ، وانتزع الأبناء من أحضان آبائهم ، ولقنهم إحتقار هؤلاء الأمهات والآباء حتى يفصم عرى الأسرة ويقوض أركانها ، ثم نشأ هؤلاء الأبناء والفتيات التنشئة التي يريدونها استعدادا لخوض غمار الحرب لأحراز السيطرة العالمية إذا كان الأمر كذلك ، فهل رضى الألمان عن هذا كله ، وملكوا بتلك التغييرات العنيفة عن طيب خاطر وبغير أية مقاومة ؟

لا شك في أن النازيين ، مثلهم في ذلك مثل أية جماعة أخرى يعميها التعصب وتهم القسوة آذانها ، فتمضى في تنفيذ برامجها لاتلوى على شيء ، — ولا شك في أنهم استطاعوا الحصول على تأييد شطر من المجتمع الألماني ؛ وهم الذين تمكنوا من البقاء في الحكم سنوات أخذوا في أنثائها كل مقاومة ، وهميموا على تصريف شؤون الشعب المسادية والروحانية . وقد يكون هذا الشطر كبير حقا . ولكن سنة العمران وطبيعة التقدم والولا يمكن أن تهيء الفرصة للطفأة دائما حتى يمضوا في طغيانهم إلى ما لانهاية له . وقدما في أشد عصور الطفيان والفساد كان تيسار المقاومة الخفية يجري محجوبا عن الأنظار ، ونشأ أفراد ووجدت جماعات ما كانت ترضى بالعيش في ظلال الجور ؛ حتى إذا تضافرت عوامل الضعف والتفكك التي لا مناص منها في كل مجتمع يقوم على أساس متداع ، بدأ تيار المقاومة ظاهرا جليا ، ثم استند جريانه حتى يحرف كل ما يعترض سبيله . وليست ألمانيا الا كغيرها من الدول التي حفظ التاريخ قصصها ، فقد كانت عوامل المقاومة موجودة منذ وصول النازيين الى الحكم ، ثم بقيت على نشاطها رغم ما بذله النازيون من جهد للقضاء عليها ، ومنذ بداية الحرب قويت

هذه المقاومة ؛ ثم زادت شدة وعنفها منذ تنشق الألمان طعم الهزيمة في الميادين الروسية وقد فتهم طائرات الأمم المتحالفة بقنابلها وحممها ، وأقضت مضاجعهم مباشرة الشعوب المقهورة على المقاومة الإيجابية والسلبية في أرجاء أوروبا المحتلة ؛ وظهر كأنما قد تخلت آلهة النصر نهائيا عن الشعب الألماني المختار . وفي الفصل التالي بيان لهذا كله ، ودليل على أن الدولة الوطنية الاشتراكية قد أخفقت أيتها إخفاقات في تأليف تلك الكتلة الصلبة المتناسكة التي عدت تأليفها ووجودها في قلب الرينخ الألماني شرطا أساسيا لإحراز السيطرة على أوروبا ومن ثم على سائر أنحاء العالم .

البقيـل الساج

ألمانيا الأخرى « غير النازية »

كان غرض النازيين من فرض سلطانهم الصارم على الحياة في المجتمع الألماني أن يتمكنوا من تأليف تلك الكتلة الصلدة المتناسكة التي اعتبروا وجودها ضرورياً من أجل إحراز السيطرة العالمية في النهاية ؛ وقد سبق كيف أنه حتى يتسنى لهم ذلك طفقوا منذ وصولهم إلى الحكم في عام ١٩٣٣ ينظمون الحياة الألمانية ويعملون على توجيهها وجمعة خاصة قائمة على فلسفة معينة ذات مثل عليا أوحى بها قرائح زعمائهم وفلاسفتهم ، وكانت متفقة في جوهرها وتفصيلاتها مع أغراضهم القريبة والبعيدة في ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

وقد بذل النازيون كل جهودهم حتى يدعموا أركان ذلك (التوجيه المنظم) الذي أقرته فلسفتهم الجديدة والذي عرفه النازيون باسم Weltanschauung ، ومعنى ذلك على حد قول الدكتور (دنكان جونز) Duncan Jones تلك الفلسفة التي تفرض على صاحبها إدراكا خاصا لمعنى الحياة ووجود العالم على نحو يجعل نظره للحياة والعالم بمثابة الحقيقة الدينية لديه فيستمسك بها بكل ولاء وإخلاص وتشغل في نفسه جذوة التحمس الشديد لاداعتها في كل مكان دون أن تهتاق نشاطه الحدود السياسية وغيرها من الحواجز التي تفصل بين بلدان العالم ، كأنما مهمته في الواقع التبشير بدين جديد . وكان من وسائل دعم ذلك التوجيه المنظم إرغام الشعب الألماني على قبوله والقضاء على كل معارضة من جانب أولئك الذين ظلوا متشبثين بمثل الحياة العليا ، القديمة ، ورفضوا هذه « البدعة » الجديدة ، فألقى النازيون هؤلاء المعارضين في غياهب السجون وأرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال . ثم لجأوا إلى تطبيق قواعد العلوم النفسية لكسب معركة (التوجيه المنظم) لما كانوا يعلمونه من أثر الدعاية المنظمة القوية في نفوس الأفراد وسلوكهم وأعمالهم فغدت الدعاية النازية المتقنة من وسائل التبشير بهذه الفلسفة الجديدة بين الألمان وبين شعوب الأرض قاطبة فادعوا أن النازية قد نجحت في مهمتها نجاحا عظيما إلى حد أن الريخ الثالث أصبح نازيا لحماً ودماً فاستطاع الزعماء بفضل ذلك أن يوجدوا في قلب دولتهم الجديدة كتلة نازية صلبة متماسكة لا يتطرق الضعف

إليها ؛ وكان غرض المهتمين المباشر من ترويض هذا الادعاء أن يرغموا الشعب الألماني نفسه على تصديق هذه المزاعم حتى إذا ظل هناك جماعة يتوقون إلى العيش الحر الطليق أسقط في أيديهم أمام هذا السيل الجارف من الدعاية وأنسكروا آمالهم وأحلامهم وراضوا أنفسهم على العيش في ظل السيطرة النازية إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وكان إدعاء النازيين أنهم أنشأوا كتلة نازية صلبة متماسكة في قلب الريح الألماني من أكبر الأكاذيب التاريخية التي كاد ينخدع بها العالم . لأن الريح الثالث لم يكن نازياً خماً ودمياً ولأنه كانت هناك إلى جانب ألمانيا النازية ، ألمانيا « أخرى » تتألف من كل أولئك الذين ظلموا على الرغم من بطش الجستابو بهم ويقتسمهم من الحياة في معسكرات الاعتقال يحملون في قلوبهم البغض والكراهية للنازيين ويربصون بهم الدوائر وينظمون حروباً من المقاومة الأيحيائية والسلبية في داخل الريح نفسه لا تقل في خطرها عن مقاومة الشعوب المتهورة في أوروبا النازية ذاتها .

والأدلة على ذلك كثيرة ، فانه على الرغم من نشاط الدعاية النازية أصر عدد من الألمان في السنوات التي سبقت نشوب الحرب الهتلرية على وضع الكتب وإعداد البحوث والمقالات وإصدار الذشرات والاحصائيات التي حرص النازيون من جانبهم على مصادرتها وإتلافها وتوقيع العقوبة على أصحابها — إذا عرف الجستابو أسماء الناشرين والمؤلفين — وكان أصحاب هذه المطبوعات السرية يحاولون تهريبها عبر الحدود الألمانية حتى يقف العالم الخارجي على حقيقة ما كان يحدث في داخل الريح الثالث . ولذلك شغل الجستابو ورجال الحدود مهمة مصادرة هذه المطبوعات والمنشورات وإتلافها ثم معاقبة مهربها .

وقد يخيل إلى المرء أن الانتصارات التي أحرزها النازيون في ميدان السياسة الخارجية خصوصاً في عام ١٩٣٧ كانت كفيلة باستمالة سواد الشعب الألماني إلى تأييد النظام القائم والقضاء على كل معارضة داخلية ضد النازيين ؛ بيد أن الذي حدث كان على العكس من ذلك تماماً . فقد ظلت هذه المعارضة « السرية » على شدتها حتى أن النازيين استطاعوا في عام ١٩٣٧ إحصاء (٢٨٧, ١٢٠) حالة طبعت فيها كتب ومنشورات سرية وغير ذلك من المطبوعات غير القانونية ، حدثت في (٤٢٦) حالة منها التهامات دموية وتبديل إطلاق الرصاص بين البوليس النازي والألمان الذين اختاروا التضحية بأنفسهم عن طيب خاطر في سبيل تهريب هذه المطبوعات عبر الحدود إلى العالم الخارجي .

وقد أدرك النازيون على الرغم من الدعاية الكاذبة لتضليل أهل البلاد من جهة ولتضليل الرأي العام في أوروبا وبقية أنحاء العالم من جهة أخرى أنه من المتعذر عليهم التفرغ لشئون

الحرب الخارجية ، تلك الحرب التي هيأوا لها العدة منذ وصولهم إلى الحكم في ألمانيا إلا إذا شددوا الرقابة على مواطنيهم واتخذوا الأبهة للقضاء دون إبطاء على أية ممارسة قد تمذر بتصدع « الجبهة الداخلية » ، ولما كانت مهمة الجيستابو الأساسية إحكام هذه الرقابة فقد أعد (هنريك هيملر) he nrich Himmler رئيس قوة الجيستابو وثيقة هامة عرفت باسم « وثيقة هيملر » وزعمها على كبار رؤساء الجيش وضمها أراءه فيما ينبغي اتخاذه من الوسائل والتنظيمات الكفيلة بضمان النصر عند وقوع الحرب المنتظرة : ووقف العالم على أمر هذه الوثيقة فأنكشف سرها في عام ١٩٣٧ ، وكانت وثيقة مطولة — تتألف من حوالى ١٥,٠٠٠ كلمة — تحدث فيها هيملر عن ضرورة تنظيم جماعة الحرس النازى من أصحاب القمصان السوداء (S.S) — Schutz-Staffel تحت قيادته وكانوا في ذلك الحين يبلغون ٢٠٠,٠٠٠ ، ثم أوضح بالتفصيل طرق تنظيمهم كما أشار إلى نوع التربية والتعليم الذى يجب أتباعه لأعداد الرجال المختارين ثم أفرد قسما خاصا من هذا التقرير لوصف نوع المعاملة التى ينبغي أن يعامل بها أصحاب الحظ العاثر الذين يلقون في معسكرات الاعتقال ؛ وانتقل من ذلك إلى وصف أعمال هيئة الجيستابو والأسلوب الذى يجرى بمقتضاه توزيع هذه الأعمال على أفرادها .

على أن أهم ما يسترعى النظر في هذه الوثيقة هو عناية هيملر الكبيرة بوصف الأخطار التى تنجم عن وجود ماسماه في تقريره ، بالجبهة الرابعة : أى الميدان الألمانى الداخلى ؛ فكان من أقواله عن هذه الجبهة : « ان نكون مشغولين في الحرب المستقبلية بما يحدث فقط في جبهة الجيش المقاتل برا أو في جبهة الأسطول في البحار أو في جبهة سلاح الطيران في الجو ، بل سوف يكون لدينا جبهة رابعة لميدان القتال (Kriegaschauplatz) ينبغي علينا مراقبتها والعناية بأمرها وهذه الجبهة هي ألمانيا الداخلية . . . ونحن في حاجة كبيرة إلى عدد أكثر من معسكرات الاعتقال . ولقد أعطاني الزعيم (هتلر) سلطات واسعة تجعل من حق إلقاء القبض على أى مخلوق أشتباه في أمره . . . إذ يصبح ضروريا عند بداية الحرب إلقاء القبض على جماهير غفيرة . . . وسوف يتحتم علينا إعدام الجهرة العظمى من هؤلاء الأسرى السياسيين رميا بالرصاص . . . ولذلك فن الضرورى أن يحتل هذه البلاد مالا يقل عن ثلاثين فرقة من الفرق ذات شارة الجمجمة وعظام الموت Totenkopf- Sturmabanne . لأنه إذا عجزنا عن مراقبة هذه الجبهة الرابعة ؛ جبهة الوطن الداخلية ، لتعطيل نشاطها بأية وسيلة فإن الجبهات الثلاث المقاتلة الأخرى في البر والبحر والجو سوف تصاب من الخلف بطعنة نجلاء مافي ذلك ريب ، ومن الواضح أن هيملر كان يشير في قوله هذا إلى تلك الأفصوصة التى أذاعها القائد الألمانى المعروف لودندورف عقب هزيمة الجيش الألمانى في الحرب العالمية الأولى إذ ادعى لودندورف

أن جماعة الخونة والشيوعيين هم الذين دبروا هزيمة القيصرية بفضل الثورة التي أشعلوا نيرانها في داخل البلاد خلف ظهور المحاربين في ميدان القتال ؛ وهكذا ذكر هيمار في تلخيصه مخاطباً رجال الجيش إن من واجبه بل من واجب كل إنسان يشغل مركزاً مسؤولاً أن يدرك ما لهذا الميدان الداخلي من أهمية كبيرة ، إذ في هذا الميدان وحده سوف يتقرر مصيرنا عند نشوب الحرب وعلى النجاح أو الإخفاق في هذا الميدان وحده يتوقف أمر حياتنا أو موتنا ، ثم قال : وقد أصدر الزعيم إلى أمره لحل هذه المسألة بطريقة حازمة صارمة ، كما أعطاني سلطات لاحتلها لتنفيذ أوامره ،

هذا موجز تقرير هيمار وكان من الطيبي ألا يضيع رئيس قوه الجستابو وقته سدى في تفسير الموقف الداخلي في ألمانيا ، وفي تفصيل الخطط التي يجب اتخاذها لمكافحة ما أسماه (الجبهة الرابعة) الداخلية إذا كان خطر هذه الجبهة ضئيلاً أو أن المعارضة المتوقعة ظهورها في حالة نشوب الحرب ضئيلة لا وزن لها ، بل إن السلطات الحكومية ما لبثت أن اتخذت بعد نشوب الحرب بعض تدابير يتضح من صرامتها ومعارضتها لمبادئ القانون والعدالة مقدار ما كانت تخشاه هذه السلطات من أخطار المقاومة الخفية ؛ فقد أشارت إلى أحد هذه التدابير جريدة فرنكفورتر زيتونج في عددها الصادر في ٢١ يونيو ١٩٤٠ فقالت : تهمل من الآن فصاعداً بمقتضى قرار أصدرته وزارة الدفاع مدة الحبس المنصوص عليها في الأحكام الصادرة بالأشغال الشاقة مدة الحرب على شرط أن تكون هذه الأحكام قد صدرت في جرائم ارتكبت في أثناء الحرب ؛ ومعنى ذلك من الوجهة العملية أن أحكام الأشغال الشاقة تظل سارية من تلقاء نفسها طوال مدة الحرب الحالية ؛ أي أنه لا يحدث إفراج عن أحد هؤلاء المحبوسين مهما قصرت مدة الحبس المحكوم بها عليهم ما دامت الحرب قائمة . وغنى عن البيان أن الجرائم التي يعنىها هذا الأمر كانت تلك التي اتصلت بأعمال المقاومة من إيجابية وسلبية في داخل الرايخ الألماني وذلك منذ أخذت هذه المقاومة تشتد وتتسع رقعة نشاطها بعد قيام الحرب الهتلرية على وجه الخصوص وبالرغم من تلك الانتصارات الحاطقة التي أحرزها النازيون في جبهات الحرب المختلفة ؛ إذ أنه عقب نشوب الحرب ألقى الجستابو القبض على مئات الأهلين وأعدموا منهم عدداً كبيراً ثم ألقوا بما بقي منهم في غياهب السجون وأرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال ، وقد أمكن العثور على أسماء أشخاص عديدين من هؤلاء الضحايا أعضاء تلك « الجبهة الرابعة » التي تحدث عنها هيمار في « وثيقته عام ١٩٣٧ » السابقة . وكان ذلك بفضل ما نشرته الصحف النازية نفسها بين وقت وآخر من أنباءهم . فقد درجت هذه الصحف على نشر أسماء الأفراد الذين ثبتت إدانتهم وصدرت أحكام ضدهم فضلاً عن

أنها كانت تذكر نوع الجريمة التي ارتكبتها هؤلاء واستحقوا من أجلها عقوبة الإعدام أو الحبس ، وقد ذكرت كذلك التواريخ التي نفذت فيها هذه العقوبات . ويتضح من القوائم التي نشرت في الصحف النازية وقتذاك أن عدد الأفراد الذين أعدمهم النازيون بين ١٩ أكتوبر ١٩٣٩ و ١٥ سبتمبر ١٩٤١ بلغ خمسين في داخل الرايخ نشرت الصحف النازية أسماءهم وتواريخ إعدامهم ونوع الجرائم التي ارتكبوها وكانت هذه الجرائم متنوعة ، منها جريمة الخيانة العظمى وأعمال التخريب والاستماع إلى الإذاعات الأجنبية وإيواء الطيارين الأعداء والاشتراك في أحزاب أو جماعات معارضة للنظام القائم وغير ذلك ؛ أما أولئك الذين قتلهم الجيستابو وعرفت أسماءهم بين ٢٤ أكتوبر ١٩٣٩ و ١٢ سبتمبر ١٩٤١ — أي في الوقت الذي كان النازيون قد بلغوا فيه ذروة قوتهم وبسطوا سلطانهم على رقعة شاسعة من أوروبا — فقد بلغوا (٣٣) شخصا ؛ وفضلا عن ذلك فقد صدرت أحكام بالسجن تراوح مدتها بين ١٢ و ١٠٨٠ شهرا على عدد من الأفراد بلغ (٦٩) بين ديسمبر ١٩٣٩ ونوفمبر ١٩٤١ وذلك بسبب استماعهم للإذاعة البريطانية (B.B.C.) وأعدم واحد في نورمبرج لهذا السبب نفسه في ٢٠ مايو ١٩٤١ .

على أنه مما ينبغي ذكره أن الإحصائيات الآتية — وهي كما هو ظاهر لغاية نهاية عام ١٩٤١ — لا تشتمل على جميع ما صدر من أحكام بالحبس أو بالإعدام في ألمانيا خلال هذه المدة فقد غصت السجون بالرجال والنساء بسبب الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية عموما أو لإظهار الاحتقار عند الحديث عن حكومة الرايخ أو السخر بشخص الزعيم هتلر أو ترويج الإشاعات والأخبار الكاذبة أو التي ينجم عن إذاعتها ضرر أو التسبب في ضياع قطع الآلات من المصانع و (الورش) أو إبداء العطف على أسرى الحرب — باعطائهم بعض لفافات التبغ أو الأطعمة أو المشروبات ، أو معايشرة العمال الأجانب المستقرين في خدمة الرايخ معايشرة الصديق والتحليل وقد منع النازيون الشابات الألمانيات على وجه الخصوص من معايشرة البولنديين كما منعوا الرجال الألمان من مخالطة البولنديات .

وواضح في صرامة هذه الأحكام وكثرتها أن ألمانيا ذاتها كانت تعاني نوعا من المقاومة الإيجابية والسلبية لا يقل في شدته عن مقاومة الشعوب الأوربية المقهورة وقتذاك فإذا تذكرنا أن عدد القادرين على المقاومة الإيجابية كان قليلا من جراء تجنيد كل صالح للخدمة العسكرية في ألمانيا وإرساله إلى ميادين القتال أو إلى البلدان المحتلة وأدركنا أن الإحصائيات التي جمعت والحوادث المتفرقة التي عرفت مما كانت تنشره الصحف النازية لا يمكن بأي حال أن تكون كاملة أو تصف كل ما كان يحدث من وقائع لأن النازيين إنما كانوا يقصدون بما ينشرونه

تذكير سواد الشعب بأنه من الخير كل الخير الاقلاع عن المقاومة والرضا بالعيش في ظل النظام القائم ، وعرفنا أنه لم يكن من صالح النازيين بتاتا أن ينشروا على الملأ كافة ما كان يحدث من ضروب المقاومة خوفا من تصدع الجبهة الداخلية — إذا تذكرنا ذلك كله أمكننا أن نقف على مدى المقاومة التي كان يصادفها النازيون في داخل الريخ الثالث نفسه .

بيد أن أكثر ما كان يخشاه هؤلاء في الحقيقة إنما هو انتشار (التخريب) في داخل المصانع الألمانية ، فقد وقعت حوادث من هذا النوع لاريب في أنها كانت كثيرة وقد أمكن الوقوف على شيء منها مما نشرته الصحف النازية وقتذاك ، مثال ذلك ما حدث في مصنع (شمينتز) Chemnitz للأسلحة حيث وقع ما لا يقل عن (١٧٩) حادث إتلاف في خلال شهر واحد (فبراير ١٩٤٢) ، أو ذلك التخريب الذي عطلت بسببه محطة (فورباخ) Forbach لتوليد الكهرباء ، وبما يجدر ذكره أنه قبل حدوث هذا التخريب ببضعة أيام وزعت عدة منشورات ضد النازية بين العمال وفي القرى المجاورة وألقي الجस्ताبو القبض على كثيرين لهذا السبب ، وكان من حوادث التخريب ذات الخطر أيضا تلك الانفجارات التي خربت المصانع في (سباندאו) Spandau قرب برلين في الوقت نفسه .

وعلى ذلك كان متعذراً على المرء أن ينكر وجود المعارضة الداخلية في ألمانيا ضد السادة النازيين على الرغم مما ابتكره هؤلاء من أساليب الدعاية لاقتناع العالم الخارجي في ذلك الحين بأن دولتهم قد أصبحت نازية لحما ودما . وفيما يلي سوف يجد القارئ الدليل تلو الدليل على أن النازيين لم يستطيعوا بتاتا إخماد هذه المعارضة رغم قسوتهم ، بل إن هذه المعارضة نبتت منذ وصولهم إلى الحكم وبقيت إلى وقت إنهيار دولتهم ، وكان من أسباب ازدياد قوتها نشوب الحرب الهتلرية ، إذ سرعان ما أظهرت الحرب بطلان دعاوى النازيين الذين وعدوا مواطنيهم بأنهم سوف تكون حربا خاطفة تنتهي بعد شهور معدودة لا يلبث أبناء الريخ الثالث بعدها حتى يحدوا أنفسهم سادة شعوب العالم قاطبة .

وأسباب وجود هذه المعارضة الداخلية كثيرة ترتبط في جوهرها ارتباطا وثيقا بتلك الخطوة التي اتبعها النازيون منذ وصلوا إلى الحكم كي يؤلفوا كتلة صلبة متماسكة في قلب الريخ الألماني ، فجروا في سياستهم الداخلية على أسلوب خاص كان الغرض منه أن يصبغوا الحياة العامة والخاصة في الريخ الألماني بصبغة نازية بحتة . وعلى ذلك كان مصدر المعارضة الشديد أن شطراً كبيراً من الشعب الألماني نفسه ما كان يرضى بتاتا أن يرى الزعماء الجدد يضيقون عليه السبل حتى يحرموه حرية اختيار نوع الحياة التي يريد أن يختارها ، فضلا عن أنهم كانوا يتدخلون في عقائده الدينية ويعملون لغرض سيطرتهم على الكنائس والمذاهب المختلفة

ليزغموها على قبول تلك الفلسفة التي شاموا أن يبنوا عليها مثلهم العليا في الحياة وادعوا أنها فلسفة روحية تختلف كل الاختلاف عن الفلسفة القديمة التي قالوا إنها كانت يهودية مادية ، زد على ذلك أن أساليب النازيين في شؤون التربية والتعليم — ما كانت لتجلب رضا شطر كبير من الأهلين الذين راعهم أن يروا دعائم الأسرة تنهدم وفلذات أكبادهم يصبحون بانحراطهم في سلك الشباب الهتلري والحزب النازي نفسه ، من الغلاة المنتظرين الذين لا يعرفون لأهلهم كرامة ولا يعترفون للوالدين بحق من الحقوق ، ثم لا يترددون في أن يبالغوا أمر آبائهم إلى السلطات الحكومية إذا أظهر الآباء تدمراً من الأحوال السائدة أو تبرمها بها فيكون جزاؤهم من جراء « تجسس » أبنائهم عليهم تمضية بقية العمر في غياب السجون أو معسكرات الاعتقال ولم يكن من المنتظر أن تخف وطأة المعارضة بعد قيام الحرب العالمية الثانية لأنه سرعان ما نجح عن إخفاق النازيين في إحراز النصر السريع الحافظ عدد من المشكلات لم يكن الزعماء النازيون قد اتخذوا العدة من قبل لمواجهتها اللهم إلا إذا كنا نعتبر الالتجاء إلى وسائل الحبس والاعتقال والإعدام حلولاً مؤقتة لمعالجة المشكلات . وأهم هذه المشكلات نظام التكوين وشدته ، ذلك بأن الأفراد العاديين ظلوا زمناً طويلاً قبل نشوب الحرب الهتلرية محرومين كثيراً من ضروريات الحياة وكانوا يستغيثون عنها بما كان يقدمه لهم « علماء » النازيين وخبرائهم من صنوف المعوضات ، Ersatz في المأكول والمشرب والملابس ؛ وكان الفرد لا ينال حاجته من هذه المعوضات إلا بقدر معين وبمقتضى بطاقة التكوين المعطاة له ؛ وقد أحكم النازيون الرقابة على شؤون التكوين منذ عام ١٩٣٦ م ، أى منذ بدأوا ينفذون (برنامج السنوات الأربع) المشهور بأشراف (هرمان جورج) وكان الغرض من هذا البرنامج أن تصبح ألمانيا النازية دولة تعتمد على الاكتفاء الذاتي في حياتها الاقتصادية ، فتتقص من الواردات ما أمكنها ذلك ؛ وتبذل كل جهد لزيادة الصادرات زيادة عظيمة حتى يجتمع لديها « فائض » تستخدمه في جلب المواد الخام اللازمة لصناعة الحرب ؛ ومنذ عام ١٩٣٦ م كذلك نظمت الدعاية النازية برنامجاً واسعاً على أساس « الاستغناء عن الزبدة والأكثار من صنع المدافع ! » ، فكان من الطبيعي أن يشتد حرمان الفرد عند نشوب الحرب ، وكان أول من أحس وطأة هذا الحرمان الشديد المرأة الألمانية ربة البيت التي وقع على عاتقها تدبير حاجتها وحاجات زوجها وأولادها . على أنه لما كانت أسباب المعارضة الداخلية الأخرى كثيرة يضيق المقام عن التبسط في ذكرها فقد يكفي اختيار عدد منها لإقامة الحجة على أن (هنريك هيملر) كان صادقاً عندما تحدث في وثيقته عن وجود جهة رابعة في داخل ألمانيا . وأهم أسباب المعارضة تدمير المرأة الألمانية وغضبها من النازيين

واشتداد كراهية الأهلين لرجال الحزب النازي والخلاف الذي حدث بين مختلف الكنائس والمذاهب في أدولة الريخ والسلطات الحكومية وإقدام النازيين على الحرب مع الروس وتطور الموقف الحربي في غير مصلحة الألمان عقب دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب واقتضاح أمر هرمان جورنيج وظهور كذبه عندما كثرت الإغارات ليلا ونهارا على برلين وعلى مراكز الصناعة والاتاح الألمانية بعد أن كان يؤكد لمواطنيه استحالة ذلك .

. . .

وكان تدمير المرأة في ألمانيا النازية راجعا قبل كل شيء إلى صعوبة التكوين ، فقد أدخل النازيون نظام (الوجبة ذات الصنف الواحد) Eintopfgericht قبل بدء الحروب العالمية الثانية بخمسة أعوام على الأقل وطلبوا إلى ربات البيوت التبرع بكل ما يمكن توفيره من نفقات تلزم لطهي أكثر من هذا الصنف الواحد ، لصندوق إعانات الشتاء ، الذي خصصه النازيون من سنوات مضت للانفاق منه على العاطلين أو الفقراء ؛ وخلال سنوات السلم عمد النازيون رغبة في أن يتأكدوا من اتباع ربات البيوت لهذا النظام والعمل به إلى إرسال عمالهم من جنود الهجوم (S.A) أو الحرس الأسود (S.S) لفحص (مطابخ) البيوت والأطعمة التي بها من وقت لآخر ثم ما لبثوا حتى زادوا هذا التدخل بدعوى إنشاء جبهة ، جديدة لا غنى عن وجودها لنجاح برنامج السنوات الأربع ، أسموها « جبهة المطبخ » .

وفي عام ١٩٣٦ كان العثور على ابن الجيد والشاى من الأمور المستعصية . ثم اختفت (الزبدة) من عالم الوجود — بدعوى اتفاق المال اللازم لانتاج أو شراء ذلك الطعام الكمال في صنع المدافع والأسلحة — ثم اختفى البيض وتبعه الخبز الأبيض واستعفى عنه بحبر مخلوط أدكن اللون تشمئز منه النفوس ، وقلت اللحوم وتعذر الحصول على الأطعمة المحفوظة ومنذ عام ١٩٣٦ كذلك خرجت الصحيفة الوطنية الاشتراكية Nationalsozialistische Korrespondenz تقول في أحد أعداد نوفمبر ، أنه يجب أن يكون لدى الشعب الألماني . معدة سياسية ، ولذلك نصحت الجريدة بضرورة الإقلال من الدهون واللحوم والإكثار بدلا من ذلك من الأسماك والخضراوات . ونصحت بتفضيل الخبز الأسود على الأبيض كما نصحت بأجادة المضغ للتأكد من استخلاص المواد المغذية في الطعام ، وادعى النازيون أن الإكثار من الأكل خيانة للوطن ! ولم يكن في استطاعة الفرد إذا أراد أن يسد رمقه أن يجد حاجته في المطاعم العامة لأنها صارت لا تقدم سوى صحاف معدودة ؛ وقد حدث هذا كله قبل نشوب الحرب الهتلرية بمدة طويلة

ولما كان توزيع الأغذية جميعها قائما على نظام البطاقات فقد تحتم على المرأة أن تقف في طوابير

أمام الحوائيت في أوقات توزيع هذه الأغذية وبيعها وكثيراً ما كان يحدث أن تعود المرأة إلى بيتها دون قضاء حاجتها بسبب نفاد ما تريده ، وأدرك النازيون ما يسببه ذلك من تدهور السيدات وغضبن فأعدوا طائفة من النساء مهمتهن ملاحظة « المشتريات » والتجسس عليهن حتى لا تنفوه إحداهن بشيء يهين سمعة السلطات الحكومية .

ثم سوغ النازيون هذا النظام بقولهم « ان كثيراً من ربات البيوت يتسلط عليهن الخوف الشديد إذا توقعن العجز عن شراء حاجاتهن وهذا الخوف لاسيما إلى الخلاص منه لأنهن لا يثقن بأن هناك شيئاً اسمه الغد يحصلون فيه على ما يردن بل انك لتجدهن منتظرات خارج الحوائيت قبل أن تفتح أبوابها ، فيسببن بهذا المسلك الشقاء والتعب لا لأشخاص فحسب بل للباعة والتجار كذلك ، على أن تسلمح المرأة بالبطاقة التي بيدها كان لا يعبأ أنها تستطيع دائماً الحصول على المقدار المدون بهذه البطاقة ، فقد حدث في شتاء ١٩٤١ — ١٩٤٢ مثلاً أن اختفت البطاطس من الأسواق ، وبلغ عدد الحوائيت التي أرغمت على إغلاق أبوابها من جراء نقص الأغذية وعدم وجودها حتى ١٥ مارس ١٩٤٣ حوالى المائة ألف في مختلف أنحاء الريخ ، وسبب ذلك زيادة متاعب المرأة الألمانية واضطرها إلى الشراء من (السوق السوداء) ثم الاتجاه إلى (المقايضة) ولما كانت السلطات الحكومية لا ترى غضاضة كبيرة في ذبوع هذه الوسائل غير القانونية للبيع والشراء فقد زاد عدد الأسواق السوداء زيادة عظيمة ، وأقبل الأهليون على نظام المقايضة بشغف كبير .

ولم يكن منشأ صعوبات المرأة في عالم النازية نقص الأغذية وعدم وجودها فحسب ؛ بل أن النازيين كانوا قد بدأوا منذ مدة طويلة حملة واسعة حتى يقتصد الناس في استعمال الصابون ومع قلة هذا الصنف كان النوع الموجود منه من المعضات Ersatz مصنوعاً من المواد الرديئة ويؤدي استعماله إلى بلاء الملابس مما خلق صعوبات جديدة للمرأة الألمانية لأن الحصول على ملابس جديدة كان قد أصبح من أشق الأمور وأبعدها مثلاً في دولة الريخ الثالث ، وكان للنازيين في هذه المسألة أفكار عجيبة ، فانهم كما كانوا يعتبرون الأكثار من الآكل خيانة للوطن فقد أعلنوا كذلك أن ارتداء الملابس الجيدة ذات المنظر الحسن خيانة ، وفضلاً عن ذلك فإنه لم يفتهم إصدار القرارات الصارمة لتنظيم استهلاك الملابس أو شراء الجديد منها . مثال ذلك أنهم كانوا يحددون ما يجب أن يبلغه طول قمصان الرجال وعدد الجيوب في بذلاتهم وحرموا الأكام أو الذبول الطويلة إلى غير ذلك . وفي ١٨ مايو ١٩٣٧ كتب عمدة بلدة (بيرماسنس) Birmasens ، من الملاحظ أن الأموات كثيراً ما يهشون للدفن في أردية ثمينة وزينات عظيمة ، ومن واجبي أن أسترعى انتباهكم لأمر من واجب كل مواطن أن

يعطيه ما يستحقه من عناية كبيرة ، ذلك أنه لا ينبغي دفن الموتى متدثرين بملابس أو أردية ثمينة وغالية ! ، وفي أول يناير ١٩٤٣ صدرت بطاقة جديدة للملابس يسرى العمل بها مدة ثمانية عشر شهراً أنقضت مقدار المنسوجات المرخص باعطائها في أثناء هذه المدة ، وفضلاً عن ذلك فإن أحداً ما كان في وسعه الانتفاع بهذه البطاقة إلا إذا أثبت حاجته الملحة إلى الملابس وأقام الدليل على أن ما يوجد لديه منها قد بات من المتعذر رتق فتوقها أو حياكة لها بلى من أجزائها ، وقد أعطى النازيون عمالهم الحق في فحص خزانات الملابس في البيوت للتأكد من أن المرأة لا تخفي في مكان ما ثياباً أخرى لم يتطرق إليها البلى ، وزادت محنة الملابس هذه عند نشوب الحرب مع روسيا ، ذلك أن الهتلريين أرغموا ربات البيوت على التبرع بالملابس والأردية الثقيلة والأغطية الصوفية (البطاطين) للجند المقاتلين في الجبهة الروسية ، وذلك علاوة على ما كانت المرأة ترغم على التبرع به عادة كل شتاء (لصندوق إغاثة الشتاء) .

وقديماً أكرّث الدعاية النازية من بذل الوعود لاستيالة المرأة الألمانية ، وكان من أهم هذه الوعود تهيئة البيوت الصحية الحديثة ذات الحدائق الصغيرة ، ولكنه لم يمر عام واحد على وصولهم إلى الحكم حتى كان قد أوقف بناء المنازل الجديدة ، ومنذ عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ قرر النازيون قصر جهودهم على الانتاج الحربي فسبب ذلك زوال حلم آخر من الأحلام اللذيذة التي كانت المرأة الألمانية تمني النفس بتحقيقها وكان من الأسباب القوية التي دفعتها إلى تأييد الحزب النازي في الانتخابات الأولى للرئيس ستاج ثم لرياسة دولة الرايخ ذاتها . وزادت محنة المرأة في ألمانيا عندما كثرت الإغارات الليلية والنهارية على المدن وهدمت قذائف الأعداء بيوتاً عدة لا سبيل إلى إعادة بنائها ، ناهيك عن التفكك في بناء غيرها ، فنجم عن ذلك أن ارتفعت الإيجارات ارتفاعاً فاحشاً حتى أن إيجار الشقة التي كانت مؤلفة من ثلاث غرف بلغ في برلين خمسة عشر جنيهاً إنجليزياً في الشهر الواحد . على أن مشكلة السكنى هذه كانت مرتبطة بمشكلة أخرى لا تقل عنها خطراً نجمت عن تغذر العثور على الخادومات والمربيات والمرضعات ؛ وكان سبب ذلك ، تعبئة النساء جميعاً في خدمة الحرب ، ثم صرامة النظام الذي تحتم على ربة البيت أن تتبعه إذا قدر لها العثور على خادمة من بين أولئك البولنديات اللواتي انتزعهن النازيون الفاتحون من أوطانهن وأرسلوهن في عربات البهايم للخدمة في البيوت أو العمل في مواخير الدعارة الرسمية ، إذ كان يتحتم على ربة البيت الألمانية ألا تسمح لخادمتها البولندية بالراحة من عملها أو تظهر نحوها شيئاً من العطف والشفقة حتى إذا عرف عنها لين الجانب وحسن المعاملة حُرمت في التو والساعة من خادمتها .

ولكن ماذا كانت الوسيلة التي استطاعت بها المرأة الألمانية وهي التي حتم عليها النظام النازي أن تعيش في شبه عزلة ، ثم أقصاها عن جميع الوظائف أن تهرب بها عما شعرت به من حزن وألم وبأس علاوة على عجزها عن إدراك ما كانت تتطلبه الحرب من تضحيات لا غنى عنها في عرف النازيين من أجل إحراز السيطرة العالمية ؟ وجدت المرأة الألمانية المتذمرة الحزينة المتألمة اليائسة وسيلة مؤاتية لظهار ما كانت تسكنه من شعور في إصرارها على نهى زوجها أو ولدها أو شقيقها أو أى عزيز لديها عقب ورود الأخبار منبئة بسقوطه في ساحة الوغى بعيداً عن أهله وعشيرته ؛ فقد انقضى الزمن الذي كانت تجد فيه المرأة الألمانية عزاء وسوى بل نغراً ومجداً في موت عزيزها من أجل شخص (الفوهرر) العظيم أو قضية الوطنية الاشتراكية المقدسة بعد ما امتد أجل الحرب وطالت الحملة الروسية على وجه الخصوص وتحطمت آمالها في النصر السريع الحاطف وزاد عيشها سوءاً في داخل الریح ؛ وعبثاً صارت تحاول السلطات الحكومية لإرغام الزوجات والأمهات على إتباع صيغة معينة عند النعي تنص على « سقوط المقاتل في الميدان من أجل الفوهرر والوطن » . وكانت الصحف عند بداية الحرب تنشر قوائم النعي على هذه الصورة . ولكن ما لبثت عند اشتداد سخط الزوجات والأمهات حتى أفسحت أعمدها لأنباء النعي تصوغها المرأة كما تريد وتستهسى ، فتذكر كيف أن عزيزها ، قد عاد إلى الميدان بعد فترة وجيزة أمضاها بين أهله وعشيرته ، فلم ينقض يومان على عودته حتى قتل في أرض أجنبية في بلاد روسيا النائية الموحشة ! . وهكذا تضمنت أنباء النعي إشارة صريحة إلى مقدار ما كانت تعانيه الأمهات والزوجات من آلام مبرحة وبأس عظيم لا يمكن أن يخفف من حدته القول بأن أبناؤهن وأزواجهن إنما ضحوا بأنفسهم في سبيل الزعيم العظيم أو قضية الوطنية الاشتراكية المقدسة أو من أجل الوطن العزيز !

وكان مما زاد في حزن المرأة الألمانية التي فقدت ولدها أو زوجها أنها كانت ترى عدداً كبيراً من الشبان الأقوياء والرجال الصالحين للخدمة العسكرية ينعمون بالوظائف التي أغدقها عليهم الحزب النازي في داخل البلاد عند انخراطهم في سلك « الشباب الهتلري » ، أو جهة العمل ، أو غير ذلك من الهيئات والمنظمات النازية ؛ وذلك عدا العدد العظيم من جنود الهجوم والحرس الأسود ورجال الجستابو الذين انتشروا في أرجاء البلاد بحجة الإشراف على الجهة الداخلية ، واعتمدت الحكومة عليهم في دعم نفوذها والقضاء على أية بادرة من بوادر التمرد والعصيان في الریح الألماني .

وقصة تلك القوات التي كانت تتألف منها شراذم الهجوم ووحدات الحرس الأسود وهيئة الجستابو عجيبه حقاً ، إذ أن توزيع هذه القوات عند بداية الحرب حدث على نحو

يضمن قبل أى شىء آخر تحقيق مآرب الزعماء النازيين ، فى ضرورة السهر على استتباب الأمر للحكومة ودعم أركان النظام القائم عن طريق مراقبة القوات المحاربة فى خطوط القتال الأمامية فضلاً عن مراقبة الأهلى فى داخل الرىخ نفسه . وبيان ذلك أن المهر هتلر أسرع عقب نشوب الحرب إلى تقسيم الحرس الأسود (S.S.) فريقين : فريق عهد إليه الاشراف والمراقبة على خطوط القتال فى وحدات صغيرة تنبث بين الجنود فى الجبهات المختلفة فى الميدان الروسى خاصة وفريق استبقى فى داخل البلاد نفسها لتأييد سلطان الحزب النازى . وكانت مهمة الفريق الأول مراقبة الجنود المقاتلة ومنع انتشار روح التدمير بينهم والحيلولة دون حدوث أية حركة قد يقوم بها الجيش المحارب من أجل التقهقر أو الانسحاب مهما اشتدت ضربات العدو وعظمت خسائر الجيش ، وكان يطلق على هذا الفريق اسم (زملاء المحاربين) Waffen-S.S. وكان عددهم حوالى ٣٥٠,٠٠٠ ؛ أما الفريق الثانى فقد بلغ عدد رجاله ٢٥٠,٠٠٠ ، وكان هتلر قد سمح لوحدات من الحرس الأسود أن تشترك فى القتال فى بداية الحرب عندما بدأ النصر يبدو سهلاً رخيصاً ، كما اشترك الحرس الأسود فى القتال عندما بدأ الزحف على روسيا ؛ غير أنه بعد أن تبين للزعيم أن الحملة الروسية لن تنقضى قبل الشتاء التالى (١٩٤١ — ١٩٤٢) أسرع فى استدعاء هذه الوحدات المقاتلة وجعل عملها مقصوراً على مناوشة العصابات الروسية فى المؤخرة ، وبعد ديسمبر ١٩٤١ اختص الحرس الأسود بأعمال الارهاب خلف الخطوط الأمامية ، فأصبحت مهمتهم أن ينقلوا الفلاحين الروس والنساء والأطفال من قرية إلى أخرى ومن مكان إلى آخر وتسليط سوط العذاب على أبدانهم جميعاً ومنذ ديسمبر سنة ١٩٤١ تألفت كذلك من الحرس الأسود وحدات اتخذت مكانها فى مؤخرة الجيش الألمانى المحارب وكانت مهمتها السهر على منع حوادث التمرد والعصيان فى صفوف المقاتلين فى الخطوط الأمامية ومنع هؤلاء المقاتلين من التقهقر بشتى الوسائل ، وفضلاً عن ذلك فقد عهد هتلر بمهمة مراقبة وحدات الجيش فى خطوط القتال الأمامية إلى جماعات من شرازم الهجوم (S.A.) ورجال الجستابو .

وبلغ عدد الرجال الذين كانت تتألف منهم شرازم الهجوم حسب إحصاء أدلى به (لوتز) Lutze رئيس أركان حرب هذه الشرازم إلى جريدة سويدية فى مايو ١٩٤٢ حوالى مليون وأربعمائة ألف جندى كان عدد الموجود منهم فعلاً فى خطوط القتال (٩٨٩,٠٠٠) بينما ظل أكثر من أربعمائة ألف منتشرين فى أنحاء الرىخ لتوطيد دعائم الحكم النازى ومراقبة الجبهة الداخلية . وكان عدد الجستابو فى تلك الآونة حوالى أربعمائة ألف وجد منهم فى داخل ألمانيا ذاتها حوالى ربع مليون بينما انتشر الباقون فى أنحاء أوروبا المحتلة .

فإذا أضيف عدد رجال الحرس الأسود (S.S.) إلى عدد جنود الهجوم (S.A.) من كفوف مراقبة الجبهة الداخلية ، ثم أضيف إلى هذين الفريقين رجال الجستابو المنتشرون في أرجاء الريخ الثالث يبلغ عدد الرجال الأشداء الأصحاء من هذه الفئات الثلاث (٩٠٠,٠٠٠) رجل أقاموا بداخل البلاد بدلا من الذهاب إلى خطوط القتال الأمامية والدفاع عن القوهر ومبادئ الوطنية الاشتراكية المقدسة وأرض الوطن العزيز ! وكان هذا الرقم الضخم لا يشمل بطبيعة الحال أعضاء حزب النازي العاملين أو الموظفين في هيئات الحزب ومنظماته المختلفة ذات الخلايا المتعددة الموزعة في كل مدينة وقرية من مدن وقرى الريخ الألماني ، وقد بلغ عدد هؤلاء الموظفين والأعضاء بعض مئات الألوف .

ومع أن وجود هذا العدد الضخم من الرجال الصالحين للقتال بعيدين عن ميادين الحرب كان وحده من أكبر العوامل التي سببت كراهية شطر كبير من الألمان للحزب النازي وزعمائه فإن هذه الكراهية كانت ترجع أيضاً إلى ذلك الفرع العظيم الذي استبد بالألمان من بطش قوات الحرس الأسود ورجال الجستابو وقسوتهم ، وليس أدل على مبلغ هذا الفرع مما روته جريدة سويدية Svenaka Dagbladet بعددها الصادر في (مالمو) Malmö في ١٥ مايو سنة ١٩٤٢ من أن ثلاثة من الرجال انتحلوا شخصية أعضاء من الجستابو ودخلوا أحد المساكن في برلين زاعمين أنهم إنما حضروا لاجراء تفتيش دقيق بأمر من السلطات الحكومية فكشهم هذا الادعاء من الاستيلاء على جميع قطع الأثاث وغير ذلك من النفائس التي راقت في أعينهم ، بينما وقف أهل البيت مكتوفي الأيدي لا يبذلون حراً كما يعقد الخوف ألسنتهم ويذهب الرعب برشدهم فبقوا على هذه الحالة مدة حتى إذا هدا روع أحدهم وجد الشجاعة الكافية للذهاب إلى مركز البوليس يتقص ما جرى ، ولكن أحداً لم يهتم بالبحث عن هؤلاء اللصوص . وفي الواقع لم يكن هذا الحادث الأول والآخر من نوعه ، فقد وقعت عدة سرقات مشابهة لهذه منذ وصل النازيون إلى الحكم وبدأت تنتشر في طول البلاد وعرضها منظمات جنود الهجوم والحرس الأسود والجستابو ، حتى إن لفظ الجستابو كان وحده كفيلاً بالقاء الرعب والفرع في نفوس الألمان ، ثم تطايرت الإشاعات عن نشاط هؤلاء الجستابو المرعبين ، وما كانوا يأتونه من جرائم وفظائع ، وسرعان ما بلغت هذه الإشاعات حدا جعل السلطات الحكومية تبادر في مارس ١٩٤٢ بتكذيبها تكديماً قاطعاً وتحذر الألمان من الاستماع إلى أولئك الذين كانوا يروجون هذه الأباطيل، على حد قول الصحف النازية . وكان من أهم أسباب المقاومة الداخلية اضطهاد النازيين للسكستين الكاثوليك والبروتستنتية . وقد بدأ عداء النازيين للسكستية الكاثوليكية قبل وصولهم إلى الحكم بزمان

وكان من أهم أسباب المقاومة الداخلية اضطهاد النازيين للكنيسة الكاثوليكية والبروتستانتية . وقد بدأ عداؤ النازيين للكنيسة الكاثوليكية قبل وصولهم إلى الحكم بزمان طويل يدل على ذلك بيان أصدره أساقفة بافاريا في عام ١٩٣١ احتجاجا على الحركة النازية بسبب مبادئها المتعلقة بالديمقراطية وتفضيل الجنس الآري على ما عداها من الأجناس وموقف النازيين من الكتاب المقدس وتدخلهم في أعمال القساوسة ومنع بعضهم من القيام بوظائفهم الدينية ، فقد عمد النازيون في أول الأمر إلى استجلاب مودة المعتدلين من رجال الدين الكاثوليك الذين أبدوا استعدادهم لتخفيف معارضتهم ضد النازية على أمل أن يفضى هذا التساهل من جانبهم إلى إزالة شيء من أسباب العداوة الذي بدأ مستحكما بين النازيين والكنيسة الكاثوليكية . وفي تلك السنوات الأولى التزم هتلر خطة الحيلة والحذر في علاقاته مع الكاثوليك لأن شعور الكاثوليك في ألمانيا ضد الشيوعية كان شعورا قويا فلم يكن من مصلحة النازية بتاتا إثارة عداوة الكاثوليك ضدهم بدرجة ظاهرة ؛ وأحرز هتلر انتصارا كبيرا عند ما استطاع أن يعقد مع الفاتيكان معاهدة (concordat) في يولية ١٩٣٣ لأن إبرام ذلك الاتفاق كفل على حد قول النازيين أنفسهم اعتراف الكنيسة الكاثوليكية بالوطنية الاشتراكية اعترافا نهائيا . وكان الكونكردرات ينص على أن يقسم كل أسقف عند تعيينه في أسقفية يمين الولاء للدولة الألمانية وحرم على القساوسة الانضمام إلى الأحزاب السياسية أو مساعدة هذه الأحزاب مهما كانت أغراضها ، أما النازيون فقد تعهدوا في نظير ذلك بأن يعطوا الحرية الكاملة لمدارس الكاثوليك والجماعات الدينية الكاثوليكية ما دامت لا تهدف إلى أغراض سياسية ثم تعهدوا بعدم تدخل الدولة في عقائد الأفراد وكل ما كان متصلا بشئون حياتهم الدينية ، وألا يتعرضوا للأطفال الكاثوليك بشيء .

غير أن النازيين الذين كانوا قد وصلوا إلى الحكم قبل هذا الاتفاق بشهور معدودة ، كانوا يبيتون النية على نقض التزاماتهم عند أول بادرة ؛ وفضلا عن ذلك فإن مضيقهم في تنفيذ برنامجهم الداخلي لتأليف تلك الكتلة الصلبة المتماسكة التي أرادوا إنشاءها في قلب الرينج الألماني ما لبث حتى أثار ضدهم احتجاج الكنيسة الكاثوليكية ، وكان سببا في استحكام العداوة بين النازيين والكاثوليك في الرينج الثالث ، فقد أصدر النازيون بعد مضي ستة أيام من توقيعهم الكونكردرات قانون التعقيم ، الذي سبق الحديث عنه ، فأثاروا بذلك شعور الكاثوليك لأن التعقيم يتعارض مع عقائدهم الدينية ولا يمكن أن يوافقوا عليه بحال من الأحوال ، وعدوا إصدار هذا القانون تحديا صريحا لهم وتوقع النازيون أن يمتنع الكاثوليك عن تنفيذه وأن ينقد القساوسة هذا القانون نقدا مرارا ؛ وتحقق ما توقعوه إذ ألقى الكاردينال (فولهابر) Faulhaber « عظة ،

في آخر عام ١٩٣٣ يبين فيما موقف الكنيسة الكاثوليكية رسمياً من مسألة النسل والتعقيم وكأئماً كان إفصاح الكنيسة الكاثوليكية عن موقفها من هذا القانون كل ما يبتغيه النازيون حتى يعلموا على الملأ أن رجال الدين الكاثوليك اهتموا السكونسكردات ونقضوا بين الولاء الذي أقسموه للدولة الألمانية وأنهم مصررون على المضي في عداوتهم للوطنية الاشتراكية . وعلى ذلك شرع النازيون يكهنون الصحف الكاثوليكية في غير توان وفي بداية العام التالي (١٩٣٤) بدأ الفريد روزنبرج بعد حملته لانتزاع الشباب الألماني من أحضان الكنيسة ولما كان هتلر يأخذ أهيته في تلك الآونة لضمان نجاح الاستفتاء في إقليم السار وانضمامه إلى ألمانيا وكان النفوذ الكاثوليكي في هذا الإقليم قوياً فقد رأى هتلر عدم الظهور بمظهر العداء الصريح للكاثوليكية، ووعده بصون حقوق الكنيسة الكاثوليكية وتنفيذ مواد السكونسكردات بكل أمانة ، غير أن هذه الوعود لم تسكف لاقناع رجال الدين الكاثوليك بأن النازية لا تريد شرا بكنيستهم فأعد أساقفتهم في اجتماعهم السنوي وقتذاك في بلدة (فولدا) (خطاباً رعويًا) أظهروا فيه إنزعاجهم من سير الأمور وعدم اطمئنانهم إليه . ولكن أحداً من الأفراد لم يقرأ هذا الخطاب لأن الجستابو سرعان ما صادروه وأتلفوا كل أثر له . واشتد عداوة النازيين للكاثوليكية فأعلن زعيم الشباب الهتلري (بلدورفون شيراش) الحرب السافرة ضد المنظمات الكاثوليكية (مارس ١٩٣٤) ؛ وأسست معاملة فتيان الكشافاة الكاثوليك في كل ظرف ومناسبة ، وانتهز الهتلريون عودة فريق من هؤلاء الفتيان بعد زيارة قاموا بها إلى رومة في غضون عام ١٩٣٥ ففجأهم رجال البوليس السري في أثناء عودتهم واغتصبوا منهم آلات التصوير والمساج والصلبان ومن قولا ملابسهم ، وفي العام التالي نشط عداوة النازيين للكاثوليكية فأتموا خنق الصحافة الكاثوليكية ، وكانوا قد بدأوا يكهنون أفواهاها منذ وصولهم إلى الحكم رويدا رويدا . وفي عام ١٩٣٨ كانت قد حلت كل منظمات الشباب الكاثوليكي تقريبا ولم يبق في الميدان سوى (الشباب الهتلري) ودأب النازيون على إظهار الكاثوليك بمظهر أولئك الذين يضمرون العداء للدولة دائماً ولا يحترمون القوانين ويلطخون سمعة الريح الألماني . فأصدروا قوانين لمنع تصدير النقد الألماني إلى الخارج وكان معنى هذا تعذر سداد الديون المترتبة على كل تلك الهيئات والمؤسسات الدينية التي اضطرت أيام تدهور المارك الألماني في عهد (جمهورية ويمار) إلى استئذانها من الخارج إلا إذا لجأت إلى التهريب لأن هذه الهيئات والمؤسسات الدينية لم تكن بطبيعة الحال تشغل بالتجارة حتى يمكنها أن تسدد ديونها بفضل ما تصدره من سلع فلم تكن ثم وسيلة لتسديد الديون غير تهريب النقد ومخالفة أوامر الحكومة وفشلا عن ذلك فقد بدأ النازيون في أوائل عام ١٩٣٧ حملة واسعة الغرض منها اتهام القساوسة

والرهبان والراهبات بسوء الخلق . ونشرت الصحف النازية بعدة وبن كبيرة حوادث هذه الاتهامات المخزية ووعدت بتقديم ما لا يقل عن ألف من هؤلاء القساوسة والراهبات إلى المحاكمة ، وشجعت السلطات افراد الشعب على البحث عن مرتكبي الموبقات من رجال الدين الكاثوليك ولكن هذه الحملة الواسعة أسفرت عن أدانة خمسة وثمانين قسيسا من بين خمسة وعشرين ألفا في الرينخ ولم يثبت على راهبة ما أية تهمة من تلك التهم الشنعاء على أن هذا الفشل لم يمنع النازيين من الاعمان في اضطهاد رجال الدين الكاثوليك من أجل سلامة الدولة على حد قولهم ، لعدة أسباب من أهمها أن الكنيسة الكاثوليكية ذات ثقافة جنسية فضلا عن أنها لم تكن مؤسسة وطنية لأن اتجاهاتها وميولها مصطبغة بصبغة دواية ولا يمكن أن يعد أعضاؤه مواطنين بمعنى الكلمة لما كان لهم من علاقات مع سائر الكاثوليك في الخارج . وهكذا استطاع النازيون في غضون ثمانية أعوام من بدء سيطرتهم أن يلقوا في السجون حوالي خمسة آلاف قسيس .

وعظمت محنة الكاثوليكية بعد نشوب الحرب الأهلية ، وكان من وسائل إرهابها مصادرة أملاك الكنائس والجماعات الدينية ، فصادر الجستابو في عام ١٩٤١ مراكز (جماعة يسوع) وبيت الراهبات في مونستر بوستفاليا ومراكز جماعة القديس أوغسطين بالقرب من (بون) في الراين وبلغ عدد مراكز هذه الجماعة التي صادرها الجستابو حتى أواخر عام ١٩٤١ ثلاثة عشر مركزا . وفي مارس ١٩٤٢ أعلن أسقف براين أن النازيين صادروا كثيرا من أملاك الكنيسة الكاثوليكية وفي أبريل من العام نفسه أغلق النازيون أديرة البندكتين في شتي نواحي ألمانيا . ولكن في عام ١٩٤٢ كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد دخلت الحرب ضد ألمانيا واشتدت غارات قوات الطيران البريطانية على المناطق الغربية لاسيما وأن الجيش الألماني كان يزحف على رومانيا ، وأخذت أركان الجبهة الداخلية في التصدع على الرغم من قسوة النازيين وبطش رجال الجستابو . وفي هذه الظروف رفع رجال الكاثوليك أصواتهم فجأة يتحدثون فلسفة النظام الهتلري ويهددون بتقويض أركانه . وصحیح أن قادة الكاثوليك قالوا إن الاشتغال لأوامر الدولة والخضوع لقوانينها واجب على كل فرد ، ولكنهم صاروا يطالبون في الوقت نفسه بتغيير النظم القائمة وإنشاء نظام آخر بدلا من نظام الزعامة المسؤولة ، فكان معنى ذلك تسديد ضربات المعارضة ضد النظام النازي بأجمعه . وألقى أسقف مونستر الكونت (جالن) Gaen عظاته الثلاث المشهورة في غضون شهرى يوليه وأغسطس من عام ١٩٤١ وحمل على وثنية النازيين حملة شديدة داعيا الآباء إلى إمدان النظر في مستقبل أبنائهم ، والمسيحيين إلى اتباع تعاليم الكنيسة الصحيحة ، فلا يفتنوا النفس التي حرم الله قتلها ، ولا يتحدثوا من دعوى

تخليص المرضى من آلامهم والمجتمع من المعتوهين مسوغا لارتكاب جرائم القتل ، وأطال الكونت (جالني) الحديث عن (الوصايا العشر) فوضح مستمعيه إن مصادرة الأملاك — على غرار ما كان يفعل النازيون — سرقة صريحة ، وإن الحب الطليق ، وإنتاج الأبناء لخدمة الريخ خارج نطاق الزوجية ، زنا ومهسية ، وأن عدم احترام الآباء والأمهات عقوق ونكران وأن عبادة الطبيعة والدولة والجنس زيغ وكفران . وفي آخر العام نفسه ألقى الكردينال (فولهاير) عظة في كستدرائية ميونخ عدد فيها الاتهامات التي كان يكيلها النازيون للكنيسة الكاثوليكية ثم أخذ يدحض هذه المفتريات الواحدة بعد الأخرى وأظهر ما كان يفعله النازيون — على حد قوله — لاقتلاع جذور الكنيسة . وفي مارس ١٩٤٢ قرىء في السكنايس (خطاب رعوى) وضعه الأساقفة الكاثوليك وفي العام التالي كان أعداء الكنيسة الكاثوليكية للنازية سافرا ، فانفض كثير من حول اشتارية ، وزادت مقاومة المتدمرين من نظام النازيين شدة على شدتها .

وكان مما قوى حركة المقاومة الدينية ، موقف النازيين من البروتستنتية في ألمانيا فقد بدأوا بإحكام رقابة الدولة على الكنيسة البروتستنتية منذ استتب لهم الأمر في الريخ فعينوا (قومسيارين) للإشراف على شؤون السكنايس البروتستنتية في بروسيا وسكسونيا وغيرهما عام ١٩٣٣ ومنعوا نشر كل ما كان يتناول المسائل الكنسية (١٩٣٤) ، وارتكبوا غير ذلك من الأعمال التي أثارت المقاومة ضدهم . وألقى النازيون القبض على كبار رجال الدين البروتستنت في ورتمبرج وبافاريا (١٩٣٤) وأرسلوا القساوسة البروتستنت خصوصا في سكسونيا ولساو — مس إلى معسكرات الاعتقال ، وقبضوا على سبعة منهم في أنحاء بروسيا لأنهم قرأوا من فوق المنابر احتجاجا ضد تلك « الوثنية الجديدة » التي أراد النازيون أن يستعبدوا بها عن الأديان جميعها (١٩٣٥) ونفوا عددا عظيما من القساوسة البروتستنت في (بروسيا) وغيرها . وعندما ألف المعارضون البروتستنت كنيسة جديدة أسموها الكنيسة الاعترافية ، حتى يتحرروا من القيود التي فرضها النازيون على الكنيسة البروتستنتية ، عطلت السلطات الحكومية إقامة الشعائر بالسكنايس الاعترافية وصادرت أموالها وفرضت رقابة شديدة على مطبوعاتها غير أن التدابير النازية لم تخضع من شوكة الاعترافيين وظهر زعماء أمثال مارتن نيمولر وغيره قادوا المعارضة ضد الهتلرية بشجاعة فائقة وضحي كثيرين بأنفسهم في سبيل تعزيز العقائد المسيحية الصحيحة فقدم (نيمولر) وإخوانه مذكرة إلى النورر — يتساءلون فيها عن نوايا النازية تجاه الديانة المسيحية (١٩٣٦) ثم تكررت احتجاجاتهم في العام التالي وفي يولييه ألقى النازيون القبض على (نيمولر) وفي فبراير ١٩٣٨ قدموه للمحاكمة ثم أرسلوه

إلى معسكرات الاعتقال . وعندما بدأ الحرب اشتد الضيق على الكائنات الاعترافية (١٩٣٩) فلم يسعها إزاء انتصارات النازيين الباهرة في مراحل الحرب الأولى وانتشار رجال الجستابو في طول البلاد وعرضها سوى أن تطأطأ الرأس انتظارا لساعة الخلاص . وكانت الحرب التي شنها هتلر على روسيا مؤذنة بأن هذه الساعة لا بد آتية . ذلك بأن الحرب الروسية كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى ازدياد المقاومة ضد النظام الهتلري وتصعد الجبهة الرابعة نهائيا فضلا عن أنها كانت بمثابة المعول الذي هدم ذلك البنيان الشاخ : آلة الحرب النازية . فانه بمجرد أن سرى التدمير في الجيش بين صفوف الجند وضباطهم وكبار قوادهم ، بات لإنهيار ألمانيا أمرا لا مفر من حدوثه .

فقد عرف عن الألمان من قديم الزمان أنهم يعنون بتنظيم الجيش عناية كبيرة ، ومع ذلك قد يخفى على الكثيرين أن الجيش الألماني كان يعد أعظم الجيوش الديمقراطية إطلاقا بعد الجيش الأحمر وسبب ذلك أن الألمان حين خسروا الحرب العالمية الأولى ، رغبوا في الانتفاع من دروس الهزيمة القاسية وقد وجدوا أن النظام التيمصري القديم كان من عوامل تلك الهزيمة إذ كان القواد والضباط والجنود يؤلفون طبقات منفصلة جمعت من المتعذر قيام الألفة والتفاهم بين الرتب العسكرية المختلفة . ولذلك حرص الألمان منذ أيام جمهورية ويمار ، على أن يربوا هذه الفوارق على الأقل بين الضباط وضباط الصف وبقية الجند وعندما وصل النازيون إلى الحكم درجوا على ذلك حتى خرج إلى عالم الوجود في النهاية جيش (ديمقراطي) شديد التماسك دقيق النظام ، يشعر أفراده شعورا قويا بأنهم إنما يؤلفون مجموعة واحدة تربط بينهم جميعا أواصر التفاني في خدمة الوطن . وعلى ذلك ظل الجيش الألماني في مراحل الحرب العالمية الثانية قوة متماسكة لا يمكن أن يجد الوهن اليها شيئا وكان من أسباب ذلك أن جميع الانتصارات التي أحرزها النازيون حتى منتصف عام ١٩٤١ ، كانت انتصارات سهلة لم تكلفهم جهودا كبيرة بل كانت كل القوة التي اعتمد عليها الألمان في كسب معاركهم لا تزيد على ربع مليون رجل وحوالي اثني عشرة فرقة من فرق الهجوم المصفحة وبضعة آلاف من رجال الطيران والغواصات . أي أن النازيين ... بعبارة أخرى ... اعتمدوا في احراز انتصاراتهم على (الجيش المحترف) ، وعماده الجند المدربون الذين خدموا زمنا طويلا وتغلغل فيهم روح التنظيم العسكري الألماني وعرفوا تقاليد الجيش الألماني وحرصوا على الدود عنها ، ولكن الأحوال لم تلبث أن تغيرت عندما اضطر النازيون منذ أن بدأت الحرب الروسية في يونيو ١٩٤١ إلى تجنيد كل شاب في سن الخدمة العسكرية صالح لخل السلاح فضموا إلى الجيش الألماني فرقا جديدة جمعوها جنودها من بين أعضاء تلك (الجبهة الرابعة) التي كان

يخافها (هيملر) كل الخوف منذ عام ١٩٣٧ ويرى فيها عوامل انحلال عاجل أو آجل إذا تركت وشأنها ولم يفرض عليها (الجستابو) نظاقا من المراقبة الشديدة ولم يكن (هيملر) في مخاوفه هذه مخطئا أو مغاليا .

فان هذه (الجبهة الرابعة) التي قام أعضاؤها - من الصمراع والعمال والزراع والموظفين ، المدنيين - بجميع أنواع المقاومة الايجابية والسلبية في داخل الريخ الألماني ، على النحو الذي تقدم ذكره : لم يلبث أن ظهر نشاطها في ميادين القتال أيضا . وبخاصة في الميدان الروسى الكبير الذى كان يتطلب من الألمان حشد الألوف من شبان الريخ لمنازلة الجحافل الروسية ولاجئال فى أن تلك المقاومة كانت مقصودة فضلا عن أنها كانت نتيجة حتمية لما حل بالجنود من التعب والملل والشكوى من سوء القوين والتدمير من قلة الملابس والتمرض لبرد روسيا القارص واليأس من احراز النصر السريع ، على نحو ما كان يعدهم به الهر هتلر من جانب ويقرر بهم الهر جوبلز بدعايته الواسعة العريضة من جانب آخر ، وقد ظهرت المقاومة فى أشكال متنوعة كان منها هروب المقاتلة الألمان وتسليمهم من غير قتال وامتناعهم عن تنفيذ أوامر الهجوم وتفويضهم التقيقر فى الميدان على مواجهة العدو ثم التذرع بشتى الوسائل عقب وقوعهم فى الأسر واطمئنانهم إلى أنهم قد أصبحوا بعيدى عن محالب الجستابو لاطهار كراهيتهم وبغضهم للنظام النازى وللزعيم ، وعصايتة ، وما لبثت حوادث هذه المقاومة أن استرعت أنظار الروس عقب نشوب الحرب بينهم وبين النازيين وذلك على الرغم من أن انتصارات الألمان كانت قد جعلتهم فى الشهور الأولى من عام ١٩٤٢ على مقربة من ليننجراد وتجاوزت بهم (سمولنسك) ومكنتهم من التوغل فى الأوكرين ، فبدأ الروس بدرسون أحوال الهاربين والأسرى الألمان دراسة منظمه تلقى ضوءا كبيرا على حقيقة هذا النوع من المقاومة وسواء كانت هذه المقاومة ذات أثر فعال فى اندحار النازيين فى النهاية أو تضافرت عوامل أخرى أشد خطرا على تقويض دعائم الريخ الثالث فان وجود هذه المقاومة فى مراحل الحرب الأولى دليل على أن الهتلريين قد أخفقوا فى استمالة سواد الأمة الألمانية إلى تأييد ذلك النظام ، الذى فرضه على ألمانيا فرضا تم أرادوا تطبيقه على بقية أوروبا النازية ، وأسطع برهان على هذا الاخفاق ان الجندى الألمانى الذى عمد إلى الفرار من الخطوط الأمامية أو التسليم أو عصيان الأوامر أو عدم الثبات أمام العدو فى بداية الحرب مع روسيا كان من غير شك لا يجد فى تلك الفلسفة التى قامت عليها دعائم النظام النازى أية مثل على خليفة بتضحية النفس وبذلها رخيصة فى سبيل تحقيقها .

فقد أخذ عدد الهاربين من المقاتلة الألمان إلى الجيش الأحمر يزداد منذ بداية الحملة الروسية

حتى بلغ درجة جعلت من المتمرد الاعتقاد بأن حوادث الحرب كانت حوادث فردية ولا تدل على فقدان الرغبة في القتال لدى شطر من الجنود الألمان في الجبهة الشرقية . ومنذ ١٨ مارس ١٩٤٢ أشارت صحيفة النازيين الرسمية (فولكشير بيونختر) إلى هذه الحالة إشارة خفية عندما قالت : « إن الجنود الألمان يفكرون في البرد والقمل وغيره من كلام أكثر مما يفكرون في وطنهم فإذا فتح جندي فاه في الجبهة الروسية فعل ذلك دائما للشكوى من البرد أو من أن مطبخ الميدان لا يعد الطعام في موعده ، أو من أن الخبز قديم أو غير ذلك من الشكاوى » . وجاء في مقبرة يومية عثر عليها الروس بين أوراق (الفريد روهيل) أحد الضباط الألمان الذين سقطوا في الميدان الأوسط بالقرب من (أفاوو) في غرب مورتزيسك في آخر يناير ١٩٤٢ ما يؤيد إنتشار روح التذمر في الجيش أبان الحملة الروسية فقد دون هذا الضابط في مذكرته بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٩٤١ : « أنه من الصعب على المرء أن يفهم ما يحدث الآن ؛ فاننا نتقهقر . مع أننا لم نتقهقر في بواندة ؛ ولم نتقهقر في فرنسا أو اليونان ؛ ولكن هنا في روسيا ، بدلا من التقدم إلى الأمام بدأنا لسبب ما نتقهقر . وهذا أمر يصعب فهمه لاسيما وأن (الزعيم) أكد لنا أن الروس سوف يخرون صرعى وأن الحملة الروسية لا بد منتهية في ختام عام ١٩٤١ حتى يستطيع الانتهاء من الانجليز أيضا في عام ١٩٤٢ ولكن هذه الآمال تنهار الآن كأنها بيت من الورق » وكتب الضابط أيضا في ٨ يناير ١٩٤٢ : « لقد أصبح جنودنا غير أولئك الذين عهدناهم من قبل . أنهم الآن يلزمون الصمت ويصعب على المرء أن يتحدث من يتحدث اليه منهم بل إنه يبدو عليهم التجهم وعدم الثقة وصحیح أن الجنود ما زالوا يخشون بأس الضباط ولكن العلاقات القائمة بين الطرفين قد تغيرت نوعا ما حتى أن الإنسان يشعر بوجود توتر غير طبيعي وذلك نذير سوء » : وكتب في اليوم التالي « اختفى من فرقنا أمس ثلاثة رجال ، ولم يكن هذا الحادث الأول من نوعه . والظاهر أنهم هربوا أو سلوا للعدو ... » وكتب في ٢٠ يناير : « اخترق الروس صفوفنا ثانية . ونحن في خطر التطويق وخسارتنا جسيمة ؛ والجنود منهزمون . يبدو عليهم الوجوم ؛ وحجذا لو أمكن معرفة ما يحول بخاطرهم . ولكنهم يلزمون الصمت دائما . وهذا الصمت يرهق أعصابنا كثيرا » . وذكر في ٢١ يناير : « لاشك في أن الجنود يكثرون من الكلام فيما بينهم . ولم يعد النظام دقيقا . وحدث أمس أن الجندي (هانز إيبتر) أرسل إلى مركز أمان المراقبة ولكنه سرعان ما رجع إلى الجنود لاهثا مذعورا ولم يعد إلى مركزه إلا بعد أن هدده باطلاق الرصاص عليه ، وفي ٢٢ يناير كتب يقول « تزداد نفسية الجنود سوءا يوما بعد يوم ... وقد حدث أمس أن رفض عدد منهم القيام بهجوم مضاد ، حتى اضطررنا إلى تهديدهم

باطلاق نيران المدافع الرشاشة عليهم . وقد حاول ثلاثة من الرجال التسليم الى العدو ، فاعدهموا رميا بالرصاص : ان العجندات التي تصل اليها هي من رجال الاحتياطى غير المدربين ... » .
وأخيرا دون في مذكرته بتاريخ ٢٤ يناير : « وصلت اليها أوامر تحتم علينا عدم التقهقر خطوة واحدة وقد أُنذر الضباط بأنهم سوف يقدمون الى المحاكم العسكرية اذا انسحبوا أو تقهقروا قبل أن تصل اليهم أوامر بذلك ، ولكن اصدار الأوامر شيء ، وإطاعتها شيء آخر . ويبدو أن القيادة العامة لا تدرى بكل ما يجرى فى هذه الجهات على وجهه الصحيح ... ان معركة اليوم يقصد من ورائها الاستيلاء على (أفاروفو) ... وفى هذه المعركة قضى صاحب المذكرات نجمة .

ومن امثلة التسليم المقصود الى العدو ما وقع فى أكتوبر ١٩٤١ فى الجبهة الشمالية عندما أرغم جنود احدى الايات المشاة على رفع راية التسليم البيضاء فقد غادروا أماكنهم آخذين معهم ضابطهم وساموا أنفسهم ارجال الجيش الأحمر . وقد حدث أن وقف أحد هؤلاء الجنود خطيباً يتنبأ بقرب انهيار النازية ويحرض الجنود الألمان على وقف القتال . وحدث فى فبراير ١٩٤٢ أن عهد الى فريق من جنود المشاة بمهمة تغطية تقهقر الجيش ، ولكنهم بدلا من ذلك لم يطلقوا رصاصة واحدة على العدو ؛ وعندما اقترب الروس منهم ، أرسل رئيسهم مندوبا يبالغهم رغبة جنوده فى التسليم . وفى غير الميدان الروسى أمثلة عدة للهرب من الجيش والتسليم للعدو ورفض القتال حتى أن القيادة العليا الألمانية وجدت من الضرورى ارسال الجستابو وعطائفة من الجنود المتحمسين للنازية للانضمام الى القوات المحاربة فى الميدان لمراقبة الهاربين أو الراغبين فى التسليم أو الممتنعين عن تنفيذ الأوامر والقبض عليهم وتقديمهم الى المحاكم العسكرية أو اطلاق الرصاص عليهم بدلا من ذلك فى التو والساعة . فقد حدث فى نوفمبر سنة ١٩٤١ أن رفضت وحدة ألمانية فى ليل Lille على حدود فرنسا الشمالية الشرقية مغادرة الثكنات والانتقال الى الجبهة الشرقية ، فاطلق الرصاص على تسعة وعشرين منهم ، والى القبض على ثلاثمائة ؛ وأعدم فى الشهر نفسه ستة من الجنود الألمان فى بتسامو فى طرف فتلندة الشمالى لمحاولة الهرب ؛ وفى ٢٣ ديسمبر ١٩٤١ حدث فى قرية (مياليخوفو) بالقرب من (بلجورود) أن رفض تسعون جنديا اطاعة أوامر الهجوم فاطلق الرصاص عليهم وفى يناير ١٩٤٢ أطلق الرصاص على عدد من جند الآلاى السابع والثلاثين بعد المائة بسبب التمرد والعصيان ؛ وفى نفس الشهر أعدم ثلاثة عشر جنديا ألمانيا فى (اسن) وثمان فى (ليزج) لرفضهم الذهاب الى الجبهة الشرقية ؛ وفى فبراير ١٩٤٢ أعدم ثلاثة وستون من الألمان فى (نانسى) بفرنسا لأنهم رفضوا الذهاب الى خطوط القتال الروسية ؛ وفى نفس الشهر هرب عشرة جنود فى أثناء نقلهم بالسكة الحديد من أحد المراكز بفرنسا وضبط واحد منهم فانتحر قبل محاكمته .

وثمة ظاهرة أخيرة تدل على مبلغ ما كان هناك من شعور عدائي مشترك بين أسرى الحرب الألمان نحو النازية وزعيمها أنه لم تكف السلطات السوفيتية في معسكرات أسرى الحرب تسمح بتأليف الجمعيات الأدبية للخطابة والمناظرة وما إلى ذلك حتى انتهز هؤلاء الفرصة للخوض في مساوئ الوطنية الاشتراكية والتدمير الذي تم على أيدي الزعماء النازيين الذين ألقوا تلمية لأطعمتهم وخدمة لآربهم الشخصية عمالين الرجال من الألمان ومن حلفائهم المسكرين، على التعاون معهم إلى ميادين القتال .

وكان من المتوقع بطبيعة الحال أن تشجع السلطات السوفيتية هذه الحركة فسمحت بذهاب الوفود من الأسرى الألمان لزيارة أسرى الحرب الرومانيين وغيرهم لنشر الدعوة ضد النازية وبيان مبلغ الأخطار التي تستهدف لها البلاد المحتلة من جراء تعاونها مع النازيين . وزيادة على ذلك أذنت السلطات السوفيتية بعقد اجتماعات كبيرة يحضرها مندوبون عن معسكرات أسرى الحرب جميعا لتوضيح موقفهم من النازية وتوثيق العلاقات بين كافة أسرى الحرب على أساس التخلص من الهر هتلر والنازيين كخطوة لا غنى عنها لنشر ألوية السلام على أوروبا وفي يناير ١٩٤٣ اجتمع في أحد معسكرات أسرى الحرب في روسيا مندوبون عن سائر معسكرات الأسرى بلغ عددهم ٨٧٦ وكان معظم المندوبين من الألمان برئاسة (الأونباشي) ردولف وولف من برلين ثم كثرت اجتماعات أسرى الحرب في الشهور التالية . فحدث في فبراير أن حضر إلى المعسكر رقم ٩٥ حوالي مائة وتسعون مندوبا يمثلون ١٢٤٢ من ضباط الصف في المعسكرات الأخرى . وبعد أسابيع قليلة أي في أواخر مارس عقد الأسرى الألمان الذين وقعوا في الأسر بين ديسمبر ١٩٤١ وفبراير ١٩٤٢ اجتماعا في المعسكر رقم ٧٤ واتخذوا قرارا طويلا ، ختموه بعبارة رنانة : « لتستقط الحرب ، وليستقط هتلر وعصابته ، وليجى النضال من أجل ألمانيا الحرة ؟ » . وفي فبراير ومارس من العام نفسه أصدر ثمانية وعشرون ضابطا من أسرى الحرب الألمان في روسيا نداء طويلا أذاعته المحطات الروسية وكذلك المحطات السرية في الرينج الثالث عدة مرات ، أوضح فيه الضباط لأبناء وطنهم كيف غرر هتلر وعصابته بأهل البلاد وزوجاتهم من أجل أطعمتهم الجنونية في حرب يفنى فيها مئات الألوف من الشباب سدى وأنه لا يمكن أن تنتهى ما دام هتلر في الحكم لأنه لن يعقد انسان أى صلح معه بينما تستطيع حكومة وطنية يؤيدها الجيش ويوليا الشعب نقته أن تحصل لألمانيا على صلح خاتم بأمة عظيمة ، فكان هذا النداء دعوة صريحة للثورة على النازيين في ألمانيا .

وقد يتبادر الى الذهن ان اسرى الحرب كانوا مدفوعين لظروفهم الخاصة إلى إظهار هذا

العداء وهذا البغض نحو النازية وزعيمها ولكن الحقيقة كانت على عكس ذلك تماما ، بل إن هناك من الامثلة الكثيرة الأخرى ما يكفي لإظهار مبلغ التصديق في الجيش الألماني وقتذاك ولعل من أخطر هذه الحوادث ما وقع في إقليم (القوق) الفرنسي على الحدود الشرقية بين فرنسا وألمانيا في فبراير ١٩٤٢ ، عندما التحم الجنود الألمان مع حرس (هيملر) في معارك دموية كما حدث بالقرب من باريس في الوقت نفسه أن أعدم ثمانية من الجنود الألمان لارتكابهم جريمة التخريب ومحاولة الحرب وفي (بار دوبيش) في تشيكوسلوفا كيا سار الجنود الألمان في مظاهرة كبيرة فطافوا بشوارع المدينة وهم يصيحون . ، نطالب الصالح ونريد العودة إلى الوطن ، فلأبث رجال (هيملر) أن حضروا مسرعين وأطلقوا الرصاص ، فقتلوا من المتظاهرين ثمانية وجرحوا ثلاثين وألقوا القبض على ستين منهم وحدث في أوائل عام ١٩٤٣ أن اختفى فجأة عدد من القواد في ظروف غامضة كان من بينهم الجنرال فون ريشناو عدا غيره من كبار الضباط الألمان . وقد أذاعت المحطات السريّة الحرة الألمانية وقتذاك تفصيلات عن ظروف اختفائهم ثم إعدامهم بعد ذلك ويتبين من هذه التفصيلات أن احد عشر ضابطا من كبار رجال الطيران الألمان الذين قتلهم (الجيستابو) كانوا جميعا قد وقموا بأسمائهم على ، مذكرة ، يعارضون فيها هيملر فكان توقيعهم على هذه المذكرة السبب المباشر لسفك دمائهم .

وكان (هيملر) قد طلب في ذلك الحين أن يكون لدى فرق الحرس النازي من أصحاب القمصان السود (S.S) الخاضعين لرياسته قوة منفصلة من السلاح الجوي خاصة بها ؛ فلقى هذا الطلب معارضة شديدة من الجنرال (براوشيتش) ومن هيئة القيادة العليا للجيش الألماني ومن جانب فريق من كبار الضباط وخصوصا في سلاح الطيران وكانت حجة المعارضين أنه ينبغي الاحتفاظ بوحدة القيادة العليا العسكرية وعدم تجزئتها وأنه مادامت التنظيمات النازية الحزبية المعروفة ، وهي فرق الهجوم ، وفرق الحرس قد دخلت في خدمة الجيش فقد أصبح من المتحتم عليها الخضوع التام لنظامه . وأمام هذه المعارضة ، رأى (هيملر) أن يلجأ إلى (هتلر) حتى يحصل على تأييده ولكن (هتلر) كما كانت عادته في هذه الأمور ظل مترددا ورأى تأجيل الفصل في هذا الموضوع ؛ وعندئذ وجد الضباط والقواد بدورهم وكانوا قد فاتحوا (هتلر) نفسه في الأمر أن يستميلوا إلى جانبهم (هرمان جورج) . بيد أن (جورج) الذي كان قد بدأ يفقد في تلك الآونة ذلك النفوذ القديم الذي تمتع به طويلا ، لم يلبث أن رأى من مصلحته عدم القطع برأى حاسم قد يرضى فريقا وبغضب فريقا آخر وفضل بدلا من ذلك أن تظل علاقاته طيبة مع الجماعتين . ولكنه لما كان يرى في شخص (هيملر) منافسا

خطيرا له فقد لجأ إلى استخدام الجنرال (ميلش) وسيطا لدى كبار ضباط الطيران في السلاح الجوي حتى يطلب اليهم إعداد مذكرة ، في هذا الموضوع يرفعونها إلى هتلر ، متضمنة احتجاجا شديدا على ما يريده (هيملر) . وقد أعد هؤلاء الضباط المذكرة فعلا ، وكان عددهم احد عشر وعلى رأسهم كل من (أوديت) ، (مولدرز) و (فون فيرا) و (ويلبرج) فكانت نتيجة ذلك أن اختفى الموقعون عليها في أيام قليلة ، فجاء هذا الحادث دليلا جديدا ، إلى جانب حوادث أخرى من نوعه على أن الضعف قد بدأ يتطرق إلى قوة الحرب الألمانية بسبب ذلك الانقسام القائم على وجه الخصوص بين المنظمات النازية العسكرية ، وهي تنظيمات حزبية وقوة الجيش المقاتلة النظامية في ألمانيا . وحدث انقساما كبيرا بين كبار القواد الألمان فشل الألمان في الاحتفاظ بستاينجراد في أواخر عام ١٩٤٢ ، واضطراهم إلى تسليمها للروس ثم التمهق المستمر في الجبهة الروسية منذ نوفمبر من العام نفسه إلى أواخر ١٩٤٣ ، وبدأ جماعة من الضباط الألمان في الجبهة الروسية يضعون الخطط من أيام تسليم (فون باولوس) في ستاينجراد لاسقاط هتلر ، وسرعان ما تطورت هذه الخطط بعد ذلك حتى أصبحت مؤامرة طفق أصحابها يضعون التدابير لاغتياله وكادت المؤامرة تنجح وقتذاك لولا أن الصدفة وحدها جعلت هتلر يغادر مركز القيادة قبل تنفيذها بحوالي خمس وعشرين دقيقة .

وكانت معركة ستاينجراد فاتحة شوم على الجيوش الهتلرية . إذ انتهت عليها الضربات من كل جانب فنزلت القوات البريطانية والكنندية في جنوبي إيطاليا في سبتمبر ١٩٤٣ واستمر زحفهم إلى الشمال طوال العام التالي وأزال سقوط (كاسينو) العقبات التي كانت تعترض سبيل الحلفاء في الطريق إلى روما (مايو ١٩٤٤) فتقهقر الألمان بدون نظام أمام الغزاة . وفي أوائل يونيو نزلت القوات البريطانية والأمريكية من البحر والجو على ساحل أوروبا الغربي في مقاطعة نورماندي فأعلن تشرشل في مجلس العموم البريطاني في ٦ يونيو ١٩٤٤ بدء الغزو وفتيح الجبهة الثانية . وبدأ كاتينا قد أطيقت جيحافل الحلفاء على « قاعة هتلر » التي ظلت مصدر رعب وفرع ودحا من الزمن وأنه لا مفر من تقويض أركانها بسرعة خاطفة وعندئذ أفلق الزعماء النازيون من غفلتهم . وكان من المتوقع أن يتضافروا على دفع هذه الكارثة التي نزلت بساحتهم ولكن بدلا من ذلك فوجئ العالم يوم ٢٠ يوليو ١٩٤٤ بإذاعة من برلين أن فريق القواد المتدمرين في الجيش الألماني منذ أيام الحملة الروسية أرادوا اغتيال هتلر ، ومع أن العبارة الالهية وحدها - على حد قول اذاعتهم - هي التي أنقذت هتلر من الموت في (أوبرسالزبرج) وأن جوبلز استطاع أن يحبط محاولة « عصبة كبار الضباط للاستيلاء على مباني الحكومة في برلين » فإن الأمر كان على جانب عظيم من الخطر إذ ثبت أن عددا من كبار القواد الذين

قادوا الجيوش الألمانية المنتصرة في السنوات الماضية كانوا من المعادين مع المتأمرين أو كانوا على الأقل من الناقمين على هتلر وجماعته ، فعزل هؤلاء من مركز القيادة ، وكانوا الفيلد مارشال فون رونشتد القائد العام السابق للجيش الألماني في غرب أوروبا والفيلد مارشال فون براوشتش قائد القوات الألمانية البرية العام سابقا والفيلد مارشال فون بوك أحد قواد الجيش في روسيا وزملاؤه الثلاثة في الحملة الروسية الفيلد مارشال فون ليب والفيلد مارشال فون مانشتين والفيلد مارشال فون كلايست ، ثم الجنرال فون فالسكنهاوسن القائد العام السابق في هولنده وفضلا عن ذلك فقد تمردت وحدات من القوات البرية والبحرية وقام الأهليون بحركة عصيان واسعة في المناطق الصناعية التي خربت قذائف طائرات الحلفاء في ستوتجارت وشوابنغفرت ويرمين وميونخ ونشبت الثورة بين وحدات من الجيش الألماني في جنوبي ألمانيا واشتبك الجيش مع الجيشتابو في جهات مختلفة بألمانيا ووقعت مصادمات بين شراذم الهجوم وجنود الجيش الألماني في فرنسا في بوردو ولينوج ونيم ونانت وأعطى الفوهرر هيملر سلطات واسعة فقام الأخير بعمليات تطهير واسعة قاسية فانقض الجيشتابو على كل من اشتبهوا في أمره بعدمونه رميا بالرصاص أو أرسلونه إلى معسكرات الاعتقال ؛ ونفذ الإعدام في كثير من المقبوض عليهم وأودع غياهب السجون عديدون من العلماء والنبلأ ورجال المال والصناعة . وتألفت في أوائل أغسطس ١٩٤٤ (محكمة الشرف) وكانت مهمتها عزل القواد الذين تحوم حولهم الريب في الجيش ورفع أسمائهم إلى هتلر حتى يتخذ قرارا بتقديمهم إلى (محكمة الشعب الألمانية) فباشرت محكمة الشرف مهمتها وأصدرت قرارها بإدانة كثير من القواد وفصلهم من خدمة الجيش وبعد محاكمة دامت يومين أصدرت محكمة الشعب الألمانية أحكامها على ثمانين من القواد بالإعدام ثم نفذ فيهم الحكم شنقا .

ووسط هذا الاضطراب الشامل ظلت تحجى الأخبار السيئة من كل جانب منبهة بتحرج الأمور في الميدان الروسي والجمهة الغربية وميدان إيطاليا ، ولم يحدث إعدام القواد المتأمرين أو الضالعين معهم أو انتحار فريق معهم أى تأثير في بقية الضباط والقواد المتذمرين في الجيش الألماني حتى أنه في أوائل سبتمبر كان شغل هؤلاء الشاغل لإفساد جميع الخطط التي كان يضعها الفوهرر لمنع إطباق العدو على دولة الزعامة المسؤولة ، فقد رفض الجنرال فون شولتز أن ينفذ أوامر هتلر له بتدمير أقصى ما يمكن تدميره من باريس حتى يتأخر زحف الحلفاء في فرنسا وبلجيكا وعظم الشعور بأن إهتمام القواد الألمان كان منصرفا إلى محاولة إدخال قوات الحلفاء الزاحفة من الغرب إلى ألمانيا قبل وصول الروس إليها واعترف جوبلز بحرج موقف ألمانيا في منتصف سبتمبر . وفي أواخر الشهر نفسه بعث فون رونشتد بتقرير عن سوء الموقف

في الجبهة الغربية فاشتد القلق بالمر هتلمر وفقد السيطرة على أعصابه إذ بات متيقنا من تدهور الروح المعنوية في نفوس قواد الجيش الألماني وذلك علاوة على ما كان يخاومه من ريبة شديدة في ولائهم أو في عزيمتهم المسمود أمام العدو ، ولمس هتلمر تدهور الروح المعنوية في أقرب الناس صلة به وتطاولت الشائعات أن هيلمير وجوبلز وجورنيج وغيرهم من كبار رجال حكومة الريخ الثالث يعدون العدة للفرار من ألمانيا حينما يرون بوادر الانهيار التام تلوح للأبصار . ولكن إطباق الروس عليهم من جانب وقوات الأمريكيين والبريطانيين من جانب آخر لم يدع هؤلاء الزعماء والقواد فرصة للمهرب ، وكان الروس أول من طرق أبواب برلين ، ونشبت ملاترات الحلفاء في تسديد الضربات القاصحة إلى قلب الريخ الألماني . وكان على أثر إحدى هذه الغارات الشديدة أن لقي المر هتلمر حتفه تحت أنقاض دار المستشارية في ١ - ٢ مايو ١٩٤٥ واختلقت مصائر بقية الزعماء فمات جوبلز الانتحار أما بقية الزعماء فقد قدمهم الحلفاء المنتصرون إلى المحكمة في نورمبرج إحدى معاقل النازية وأصدرت المحكمة العسكرية الدولية حكم الإعدام على المرشال هرمان جورنيج والمرشال ويلهلم كيتل والجنرال ألفريد يودل وهانز فرانك ويوليوس شترايخغر وساميس انكوارت ويواكيم فون ريبنتروب وأرنست كالتهبرونر والفريد روزنبرج وويلهلم فريك وفريتز سوكل وحذر حكم الإعدام أيضا غياييا على مارتن بورمان الذي اختلقت الآراء في مصيره كما حكمت بالسجن المؤبد على رودلف هيس والأميرال رايدر وواتر فونك وحكمت على الأميرال دونتز بالسجن عشرين سنوات وبخمس سنوات على فون نوراث وبخمس سنوات على بالدورفون شيراخ والبرت سبير وقد أفرج عن كل من هيلمار شاخت وهانز فريتش وفرانز فون بابن وكان إصدار الحكم بتاريخ أول أكتوبر ١٩٤٦ وقد نفذ حكم الإعدام شتقا في ١٦ أكتوبر ١٩٤٦ وأما جورنيج فقد انتحرت قبل تنفيذ الحكم بساعات وقد أحرقت جثث الأحد عشر زعيما فصارت رمادا تذروه الرياح .

الفصل التاسع

السلام الدائم

كانت خاتمة حياة الزعماء والفلاسفة النازيين على النحو الذي شهدناه قصاصا عادلا لجماعة توهموا أو زين لهم الشيطان أن باستطاعتهم أن يفرضوا سيطرتهم على العالم أجمع إذا هم أحكموا تدبيرهم فسلبوا الشعوب حرياتهم ، وأرغموا الأمم على الخضوع لسلطانهم ولم تكن ثم مندوحة عن انهيار دولتهم في النهاية لأن ذلك (النظام الجديد) الذي ابتكره خيالهم كان مبنيا على قواعد مستمدة من « فلسفة » هي أقرب الى الخلط منها الى شيء اخر : فلسفة تقسم الأمم والشعوب الى طبقات وطوائف من السادة المبعجلين الذين توهموا أن من حقهم الأذى فرض سيطرتهم وسلطانهم على بقية أبناء البشر لا لسبب سوى أن القدر على حد قولهم قد أجرى في عروقهم دما نقيًا وأنشأ هؤلاء السادة في تربة لا تنتج غير الرجال الممتازين وأما من عداهم فن الهوام والحشرات التي يجب ابادتها أو معاملتها معاملة الرقيق . وأى نظام ذلك الذى طمع النازيون فى ارغام الشعوب على قبوله وهم من الناحية السياسية يريدون الرجوع بالعالم الأوروبى الى تنظيم عصور مضت وانقضت وصار ينظر اليه الناس على أنه مرحلة من مراحل التطور الإنشائى كان لابد للعالم من اجتيازها حتى يصل الى هذه الدرجة من الرقى المادى والمعنوى فى هذا القرن العشرين . وأى نظام ذلك الذى طمع فيه النازيون فى ارغام الشعوب على قبوله وهم من الناحية الاقتصادية يريدون نهب الأمم وسلب ثروتها بطرق بعيدة عن الحق والقانون

لقد أفلح النازيون بتدابيرهم أن يستثيروا المقاومة ضدهم من كل جانب وعلى الرغم من أن دعايتهم المنظمة القوية كانت تذيع فى أرجاء العالم أن الفوهرر والقادة النازيين استطاعوا أن يجعلوا من دولة الريح الثالث كتلة نازية خما ودما فان عوامل الضعف كانت تعمل رويدا رويدا لتقويض أركان هذه الدولة ؛ وهل كان يتسنى للفوهرر وسائر الزعماء أن يخمدوا فى صدور تلك الشعوب المقهورة جذوة الأمل فى الخلاص من سلطانهم مهما امتد به الزمن ودم الذين حطموها حياة هذه الشعوب من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حتى أن أوروبا الآن ما تزال تعاني آثار الاحتلال النازى .

وقديما كان من برنامج النازيين أن يعيدوا تكوين البنيان الاقتصادى بأوروبا على نحو يكفل تحقيق غرضين أولهما جعل الجرمان الخالص أرباب الصناعة والمال وحدهم وأصحاب السيطرة والسلطان بفضل ما يسبغه النشاط الصناعى عليهم من قوة فيزدادون جاهها ورقيا بينما تنصرف بقية الأمم فى القارة الأوروبية إلى العناية بشئون الزراعة فتسقط منزلتهم ويصبحون بمرور الزمن عبيداً أرقاء ، وأما الغرض الثانى فهو أن يحطموا كيان الأمم الأوروبية إلى حد يستحيل معه إعادة بنائها إذا قدر لدولتهم الانهيار وخيل إلى النازيين أنهم ما داموا فى دست الأحكام بأوروبا كانت عبقريتهم الفذة كفيلة وحدها برعاية النظام الذى وضعوه وأما إذا انقضى عهدهم لسبب لم يكن فى حساباتهم فلن يستطيع أحد من بعدهم منع أوروبا بأجمعها من الانهيار بعد انهيارهم ، ولا جدال فى أن النازيين أفلحوا فى تطبيق نظامهم الجديد وبالطريقة التى هداهم إليها تفكير فلاسفتهم وزعمائهم ؛ ولكنه لا جدال كذلك فى أن هذا النجاح نفسه كان المعول الذى هدم به النازيون بنيانهم الشاخ فى أوروبا . ويرجع ذلك إلى أسباب ثلاثة أولا أن نجاحهم فى تطبيق نظامهم الجديد حرك الشعوب فى البلدان المفتوحة إلى المقاومة بشتى ضروبها ، وأخفقت صرامة النازيين كما فشل الجستابو فى إقتلاع جذور هذه المقاومة بل صارت تشدد وتقوى كلما غلا النازيون فى تطبيق نظامهم فكانت قلعته المهنرية (قلعة من الورق) ما لبثت أن تداعت أركانها عند أول طارق لأنها ما كانت تضم أقواما مستعدين لبذل نفوسهم من أجل الذود عنها ومنع العدو من إقتحامها ، وأما السبب الثانى فهو أن الوقت كان ألزم ما يكون لنجاح تطبيق هذا النظام من الناحية الاقتصادية بينما أقدم النازيون السكارى بشهوة الانتصار الخاطف ولذته على أجراء التغييرات الاقتصادية التى اقتضتها تطبيق النظام الجديد دون أن يتخذوا التدابير التى تكشف الاطمئنان الى أن سيظرتهم باقية مخلدة .

وأنى لهم أن يفعلوا ذلك فالأمر الذى انتزعت من مواعلتها بقضها وقضيتها وشأت أفرادها أو أرسلوا للعمل مسخرين فى خدمة الريخ فى أنحاء أوروبا المحتلة كان لابد لاستقرارها فى مواضعها الجديدة من عامل الوقت ، وفضلا عن ذلك فانه ما كان يكفى أن تنقل المصانع من الرومر مثلا إلى ألمانيا الجنوبية الشرقية أو يطلب إلى أهل المقاطعات الفرنسية الشمالية الشرقية أن يقصروا جهودهم على الزراعة أو تصدر الأوامر بإبطال التعدين فى فرنسا المحتلة كذلك ، أو تهيشة بولندة لإدماجها فى الريخ الصناعى بسد إبادة أهلها أو ترغم البلدان المفتوحة على اعتبار برلين عاصمة العالم النازى المسالية أو غير ذلك من أباطيل الاقتصاد النازى فما كان يكفى ذلك كله لأن يخلق أوروبا خائفا اقتصاديا جديدا بين طرفه عين وانتباهتها ،

ناهيك بعدم ملامة هذا النظام لطبيعة تكوين القارة ذاتها وبحاجته إلى وقت طويل حتى ترسخ قواعده وتوطد أركانه . فلما عجز النازيون عن كسب الوقت ، بات العمل الانتاجي معطلا في بلدان أوروبا المفتوحة حتى إذا ما حانت الساعة وزحفت جيوش العدو عليهم استحال عليهم أن يجدوا موارد كافية لمتابعة إنتاج عتاد الحرب فمجل ذلك بهزيمتهم . وأما السبب الثالث فإنه كان من مقتضيات العمل بهذا النظام الجديد أن يكون الريخ الثالث نفسه هو المحور الذي يدور عليه هذا النظام بأكمله ومثل استتب للنازيين الحسك والسلطان في ألمانيا عملوا على تهيئة دولة الريخ - أو دولة الزعامة المسؤولة - على حسد قورهم لاحتلال المركز الذي كان ينتظرهما في عهدا الجديد ، فأحكوا تطبيق قواعد النظام الجديد في ألمانيا قبل أن يطبقوه في أوروبا المحتلة بنحو ستة أعوام ، فأوجدوا بذلك نواة تلك المقاومة الداخلية التي أرغمت هنريك هيملر على إعداد العدة لانحدارها قبل نشوب الحرب الهتلرية بعامين تقريبا . وكان من أثر نجاح النازيين الظاهر في تطبيق النظام الجديد في أوروبا نتيجة لاتصاراتهم الخاطفة الأولى أن زاد خطر الجبهة الرابعة الداخلية . وأخفق الجيستابو في داخل الريخ كما أخفقوا في أوروبا المحتلة في إخماد هذه المقاومة ولم تفاح السجون ومعسكرات الاعتقال ووسائل الإبادة والتقتيل في صون هذه الجبهة من التصدع وفضلا عن ذلك فقد انتقلت عدوى المقاومة إلى الجند والضباط والقواد ، فاضمحلت الروح المعنوية في الألمان جميعا ، وكانت محاولة النازيين في تأليف تلك الكتلة الصلبة المتناسكة في قلب الريخ الثالث المعول نفسه الذي قوض دعائم سيطرتهم في الداخل والخارج معا .

والآن وقد زالت دولة النازيين من الوجود بقضها وقضيضها حق لنا أن نتساءل ماذا يكون ذلك النظام الذي يجب أن يحل في ألمانيا محل النظام النازي القديم . وهل يكفي أن يعد أقطاب الدول المنتصرة تلك الشعوب التي ذاقت الأمرين من احتلال النازيين لبلادهم بأنه ما دام النازيون قد زالت دولتهم ودمرت أنظمتهم ومنشأتهم وأعدم زعمائهم أو انتجروا فان ذلك وحده ومن تلقاء نفسه كفيل بعودة الأمور إلى مجاريها ومؤذن بأن المستقبل لابد منطو على العيش الرغيد والحياة المطمئنة الهادئة ؛ أم أنه لامناص من التفكير العميق لابتكار أجدى الوسائل العملية لتحقيق هذه الآمال واتاحة الفرصة لتلك الشعوب حتى تتحرر من خوف الاعتداء عليها في عقر دارها من جانب طغاة آخرين غاشمين ؟ أو هل يسمح المنتصرون باعطاء الألمان فرصة ثانية تمكنهم من السعي لفرض تلك السيطرة الجرمانية على أوروبا من جديد ؟ في الماضي القريب ادعى أنصار سياسة « التسكين والتهدئة » أن هناك فروقا بين سواد الشعب الألماني وطلعة النازيين ؛ وأن توقيع العقوبة على الجناة المسؤولين عن الحرب الهتلرية

لا يقتضى إلحاق الأذى بالأمة الألمانية . واتخذوا دليلا على وجود هذه الفوارق تلك المقاومة الإيجابية والسلبية التى أبداهما فريق من الألمان النازيين على النازية ومع هذا فقد علمنا التاريخ أن الشعب الألماني كجموعة لا يقل في نزوعه إلى السيطرة والطمع في السيادة وخوض غمار الحرب من أجل تحقيق هذه السيطرة وتلك السيادة عن قاداته وزعمائه ، وكذلك علمنا النجارب القريبة أن هذا الشعب الألماني الذى قد يبدو أفراده كل على حدة ، مساكين وادعين ، لا يقل في مجموعهم كآمة عن قاداته وزعمائه اندفاعا وراء السيطرة والسيادة . ومن ميزات هذا الشعب القدرة على الاتعاش واجتياز الأزمات الاقتصادية بسرعة تدعو إلى الإعجب ؛ ولكنهم تدعو في الوقت نفسه إلى الإشفاق على بقية الشعوب المجاورة له ، لأن هذا الاتعاش الاقتصادى يقترن دائما بالرغبة في الفتح والتوسع . فهل يسمح الألمان بأن يتمتعوا اقتصاديا بحيث يتمكنون من تجهيز آلة الحرب المخربة من جديد والقذف بالشعوب الأوروبية وبغيرهم من شعوب العالم في أتون الحرب مرة ثانية ؟ وما يزال الاعتقاد سائدا بأن منشأ الحرب العالمية والحرب العالمية الأولى كذلك هو حاجة ألمانيا إلى موارد طبيعية لا توجد في بلادها ، ولا غنى عن جلبها من الخارج لتنظيم حياتها الاقتصادية . أى أن الدافع إلى الحرب الأخيرة كما كان الحال في الحروب السابقة دافع اقتصادى ومع أنه مما يخرج عن موضوع هذا الكتاب مناقشة هذا الاعتقاد السائد عن جوهر العوامل التى أدت إلى قيام الحرب العالمية الثانية ، فإنه مما يجدر ذكره أن كافة المحاولات التى بذلها أقطاب سياسة ، التمثلة والتسكين ، وبخاصة في عامى ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ باستخدام رجال المال والصناعة لاقناع النازيين بالعدول عن إثارة الحرب كان نصيبها الفشل . وكان أصحاب تلك السياسة يرمون إلى عقد اتفاقات اقتصادية مع الرينخ الثالث لخدمة التجارة الألمانية في أوروبا الجنوبية الشرقية وفي أفريقية الجنوبية (البريطانية) والسويد وغير ذلك من الأقطار . أضف إلى هذا أنهم حاولوا اقراض ألمانيا (في لندن يوليو ١٩٣٩) ألف مليون من الجنيهات الإنجليزية لمعاونتها على تحويل إنتاجها الصناعى الحربى إلى إنتاج سلمى نظير أن يجرى الرينخ الثالث تعديلا جوهريا في سياسته الخارجية على أساس تخفيض تسليحه تحت مراقبة دولية وإخلاء تشكوسلوفاكيا بيد أن النازيين - كما كان يتوقع - ما لبثوا أن رفضوا هذه العروض السخية وعلة ذلك أن دافع الحرب لم يصبح في الحقيقة اقتصاديا صرفا كما كان الحال في القرن الماضى على وجه الخصوص . لأنه منذ تقدم القنون الصناعية ، وتطبيق الطرق العلمية الحديثة في الصناعة بحيث أمكن إنتاج طراز الطائرات الجديدة أضحت النضال من أجل إحراز السيطرة العالمية هو الذى يحرك الجوارح ويكيف سياسة الدول فبدلا من أن تظل (الدولة الوطنية) وحدة التنظيم السياسى كما كان الحال في عصور النشاط

الاقتصادي، أضحت (القارة) وحدة ذلك التنظيم . وقد حاول أحد الكتاب المعاصرين (م . ن . بريلسفورد) تلخيص ذلك في قوله : « كانت القاطرة البخارية سبباً في حدوث الانقلاب الصناعي » كذلك كان استخدام الطائرة بداية عصر الوحدة القارية ، ولم تكن محاولة النازيين فرض السيطرة الجرمانية على القارة الأوروبية سوى مظهر من مظاهر تلك العوامل الجديدة التي برزت في ميدان السياسة الدولية من أجل إحراز التفوق والسيطرة على العالم وهذا ما يفسر إخفاق السياسة « المهدئين » في الفترة التي سبقت قيام الحرب الأخيرة . لذلك كان من العبث أن تعاد تجربة « التهدة » مرة ثانية كعلاج لتجنب الأمم والشعوب ويلات حرب أخرى يشيها الألمان كما فعلوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية ومن العبث كذلك أن يرغب واضعو الصلح المنتظر في أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل السيطرة النازية .

ولسكنه إذا كان قد ثبت إخفاق سياسة « التهدة » والتسكين ، في إقناع الألمان بالهدول عن استخدام الحرب كوسيلة لنقض مشكلاتهم الاقتصادية والسياسية مع بقية الأمم وكان معروفاً أن التنظيم الذي بنى على أساس معاهدات الصلح في فرساي عام ١٩١٩ ، وما تفرع عن هذه المعاهدات حتى عام ١٩٣٩ ، قد أسفر عن تمكن الألمان من إشعال نار الحرب العالمية الثانية ، ولا أمل لذلك في سلام دائم إذا أعطى الألمان الفرصة لإعادة تمثيل الرواية من جديد فما القواعد التي ينبغي على السياسة أن يبنوا على مديها صرح السلام المنتظر ؟ وبعبارة أخرى ، ما ذلك النظام الذي يجب أن يجرى بمقتضاه تنظيم شؤون العالم حتى يتجنب البشر ويلات الحروب في المستقبل ؟

على أن البحث في هذه المسألة يفت المفكرين والكتاب الإقتصاديين والسياسيين منذ نشوب الحرب الأخيرة وبعد انتهائها ، وقد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى ولعل أصحاب التهدة والتسكين أخفضهم صوتاً وأقلهم أنصاراً . أما أولئك الذين لا يريدون أن يفوتوا تجارب الماضي القريب دون الاستفادة من عبرها ومواعظها ، فقد تنوعت آراؤهم فيما ينبغي اتخاذ من وسائل تكفل استمرار السلم في المستقبل أجيالاً عدة واهل أظهر ما جاء في هذا الصدد ، مذكره (پول اينتزج) أحد أعلام المفكرين الأوروبيين في الاقتصاد والسياسة فن قوله أن هناك ولاشك نظام آخر في الاستطاعة أن يشغل مكان النظام الجديد الذي أوجده النازيون ، وذلك بأن يطبق النظام الجديد الهتلري تطبيقاً عكسياً . أي أنه ينبغي أن يجرى ضد ألمانيا ذاتها تطبيق كافة المبادئ والقواعد التي أرادت أن تسترشد بها في تحقيق سيطرتها على أوروبا والعالم . ومعنى ذلك أن يعامل الشعب الألماني بالمعاملة القاسية التي اقها البولنديون التمساء من الألمان . فإنه لما كانت ألمانيا قد تعمدت إبادة الشعب البولندي بأسلوب منظم

فهنالك ما يبرر تكليف البولنديين بأن يحكموا الأمة الألمانية على أن تطلق يدهم حتى ينتقموا لأنفسهم مما أصابهم على يد الألمان باتباع نفس الوسائل التي اتبعها هؤلاء لأبادتهم وذلك بأن يحشدوا الجماعات الفقيرة من الألمان ويطلقوا الرصاص عليهم أو يحرقوهم الطعاع حتى يموتوا جوعاً وبطردوهم من بيوتهم في أثناء الشتاء حتى يهلكوا برداً إلى غير ذلك مما كان يفعله الألمان في بولندا . وفضلاً عن ذلك فإن تطبيق النظام الجديد النازي تطبيقاً عكسياً يعني مصادرة الأطعمة الألمانية وموارد أغذية الشعب الألماني وتقييد نشاط الألمان الإنتاجي والحد منه ، مادام الحكم أو الفاتحون ، البولنديون لا يفيدون من هذا النشاط شيئاً لمصلحتهم . ومن المتعذر أن يعارض الإنسان في ذلك كله بحجة أن هذا الحل القاسي لا يتفق مع القواعد الخلقية أو المبادئ الإنسانية ، لأن ألمانيا فعلت ذلك وأكبر الظن أنها لن تتردد في العودة إليه إذا سنحت أمامها الفرصة مرة أخرى في المستقبل بيد أن ما فعله الهتلريون في الماضي القريب وما تزال الإنسانية تشكو آثاره من الشكوى ، لا يمكن أن تلجأ إليه الديموقراطية الصحيحة لحل مشكلة الحرية والسلم مهما كان حل هذه المشكلة متوقفاً على مدى نجاحها في إزالة الخطر الألماني .

على أن هناك لحسن الحظ حل آخر ، قد لا يفضى العمل به إلى ضمان السلم ضماناً تاماً ولكن من مزاياه على حد قول اينتزج تعطيل قدرة ألمانيا على فعل الشر تعطيلاً كبيراً ولهذا الحل ناحية سياسية وأخرى إقتصادية . فمن الناحية السياسية ، يبدو عند تطبيق (النظام الجديد) تطبيقاً عكسياً أن تجزئة الريخ بعد إلحاق الهزيمة به أمر لا مفر منه . ومعنى هذا أن تسترجع الدويلات والإمارات الكبيرة الألمانية ذلك الاستقلال القديم الذي تمتعت به قبل أن يتم اتحاد ألمانيا المعروف في عام ١٨٧١ ، فتستعيد هذا الاستقلال كل من النمسا وبافاريا ، وورتمبرج وبادن وسكسونيا وغيرها . وكذلك ينبغي أن تقام من (الراين) دولة حاضرة ، لأن استيلاء بروسيا على أرض (الراين) حديث العهد لنسبها ، وإذالك لا يتصرف أهلها بتلك البروسانية الصميمة ، على غرار ما يظفر في ألمانيا الشرقية . وفي هذه الامارات والدويلات المستقلة كافة ، ينبغي أن يكون التاج من نصيب الاسرات القديمة التي حكمت هذه البلاد في الماضي ، والتي ما يزال لها اتباع ومريدون في ألمانيا لأن من شأن ذلك مساعدة هذه الدول (الألمانية) على الاستقرار ودعم استقلالها وبقائها منفصلة كل الانفصال في حياتها المستقلة الجديدة عن بروسيا ولكنه لما كانت بروسيا ذاتها من أيام فردريك الأعظم قد أقامت البرهان مرة بعد الأخرى على طغيانها وإمعانها في العدوان ، وإثارة الحروب ، فقد سقط حقيها في أن تصبح دولة مستقلة ، ضمن مجموعة الدول الألمانية الأخرى المستقلة ومع أنه من

مقتضيات نجاح هذا الحل السياسي أن يحتل ألمانيا جنود الحلفاء المنتصرين في الحرب الأخيرة إلا أن هذا الاحتلال ينبغي أن يكون احتلالاً مؤقتاً في هذه الدول الألمانية المستقلة ، ماعداً بروسيا وقد تدعو الحاجة إلى احتلال بروسيا وحدها احتلالاً دائماً .

ومن الناحية الاقتصادية يقتضي هذا الحل أيضاً تطبيق (النظام الهتلري الجديد) على ألمانيا تطبيقاً عكسياً فمن المعروف أنه كان من أهداف ذلك النظام أن تصبح ألمانيا مركز الصناعة وإنتاج الأسلحة وعتاد الحرب في أوروبا ، ثم حرمان سائر الشعوب من صناعاتها على أن تصبح مهمة هذه الشعوب مجرد إنتاج السلع التي تطلبها ألمانيا وتقديم العمال الأرقاء الذين يستخرون في خدمة الصناعة الألمانية . ولذلك ينبغي حرمان ألمانيا المهزومة من صناعاتها إلى حد بعيد فتحمي من الوجود كافة الصناعات المستخدمة في إنتاج معدات الحرب وأدوات القتال ، كما يجب تقليل الصناعات التي يمكن تحويلها لمثل ذلك هذا إلى أنه يجب أن توضع الصناعات الباقية مباشرة تحت إشراف الأمم المنتصرة ورقابتها كما يجب الحد من قدرة ألمانيا على إنتاج الحامات والنفط وأدوات الحرب الضرورية .

ولما كان حرمان ألمانيا من الصناعة يترتب عليه نقص ظاهر في حاجتها إلى السكك الحديدية وطرق النقل السريع الأخرى ، فتد بات ضرورياً خفض طاقة العمل في الخطوط الحديدية ذات الأهمية العسكرية أما إذا نجح عن ذلك كله تعطل عدد كبير من العمال الألمان كما هو منتظر فإن تطبيق هذا النظام العكسي لا يترك هؤلاء المتعطلين دون عمل إذ يجب استخدامهم أولاً في الأعمال الإنشائية في البلدان التي وقعت فريسة في قبضة الألمان إبان سيطرتهم فدمروا مصانعها ومبانيها وخرّبوا حقولها فإذا فرغ العمال من هذه الأعمال العمرانية استخدموا في إقامة خطوط قوية من التحصينات في البلدان التي تسكر في الماضي اعتماد الألمان عليها . وفنلا عن ذلك يجب أن يتألف من هؤلاء العمال الألمان (مورد) لا ينضب له معين يوضع تحت تصرف الدول حتى تستقدم كل دولة من هذا (المورد) العدد الذي تريد استخدامه في جميع الأعمال التي لا تتطلب مهارة فنية . والسبب في ضرورة وجود هذا (المورد) أنه لما كان من واجب الديمقراطية الصحيحة أن تسهر على دوام السلام وهذا أمر يستحيل تحقيقه إلا إذا احتفظ بجيوش جرارة فمن المنتظر أن تقل الأيدي العاملة في هذه الدول من جراء تجنيد شبابها في الخدمة العسكرية . ولذلك لا متدوحة عن أن تبحث هذه الدول عن وسيلة تسد هذا النقص المنتظر في الأيدي العاملة بها ، فيصبح العمال الألمان ذلك (المورد) الدائم التي تستطيع الدول أن تستقدم منه ما تريده وكل هذا يتفق مع المبادئ التي كان يطبقها الألمان مع ضحاياهم ، مع فارق واحد ، هو أن العمال الألمان سوف يعاملون معاملة الاناسي .

أضف إلى هذا أنه كان يعرف عن نوايا ألمانيا إذا قدر لها الانتصار أنها تريد أن تنشئ من (الجنس الجرمانى الحاكم) جنسا مهمته الحرب والقتال والاضطلاع بالأعمال التى تتطلب مهارة فنية ليس غير بينما يستخدم ملايين العمال من بين الأجناس التى قد تخضعهم لسلطانها فى الأعمال والوضعية . ومن الممكن تنفيذ هذه الخطة بشكل عكسى فتزعم ألمانيا على تقديم « الأيدى العاملة » ليهلوا محل الرجال الذين تتألف منهم تلك القوة العسكرية التى عليها صون السلم من أن يتعكر مرة ثانية إذا ما حدث الألمان أنفسهم أن يحاولوا مرة أخرى تحقيق أغراض عدوانية .

وهناك وسائل عدة لتطبيق مبدأ (المجال الحيوى) الألمانى تطبيقا عكسيا فقد سبق القول أنه كان من أهم أغراض (النظام الاقتصادى الجديد) الذى وضعه هتلر أن يجرى تعديل الحياة الاقتصادية فى البلدان المجاورة على نحو يجعل تكوينها ملائما لحاجات ألمانيا الاقتصادية . ولذلك فإن عكس العمل بهذا المبدأ معناه منع الاقتصاد الوطنى فى هذه البلدان من أن يكون مكافئ لنظام الاقتصاد الألمانى ، ولا جدال فى أن مثل ذلك من مصلحة هذه البلدان وسوف تجد فيه الضمان السكافى لسلامتها . لأنه إذا امتنعت البلدان عن إنتاج ما تحتاج إليه ألمانيا فإن ألمانيا لن تستطيع أن تحصل على ما تريده من خامات ووقود وما إلى ذلك فلا يتجدد عندئذ عدوانها عليها وعلاوة على ذلك فإن خلو هذه البلدان من المنتجات اللازمة لألمانيا من شأنه أن يصرف الألمان عن الطمع فى غزوها وامتلاكها ، من ذلك أن زوال موارد النفط الرومانية يساعد ولا شك إلى حد كبير على تقليل مدى اعتماد ألمانيا على أوروبا الجنوبية الشرقية فى سد مطالب الحرب التى تحتاج إليها ومن الممكن استغلال موارد النفط فى رومانيا بسرعة عظيمة دون التقيد بأية اعتبارات تجارية حتى ينضب معين آبارها .

ولا تكون رومانيا موضع أطماع جديدة من جانب الألمان فى المستقبل وعلى كل حال يسود الظن اليوم أن موارد النفط فى رومانيا قد أشرفت على النضوب ؛ ولذلك كان من واجب الدول المحبة للسلام أن تبذل كل جهد بالتعاون مع رومانيا ذاتها لإخراج رومانيا من قائمة مناطق إنتاج النفط الهامة فإذا أضيف هذا إلى تحطيم منشآت صنع النفط كيميائيا بتحطيم مصانع تقطيره لأصبح من المنعذر على ألمانيا أن تغامر بحرب عدائية مرة ثانية .

ونمة مثال آخر . هو (فول الصويا) الذى شجعت ألمانيا على زراعته والإكثار من إنتاجه فى بلدان أوروبا الجنوبية الشرقية فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب الأخيرة وفى أثناء سنوات الحرب أيضا وقد فعلت ألمانيا ذلك لأن هذا المحصول يستخدم غذاء للإنسان وعلفا للماشية ويمكن استخراج الزيت منه واستعماله سمادا وينمو فول الصويا بكثرة عظيمة فى

الصين واليابان وغيرهما من بلدان الشرق الأقصى ولذلك يجب حرمان ألمانيا من الحصول عليه من أوروبا الجنوبية الشرقية حتى يكون اعتمادها كله في سد حاجتها منه على (منشوكو) وغيرها من البلدان البعيدة إذ أنه لا معنى من الناحية الاقتصادية لأن يرخص بانتاج (فول الصويا) لبلدان لا تساعد أحوالها الطبيعية أو أجور العمال فيها على انتاجه بالكميات الهائلة التي تنتجها (منشوكو) ؛ ومن الأوفق أن تستورد ألمانيا حاجتها منه من (منشوكو) بطريق البحر الطويل ، دون أن يشجع زراعة هذا الصنف في أوروبا الجنوبية الشرقية إذ إهتمام ألمانيا بادخال زراعته في هذه الأقاليم لم يكن عبثا ، ولا جدال في انه إذا ظلت أوروبا الجنوبية تنتج (فول الصويا) وتمد به ألمانيا فان الوقت لن يطول كثيرا قبل أن تجد ألمانيا ما يسهل عليها إثارة حرب عالمية ثالثة .

ومن مصلحة البلدان الجنوبية الشرقية في أوروبا أن تعمل على إنشاء الصناعات بأرضها حتى تصبح دولا صناعية ولو إلى حد محدود لأن ذلك من شأنه أن يقلل من اعتمادها على المصنوعات التي تستوردها من ألمانيا ؛ وتقتصر وارداتها من ألمانيا على بعض السلع السكالية فبذلك تفقد الصادرات الألمانية أسواقها في هذا الجزء من أوروبا ؛ ويمكن الاستعاضة عن هذه الأسواق المفقودة بأن تظل الأسواق في البلدان الواقعة وراء البحار مفتوحة لتصرف الصادرات الألمانية كما أن ألمانيا يجب أن تظل معتمدة كذلك في وارداتها من النفط وال خامات على ما تصدره إليها هذه البلدان الثائية

وأما نتيجة هذا (النظام) فهي أن ألمانيا سوف تبقى معتمدة في سد حاجاتها الضرورية على استمرار تجارتها الخارجية عبر البحار ولا يلحق ذلك أى أذى بها في وقت السلم ، بينما يزيد في مقدار الصعوبات التي تصادفها في وقت الحرب زيادة كبيرة ، فلا تقدم بسبب هذه الصعوبات المتوقعة على إشعال حرب ثانية .

بيد أنه لا مناص من أن يسفر تطبيق هذا (النظام) عن خفض مستوى المعيشة في ألمانيا . ولسكنه لما كان من المتوقع أن تعنى ألمانيا بالزراعة عناية كبيرة ويرسل العمال الألمان إلى بلادهم دفعات من أجور الخدمة التي يحصلون عليها في الخارج ويسرح الجيش الألماني ويعنى الألمان من نفقات جيوش الاحتلال في بلادهم . فان من شأن ذلك جميعه أن يخفف كثيرا من وطأة هبوط مستوى المعيشة في ألمانيا ولو أنه من الطبيعي أن يظل هذا الهبوط ملحوظا ؛ ومع ذلك فهناك ما يمكن أن يجد فيه الشعب الألماني ما يعوضه شيئا كثيرا عما قد يلقاه من شظف العيش وهو يقينه من أن زعماءه لن يسمح لهم بأن يخذلوا بألمانيا في حرب جديدة وأن يستغلوا مواردها من أجل التسليم مرة ثانية . وقد لا يرضى عن هذه الحال جيل من الألمان

نشأ على الاعتقاد بأن المجلس الجرمانى له وحده حق السيادة على سائر الاجناس . ولكن على العالم أن يواجه أمرين لا ثالث لهما : إما خفض مستوى المعيشة فى ألمانيا وهو أمر لا مفر منه ، وإما الاستهداف لحرب جديدة ولذلك فإنه من خطئ الرأي أن يعارض أحد فيما ينتظر من خفض مستوى المعيشة فى ألمانيا لأسباب إنسانية وكذلك من الخطأ معارضة ذلك بدعوى أن العالم سوف يخسر كثيرا إذا أضحي ثمانون مليوناً من الجرمان يعيشون عيشة غير ريفية إلى حد ما ووجه الخطأ فى مثل هذه الأقوال أن شيئا لا يمكن أن يمدل خطر تعرض العالم لأهوال الحرب مرة ثانية بل إن الاهتمام بصون السلام يجب أن يلغى إلغاء جميع الاعتبارات الأخرى ولا يمكن من غير شك أن ينظر إنسان إلى هذا النظام المقترح على أنه من الحلول المثالية لأنه من المتعذر الحصول على حلول مثالية ولا يعيش البشر فى عالم مثال وكل ما هنالك أن يختار الانسان بين طائفتين من المزايا والافكار ومن شأن تطبيق (النظام الجديد) تطبيقا عكسيا أو بعبارة أخرى العمل (بالنظام الجديد المعكوس) أن يقلل كثيرا من خطر نشوب حرب أخرى بفضل اتباع وسائل قد تبدو شاقة مرهقة إذا قيست بتلك التى أوجدتها معاهدة فرساي ولو أنها من الناحية الانسانية تفوق كثيرا ما كانت تتبعه ألمانيا .

ويتطلب تطبيق هذا (النظام الجديد المعكوس) وضع خطة محكمة لتنظيم الدول وفى كل دولة على حدة . أى أنه ينبغى استخدام العمال الألمان (المجندين) أو (المسخرين) للخدمة فى أوروبا على نحو لا يسبب تعطلا عن العمل فى البلدان التى تستخدمهم ، فمن المعروف أن الحكومة الفرنسية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رفضت أن يقوم العمال الألمان بإعادة بناء المنشآت فى الجهات المخربة فى فرنسا بدعوى أن استخدامهم يضر بمصلحة العمال الفرنسيين وبمصلحة الصناعات الفرنسية وهذا صحيح ولا شك إذا اتبع نظام (الباب المفتوح) الذى لا يقيد الهجرة من بلد إلى آخر ولذلك سوف يجد العمال الفرنسيون ، وتجد الصناعات الفرنسية عند وضع خطة التنظيم المحكم ما يستنفد كل الوقت فى إنتاج السلع والبضائع التى تدعو الحاجة المستمرة إليها لسد المطالب اليومية والعادية ، وينجم عن استخدام العمال الألمان لذلك عدم الحاجة إلى خفض مستوى المعيشة من أجل تيسير العمل فى إعادة بناء الأملاك والمنشآت المخربة وعلاوة على ذلك فإنه بعد أن يتم هذا العمل الإنشائى ينبغى أن يوجد هذا التنظيم مجالا دائما لاستخدام العمال الألمان دون أن يترتب على ذلك تعطيل العمال الوطنيين فى البلدان المختلفة وهناك ما يدعو إلى احتمال زوال الحاجة إل بقاء الرقابة الدائمة على الدول الجرمانية غير البروسية إذ من المحتمل كثيرا أن تستقر الأمور فى هذه الدول فتقتصر عنايتها على النشاط السلمى بينما يدرك أهلها أن فى استطاعتهم وقد نبذوا جانباً أطماعهم فى غزو شعوب

العالم وإخضاعها لسلطانهم أن يبنوا لأنفسهم صرحا من الحياة المظلمة الرضية . بل إنه ليكاد يكون أمرا مفروغا منه أن يؤدي لإحكام رقابة الأمم المنتهضة على روسيا إلى الحد من عجرفة البروسيين وكبر حدة أهلهم الأشعبية ومن المسلم به أن هذه العجرفة والأطماع البروسيانة كانت المسئولة عن ذلك التخريب الذي حدث بأوروبا وتلك الآلام التي ما زالت تقاسمها الإنسانية .

والواقع أنه إذا أدركت روسيا أنه لم يعد في استطاعتها بعد هذه الهزيمة المنسكرة أن تعود إلى التسليح مرة أخرى على نحو ما حدث بين عامي ١٩١٣ ، ١٩١٩ فإن ذلك في حد ذاته قد يخفض كثيرا ذلك الروح الحربي الذي يميز روسيا من غيرها ولا يشجعه وقد يأتي الوقت الذي يمكننا أن نرى فيه الأمة البروسيانة وقد اتخذت مكانها بين مجموعة الأمم الحرة في ظل المساواة الشاملة مساهمة في تلك الجهود التي يجب أن يبذلها الجميع متضامين من أجل رفاهية العالم وسعادة الإنسانية .

تلك حقيقة المشكلات التي يواجهها أقطاب الأمم المنتهضة بعد الحرب الأخيرة وإنا نلتمس أن الله صادقين أن يوفقهم وأن يستهدفوا رفاهية العالم وسعادة الإنسانية وهم يضعون شروط الصالح النهائية .

مصادر البحث

- أ — عن الموقف السياسى فى المانيا وأوروبا قبل ظهور النازية وفى عهدها .
ب — عن المانيا والنازية .
ج — عن النظام الجديد ، والمشكلات التى ترتبت على تطبيقه .
د — عن أوروبا المحتلة ، والمقاومة .
هـ — عن أهداف الديمقراطيات المتحالفة ومشروعات سلام .

(١)

1. Averoff, M. 3 Histoires d'une Resistance. Caire 1942.
2. ———— La Lutte de la Grece, 28 oct 1940—30 Mai. 1941. Paris 1941.
3. Bojanov, B. Avec Staline dans le Kremlin. Paris 1930.
4. Barbusse, H. Staline—Un Homme Nouveau. Paris 1935.
5. Biglaud, E. The Riddle of the Kremlin. London 1940.
6. Birdsall, B. Versailles Twenty Years After. London 1941.
7. Blue Book, The Government—Documents Concerning German—Polish Relations and the Outbreak of Hostilities Between Great Britain and Germany on Sept. 3, 1939. London 1939.
8. Bruce, M. British Foreign Policy. London 1939.
9. Ciano, The Ciano Diaries 1939—1943, New York 1946.
10. Citrine, Sir W. My Finnish Diary. London 1940.
11. Clark. G. N. Holland and the War. Oxford 1941.
12. ———— Belgium and the War. Oxford 1942.
13. Duchess of Atholl. Search Light on Spain. London 1938.
14. Duff, Ch. A Key to Victory : Spain. London 1940.
15. Duff, S. G. Europe and the Czechs. London 1938.
16. Dutt, R. P. World Politics 1918—1936. London 1936.
17. Eastman, M. Stalin's Russia and the Crisis in Socialism. London 1940.
18. Fischer, L. Stalin and Hitler. London 1940.
19. Franzero, C.M. Inside Italy. London 1941.
20. Garrat G. T. Europe's Dance of Death. London 1940.
21. ———— Mussolini's Roman Empire. London 1938.
22. Gilbert, E. W. How the Map of Europe was Changed. 1938—1940 London 1940.
23. Golding, C. From Versailles to Danzing. London 1940.
24. Guinier, J. Inside Europe. London 1936.
25. Johnson, H. The Soviet Power. New York 1940.
26. Jackson J. H. Finland. London 1938.
27. Jerrold, D. Britain and Europe 1900—1940. London 1941.
28. Jones E. The Attack From Within. London 1941.
29. Lévy, L. Vérités Sur La France. London 1941.
30. Lippmann, W. U. S. Foreign Policy. London 1944.
31. Massock, R. G. Italy From Within. London 1943.

32. Melville, C. F. *Balkan Racket*. London 1941.
33. Nicolson, H. *Why Britain is at War*. London 1940.
34. Owen, F. *The Three Dictators*. London 1940.
35. Pares, B. *Russia*. London, 1941.
36. Pentad. *The Remaking of Italy*. London 1941.
37. Price, G. W. *I know These Dictators*. London 1937.
38. Salvemini and La Piana. *What To Do With Italy*. London 1943.
39. S. K. *Agent In Italy*. London 1943.
40. Sturmhthal, A. *The Tragedy of European Labour 1918--1939*. London 1944.
41. Theimer, W. *An A B C of International Affairs*. London 1940.
42. Tissier, Lt. Col. Pierre. *The Government of Vichy*. London 1942.
43. Treves, P. *Italy Yesterday Today and Tomorrow* London 1942.
44. Ullmann, S. de. *the Epic of the Finnish Nation*. London 1944.
45. Volpe, G. *Histoire Du Mouvement Fasciste*. Roma (?)
46. Ward, B. *Italian Foreign Policy*. Oxford 1941.
47. Waterfield, G. *What Happened to France*. London 1941.
48. Weaver, D. *Front Page Europe*. London 1943.
49. Werner, M. *The Battle For The World*. London 1941.
50. Woodward, E. L. *The Origins of War*, Oxford 1941.
51. Zacharoff, L. *"We made a mistake," Hitler*, London 1942.

(۷)

52. Banse, E. *Germany, Prepare for War !* (Trans. Alan Harris) London 1935.
53. Bartlett, V. *Nazi Germany Explained*. London 1933.
54. Borkenau, F. *The New German Empire*. London 1938.
55. (a). Cooper R.W. *The Nuremberg Trial*. London 1947.
55. Brinitzer, C. and Grossband, B. *Germans Versus Huns*. London 1941
56. Dalton, H. *Hitler's War : Before and After*. London 1941.
57. Dodds, E. R. *Minds In The Making*. London 1941.
58. Duncan—Jones, A. S. *The Crooked Cross*. London 1940.
59. Einzig, P. *Bloodless Invasion*. London 1938.
60. Forster, E.M. *Nordic Twilight* London 1940.
61. Fraenkel, N. *The Other Germany* - London 1943
62. ————— *Help Us Germans To Beat The Nazis !* London 1940.
63. Gangulee, N. *The Mind And Face of Nazi Germany*. London 1942.
64. Gibbs, Ph. *European Journey . . .* London 1934.
65. Giles, O.C. *The Gestapo*. Oxford 1940.
66. Gregory, R. *Science in Chains*. London 1942.
67. Heiden, K. *History of National Socialism*. London 1934.
68. ————— *Hitler*. London 1936.
69. ————— *One Man Against Europe*. London 1939.
70. Hitler, A. *My Struggle*. London 1936.
71. Keane, R. *Germany What Next ?* London 1939.
72. Kirpatrick, C. *Nazi Germany. Its Woman And Family Life*. London 1940.
73. Knickerbocker, H.R. *Is Tomorrow Hitler's*. London 1942.
74. Knox, R. *Nazi And Nazarene*. London 1940.
75. Lend, E. *Underground Struggle in Germany*. London 1938.

76. Lichtenberger, H. The Third Reich (Trans. Koppel S. Pinson) London 1938.
77. Lorant, S. I was Hitler's Prisoner. London 1941.
78. Lorimer, E. O. What Hitler Wants. London 1939.
79. Moeller Van Den Bruck. German's Third Empire (Trans. E. O. Lorimer).
London 1934
80. Mower, E. Germany Puts The Clock Back. London 1938.
81. Oliveira, A. R. A People's History of Germany. London 1942.
82. Rauschning, H. Hitler Speaks. London 1934.
83. Read, D. The Burning of the Reichstag. London 1934.
84. ————— Insanity Fair. London 1938.
85. Roberts, S. The House that Hitler Built. London 1938.
86. Schütz, W.W. German Home Front. London 1943.
87. Smith, A. D. Guilty Germans? London 1942.
88. Singleton, D. and Weidenfeld, A. The Goebels Experiment. London 1942.
89. Strasser, O. History In My Time. London 1941.
90. Tabouis, G. Blackmail Or War. London 1938.
91. Thomas, K. Women In Nazi Germany. London 1943.
92. Thyssen, F. I paid Hitler. London 1941.
92. (a) Trevor-rop, H. R. The Last Days Of Hitler. London 1947.
93. Weaver, D. The Diplomacy of the Third Reich. London (?)
94. Wolfe, L. By Order of the Gestapo. London 1942.
95. Zarek, O. German Kultur. London 1943.

(>)

96. Angell, N. You And The Refugee. London 1939.
97. Beales, A.C.F. The Catholic Church And International Order. London 1941.
98. Carr, E.H. Propaganda in International Politics. Oxford 1940.
99. Chakotin, S. The Rape of the Masses. London 1940.
100. Deuel, W. People Under Hitler. London 1942
101. Einzig, P. Hitler's New Order in Europe. London 1941.
102. ————— Europe in Chains. London 1941.
103. Gentile, A-S. Le "Racisme" devant La Science. Caire 1942.
104. Hadham, J. God in a World at War. London 1941.
105. Harsch, J.C. Pattern of Conquest. London 1942.
106. Hosen, M. A Diary of World Affairs. London 1941.
107. Horsefield, J.K. The Real Cost of the War. London 1941.
108. Huxley, J. Argument of Blood. London 1941.
109. Kuczynski, R. R. "Living-Space". Oxford 1940.
110. Laffite, F. The Internment of Aliens. London 1940.
111. Miller, D. You Can't Do Business with Hitler. London 1942.
112. Parkes, J. The Jewish Question. Oxford 1940.
113. ————— An Enemy of the People : Antisemitism. London 1945.
114. Rauschning, H. Hitler wants the World! London 1941.
115. Reveille, Th. The Spoil of Europe. London 1942.
116. Ruppin, A. The Jewish Fate and Future. London 1940.
117. Samuel, M. The Great Hatred. London 1943.
118. Simpson, J. H. The Refugee Question. London 1939.
119. Slater, H. Home Guard for Victory. London 1941.

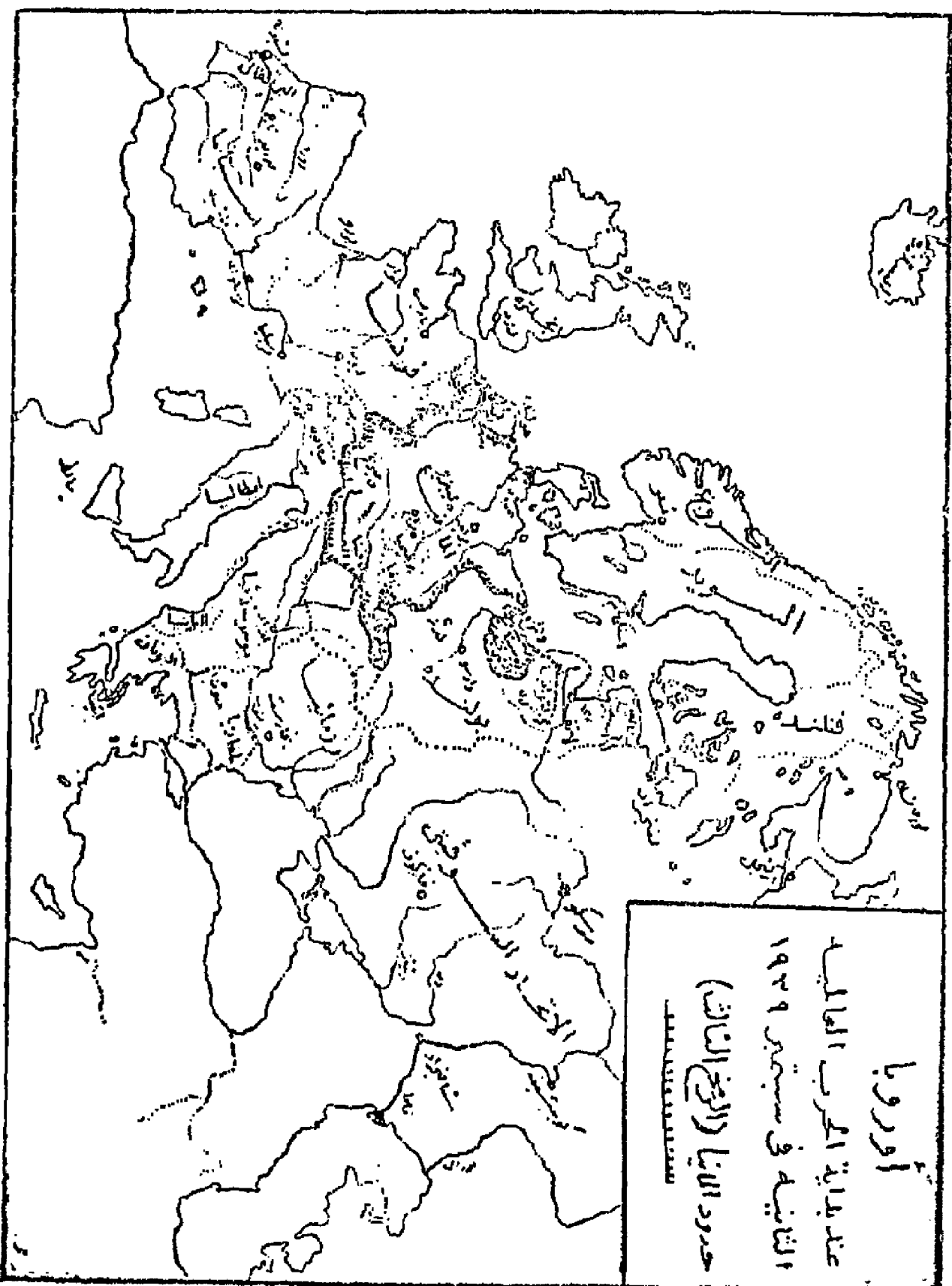
120. Thomas, J. *Warfare by Words*. London 1942.
121. Wilson, D. *Germany's 'New Order'*. Oxford 1941.

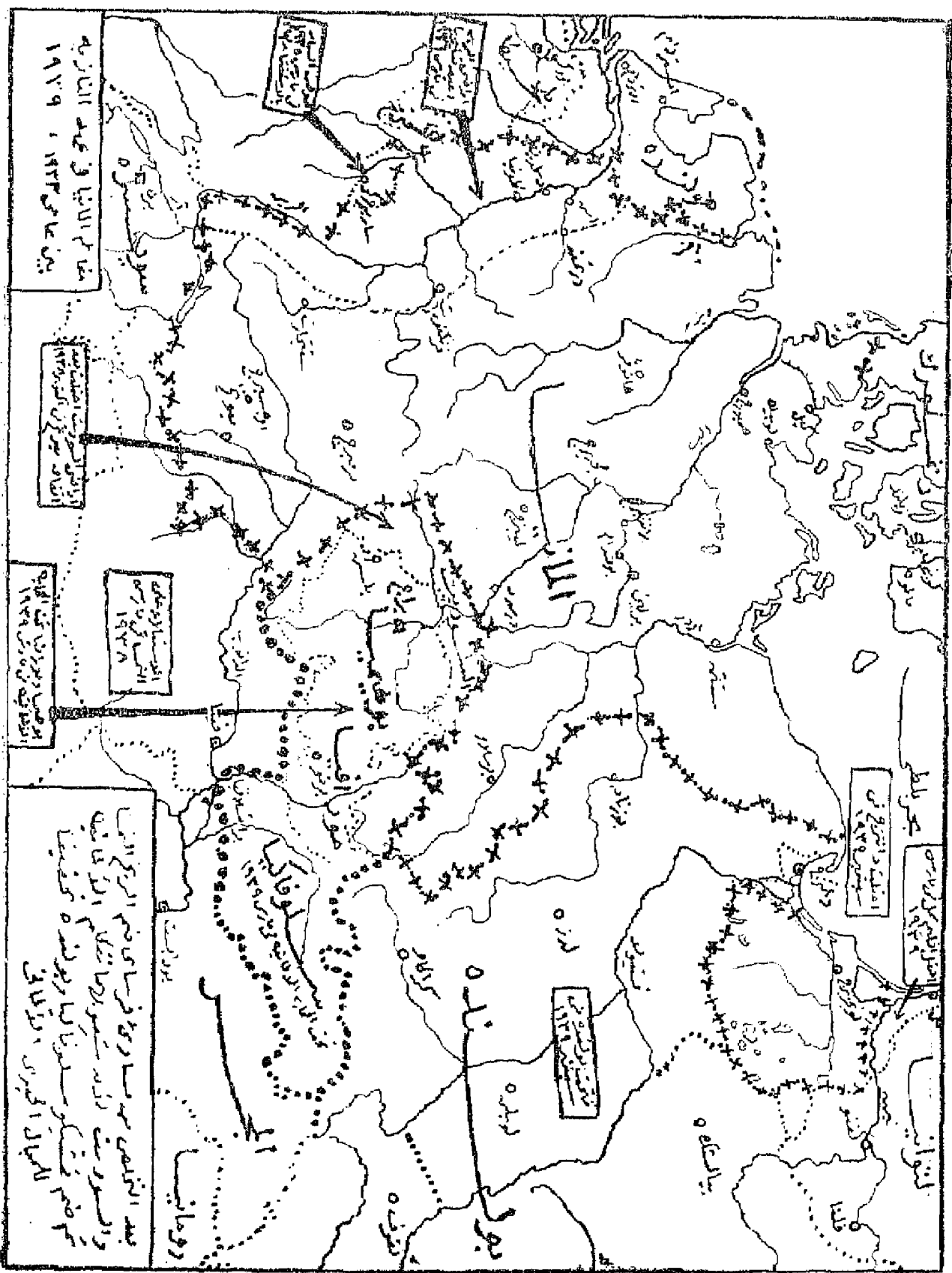
(५)

122. Amyntor. *Victors in Chains-Greek Resistance 1942—3*. London 1943.
123. Anonymous. *"All Gaul is Divided."* *Letters From Occupied France*. London. 1941.
124. Brome, V. *Europe's Free-Press*. London 1943.
125. De Jong, L. *Holland fights the Nazis*. London 1941.
126. Duff, S. G. *A German Protectorate. The Czechs under Nazi Rule*. London 1942.
127. Dutch, O. *Pall over Europe*. London 1942.
128. *Europe Under Hitler. In Prospect and in Practice*. [Roy. Inst. of Inter. Affairs]. Oxford 1941.
129. Feuchtwanger, L. *The Devil in France*. London 1943.
130. Gathorne-Hardy, G. M. *Norway and the War*. London 1941.
131. Gudme, S. *Denmark : Hitler's 'Model Protectorate'*. London 1942.
132. Hasek, J. *The Good Soldier Schweik*. London. 1940.
133. Kernan, Th. *Report on France*. London 1942.
134. Kraus, R. *Europe in Revolt*. London 1943.
135. Mackworth, C. *Czechoslovakia Fights Back*. London 1942.
136. 'Michael'. *France Still Lives*. London 1942.
137. Motz, R. *Belgium Unvanquished*. London 1942.
138. Myklebost, T. *They Came as Friends. (Nazi-Occupied Norway)*. London 1943.
139. Palmer, P. *Denmark in Nazi Chains*. London 1942.
140. Polish Doctor-A. *I saw Poland Suffer*. London 1941.
141. Pruszyński, K. *Poland Fights Back*. London 1941.
142. Simon, V. *The Gestapo at work in Norway. (Forward By..)*. London 1942.
143. Tayler, E. L. *The Strategy of Terror*. New York. 1940.
144. Segal, S. *Nazi Rule in Poland*. London 1943.
145. Sudjic, N. J. *Yugoslavia in Arms*. London 1942.
146. Volterkis, A. *In Gestapo Service*. Cairo 1944.
147. Woodman, D. *Europe Rises*. London 1943.
148. Worm-Müller, J. C. *Norway Revolts against the Nazis*. London 1941.

(६)

149. Acland, R. *Uuser Kampf. (Our Struggle)*. London 1949.
150. *America Looks to the Future. (Four Speeches by American Statesmen)*. Oxford 1942.
151. Angell, N. *The Great Illusion Now*. London 1939.
152. ————— *Why Freedom Matters*. London 1940.
153. Brailsford, H. N. *America our Ally*. London 1940.
154. Dallin, D. J. *Russia and Postwar Europe*. New Haven 1943.
155. Einzig, P. *Appeasement Before, During, and After the War*. London 1941.
156. Evans, R. *Prelude to Peace*. London 1943.
157. Glover, E. *The Psychology of Fear and Courage*. London 1941.
158. Goodhart, A. *Ouels Actes De Guerre Sont Justifiables ?* Oxford 1941.
159. Hancock, W. K. *Argument of Empire*. London 1943.
160. ————— *Empire in the Changing world*. London 1944.
161. Joad, C. E. M. *what is at stake, and why not say so ?* London 1940.
162. Laski, H. J. *Where do we go from here ?* London 1941.
163. Milne, A. A. *War with Honour*. London 1940.
164. Wells, H. G. *The Common Sense of war and Peace*. London 1940.



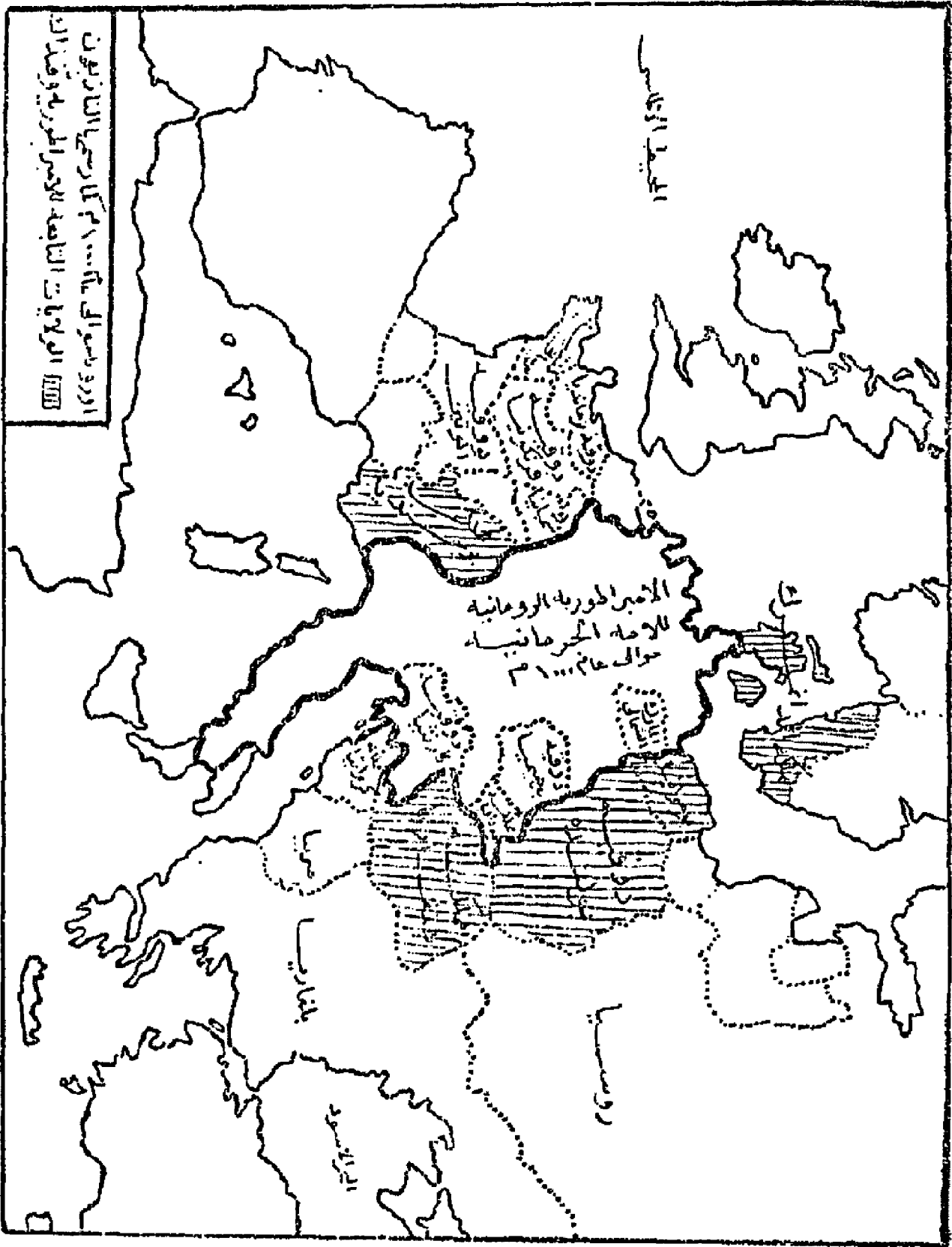


بعد از انقلاب محمد مصدق و فرستادن نفت به خارج از کشور
و استعفاء دولت از دست سید مصدق و استعفاء دولت شاهنشاهی
همه هم به دست سید مصدق و فرستادن نفت به خارج از کشور
المهاجران و المجرورین و المظلومین

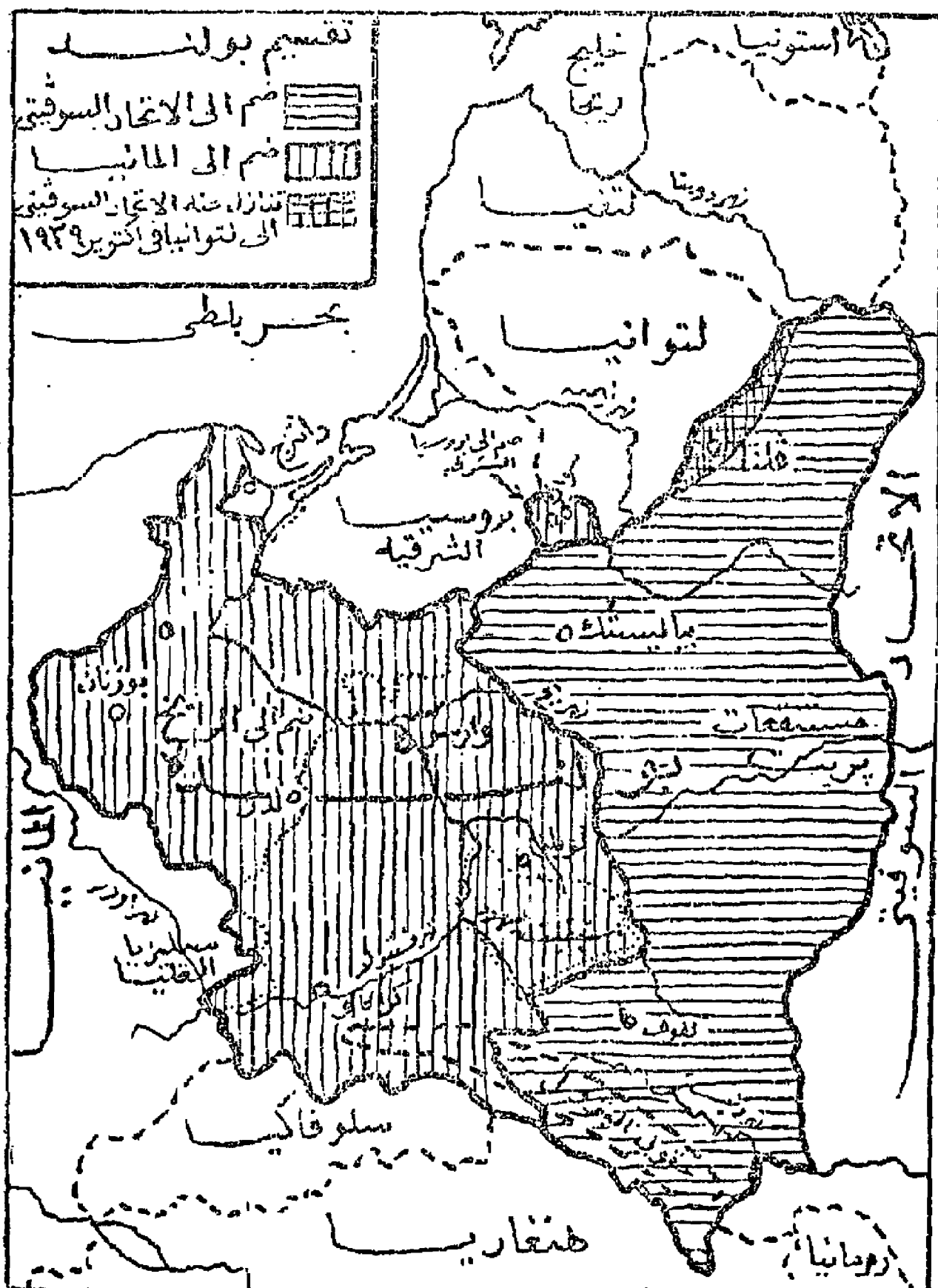
انقلاب و سرنگونی پادشاهی
۱۳۲۸
انقلاب و سرنگونی پادشاهی
۱۳۲۹

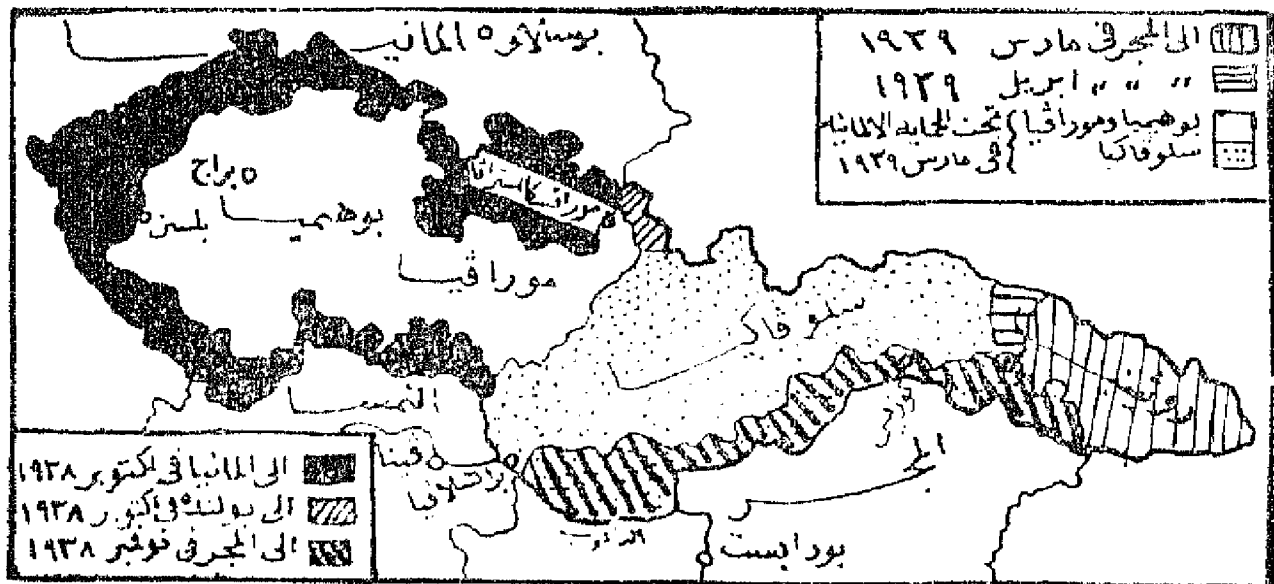
انقلاب و سرنگونی پادشاهی
۱۳۲۹

مهاجران و المجرورین و المظلومین
۱۳۲۹



الارد وسوا الى مائة ١٠٠٠٠ كم كما رسمها التاريخيون
الولايات التابعة للامبراطورية وقسمها الى





تقسيم تشيكوسلوفاكيا

خريطة فرنسا في يونيو سنة ١٩٤٠

